دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تاريخ
الخلافة الأموية والعباسية

والدول الاسلامية، والعصور الوسطى في اوربا

كتاب بحث في الخلافة الاموية في الشرق والاندلس والخلافة العباسية والفاطمية والدويلات المستقلة . وفي (الحروب) الصليبية والمماليك وبحالة اوربا في القرون الوسطى

تأليف

رفيق المهايني

ماجستر في الآداب

مطبعة دار اليقظة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا كتاب موجز عن « تاريخ الخلافة الاموية ، والعباسية ، وبعض الدويلات المستقلة ، وعن الخلافة الفاطمية والصليبيين والمماليك ، والامويين في بلاد الاندلس ، وخلاصة تاريخ اوربا في العصور الوسطى . »

وضعته لمساعدة الطلاب على فهم تاريخ الأمة العربية في أدق أدوار حياتها وأعقدها . وكان هدفي الايضاح ، والتنظيم والتسهيل جهد المستطاع ، لذلك وضعت خطوطاً تحت بعض الاقسام الهامة ليميزها القارىء عن غيرها . كما استعنت بكثير من مقتطفات المؤرخين القدماء والمحدثين ، ليطلع الطلاب على عبارات هامة وآراء جيدة في الموضوع ، وليست الغاية منها الحفظ وانما المراد قراءتها في أثناء الدرس . ووضعت هوامش للقراءة ايضاً لشرح بعض النواحي الغامضة او لايراد بعض النقاط التي أهملها البرنامج والتي يحسن ذكرها حفظاً للتسلسل التاريخي . ووضعت بعض المصورات ليهتدي بها الطلاب لمواضع المدن والدويلات والاقاليم . وصدرت كل بحث بلائحة لأسماء الخلفاء ، أو الامراء ، أو السلاطين ليعرف الطلاب نسب كل شخص وزمن حكمه ، وأرجو إخواني الزملاء الاهتمام بتدريس هذه اللوائح ليعطوا الطلاب فكرة عامة للبحث قبل تدريسه .

وبعد ان كتبت فصولا عن حضارة كل قسم من أبحاث الكتاب اضطررت لحذفها نظراً لتأجيل البرنامج لبحث الحضارة للصف الرابع ، وكان الاولى دراسة حضاره كل دولة مع تاريخها السياسي ليتعرف الطلاب على ماقام به رجال هذه الدول في عمل الحضارة .

واني اشكر الاستاذ الشيخ زين الدين العابدين لفضله بمراجعة هذا الكتاب ، كما اشكر بعض تلامذتي الذين ساعدوا في رسم المصورات ، وأشكر مقدماً كل زميل كريم يعرفني عن ملاحظاته عن هذا الكتاب والسلام .

دمشق في تشرين اول سنة ١٩٤٦

رفيق المرايني

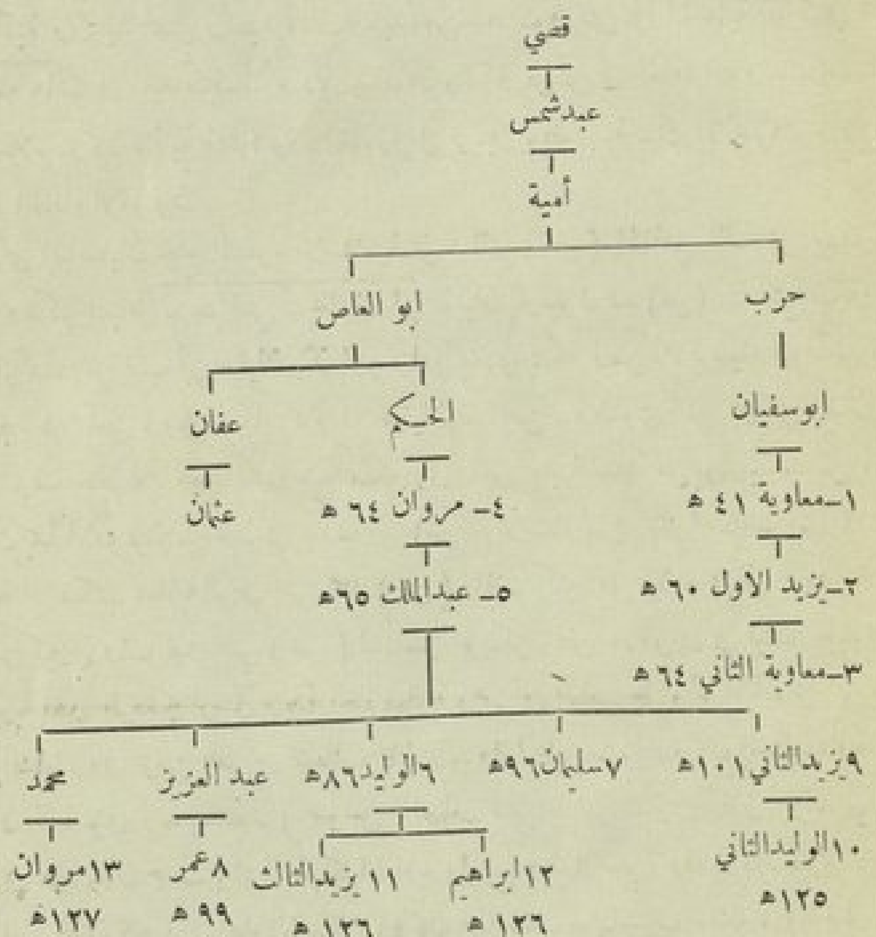
الإهداء

لكل عربي مخلص لعروبته، ويعمل على تحقيق وحدة البلاد العربية

القسم الاول

الخلافة الاموية

السلالة الاموية



الباب الاول

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف . وكانا يتنافسان رئاسة قريش في الجاهلية ، واستمرت المنافسة بينها في الاسلام . وكان لأمية عشرة اولاد انقسموا الى فرعين . العنابسة - أي الأسود - والاعياص . ومنها تفرع الخلفاء الامويون .

ولما رأى ابو سفيان نجاح الدعوة الاسلامية على يد النبي (ص) الهاشمي خاف على مكانة بيته الأموي . وذكر العباس - عم النبي - مخاوف ابي سفيان للرسول محمد (ص) عند فتح مكة ، وبلغه اسلامه ، فتألف النبي قلب أبي سفيان بأن امر منادياً ينادي بمكة « من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن . » فسوى النبي بين ابي سفيان وبيت الله وهذا شرف عظيم له . وبعد انتهاء فتح مكة ولى النبي عليها شاباً من بني عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت بدأ الامويون يدخلون في خدمة النبي (ص) والاسلام ليسترجعوا مكانتهم التي كانت لهم في الجاهلية . فكتب معاوية الوحي للنبي محمد (ص) وانضم كثير من الامويين في جيش الاسلام لمحاربة المشركين . ولما توفي النبي (ص) استعمل ابوبكر بعض الامويين في قيادة الجيوش التي أرسلها لمحاربة اهل الردة كما ارسل يزيد واخاه معاوية وعمرو بن العاص على رأس الجيوش التي ذهبت لفتح بلاد الشام . وفي زمن عمر بن الخطاب كان يزيد والياً على دمشق ، وكان اخوه معاوية عاملاً على الأردن فلما توفي يزيد بطاعون (عمواس) اضاف الخليفة عمر الفاروق عمل يزيد الى اخيه معاوية . وفي عهد عثمان جمعت بلاد الشام كلها لمعاوية واصبح واليها العام . وقد ازداد نفوذ الامويين كثيراً في زمن عثمان لانه قرب اهله الامويين ، وكان هذا سبب من اسباب مقتله . ولما تولى الامام علي الخلافة قامت المنازعات بينه وبين معاوية . فاستطاع معاوية بدهائه وسياسته ان يأخذ الخلافة لنفسه ولأسرته من بعده .

وسأعرض تاريخ الدولة الاموية التي استمر حكمها من سنة ٤١ هجرية الى سنة ١٣٢ هجرية او من سنة ٦٦٢ ميلادية الى سنة ٧٥٢ ميلادية اي مايقارب الاحدى والتسعين سنة بحسب تاريخ خلفائها.

١ – معاوية بن ابي سفيان

٤٠ – ٦٠ هـ او ٦٦٠ – ٦٨٠ م

ولد معاوية بمكة واسلم يوم فتحها ، وأبوه أبو سفيان وامه هند. وكان بعد اسلامه كاتب الوحي عند رسول الله (ص) ، وغزا الشام تحت امرة أخيه يزيد واصبح والياً للشام في زمن عثمان . ولما استشهد الخليفة عثمان وبويع الامام علي بالخلافة في المدينة امتنع معاوية عن مبايعته ، واتهمه بالهوادة تجاه قتلة عثمان وايوائهم بجيشه . وبايع اهل الشام معاوية على المطالبة بدم عثمان ، وتحارب الطرفان في صفين وكادت الغلبة تكون لجيش علي ، الا ان عمرو بن العاص انقذ الموقف بطلب التحكيم ، فلما اجتمع الحكمان وفشل امر التحكيم بايع اهل الشام معاوية بالخلافة ، وبايع اهل العراق علياً خليفة عليهم، وما زال الخلاف محتدما بينهما حتى قتل علي بن ابي طالب ، وسلم ابنه الحسن الخلافة الى معاوية عند ما يئس من نصرة اهل العراق له ورأى ان لاقبل له بمعاوية وجنده . فاجتمع اهل العراق والشام على بيعة معاوية وبدأ بتنظيم امور الدولة .

سياسة معاوية الداخلية :

تولى معاوية أمر الامة وهي ثلاثة اقسام : القسم الاول شيعة بني امية من اهل الشام ومن غيرهم في سائر الامصار الاسلامية . القسم الثاني شيعة علي بن ابي طالب وهم الذين كانوا يحبونه ويرون انه احق بالأمر من معاوية وغيره، وان اعقابه احق بولاية امر المسلمين من غيرهم ومعظم هؤلاء من الشيعة يسكنون بلاد العراق وقليل منهم بمصر . القسم الثالث الخوارج (١) وهم اعداء الفريقين يستحلون

---

(١) فرقة الخوارج هي اقدم الفرق الاسلامية خرج اصحابها على الامام علي في معركة صفين ، وانقسموا الى فرق عديدة. اهمها فرقة الازارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والميمونية ، والشيبانية ، والشبيبية ، والبيهسية ، والاباضية ... وغيرها من الفرق الكثيرة التي تشتمل على الاكثر باسماء مؤسسيها وتشترك هذه الفرق ببعض القضايا وتختلف بالبعض الآخر . اما القضايا التي اشتركت فيها فهي : اولاً مسألة الامامة ، وانها حق مشاع لجميع المسلمين دون تفريق في الجنس او القبيلة وانما تكون للاصلح من المسلمين . ثانياً تكفير علي وعثمان واصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم او صوب الحكمين او احدهما . ثالثاً الخروج على الامام الجائر . رابعاً تكفير اصحاب الكبائر ... (نقلاً من بحث عن فرق الخوارج للمؤلف)

دماء مخالفيهم ويرونهم مارقين من الدين . فكان على معاوية ان يسوس هذه الاحزاب المختلفة ويخضع الثائر منها لسلطته فاتبع سياسة الحزم وولى الامصار رجالاً عرفوا بالدهاء والمقدرة . وسأتكلم عن اعماله في كل قطر على حدة .

اولاً في العراق :

كان العراق مركزاً لحركتين خطيرتين تثيران الشغب على معاوية وترميان لتهديم الدولة الاموية وهما حركة الخوارج والشيعة . وقد قلق معاوية من الخوارج لأنهم قوم قلما ينفع معهم حسن السياسة. فقد غالوا في الدين غلواً عظيماً ، وفهموا كثيراً منه على غير وجهه، وكانوا شجعاناً وابطالاً ، ومخلصين لمبادئهم ، واذكر حادثة واحدة فقط جرت لهم في منازعاتهم مع معاوية لأبين شجاعتهم واظهر تدينهم .

تولى امر الخوارج حوثرة الأسدي ،فقال معاوية لابي حوثرة: « اكفني امر ابنك » فذهب اليه ابوه فدعاه الى الرجوع فأبى فقال له يابني : « أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه » فقال «يأبت انا والله الى طعنة نافذة اتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني الى ابني » فرجع الى معاوية فأخبره فقال : « ياأباحوثرة عتا هذا جداً » وامر بحربه . وعند المبارزة خرج اليه ابوه ودعاه الى البراز فقال « يأبت لك في غيري مندوحة ، ولي في غيرك مذهب عنك » ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكرر على هذي الجموع حوثرة   فعن قليل ما تنال المغفرة

فحمل عليه رجل من طيء فقتله فرأى أثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله .

ثم توالت اعمال الخوارج وثوراتهم حتى أخافوا بلاد العراق ، فرأى معاوية ان لابد من تولية العراق رجالاً ذوي مقدرة وحكمة يأخذون على ايدي السفهاء ويشتدون في طلب المريب . فاختار رجلين كلاهما عرف بالسياسة وحسن الرأي وهما : المغيرة بن شعبة .وزياد بن ابيه .

اما المغيرة : فهو ثقفي الأصل من دهاة العرب ، اشترك في معركة اليرموك واصيب بعينه،وتولى البصرة ثم الكوفة في خلافة عمر ، وعزله عثمان وعينه معاوية والياً على الكوفة ، فظهر ليناً في معاملة الشيعة والخوارج وبقي والياً حتى سنة وفاته (٥١) هـ .

اما زياد بن ابيه : فقد كان من دهاة العرب وهو ابن جارية تدعى سمية، كانت تعيش في الطائف. واما ابوه فمشكوك فيه ويقال انه ابو سفيان . وقد قيل فيه : « لو كان ابو هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه » . وهو من اتباع علي وكان والياً له على فارس ، ولما قتل علي حمل معاوية المغيرة بن شعبة وسيطاً في استمالته واستقدامه اليه . فأتى المغيرة زياداً وقال له : « ان معاوية استخفه الوجل حتى بعثني اليك ولم يكن احد يمد يده الى الخلافة الا الحسن وقد بايع معاوية فخذ لنفسك

قبل التوطين فيستغني عنك معاوية » فقال زياد : « اشر علي وارم الغرض الأقصى فان المستشار مؤتمن » . فقال له المغيرة : « ارى ان تصل حبلك بحبله وتشخص اليه ويقضي الله » . وكتب اليه معاوية بالامان بعد عودة المغيرة فاتى اليه وعفا عنه وولاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٤ هـ . فقدم البصرة وخطبهم خطبته الشهيرة بالبتراء . وانما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها . وقد ذكر فيها حالة الفساد والفوضى التي وصلوا اليها . وبين سياسته التي سيتبعها في معاملتهم وهي : « لين في غير ضعف وشدة في غير عنف » . ومنع الناس من الخروج في الليل . وكانت شرطته تجول في الاسواق فمن وجدته خارج بيته قتلته . وفي ذات ليلة امسك رئيس الشرطة اعرابياً خرج ليلا يفتش عن بقرته فساقه الى زياد فقال له : « هل سمعت النداء؟ » فقال : « لا والله لا علم لي بما كان من الامير » فقال زياد : « أظنك صادقا ولكن في قتلك صلاح الامة » فامر بضرب عنقه . فخاف الناس واليهم الجديد خوفاً شديداً حتى امن بعضهم بعضا ، فكان الشيء يسقط من يد الرجل او المرأة فلا يأخذه احد حتى يأتيه صاحبه ، وصار الرجل لا يغلق باب داره ، وبلغ عدد شرطة زياد اربعة آلاف رجل .

وبعد وفاة المغيرة بن شعبة اضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة ، فصار والي المصرين معاً وهو اول من جمعا له . فسار الى الكوفة ودخل الجامع ليخطب بالناس فحصبه بعضهم وهو على المنبر فجلس حتى امسكوا ، ثم دعا قوماً من خاصته فاخذوا ابواب المسجد ودعا من كان فيه اربعة اربعة يحلفون ما منا حصبك فمن حلف خلاه ، ومن لم يحلف حبسه حتى صار الى ثلاثين امتنعوا عن الحلف فامر بقطع ايديهم . وكان يقيم بالبصرة ستة اشهر وبالكوفة مثلها . وقد تمكن من تهدئة الحالة ونشر الامن ، ومعاقبة الثائرين من الخوارج والشيعة ؛ وقبض على حجر بن عدي الكندي وارسله مع اعوانه لمعاوية ، فامر بقتله وبعض اصحابه من شيعة علي . وقد توسطت عائشة بخلاصه الا ان الحكم قد نفذ به . وقد رثت هند بنت زيد الانصارية حجراً وكانت تتشيع بقولها :

ترفع ايها القمر المنير	تبصر هل ترى حجراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير
واصبحت البلاد له محولاً	كأن لم يحيها مزن مطير
الا ياحجر حجر بني عدي	تلقتك السلامة والسرور
اخاف عليك ما اردى عدياً	وشيخاً في دمشق لها زئير
فان تهلك فكل زعيم قوم	من الدنيا الى هلك يصير

وقد وجه زياد اهل العراق الى فتح بلاد المشرق ليصرفهم عن الفتن الداخلية ، فخضعت لسلطانه

الولايات من نهر الفرات الى نهر جيحون ، وبهذه السياسة التي اتبعها هدأت البلاد وساد الامن فيها. وتوفي زياد سنة ٥٣ هـ بالطاعون . وخلفه في ولاية الكوفة عبد الله بن خالد ثم النعمان بن بشير الانصاري . اما في ولاية البصرة فخلفه ابنه عبيد الله وقد اشتد على الخوارج وقتل جماعة كثيرة منهم ونكّل بعروة بن مرداس وامر بقطع يديه ورجليه وسأله كيف ؟ قل : واری انك افسدت دنياي وافسدت آخرتك ، فقتله وأمر بقتل ابنته ايضاً ثار اخوه مرادس بالاهواز وخرج بأربعين رجلاً ، فبعث اليهم زياد جيشاً عدته الفان ، وعليهم ابن حصن التميمي فهزمه الخوارج فقال شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم	ويقتلكم بآسك اربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم	ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم	على الفئة الكثيرة ينصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفي معاوية .

ثانياً مصر :

ان لمصر اهمية عظيمة نظراً لقربها من بلاد الشام ولموقعها الجغرافي والحربي والاقتصادي . لذلك ترك معاوية ولايتها لداهية العرب عمرو بن العاص فاتحها واعرف الناس بها ، وهو الذي قدم اعظم الخدمات لمعاوية باشارته عليه برفع المصاحف في معركة صفين وخدعته لابي موسى الأشعري وقت التحكيم ، وبقي عمرو والياً على مصر حتى سنة وفاته ٤٢ للهجرة . ثم خلفه ابنه من بعده .

ثالثاً الحجاز :

أهتم معاوية كثيراً بأمر الحجاز فكان ولاته دائماً من بني أمية ، وانفق عليه اموالا كثيراً في سبيل مشاريع الري ، واستمالة زعمائه اليه . فجعل معاوية هذا القطر برخاء ورفاهية ليشغل اهله عن المطالبة بالخلافة ، وقد نجح معاوية بهذه السياسة طول حياته وجعل الحجاز ندوة الادب والطرب . وتتابع على ولاية الحجاز في زمن معاوية ولاة كثيرون وكان عند وفاته الوليد بن عتبه بن ابي سفيان والياً على المدينة ويحيى بن حكيم بن صفوان بن امية والياً على مكة .

رابعاً الشام :

جعل معاوية بلاد الشام مركز حكمه ، وجعل دمشق قلب الدولة النابض عاصمة لخلافته ، واتخذ اهلها بطانته واعوانه ، ليساعدوه في حكم البلاد وادارتها . وقد كان اهل الشام سابقاً تحت حكم البيزنطيين فاكتسبوا لذلك شيئاً من التنظيم والخضوع ، وعرفوا طرق الحرب والادارة . وجعل

معاويةُ من القبائل العربية النازلة بارض الشام نواة جيشه ، وصاهر بعض هذه القبائل ليرتبط معها بلحمه ودمه وقد بقيت بلاد الشام مخلصة له وللامويين من بعده .

وقد نجح معاوية بادارة الدولة الداخلية نجاحاً عظيماً نظراً لحسن سياسته ، وبعد نظره وصبره ، وحزمه ، ومعرفته بخفايا الامور ، وتقريبه لرؤساء العرب من قيسيين ويمانيين وبذله الاموال لأشراف المسلمين من ابناء الانصار والمهاجرين واختياره احسن الولاة القادرين على العمل والادارة: كعمرو ابن العاص والمغيرة بن شعبة ، وزياد بن ابية ، وقد حصر الدهاء فيهم فقد قيل : « الدهاة اربعة معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة » وقيل عنهم ايضاً « ما رأيت اثقل حلماً ولا أطول اناة من معاوية ، ولا رأيت اغلب للرجال ولا ابذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا اشبه سراً بعلانية من زياد ، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية ابواب لا يخرج من باب منها الا بالمكر لخرج من ابوابها كلها . » والحقيقة ان نجاح معاوية في حكمه يعود لحسن سياسته وحلمه وبذله فهو « مربي دول ، وسائس امم ، وراعي ملك . » وذكر ابن عبد ربه في عقده ان معاوية قال : « لو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ابداً ، اذا مدوها شددتها وان شدوها أرخيتها » .

سياسة معاوية الخارجية

انصرف معاوية في ابتداء حكمه لتهدئة الحالة الداخلية ، والقضاء على الثائرين او تطييب خواطرهم ، وبعد ان ثبت ملكه في الداخل وجه نظره للفتح والتوسع في الخارج وكان هناك ثلاث جبهات يعمل بها :

اولاً جبهة الشمال :

كانت بلاد الروم قوية في زمن معاوية يحكمها ملكان احدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤١ الى سنة ٦٦٨ . والآخر قسطنطين الرابع الذي ولي من سنة ٦٦٨ – ٦٨٥ م . وقد استفاد البيزنطيون من الفوضى الناشبة في بلاد العرب ليوسعوا حدودهم الجنوبية ، فسلطوا قبائل (البردى) التي كانت تسكن في جبال كليكيا وآسيا الصغرى على المناطق الجبلية في بلاد الشام لذلك عقد معاوية معاهدة مع البيزنطيين ليرفعوا اذى هذه الاقوام عن بلاده مقابل مبلغ من المال يدفعه سنويا لهم . ولم يلبث معاوية عند ما استقر له الامر في داخل بلاده ان حارب البيزنطيين بحراً وبراً :

منذ ان فتحت بلاد الشام ومعاوية يتوق لغزو الروم في البحر ، وقد منعه الخليفة عمر بن الخطاب من ذلك خوفا على المسلمين من الغرق في البحر ، فلما ولي عثمان الخلافة استأذنه الغزو في البحر ، ولم

يزل يلح عليه حتى اذن له بشرط ان لا يكره احداً من المسلمين على النزول في البحر وان يصحب معه زوجته : وفي آخر خلافة عثمان سنة ٣٤ هـ حدثت غزوة الصواري التي انتصر فيها الاسطول العربي على الاسطول البيزنطي وطرده من شرق البحر الابيض المتوسط. وتدرب معاوية الغزو في البحر صائفة وشاتية كما هي الحالة في البر . واعظم عمل حربي حدث في زمن معاوية في هذه الجبهة هو حصار القسطنطينية سنة ٤٩ هـ . فقد جهز معاوية اسطولاً مؤلفاً من ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعُدد ، وجيشاً برياً عظيماً بقيادة سفيان بن عوف وامرة يزيد بن معاوية ، وكان في هذا الجيش خيرة رجال العرب : كابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابي ايوب الانصاري ؛ وعبد العزيز ابن زرارة الكلابي . فحاصر المسلمون اسوار القسطنطينية من ناحية البر والاسطول من ناحية البحر ، ولم تمكن المسلمون من فتحها نظراً لمتانة اسوارها ومنعة موقعها وفتك النار اليونانية (١) بسفن المسلمين . وقد استشهد اثناء هذا الحصار ابو ايوب الانصاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي الذي رثاه ابوه عندما بلغه مقتله بقوله :

فان يكن الموت اودى به ... واصبح مخ الكلابي زيراً
فكل فتى شارب كأسه ... فاما صغيراً واما كبيراً

ولا يزال قبر ابي ايوب بجوار مدينة القسطنطينية يُزار حتى الآن ، وعليه مسجد كان الخلفاء العثمانيون يتوجون فيه . وانسحب الجيش العربي مع ولي العهد يزيد الى الشام بعد ان فقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم .

وقد قام الاسطول في زمن معاوية بفتوحات عظيمة في البحر منها : فتح جزيرة قبرص ، ورودس وبعض الجزر اليونانية .

ثانياً جبهة المشرق :

لم يتوسع المسلمون في جبهة المشرق كثيراً في زمن معاوية ، الا انهم ارجعوا الناكثين من اهل

---

١ — النار اليونانية : هي نار اخترعها رجل سوري من اهالي بعلبك واسمه (كالينوس) اهتدى لمعرفتها واخبر سرها للبيزنطيين عند حصار العرب للقسطنطينية . وقد تمكن العرب فيما بعد من معرفة سر هذه النار وهي تتركب من مواد محرقة يذكرها بن منكلي في كتابه بأنها « تخذ من شحم كلاب البحر ، والزفت ، والكبريت ، والراتنج . . . وغيرها على مقادير يحددها في كتابه فتشتعل وتظل يومها وليلتها لا تنطفيء » ، ومن خصائص هذه النار انها تشتعل في الماء ولا تنطفيء الا بالتراب الندي او الرمل ... (نقلاً من بحث عن الاسطول العربي للمؤلف)

تلك البلاد الى الطاعة ، وغزا المهلب بن ابي صفرة ثغر السند ووادي الهندوس المنخفض ، وقام العرب ببعض الفتوحات في جهة الافغان الشرقية .

ثالثاً جبهة المغرب :

بعد ان فتح عمرو بن العاص مصر وجه اهتمامه لتوطيد حدودها الغربية ، فسار بجنده جهة الغرب واستولى على برقة وصالح اهلها على الجزية ، واصبحت مركزاً للعرب يوجهون حملاتهم منها الى الغرب . وكان شمال افريقية يسكنه قوم من البربر يخضع القسم الساحلي منه لحكم البيزنطيين . وكان على الشوطئ الممتدة من قرطاجة الى طنجة حاكم يدعى : (غريغوريوس) او (جرجير) كما يدعوه العرب . فحاربه المسلمون وانتصروا عليه ، وتعهد الروم ان يدفعوا للعرب جزية في كل سنة . ولما ولي معاوية الخلافة وجه اهتمامه لافريقية ، فارسل سنة (٥٠) للهجرة عقبة بن نافع . فطبع عقبة تلك الجهات بطابعه الخاص ، واصبح مقدساً عند اهلها ،ولا يزال حتى الآن يدعى « بسيدي عقبة ». واختط مدينة القيروان بجنوب تونس ، وجعلها قاعدة لعسكره ، ومركزاً يوجه ضرباته منها للروم والبربر وتوغل داخل البلاد الى الجنوب ، واستولى على اماكن البربر ومعاقلهم مثل (ودّان) و (فزّان) واشتد في معاملة البربر ، فكان يجدع أنوف رؤسائهم او يقطع آذان مشايخهم ويقول لهم :

«هذا ادباً لك حتى تتذكر ان لا تحارب العرب » وسبب هذه الشدة يعود لكثرة تقلب اولئك البربر ، فاذا دخل عليهم امير اطاعوا واظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد الامير عنهم نكثوا وارتد من اسلم . الا ان هذه الشدة سببت عزل عقبة عن ولاية المغرب وتولية ابي المهاجر دينار بدلا منه.

البيعة ليزيد

ان المغيرة بن شعبة هو اول من اشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، ليثبت مركزه بالكوفة بعد ان علم ان معاوية عازم على عزله . فبين ليزيد ارجحيته بولاية العهد بعد ابيه ، لاسيما وان اصحاب النبي من كبراء قريش قد ماتوا ، فاخبر يزيد أباه برأي المغيرة فاستدعاه معاوية وسأله عن الخبر فقال :« قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد منك خلف فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » قال ومن لي بذلك ؟ قال : أ كفيك اهل الكوفة ويكفيك زياد اهل البصرة وليس بعد هذين المصرين احد يخالفك . » بقي المغيرة على ولاية الكوفة يدعو ليزيد وجاء اقتراحه موافقاً لما في نفس معاوية ، وارسل الى زياد ابن ابيه عامله على البصرة يستشيره بالامر فاشار عليه بالتريث لعدم توفر شروط الخلافة في يزيد « لتهاونه وولعه بالصيد » . الا ان زياداً قدم على يزيد ونصحه فكف عن كثير مما كان

يصنع . وكتب معاوية لمروان بن الحكم امير المدينة يطلعه على جوهر الفكرة وهي اختيار خليفة للمسلمين من بعده ويسأله رأي اهل المدينة بذلك فاستحسنوا الفكرة كثيراً ، الا ان ثورة الغضب اشتعلت في نفوسهم عند ما علموا انه سيستخلف ابنه يزيد . فقام عبد الرحمن بن ابي بكر وقال « ما الخيار أردتم لامة محمد ، ولكنكم تريدون ان تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل» وانكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فكتب مروان الى معاوية يخبره بذلك .

ثم دعا معاوية وفود البلاد فأتته الى العاصمة فجمع زعماء القوم في قصره ودخل عليهم وجلس على عرشه ويزيد عن يمينه والضحاك بن قيس الفهري عن يساره . فتكلم معاوية فعظم امر الاسلام وحرمة الخلافة وحقها وما امر الله به من طاعة ولاة الامر ، ثم ذكر يزيداً وفضله وعلمه بالسياسة وعرض بيعته . فقام الضحاك وكان معاوية قد اتفق معه قبل الحضور الى المجلس ان يتكلم - فذكر ضرورة وجود ولي عهد بعد معاوية يقوم بجمع كلمة المسلمين ويحقن دماءهم ، وليس أصلح من يزيد لذلك !! ثم تكلم غيره بمثل ذلك وقام رجل فقال « هذا أمير المؤمنين وان هلك فهذا - يعني يزيد - ومن ابى فهذا » ، واشار الى سيفه فقال له معاوية : « اقعد فانت سيد الخطباء » ، ولم يكن أجرأ من الاحنف بن قيس في تلك الساعة الرهيبة فقد أظهر رأيه دون وجل وقال « نخافكم ان صدقنا ونخاف الله ان كذبنا وانت يا أمير المؤمنين اعلم بيزيد في ليله ونهاره وسره وعلانيته ومدخله ومخرجه فان كنت تعلم لله وللأمة رضا فلا تشاور فيه وان كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الدنيا وانت صائر الى الآخرة . وانما علينا ان نقول سمعنا واطعنا . » فما قام معاوية الا وقد تمت البيعة ليزيد من اهل الشام والعراق . فكان عليه اخذ البيعة لابنه من اهل الحجاز فاظهر الحج وسار بالف فارس الى المدينه ثم ذهب الى مكة وقضى مناسك الحج بها . واجتمع بالمعارضين من ابناء الصحابة فوعدهم وأوعدهم . وذهب الى المسجد فعرض البيعة لابنه يزيد فبايعوه خوفا على انفسهم . وهكذا نجح معاوية باخذه البيعة لابنه بالقوة . واصبحت الخلافة فيما بعد بالبيت الاموي يرثها الابن عن ابيه .

اصلاحات معاوية

قام معاوية بالاصلاحات الآتية :

اولاً نظم ولاية العهد : فقد كانت طريقة انتخاب الخليفة في زمن الخلفاء الراشدين شورى بين المسلمين ، فجعلها معاوية ملكاً ارثياً يوصي به الخليفة السابق لمن شاء من بعده ، على ان يبايعه المسلمون ويوافقوا على تعينه - وان كانت هذه الموافقة صورية فقط - ولا يمكن ان نعتبر طريقة

التعين لولاية العهد اولى من طريقة الشورى من الناحية النظرية ، الا أنه اصبح من المتعذر على المسلمين من الناحية العملية ان يتفقوا على خليفة يولونه امر دينهم ودنياهم نظراً لتعدد احزابهم واختلاف شيعهم وكثرة المرشحين لهذا المنصب والراغبين في الوصول اليه ، ولتوسع بلاد المملكة الاسلامية واننا نجد بالفعل ان الشقاق قد استفحل حول انتخاب الخليفة منذ ايام علي ومعاوية فكان لا بد للمسلمين من تغيير طريقة الشورى واستبدالها بطريقة الملك الارثي بدليل استمرارها في زمن الخلافة الاموية والعباسية وما بعدها .

ثانياً : اسس الاسطول العربي : وارسله للغزو في البحر لحماية سواحل المملكة الاسلامية وتوسيعها. وقد بلغ عدد المراكب التي غزا بها المسلمون جزيرة قبرص في زمن معاوية خمسمائة مركب . وآخر ما وصل اليه عدد سفن الامويين ايام معاوية ١٧٠٠ سفينة . وهو عدد عظيم يدل على قوة العرب البحرية في ذلك الزمن .

ثالثاً احدث نظام البريد . وقد اقتبسه معاوية عن الروم والفرس . وهو عبارة عن جعل خيل مضمرات في عدة اماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع الى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى تصل اوامر الخليفة ورسائله بسرعة الى الامراء والعمال . وكانت تقص اذناب خيل البريد واعرافها لتتميز من غيرها من الدواب .

رابعاً : اتخذ الحرس والحجاب على بابه ـ وقد اشار عليه زياد ابن ابيه بهذا الامر لكثرة اعماله وازدحام الناس على بابه لمراجعاتهم الخاصة والعامة ، ولمنع جمهور الناس من الاتصال بالخليفة .

خامساً : اتخذ المقصورة بالجامع ليصلي بها منعزلاً عن بقية المسلمين وذلك بعد محاولة الخوارج لاغتياله في المؤامرة التي دبروها له ولعلي ولعمرو بن العاص .

سادساً : اتخذ ديوان الخاتم . ليقطع دابر التزوير الذي كان يطرأ على بعض رسائله. فقد كتب مرة لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم ليأخذها من زياد ابن ابيه ففتح عمرو الكتاب وزور المائة مائتين . فلما رفع زياد حسابه انكرها معاوية واحدث على اثر ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم . وكان سرجون الرومي لا يكتب لمعاوية الا بالرومية لان الديوان لم يكن عرّب بعد .

هذه هي اهم اصلاحات معاوية وهي تدل على حنكة ومعرفة وتدبير .

بيت معاوية

تزوج معاوية عدة نساء منهن ميسون بنت بحدل وهي ام يزيد وكانت تؤثر حياة البادية على حياة القصور وقد قالت في ذلك :

لبيت تخفق الارواح فيه	احب الي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني	احب الي من لبس الشفوف
واكل كسيرة في كسر بيتي	احب الي من اكل الرغيف
واصوات الرياح بكل فج	احب الي من نقر الدفوف

ومع كثرة مشاغل معاوية واعماله ما كان يهمل امر بيته بل خصص له قسطاً من وقته يقضيه فيه مع اهله وعائلته .

وفاة معاوية

مرض معاوية بدمشق وكان ابنه غازياً عنها فاحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وادى اليها وصيته المشهورة ليزيد والتي قال فيها : « يا بني اني قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الامور وذللت لك الاعداء واخضعت لك رقاب العرب ... فانظر أهل الحجاز فانهم اصلك واكرم من قدم عليك منهم وتعاهد من غاب . وانظر اهل العراق فان سألوك ان تعزل عنهم كل يوم عاملا فافعل فان عزل عامل اسهل من ان يشهر عليك مائة الف سيف ، وانظر أهل الشام فليكونوا بطانتك وغيبتك فان رابك من عدوك شيء فانتصر بهم ... واني لست أخاف ان ينازعك في هذا الامر الا اربعة من قريش الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبدالرحمن بن ابي بكر ... وقد حذره من ابن الزبير واوصاه بالآخرين خيراً . ومات معاوية بشهر رجب سنة ٦٠ هـ فارسل الضحاك بن قيس الخبر ليزيد فحزن لما بلغه ذلك وانشد .

اودى ابن هند واودى المجد يتبعه	كانا جميعاً فماتا قاطنين معا
اغر ابلج يسقي الغمام به	لو قارع الناس عن احسابهم قرعا

وقبر معاوية لا يزال في دمشق بتربة باب الصغير .

٢ — يزيد بن معاوية

٦٠ — ٦٣ هـ ، ٦٨٠ — ٦٨٣ م

ولد يزيد بن معاوية سنة ٢٦ هـ وابوه امير الشام لعثمان بن عفان ، فتربى في حجر الامارة ، وقبل وفاة ابيه عهد اليه بالخلافة من بعده . فلما توفي معاوية جدد اهل الشام البيعة ليزيد . وارسل يزيد الى الامصار يعلمهم بوفاة ابيه ويطلب منهم تجديد بيعته . وكتب الى الوليد بن عتبة عامله في المدينة يقول له « اما بعد ، فخذ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير اخذاً ليس فيه رخصة حتى

يبايعوا والسلام .» فلما علم ابن الزبير بنعي معاوية ترك المدينة وذهب الى مكة وقال : اني عائذ بالبيت الحرام ولم يبايع يزيداً وثار عليه فيما بعد . اما ابن عمر فقال عند ما سئل عن المبايعة ليزيد : « اذا بايع الناس بايعت » وهكذا فعل . اما الحسين بن علي فعند ما عرض الوليد عليه البيعة قال : « ان مثلي لا يبايع سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحداً . » ثم ثار على يزيد .

اعمال يزيد الداخلية

فاجعة كربلاء

غادر الحسين المدينة الى مكة فجاءت الوفود لزيارته : وتوافدت الرسائل تأتي اليه من اهل الكوفة يدعونه للمجيء اليهم لمبايعته والخروج على يزيد . فيكتبون مثلاً : « اما بعد فان الناس ينتظرونك ولا رأي لهم في غيرك ، فالعجل ! فالعجل ! والسلام عليك . » كما ان ابن الزبير اشار عليه بالرحيل الى الكوفة وقال له : « اما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها ... » وكان يريد الخلاص منه لان اهل مكة لا يبايعونه ما دام الحسين فيهم . فارسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ليختبر حالهم ويدرس اوضاعهم ، وكان واليها من قبل الامويين النعمان بن بشير الانصاري وكان ضعيف الارادة ، لين المعاملة حليماً ناسكاً ، ولما بلغه مجيء مسلم الى الكوفة والتفاف اهلها حوله ، ومبايعتهم للحسين قال : « اني لا اقاتل الا من يقاتلني ولا اثب على من لايثب علي ، ولا انبه نائمكم ، ولا اتحرش بكم . . . » فكثرت شيعة الحسين وبايعه ١٢ الفاً وقيل ٨ الاف فكتب مسلم للحسين يخبره بذلك ويدعوه للكوفة . الا ان احد اعوان الامويين كتب ليزيد يخبره بقدوم مسلم ومبايعة الناس له وبضعف عامله النعمان ، فعزله يزيد وولى مكانه عبيدالله بن زياد امير البصرة وجمع له المصرين وامره بطلب مسلم بن عقيل وقتله او نفيه ، فجاء ابن زياد الى الكوفة وخطب في اهلها ومما قاله : « ... وانا متبع فيكم امره – اي امر يزيد – ومنفذ فيكم عهده ، فانا لمحسنكم كالوالد البر ولمطيعكم كالاخ الشفيق ، وسيفي وسوطي على من ترك امري وخالف عهدي ، فليبق امرؤ على نفسه . » واخذ يلاحق مسلماً وشيعته ، فتفرق اكثرهم عنه فاستجار مسلم بهانيء بن عروة المرادي فاجاره فعلم عبيد الله بمكان مسلم ، واستقدم هانئاً وطلب اليه ان يسلم مسلماً فامتنع وقال : « انا ادفع جاري وضيفي وأنا حي صحيح اسمع وارى شديد الساعد كثير الاعوان ؟ ! والله لو لم اكن الا واحداً ليس لي ناصر لم ادفعه حتى أموت دونه . » فامر ابن زياد بحبسه وعلم بذلك مسلم بن عقيل فخرج باعوانه وهم أربعة آلاف ، وهاجم قصر ابن زياد ولم يكن معه الا نفر قليل فارسل زياد رجالا

يوزعون الاموال على الناس ليخذلوا مسلماً ، وبث بعض المتنفذين من اهل الكوفة يفرقون جموع مسلم ويخوفونهم شر العاقبة ويعدونهم بالامان . وهكذا لم يبق مع ابن عقيل الا ثلاثون رجلا . فحار في امره واختفى . فعرف ابن زياد مكانه وقتله وهانئ معه .

اما الحسين فلما عزم على المسير الى الكوفة نصحه كثيرون ومنهم ابن عباس بان يعدل عن رأيه ويبقى في الحجاز ، او يسير الى اليمن لانها بلاد جبلية حصينة ، وفيها شيعة ابيه ، ونصحه ابن عباس ايضاً ان لا يصحب معه اهله ونساءه واولاده فيما اذا صمم على المسير فابى ذلك . وفي الطريق قابل الفرزدق فسأله عن خبر اهل الكوفة فقال : « قلوب الناس معك وسيوفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء » وقابله ايضاً عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهته نصحه بالعودة الى مكة لان بني امية سيقتلونه فيما اذا حال بينهم وبين ملكهم ، ولئن قتلوه لا تبقى عندهم حرمة لاحد ... وفي الطريق بلغه مقتل مسلم بن عقيل فسأله احد اصحابه بالرجوع الا ان بني عقيل ابوا ذلك عليه والحوا بالمسير لاخذ ثأرهم . ولما بلغ حدود العراق قابلته فرسان ابن زياد وعلى رأسهم الحر بن زيد التميمي الذي أرسل في طلب الحسين ليأتي به الى ابن زياد . فعند ما عرف الحسين ذلك أمر اصحابه بالرجوع الى المدينة الا ان الحر منعه واخذ يراقبه حتى لا يعود الى المدينة . وسار الحسين حتى وصل سهل كربلاء قرب نهر الفرات ، وحين ذلك قدم عليهم جيش سيره ابن زياد لقتال الحسين يتقدمه عمر بن سعيد بن ابي وقاص وجرت مراسلات بينهما فطلب الحسين العودة الى الحجاز فكتب عمر الى بن زياد بذلك فقال :

الآن إذ عرضت مخالبنا به   يرجو النجاة ولاة حين مناص

وامره ان يعرض على الحسين بيعة يزيد وان يمنعه هو ومن معه من الماء . فلم يقبل الحسين بالمبايعة فكان لا بد من القتال . وفي العاشر من شهر محرم سنة ٦١ هـ نشبت الحرب بين الطرفين : بين جيش العراق الكبير وبين فئة قليلة لا تزيد عن الثمانين فكانت النتيجة محتومة بان قتل الحسين واهله الا نفراً قليلا ومنهم علي بن الحسين الذي لقب فيما بعد بزين العابدين فحملوا جميعهم مع رأس الحسين الى ابن زياد الذي بعثهم الى دمشق . وعند ما علم يزيد بخبرهم دمعت عيناه واسف لما حدث واكرم مثواهم وجهزهم بعد ذلك الى المدينة . وقد اختلفت وجهة المؤرخين في هذه الحادثة فمؤرخو الشيعة يرون في مصرع الحسين تغير وجهة الطبيعة ، اذ ان الشمس قد كسفت لمقتله ، والنجوم هوت لمصرعه والغيوم احمرت لاراقة دمه ، ويلحون بالائمة على بني امية لا سيما يزيد الذي لم يمنع عامله عن القيام بمثل مافعل . ومؤرخو السنة يرون ان الحسين طلب امراً لم يعد له عدته فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه ، ويأسفون لما جرى ، واما المستشرقون فيرون في هذه الحادثة انقسام المسلمين وتفرق كلمتهم .

وقعة الحرة

خرج اهل المدينة سنة ٦٣ هـ على يزيد وخلعوه ، وسبب ثورتهم هذه تعود الى ان يزيداً اراد أن يسترضيهم ويستميلهم اليه فكتب الى عامله هناك ان يرسل وفداً من أشرافهم فجاءه وفد على رأسه عبد الله بن حنظلة الانصاري . فلما قدموا على يزيد اكرم مثواهم واحسن اليهم ، واعطاهم المال الكثير لاسيما الى عبد الله بن حنظلة وابنائه الثمانية : فلما عاد هذا الوفد الى المدينة اخذوا يشتمون يزيداً ويعيبون عليه خلاعته ومجونه ، واعلنوا خلعه من الخلافة . فتابعهم اكثر اهل المدينة على ذلك وولوا امرهم الى عبد الله بن حنظلة . فلما علم يزيد بذلك ارسل اليهم النعمان بن بشير الانصاري ليضمهم ويردعهم عن فعلتهم ،وان يعودوا لطاعة يزيد ، فلم تجد نصيحته نفعاً فيهم ، بل على العكس حاصروا من في المدينة من بني امية في دار مروان ، فكتب هؤلاء ليزيد يستغيثون به فقال :

لقد بدلوا الحلم الذي في سجيتي　　　فبدلت قومي غلظة بليان

وارسل اليهم جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري وهو احد جبابرة العرب وشياطينهم ، وزوده بالنصيحة التالية : « امهل القوم ثلاثاً فان اجابوك فيها والا فقاتلهم فان ظهرت عليهم فابحها ثلاثاً فكل مافيها من مال او دابة او سلاح او طعام فهو للجند فاذا مضت الثلاث فكف عن الناس وانظر علياً بن الحسين فاكفف عنه واستوص به خيراً فانه لم يدخل مع الناس وانه أتاني في كتابه » ففعل مسلم ما امره به يزيد الا انه اسرف في عمله فقد قتل زعماء المدينة وترك الجند يقتلون الناس ويأخذون المتاع والاموال ، ثم دعاهم لبيعة يزيد على انهم خول له يحكم في دمائهم واموالهم واهليهم ، فمن امتنع عن ذلك قتله . ولا شك ان يزيداً وقائده قد اسرفا في عملها هذا . فكان عليها ان يحترما عاصمة الاسلام الاولى كرامة لسيد العرب محمد (ص) .

حصار مكة

سار مسلم بن عقبة بعد فتح المدينة متجهاً نحو مكة لقتال ابن الزبير الذي اعلن خلافته وعصيانه ليزيد ، فما ابتعد عن المدينة الا وادركته منيته . فاستخلف على الجند الحصين بن نمير حسب وصية يزيد . فسار بالجيش الى مكة فوصلها في محرم سنة ٦٤ هـ وخرج اليه عبد الله بن الزبير في اتباعه فدارت الدائرة على جند ابن الزبير فرجع الى مكة وحاصر بها فلاحقه جند الحصين ، واقاموا حولها ورموها بالمنجنيق الى ان بلغهم نعي الخليفة يزيد فوقف القتال وطلب الحصين بن نمير من ابن الزبير السير معه الى الشام وقال له « فان هذا الجند الذي معي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنان ... » الا ان ابن الزبير ابى ذلك . ولو خرج معه لتمت له الخلافة لان اهل الحجاز والعراق وخراسان كانوا قد بايعوه بالخلافة .

اعمال يزيد الخارجية

اعاد يزيد عقبة بن نافع الى افريقية بعد ان نحاه عنها مسلمة بن مخلد الانصاري وعين مولاه ابا المهاجر دينار بدلا عنه . فلما وصل عقبة الى القيروان قبض على ابي المهاجر دينار واوثقه بالحديد ، وسار بعد ذلك بجنده يكمل فتح افريقية فحارب البيزنطيين المتحصنين بالمدن الساحلية وحارب البربر في تاهرت وطنجه والسوس الادنى والاقصى حتى بلغ المحيط الاطلسي فقال « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك . » الا ان فتحه لم يكن موفقاً ولم يحم مؤخرته لذلك انقض عليه الروم والبربر في عودته وقطعوا عليه طريق الرجعة وقتلوه وابا المهاجر دينار ومن معه من المسلمين . وكان قيس بن زهير البلوي في القيروان فلما علم بالكارثة سحب الجند وسار بهم الى برقة لانه لا قبل له باعدائه . وضاعت شمالي افريقيا من يد الامويين .

صفات يزيد

تربى يزيد بالبادية مع امه ميسون الكلبية ، ولذلك اكتسب طباع البادية من خشونة وفروسية وكرم وحب للصيد واللهو والشعر حتى قيل « بدىء الشعر بملك وختم بملك » يعنون امرأ قيس ويزيداً . والاحكام مختلفة فيه نظراً للحوادث الخطيرة التي جرت في زمنه : من مقتل ابن بنت رسول الله ، وانتهاك حرمة مدينة رسول الله ، وتهديم بيت الله بالمنجنيق . الا ان بعض المؤرخين يبررون اعماله ويرونها ضرورة اقتضتها الظروف ولا يحملونه التبعات كلها ، بل يضعون شيئاً منها على الذين ثاروا في زمنه ولم يحسبوا حساباً لبطشه .

اهتم يزيد بالزراعة ونظام الري لسقي غوطة دمشق ، وحفر نهر يزيد الذي لا يزال يسقي ارض الصالحية . حتى ان بعض الروايات تدعوه : « الملك المهندس » وفيه قالت سكينة بنت الحسين : « ما رأيت كافراً بالله خيراً من يزيد » .

تزوج يزيد ام هاشم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ، وتزوج غيرها من النساء وله منهن اولاد ، الا ان اولاده لم يتمكنوا من ابقاء الخلافة فيهم ، وانتقلت بعد وفاة معاوية الثاني الى فرع اموي آخر وهو الفرع الحكمي .

توفي يزيد في حوران سنة ٦٤ هـ وكان عمره ٣٩ سنة وحكم ما ينوف عن ثلاث سنوات وثمانية أشهر وانتقلت الخلافة لابنه معاوية من بعده .

٣ – معاوية الثاني

٦٣ هـ او ٦٨٣ م

خلف يزيد ابنه معاوية وكان شابا ضعيفاً يلقب بابي ليلى ، وكان عمره احدى وعشرين سنة لما اختاروه اهل الشام للخلافة ، ولم يلبث بعد شهرين ان اعتزل الخلافة دون أن يولي خلفاً له قائلا في خطاب اعتزاله « اما بعد فاني قد ضعفت عن امركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه ابو بكر فلم اجده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم اجدهم ، فانتم اولى بامركم ، فاختاروا له من احببتم » وطلب اليه ان يولي اخاه خالداً فقال : « والله ماذقت حلاوة خلافتكم فلا اتقلد وزرها » ودخل بيته وتغيب عن الناس حتى مات بعد بضعة ايام . وبموته انتهى حكم السفيانيين من البيت الاموي .

٤ – مروان بن الحكم

٦٤ – ٦٥ هـ او ٦٨٢ – ٦٨٥ م

ولد مروان في السنة الثانية من الهجرة ، ابوه الحكم من اشراف الامويين ، وامه آمنة بنت علقمة من قبيلة كنانة ، وفي خلافة عثمان بن عفان كان مروان ساعده وكاتبه ومدبر امره ، حتى ان الناس ثاروا على الخليفة لاستبداد مروان بالأعمال ، ولما توفي عثمان بايع مروان عليا ، واقام بالمدينة حتى افضت الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان فولاه المدينة مرتين ، وبعد وفاته قربه يزيد اليه واكرمه وبقي في الشام الى ان توفي معاوية الثاني دون ان يكون هناك مرشح للخلافة من الامويين ، ففكر مروان في مبايعة ابن الزبير ، الا ان عبيد الله بن زياد ، والي العراق الذي حاول ان يأخذ البيعة لنفسه من اهل البصرة والكوفة وفشل وكادوا أن يقتلوه ، هرب الى الشام واشار على مروان ان يطلب الخلافة لنفسه ، لانه شيخ بني امية ، فقام يعمل لها . وكانت الشام منقسمة الى احزاب : ففي دمشق حزب الضحاك بن قيس ، وفي حمص جماعة النعمان بن بشير ، وفي قنسرين اصحاب زفر بن الحارث الكلابي ، وكانوا جميعهم يدعون لابن الزبير . اما في فلسطين : فكان حسان بن مالك الكلبي خال خالد بن يزيد يدعو للأمويين ، ويطمع في تولية خالد ابن اخته ميسون ، الا انه كان صغير السن ، ولم يقبل به اهل الاردن . فجاء مروان واجتمع بزعماء الكلبيين في الجابية – من ارض الجولان بين حوران والاردن – واقنع الكلبيين بمبايعته ، فبايعه حسان وقومه على ان تكون الخلافة لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص من بعد خالد . وهكذا تمت البيعة لمروان في شهر ذي القعدة سنة ٦٤ هـ . وانضم اليه الامويون ، وعمل مروان على اخماد الثورات في الامصار .

سياسة مروان الداخلية

معركة مرج راهط

اولاً الشام : كان للسياسة التي اتبعها يزيد ومن بعده ابنه معاوية الثاني من تقريب اليمانيين وابعاد القيسيين تأثير عظيم في اذكاء نار العصبية والبغضاء بين الطرفين . فعندما اضطربت حالة بلاد الشام وخلا البيت الاموي من وريث للخلافة ، قام القيسيون بزعامة الضحاك بن قيس الفهري بمبايعة ابن الزبير . فلما تمت البيعة لمروان سار اليهم بقبائل غسان وكلب والسكاسك وغيرها . والتقى بالضحاك ومعه جماعة من بني بكر وسليم وهوزان وذبيان في مرج راهط - باطراف دمشق - في شهر محرم سنة ٦٥ هـ وجرت موقعة هائلة بين الفريقين استمرت عشرين يوما كانت الغلبة فيها لمروان وقتل الضحاك وعدد كبير من جماعته ، وتفرق الباقون في البلاد ، وكان لهذه الموقعة اثر كبير في اذكاء نار العصبية من جديد بين قيس ويمن . وكان من جرائها خراب الدولة الاموية . كما جرت تلك المعركة الى إثارة قريحة شعراء الطرفين . ومما قاله زفر احد زعماء القيسيين وهو راكن الى الفرار من وجه مروان :

اريني سلاحي لا أبالك انني ... ارى الحرب لا تزداد الا تماديا
أتاني عن مروان بالغيب انه ... مقيد دمي او قاطع من لسانيا
ففي العيش منجاة وفي الارض مهرب ... اذا نحن رفعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني ان تغيبت غافلاً ... ولا تفرحوا ان جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى ... وتبقى حزازات النفوس كما هي
فلا صلح حتى تحظ الخيل بالقنا ... وتثأر من نسوان كلب نسائيا

ولما تمت البيعة لمروان بالشام وجه اهتمامه لفتح مصر .

ثانياً مصر :

كان عبد الرحمن بن جحدم عاملاً على مصر من قبل ابن الزبير ، فجهز مروان جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز وارسله الى العقبة . وسار مروان بجيش آخر الى مصر ، فلما علم ابن جحدم بسيرهما ، نشط لمحاربتهما ، وارسل الجيوش والمراكب وحفر خندقاً لصدهما عن الدخول لبلاده ، الا ان مروان وابنه تغلبا عليه ودخلا مصر في جمادي الاول سنة ٦٥ هـ . وبنى مروان الدار البيضاء في الفسطاط لتكون مركزاً لحكمه ، وبايعه الناس الا نفراً قليلاً تمسكوا ببيعة ابن الزبير ، فضرب اعناقهم واخمد ثورة معارضيه حتى استتب له الامن وهدأت حالة البلاد ، فعين ابنه عبد العزيز والياً على مصر وعاد الى دمشق .

ثالثاً العراق :

انضم اهل العراق لابن الزبير ، وبايعوه بالخلافة . واشتد شعور بعض الشيعة وندموا على خذلانهم الحسين في كربلاء ورأوا انهم لا يخرجون من هذا الذنب الا اذا ثاروا للمطالبة بثأره ، وقتلوا قتلته . فاجتمعوا ذات ليلة على قبر الحسين ، واقاموا الصلاة وذكروا انهم قد تابوا الى الله وانابوا اليه واطلقوا على انفسهم اسم التوابين ، وعينوا رئيساً عليهم : سليمان بن صرد الخزاعي . كبير الشيعة بالكوفة . فجمعوا السلاح والعتاد ودعوا الناس للاخذ بثار الحسين ونظموا القصائد في رثائه والتحريض على قتال اعدائه ، فانضم اليهم عدد كبير من الشيعة ذهبوا بقيادة زعيمهم ابن صرد لمحاربة جيش الشام الذي ارسله مروان بقيادة عبيد الله ابن زياد . فتلاقى الجيشان في عين الوردة في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ وجرت معركة عظيمة انتهت بمقتل سليمان بن صرد وتفرق اصحابه . الا ان جيش الامويين لم يتمكن من فتح العراق ، لانه انشغل بملاحقة القيسيين جماعة زفر بن الحارث الثائرين على بني امية . ولم يتم اخضاع العراق لسلطة الأمويين الا في زمن عبد الملك بن مروان .

رابعاً الحجاز :

كان الحجاز قد بايع ابن الزبير منذ خلافة يزيد ، وقد بايعته ايضاً بقية الاقطار العربية ماعدا البيت الاموي في الشام . حتى ان كثيراً من المؤرخين من يعتبرون مروان ثائراً على حكم ابن الزبير ولا يعدونه خليفة من خلفاء الامويين . الا ان تمسك ابن الزبير بالحجاز ، وعدم خروجه منه اضاع الخلافة من يده وترك للبيت الاموي الوقت لينظموا صفوفهم ويتفقوا فيما بينهم ، ويستعيدوا نفوذهم السابق . وقد ارسل ابن الزبير اخاه مصعب مع جيش الى فلسطين للقضاء على مروان ، الا ان عمله قد جاء متأخراً وفات الوقت . فقام عمرو بن سعيد بن العاص ـ المرشح للخلافة بعد خالد ـ وصد مصعب وارجعه على اعقابه . كما ان مروان ايضاً حاول محاربة ابن الزبير الا ان المنية قد داهمته فترك هذا العمل لابنه عبد الملك .

وفاة مروان

حاول مروان بعد ان وطد حكمه ، في الشام ومصر ، ان ينقل الخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وامر الناس باخذ البيعة لهما فبايعوهما ، الا انه بعمله هذا قد نقض عهده الذي قطعه في الجابية لخالد بن يزيد وعمرو بن سعيد ، فانصرف الاول للعلم والعلماء يدرس الكيمياء ويترجم الكتب اليونانية . واما الثاني فثار في زمن عبد الملك .

توفي مروان بدمشق في ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ واختلف المؤرخون في سبب وفاته فمنهم من يقول

انه مات بالطاعون ، ومنهم من ينسب موته لزوجته ام خالد التي غضبت لانها لتنحيته عن الخلافة وثأرت له بأن خنقت مروان وهو نائم بالمخدة . وانتقلت الخلافة لابنه عبد الملك من بعده .

٥ – عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ ه او ٦٨٥ - ٧٠٥ م

يرجع نسب عبد الملك من ناحية ابيه وامه الى ابي العاص من بطون أمية . فابوه مروان وقد عرفناه وامه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن ابي العاص . وكان يضرب بها المثل بالخصال الحميدة والصفات الكريمة وفيها يقول ابن قيس الرقيات[1] ممتدحاً عبد الملك :

أنت ابن عائشة التي فضلت أرُومَ نسائها
لم تلتفت للداتها ومضت على غلوائها

ولد عبد الملك سنة ٢٦ ه وتربي تربية علمية ادبية حفظ القرآن الكريم واخذ الفقه عن اصحاب رسول الله (ص) واصبح من كبار فقهاء المدينة . تولى الخلافة بعد ابيه . وكانت حالة البلاد الاسلامية على غاية الفوضى والاضطراب : في الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه اهلها ، وفي العراق ثورة الخوارج والشيعة ، وفي الشام عمرو بن سعيد يطالب بالخلافة ، والبلاد الاسلامية مهددة من الشمال بخطر البيزنطيين ، ومن الغرب بثورة البربر فتلقى عبد الملك هذه الحوادث كلها بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس واجتمعت الكلمة عليه . ويعتبر عبد الملك بحق المؤسس الثاني للدولة الاموية بعد معاوية . وفيما يلي نذكر كيف حلّ عبد الملك جميع هذه المصاعب .

سياسة عبد الملك الداخلية

اولاً في العراق : ثورة المختار بن عبيد الثقفي .

ذكرنا قبلاً ثورة التوابين في العراق التي أخضعها عبيد الله بن زياد . وعلى اثرها ظهر في الكوفة في ربيع الاول سنة ٦٦ ه المختار بن عبيد الثقفي – وعبيد هذا شهيد معركة الجسر الذي استشهد في قتاله مع الفرس في زمن الخليفة عمر بن الخطاب – وكان المختار ذا اطماع كبيرة تقلب كثيراً في

---

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات . والرقيات جمع رقية ، ولقب بذلك لانه شبب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر قرشي يؤثر العصبية القرشية ويختص منها بحزب ابن الزبير مدح مصعب وعبد الله ابنا الزبير ودافع عنها الا انه مال اخيراً الى بني امية لما انتصروا على ابن الزبير .

حياته ، اتصل بابن الزبير أملاً ان ينال حظوة عنده ، فلم يثق به ابن الزبير ، فتركه المختار وعاد الى الكوفة ، وانضم الى الشيعة واستغل ثورة التوابين لنيل اغراضه ومراميه . وجمع فلولهم بعد انكسارهم في معركة عين ورد ، واتبع جميع الحيل في سبيل جمع الناس تحت امرته : أثار ثورة الفرس ضد العرب ليستميل الفرس اليه كما انه اتخذ كرسياً ووضع عليه تابوتاً كما يحمل اليهود تابوت العهد في حربهم مع عدوهم وادعى انه يبشر بامامة محمد بن الحنفية ، ولقبه بالامام المهدي[1] الا ان ابن الحنفية لم يؤيده ولم يثق به ولا باهل الكوفة الذين خذلوا اباه واخويه من قبل . واخذ المختار يلاحق قتلة الحسين واتباع الامويين وكان ممن قتله عمرو بن سعيد بن العاص قائد جيش الامويين في معركة كربلاء . وادعى انه مأمور من قبل محمد بن الحنفية ويعمل له فخدع بذلك ابراهيم بن الاشتر وكان صاحب نفوذ وقوة في الكوفة ـ وولاه قيادة جيش سيره لمحاربة ابن زياد ، وكان قد ارسله عبد الملك لفتح العراق . فالتقى الجيشان على نهر الخازر[2] فكانت موقعة هائلة انتصر فيها الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد وحمل رأسه الى المختار وغرق كثير من جند الشام بالنهر . وبذلك اصبح المختار سيداً في العراق . وكان المختار قد طرد عامل ابن الزبير من الكوفة . فأرسل اليه ابن الزبير جيشاً بقيادة اخيه مصعب ، وولاه العراق . فوصل مصعب الى البصرة وخطب في أهلها . وقال بعد ان حمد الله واثنى عليه (طسم ،تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، ان فرعون علا في الارض وجعل اهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح

---

(١) اراد المختار ان تكون دعوته مستندة على حق ثابت عند جمهور المسلمين ، فاعتمد في دعوته على محمد بن الحنفية وهو احد ابناء الامام علي من زوجة له من بني حنيفة . ولذلك انتسب اليهم فدعي ـ ابن الحنفية ـ ومن اتباعه نشأت الفرقة الكيسانية ، وهي فرقة شيعية من غلاة الشيعة يعتقدون ان محمد بن الحنفية هو الامام ، وانه قد أحاط بالعلوم كلها ، وان اخويه الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار وبعلم التأويل والباطن . وقد انتهى اعتقاد الكيسانية بوجوب انفراد الامام بتأويل الشريعة الى القول بضرورة طاعته ، لأن طاعته هي خضوع لله تعالى تبطل التمسك بقواعد الاسلام من صلاة وصوم وحج ...» ويعتقدون بتناسخ الارواح ـ اى خروج الروح من الجسد وحلولها بجسد آخر . وبالرجعة ـ الى رجوع محمد بن الحنفية بعد موته ـ وانه مقيم في جبل رضوى قرب المدينة ـ وان عودته ستكون من هذا المكان . (عن الشهرستاني الملل والنحل ص ١٩٦ وما بعدها) .

(٢) هو نهر بين الزاب الاعلى والموصل يصب في نهر دجلة .

ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين) واشار نحو الشام — (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض) ـ واشار نحو الحجاز (ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) واشار نحو الكوفة ـ وقال « ياأهل البصرة بلغني انكم تلقبون امراءكم وقد لقبت نفسي بالجزار » وبعد ان خضعت له البصرة سار منها الى الكوفة . وكان قد دعاه بعض اشرافها ليتخلصوا من المختار وصحبه . وجرت بين جيشه وجيش ارسله المختار معركة عند المذار انتصر فيها مصعب ،وسار يتتبع المنهزمين الى الكوفة . فقاتله في داخلها انصار المختار فانتصر عليهم وفرقهم وكان المختار محاصراً في القصر مع بعض اعوانه . ولما رأى هزيمة اصحابه خرج ومن معه في القصر وقاتل حتى قتل وبذلك تخلص منه الزبيريون والامويون على السواء . وخضع العراق لحكم ابن الزبير .

لم يكد مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج اليه عبد الملك الذي اضطر ان يتوقف قليلاً ليهادن امبراطور الروم الذي هاجم حدود مملكته عند ثغر المصيصة . فقبل عبد الملك ان يدفع له الف دينار في كل اسبوع ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير . كذلك ثار عمرو بن سعيد بن العاص الذي انتهز فرصة انشغال عبد الملك فدعا الناس لبيعته ـ وكان يرى نفسه احق بالخلافة من عبد الملك لان مروان قد وعده بها في مؤتمر الجابية . فاستعمل عبد الملك الحيلة والخدعة في اخضاعه فاستدرجه اليه ووعده بالخلافة من بعده وامنه ، فصدقه عمرو وجاء مسالماً ، الا ان عبد الملك قتله بعد بضعة ايام ورمى برأسه الى اصحابه فتفرقوا ، وبذلك اعاد عبد الملك النظام من جديد الى بلاد الشام وسار ميمماالعراق لقتال مصعب الذي كان معسكراً عند مسكن ، فبعث الاموال الى جماعة مصعب ليستميلهم اليه ووعد قواد جند مصعب بالاقطاع والولاية ان خذلوه ، فتركه اكثرهم ماعدى ابرهيم بن الاشتر الذى قاتل حتى قتل . ولما لم يبق مع مصعب الا القليل اشار عليه ابنه عيسى بان ينهزم ويلحق بالبصرة لان اهلها على طاعته ، ولكن مصعب ابى وقال « لاتحدث قريش اني فررت » وقال لابنه ان يلحق بعمه في مكة وان يخبره بما صنع اهل الكوفة ، ولكن الولد آثر الموت بقرب ابيه ، فتقدما معاً وقاتلا حتى قتلا .

دخل عبد الملك الكوفة ، وبايعه اهلها وأولموا له وليمة في قصر الخورنق ، وأتاه المهلب خاضعا وتمت السيادة لعبد الملك . فولى على الكوفة والبصرة ولاة وعاد الى دمشق .

عبد الله بن الزبير

ثانياً الحجاز :

عبد الله ابوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة . وامه اسماء بنت ابي بكر الصديق . ولد

عبد الله في المدينة في السنة الاولى من الهجرة ، وحضر معركة اليرموك ، وحارب تحت قيادة عمرو ابن العاص في فتح مصر . وابلا بلاءً حسناً في غزوات افريقية . واشترك مع زيد بن ثابت الانصاري في جمع القرآن في زمن الخليفة عثمان كما ان اباه ارسله للدفاع عن عثمان في يوم الدار ، واشترك في موقعة الجمل مع ابيه وعمل على تقوية عائشة طمعاً في نيل الخلافة . الا انه بعد مقتل ابيه وفشل حزبه انعزل في الحجاز ولم يظهر طمعاً بالخلافة في زمن معاوية بل بالعكس انضم الى الجيش الذي ارسله معاوية لفتح القسطنطينية . وكان معاوية يعرف كيف يتألفه فكان ينفق عليه الاموال ويقول له « مرحباً بابن عمة رسول الله ، وابن حواري رسول الله ويأمر له بمائة الف » الا ان هذا لم يمنع معاوية ان يحذر يزيد منه في وصيته اذ قال له : « ... واما الذي يجثم لك جثوم الاسد ، ويراوغك مراوغة الثعلب ، فذاك ابن الزبير ، فان هو فعلها فظفرت به فقطعه ارباً ارباً ... » وما كاد يصل نعي معاوية الى الحجاز حتى ثار الزبير على يزيد في مكة . وأخذ يحرض الناس على بني أمية فكان يقول لهم « ... أفبعد الحسين نطمئن الى هؤلاء القوم – الامويين – ونصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا ! ولا نراهم لذلك اهلا ... » وقد اتسع نفوذ ابن الزبير بعد موت يزيد فبايعه اهل الحجاز والعراق واليمن ومصر . وانضم اليه اكثر اهل الشام . الا ان مروان وابنه عبد الملك استعادا نفوذهما على تلك الاقطار ، ما عدا الحجاز ، ولم يبق على عبد الملك بعد ان استقرت له الحالة الا القضاء على ابن الزبير . لذلك ارسل له بعد فتح الكوفة جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي . فتوجه اولا الى الطائف ومنها الى المدينة وانضم اليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار الى مكة وحاصرها ورماها بالمنجنيق[1] واشتد الحال على اهل مكة من الحصار فتفرقوا عن ابن الزبير وطلبوا الامان من الحجاج فامنهم ، وكان ممن خرج الى الحجاج حمزة وحبيب ابناء عبد الله بن الزبير . ولما رأى عبد الله ذلك وعرف انه مقتول لا محالة دخل على امه اسماء ، وقد بلغت من العمر مئة سنة واصبحت عمياء وقال لها « ياماه خذلني الناس حتى ولدي واهلي ولم يبق معي الا اليسير ، ومن ليس عنده اكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما اردت من الدنيا فما رأيك ؟ » فقالت انت اعلم بنفسك ، ان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من رقبتك يلعب بها غلمان بني امية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد انت ، اهلكت

---

(١) المنجنيق : هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل ، وذنبه خفيف وفيها تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع اسافله على اعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر منه . فما اصاب شيئاً الا أهلكه (صبح الاعشى: القلقشندي) ج ٢ : ص ١٣٧

نفسك ومن قتل معك . وانْ قلت كنت على حق فلما وهن اصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الاحرار ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل احسن !! » فقال « يا اماه : اخاف ان قتلني اهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني . » فقالت « يابني ان الشاة لا تتألم بالسلخ بعد ذبحها فامض على بصيرتك واستعن بالله فقبّل رأسها وقال هذا رأيي ... ولكني احببت ان اعلم رأيك فقد زدتي بصيرة ... ثم خرج فقاتل حتى قتل ... » وبعد قتله صلبت جثته ثم انزلت بامر من عبد الملك وقد دامت خلافته في الحجاز تسع سنين من سنة ٦٤ هـ الى سنة ٧٣ هـ .

ولعل اسباب فشل ابن الزبير يعود الى بقائه في الحجاز وميله لاعادة عاصمة الخلافة اليها ،فخسر مساعدة اهل الشام ولم يحظ بنصرة اهل الحجاز لانهم كانوا قد انصرفوا عن الحياة السياسية ، ومالت نفوسهم الى العزلة والسكون وطلب اللهو والمجون . اضف الى ذلك عدم مبايعة محمد بن الحنفية له وقيام الشيعة والخوارج ثائرين في وجهه فضاع في قمع ثوراتهم معظم جهوده .زد على ذلك ماترويه المصادر عن شدة بخله وقلة حنكته السياسة . فبينما كان بنو أمية يبذلون الاموال بسخاء في سبيل تألف اعدائهم كان هو يقتر على جنده الذين يحاربون في صفوفه مما دعا الناس الى الانفضاض من حوله وخذلانهم اياه .

الحجاج بن يوسف الثقفي

بعد مقتل ابن الزبير عادت الحياة الى مجراها الطبيعي وخضع العالم الاسلامي الى عبد الملك وعظم نفوذ الامويين في الشرق والغرب . وللحجاج بن يوسف الثقفي فضل عظيم في اخماد الفتن واخضاع الثورات وتوطيد دعائم الحكم للامويين من الفرات الى نهر جيحون والسند .

ولد الحجاج سنة ٤١ هـ في الطائف وهو ثقفي الاصل كان يعلم الصبيان في اول حياته ، ثم انضم الى جيش عبد الملك لمحاربة مصعب بن الزبير ، فاستلفت الحجاج نظر عبد الملك فأرسله الى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فتغلب عليه فولاه الحجاز واليمن واليمامة . وبقي والياً عليها حتى سنة ٧٥ هـ .ولما اشتدت فتنة الخوارج انتدبه عبد الملك الى ولاية العراق والبلاد الشرقية . فذهب اولا الى الكوفة في اثني عشر راكبا ، فوصلها قبيل مطلع الفجر ، فصعد منبر المسجد وهو متلثم بعمامة خز حمراء وبقي ساكتاً حتى اجتمع الناس فظنوه احد الخوارج وارادوا حصبه بالحصى ، فكشف اللثام عن وجهه وقال خطبته المشهورة التي يقول فيها :

انا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى اضع العمامة تعرفوني

« ياأهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها ، واني لصاحبها واني انظر الى الدماء بين العمائم واللحى ...وان أمير المؤمنين اطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها فوجدني

امرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي لانكم طالما اوضعتم في الفتنة واضطجعتم في مراقد الضلال ... واني والله ما أقول الا وفيت ، ولا أهم الا مضيت ، وان امير المؤمنين امرني باعطائكم اعطياتكم وان اوجهكم لمحاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب بن أبي صفرة ، واني اقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة ايام الا ضربت عنقه » ثم التفت الى غلامه وقال : « يا غلام اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين » فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله بن عبدالملك امير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » فلم يقل احد شيئاً . فقال الحجاج « اكفف يا غلام » ، ثم اقبل على الناس فقال : اسلم عليكم امير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً ؟ هذا ادب ابن نهية (١) أما والله لأودبنكم غير هذا الادب ... اقرأ يا غلام كتاب امير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم لم يبق احد في المسجد الا قال على امير المؤمنين السلام . » تلك هي الخطة التي اتبعها الحجاج في معاملة أهل الكوفة وهي سياسة الحزم والشدة ثم ركب الى البصرة وخطب فيها خطبة تشابه خطبته في الكوفة ، ثم ارسل اهل المصرين الى المهلب الذي كان يقاتل الخوارج منذ زمن عبد الله بن الزبير .

المهلب بن ابي صفرة والخوارج

انضم المهلب الى عبد الملك وقدّم خضوعه وخدمته اليه بعد ان كان يحارب في جيش ابن الزبير فقبله عبد الملك وارسله لقتال الخوارج الذين قويت شوكتهم في زمن انقسام المملكة بين الامويين والزبيريين ، وظهر الغلاة منهم في هذا الدور ومنهم اصحاب نافع بن الازرق[٢] فحاربهم المهلب ونال ثقة

---

١ — رجل كان على الشرطة بالبصرة قبل الحجاج .

٢ — نافع بن الازرق الحنفي المكنى بأبي راشد هو اول من اسس فرقة الأزارقه بايعه جماعة بالخلافة وسموه امير المؤمنين وبعد وفاته خلفه عبيد الله بن ماخور التميمي وقتل في معركة بالأهواز قاتلهم بها المهلب بن ابى صفرة . ثم بايعوا بعده لقطرى بن الفجاءة وسموه امير المؤمنين وهو القائل :

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك لن تُراعى
فانك لو سألت بقاء يوم	على الأجل الذي لك لم تطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
ولا ثوب الحياة بثوب عز	فيطوى عن اخى الخنع اليراع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لأهل الارض داعى
ومن لا يُعتبط يسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير في حياة	اذا ما عدّ من سقط المتاع

وبقي قطرى امير الأزارقة حتى تشتت شملهم على يد كثيرين من قواد العرب منهم مسلم بن —

الناس ، وبصورة خاصة عبد الملك ، حتى انه لم ير احداً اهلا لمثل هذا العمل غيره . فكان دائماً يوصي عماله ان يعملوا برأي المهلب ومشورته في امر الخوارج . وقد اظهر المهلب وابناؤه من البطولة والصبر والحنكة والمقدرة الحربية في محاربة نافع بن الازرق وقطرى بن الفجاءة ماسجله لهم التاريخ بعداد الاعجاب . وحوادث هذه الحروب واخبارها طويلة لا مجال لذكرها .

ـ عبيس في زمن عبدالله بن الزبير ، والمهلب بن ابي صفرة الذي عينه عبد الله بن الزبير على قتالهم واقره الحجاج في خلافة عبد الملك وبقي في حربهم ١٩ سنة حتى قضى عليهم بعد ان كانوا قوة لا يستهان بها ، بين العشرين الف والثلاثين الف فارس يقطنون جهات الاهواز وكرمان وفارس . ثم استوطنوا اخيراً ارض سابور واشهر معاركهم التي خلدت ذكراهم : معركة دولاب في الاهواز التي يصفها المبرد بقوله : « وكانت معركة قوية يشيب لهولهـا الاطفال . وقد أظهر كل من الخوارج واهل البصرة من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف . وقتل فيها نافع بن الازرق زعيمهم ، وابن عبيس قائد اهل البصرة . وتبودلت الراية مرات عـديدة ، وللقواد كثيرين لانهم كانوا يهلكون في الدفاع في سبيل مبادئهم » . (من الـكامل للمبرد ج ٢ ص ٦١٧)

اما معتقدات الازارقـة فهي ما يلي : ١ ـ ان مخالفيهم من هذه الامة مشركون ٢ ـ ان مرتكب الذنوب منهم مشرك ٣ ـ كل من لم يهاجر اليهم من موافقيهم مشرك ٤ ـ استباحوا قتل نساء مخالفيهم واطفالهم ٥ ـ يزعمون ان اطفال المشركين مخلدين بالنار ٦ ـ انهم كفروا علياً وصوبوا عبد الله بن ملجم ـ قاتل علي ـ وكفروا طلحة والزبير وعثمان وعائشة وعبدالله بن عباس ، وسائر المسلمين من مخالفيهم ٧ ـ ابطلوا من رجم من زنى من الرجال وهو محصن . اذ ليس في القرآن الكريم شيء يدل على ذلك ٨ ـ اسقاط حد من قذف المحصنين من الرجال . مع وجوب حد من قذف المحصنات من النساء ٩ ـ يقولون ان التقية غير جائزة في قول ولا عمل . والتقية هي ان تكتم عن الغير معتقدك خوفاً منه ١٠ ـ يجب قطع يد السـارق من المنكب ١١ ـ برئوا ممن قعد عن الخروج لضعف او غيره ١٢ ـ اوجبوا على الحائض الصلاة والصيام في حيضها . وبعضهم يقول انها تقضي ما عليها ان طهرت كما تقضي الصيام ١٣ ـ قالوا باستعراض كل من لقوه من غير اهل عسكرهم وقتله اذا قال انه مسلم . ولكنهم لا يقتلونه ان كان يهودياً او نصرانياً او مجوسياً ١٤ ـ ويعتقدون انهم مشركون ما داموا في دار الشرك فاذا خرجوا اصبحوا مسلمين . ويجب ان يقاتلوا المسلمين من مخالفيهم حتى يدخلوا في رأيهم . وكانوا يمتحنون من ادعى انـه منهم بان يقدم اليه اسير ممن يخالفهم فان قتله صدقوه وان لم يقتله قالوا انه منافق وقتلوه .

وقد قمع الحجاج ثورة شبيب بن يزيد الشيباني ١ وجماعته الذين كانوا يحاربون في شمالي العراق وتمكن بعد ان استعان بجيش من اهل الشام مؤلف من اربعة آلاف ارسله عبد الملك بن مروان من التغلب على هذه الفرقة وتشتيتها . ومات رئيسها غرقاً في النهر . وقد اظهر الخوارج بحروبهم هذه بطولة عظيمة وشجاعة فائقة وتمسكاً بمبادئهم وتفانياً في سبيلها مما نعجب ونندهش منه .

ثورة عبد الرحمن بن الاشعث

ارسل الحجاج سنة ٧٩ هـ عبيد الله بن ابي بكرة على سجستان فسير هذا جيشاً الى بلاد الترك توغل في بلادهم فاحاط به الترك وقتلوا اكثره ، فارسل الحجاج مدداً بقيادة عبد الرحمن بن الاشعث فسار حتى قدم سجستان فصعد منبرها وقال : « أيها الناس ان الامير الحجاج ولاني ثغركم وامرني بجهاد عدوكم الذي استباح بلادكم واباد اخياركم فاياكم ان يتخلف منكم رجل فيحل بنفسه العقوبة . اخرجوا الى معسكركم فعسكروا به مع الناس . » فخرجوا وحاربوا الترك وغنموا غنائم عظيمة منهم . واخذوا قسماً كبيراً من بلادهم . فتوقف ابن الاشعث عن متابعة الفتح وقال :

---

١ — ان شبيب بن يزيد الشيباني المكنى بأبي الصحاري استعان بجماعة صالح بن مشروح الخارجي بعد مقتله واسس فرقة الشبيبية . ويقول الطبري في سبب خروجه هو ان شبيباً قصد الشام في ايام عبد الملك ونزل ضيفاً على روح بن زنباع . وسأله ان يذكره عند الخليفة لكي يجعل له عطاء من بيت المال شأن اهل الشرف من آل النبي وذوي قرباه . فأجاب ابن زنباع طلبه واخبر عبد الملك بشأنه ، وكان له اتباع كثيرون . فلم يهتم عبد الملك بأمره وقال : هذا رجل لا اعرفه ، وأخشى ان يكون حرورياً - أي خارجياً - فبلغ ابن زنباع شبيباً قول عبد الملك ، فحنق عليه وغضب وقال سيعرفني بعد هذا . ورجع الى قومه بني شيبان وجمع من الخوارج الصالحية اتباع صالح بن مشروح مقدار الف رجل ثار بهم على الخليفة . وقد قام بحروب وغارات على الكوفة والبصرة واكثر مدن العراق شغل بها الحجاج وهزم له اكثر من عشرين جيشاً في مدة سنتين (ابن جرير الطبري ج ٢ ص ٤٢٤ طبعة ليدن سنة ٨٧٩ م) . أما عقيدة هذه الفرقة فلا تختلف عن معتقدات جمهور الخوارج الا في اجازة امامة المرأة . وقد لخص احد شعراء هذه الفرقة عقيدتهم ببيتين من الشعر قال فيهما :

أبرأ الى الله من عمرو وشيعته ... ومن علي ومن اصحاب صفين
ومن معاوية الطاغي وشيعته ... لا بارك الله في القوم الملاعين

وبعد مقتل شبيب استخلف امه غزالة على اصحابه وكانت تحارب هي وزوجته جهيزة بمئتين من نساء الخوارج . وقد اظهرن شجاعة فائقة في محاربة جيوش عبد الملك والحجاج .

« نكتفي بما اصبناه العام من بلادهم حتى نحييها ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى في العام المقبل مما وراءها ، وهكذا حتى نستولي على جميع تلك البلاد » وكتب الى الحجاج يعرفه بخطته التي سيسلكها في فتوحاته . فأجابه الحجاج بشدة وغلظة ومما قاله : « . . . اني لم اعدد رأيك الذي ازعمت انك رأيته رأي مكيدة ولكني رأيت انه لم يحملك عليه الا ضعفك والتياث رأيك فامض لما امرتك به . » ثم أمر بعزله ان لم يطع امره وتولية اسحق بن محمد بدلا عنه . فما كان من عبد الرحمن الا ان ثار على الحجاج ، وعاد بجيشه الى العراق وشق عصا الطاعة على عبد الملك . ولما بلغ الحجاج خبره بعث يستغيث بالخليفة ويطلب منه المعونة بجند من الشام . وقدحاول عبدالملك اخماد الفتنة بالمفاوضة والسياسة ووعد اهل العراق بعزل الحجاج عن ولايتهم ان عادوا وهدأوا ، فلم يجد ذلك فيهم وصمموا على خلع عبد الملك . عندئذ ارسل عبد الملك جنداً للحجاج وجرت معارك شديدة بين الطرفين في دير الجاجم استمرت مائة يوم كانت الهزيمة فيها على ابن الاشعث وجنوده وذلك في ١٤ جمادي الآخرة سنة ٨٣ هـ . ودخل الحجاج الكوفة وبايعه اهلها بأن شهدوا على انفسهم بالكفر بخروجهم هذا . فمن بايعه على ذلك نجا ومن أبى قتله . اما ابن الاشعث فقد هرب والقى بنفسه من فوق قصر ومات مؤثراً ذلك على ان يسلم نفسه للحجاج ، وهكذا عاد الهدوء من جديد الى البلاد الشرقية .

اعمال الحجاج

قام الحجاج بجملة اعمال منها تنظيمه بلاد المشرق وتوطيد الامن فيها ، وارجاع الموالي لزراعة الارض واصلاح الاقنية والترع المائية . الا انه انهك هؤلاء بكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب ، حتى انه ارغم الذين اسلموا منهم على دفع الجزية . فساءت حالة هؤلاء وتخربت بلادهم .

كان الحجاج يفضل القيسيين على اليمانيين ، فايقظ بذلك العصبية والعداء بين القبائل ، كما انه اشتهر بظلمه وقسوته ، فأذل أكابر اهل العراق واسرف في تقتيلهم حتى يقال انه اعدم (١٢٠) الف نفس وسجن كثيرين في سبيل تأييد سلطان بني امية .

كان الحجاج مثال الوالي المخلص الامين لمليكه فلم يحاول ان ينفصل عنه او يشق عصا الطاعة عليه كما فعل غيره فيما بعد ، كما انه لم يرتش أو يجمع الاموال ويدخرها لنفسه ، فقد مات بعد ان خدم الدولة زهاء عشرين سنة ، ولم يخلف بعده غير القرآن وسلاحه وبضعمئات من العمله الفضية . وكانت اخلاقه متينة اتصف بالثبات والشجاعة والصبر وكان فصيحاً حافظاً للقرآن . وهو باني مدينة واسط ما بين الكوفة والبصرة كما انزل بها جنده ليبعدهم عن جو الاضطراب والشغب الذي كان في هاتين المدينتين . وضرب النقود وضبط المقاييس واصلح الكتابة ووضع الشكل للقرآن الكريم وكان له فضل عظيم في توطيد الامن وتوسيع ملك بني امية الى بلاد الهند والصين . وتوفي سنة ٩٥ هـ

في نهاية حكم الوليد وله من العمر ٥٤ سنة .

سياسة عبد الملك الخارجية

الجبهة الشمالية :

قلنا ان عبد الملك بن مروان اضطر ان يهادن البزنطيين ، وان يدفع لهم الف دينار في كل اسبوع ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير ، ولكن ما لبث ان قطع هذه الاموال بعد ان هدأت الحالة في بلاده واخذ يرسل الصوائف والشواتي لبلاد الروم ، وفتح عدة ثغور كانت بيد البزنطيين ، منها قيسارية ، والمصيصة وغيرهما وبذلك استرد عبد الملك نفوذه في القسم الشمالي من مملكته .

الجبهة الغربية :

قلنا ان العرب انسحبوا من شمالي افريقيا الى برقة في آخر خلافة يزيد ، وعندما استتب الامر لعبد الملك عين اخاه عبد العزيز والياً على مصر ، فولى زهير بن قيس على افريقية . فقام بحملة على البربر استرد فيها مدينة القيروان . الا ان البزنطيين اغتنموا فرصة بعده عن برقة وخلوها من حامية قوية ، فهاجموها وعاثوا فيها فساداً ، فعاد اليهم زهير وجرت معركة شديدة بين الطرفين استشهد فيها القائد العربي وكثير من جنده . ولا تزال قبورهم هناك تعرف « بقبور الشهداء » .

خلف زهير حسان بن النعمان سنة ٦٩ هـ على ولاية افريقية وكان حسن السياسة ، حارب البزنطيين والبربر واجلاهم عن قرطاجة . الا انهم عادوا بعد بضعة اشهر واستردوا المدينة ، وكان يساعدهم في ذلك اسطولهم من البحر ، الا ان اسطول العرب تغلب على اسطول الروم وبذلك تمكن حسان من استرجاع قرطاجة وتخريبها . وبعد ان وطد حكمه في الداخل قامت عليه امرأة تدعى « الكاهنة » بجموع كبيرة من البربر قادتهم لمحاربة العرب وتمكنت من ارجاعهم مرة ثانية لبرقة وبسطت سيادتها على افريقية مدة خمسة اعوام . وفي سنة ٧٩ هـ عاد حسان بقوة جديدة من العرب وحارب الكاهنة وعندما شعرت بضعفها قامت باعمال وحشية ، فهدمت المدن وخربت القرى وقلعت الاشجار حتى نفر الناس منها ، وانضموا لجيش حسان ، فتمكن عندئذ من القضاء عليها وقتلها . الا انه احسن المعاملة لأهالي البلاد وعقد مع البربر « معاهدة الاخوة » . فاسلم كثير منهم وساعدوه ونصروه ، وبذلك تمت السيادة للعرب في شمالي افريقية . فأخذ حسان ينظم الاقليم : « دون الدواوين ووضع الخراج ، ونظم الادارة وكان عمله نواه لفتح جديد في بلاد الاندلس »

الجبهة الشرقية :

بعد ان انتهى المهلب من قتال الخوارج ، ولاه الحجاج خراسان . فقام هو واولاده بفتوحات وغزوات عظيمة في تلك البلاد ، حتى وصلوا بخاري . الا انهم لم يفتحوها . وفي سنه ٨٣ هـ توفي

المهلب في مرو فقال نهار بن توسعة التميمي يرثيه :

الا ذهب الغزو المقرب للفتى ... ومات الندى والجود بعد المهلب

إذا قيل أي الناس اولى بنعمة ... على الناس قلناه ولم نتريب

وأوصى بالولاية بعده الى ابنه يزيد ، ومما قاله لاولاده عندما اجتمعوا حوله وقد أتى بسهام وحزمها : « أترونكم كاسريها مجتمعة » قالوا لا ! قال « اتترونكم كاسريها متفرقة » قالوا نعم . قال : فهكذا الجماعة . واوصاهم باتحاد الكلمة وصلة الرحم وحسن القول والفعل والكرم وتقريب العرب، وملازمة الحرب والمكيدة فيه وقراءة القرآن وتعلم السنة ... وهكذا مات هذا البطل العربي بعد حياة مليئة بالجهاد فكان مثال الشجاعة والاقدام .

قام ابنه يزيد بعده ببعض الفتوحات في الشرق . وفي سنة ٨٥ هـ عزله الحجاج وولى مكانه اخوه المفضل « ولم يكن للمفضل بيت مال بل كان يعطي الناس كلما جاءه شيء ، وان غنم شيئاً قسمه بينهم » . ولم يلبث الحجاج ان عزله ايضاً وولى مكانه قتيبة الباهلي وسيأتي الكلام عنه .

إصلاحات عبد الملك وسياسة القومية

بعد ان وطد عبد الملك دعائم ملكه في الداخل والخارج التفت الى الاصلاحات الادارية . فاتبع سياسة عربية . وطبع المملكة بطابع قومي عربي في اللغة والملبس والعملة :

أولا في اللغة :

كانت الدواوين قبل عبد الملك تكتب باللغة الرومية في الشام وبالفارسية في العراق وباليونانية والقبطية في مصر . فقد نقل الديوان الى اللغة العربية في الشام سنة ٨١ هـ ، وسبب نقله ان بعض كتاب الروم في الديوان أساء الادب في وظيفته ، فأدبه عبد الملك وأمر سليمان بن سعد ان ينقل الديوان الى العربية ، وولاه الاردن . فنقله في مدة سنة واحدة . وعندما عرض عبد الملك هذا الديوان على كاتبه سرجون الرومي ، خرج الى اصحابه وقال لهم « اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ، وقد قطعها الله عليكم » . اما ديوان العراق فقد نقله من الفارسية الى العربية صالح بن عبد الرحمن بمساعدة الحجاج سنة ٧٨ هـ وقد بذل الفرس لصالح مئة الف درهم ، ليظهر عجزه عن تعريب الديوان فلم يقبل ، فقال له ابن زادان : « قطع الله اوصالك في الدنيا كما قطعت اصل الفارسية » أما في مصر فقد انتقلت لغة الدواوين الى العربية في زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم على العرب اذ انتقلت الوظائف الادارية لموظفين عرب ، واصبحت الكتابة باللغة العربية مما قوى نفوذ العرب في الحكم ، ووسع اللغة العربية ونقل العرب من « غضاضة البداوة الى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية الى حذق الكتابة » على رأي ابن خلدون . ومما ساعد على نجاح هذا العمل الاصلاح الذي عمل الحجاج على ادخاله الى الخط العربي ،

فقد كان الخط حتى ذلك الزمن خالياً من النقاط والحركات، وفي هذا مجال كبير للاضطراب والغموض واختلاف القراءة وفي هـذا ايضاً خطر عظيم على مصالح الدولة والرعية بعد ان اصبحت الكتابة العربية هي الكتابة الرسمية . فجاء هـذا الاصلاح الذي يعود الفضل فيه الى الحجاج تتميماً لعمل عبد الملك في تعريب الدواوين . وقد اخذ من اللغة السريانية قواعد النقط والشكل في بادئ الامر ، ثم ما لبث ان استقل الخط العربي بالتدريج عن المؤثرات الخارجية .

ثانياً في الملابس :

كان الملابس في زمن النبي والخلفاء الراشدين بسيطاً ، ولكن لما آلت الخلافة الى مُلك في زمن الامويين اخذوا يصنعون ثياباً خاصة في بلاد الروم للخلفاء ومن دونهم من الامراء والقواد ورجال الدولة ، ويطرزون عليها صوراً وكتابات وعلامات بخيوط ذهبية او ملونة تدل على رتبة لابسها . وانتبه الخلفاء فيما بعد ان الدين الاسلامي يحرم الصور فاجتنبوها وبقيت الكتابة فقط مطرزة على الثياب ، واستمرت الحالة على ذلك حتى جاء عبد الملك ، وخطر له يوماً ان يطلب ترجمة ما كتب على ثيابه فكان معناها : « باسم الآب والابن وروح القدس » فأبطل ذلك وأمر باستبداله بالشهادتين وأمر ببناء دور للطراز ونسج الثياب وقطع استيرادها من بلاد الروم ، فأغضب عمله هذا ملك الروم وهدده بنقش شتم النبي على الدنانير ، فنبهه بذلك الى القضية الثالثة وهي ضرب النقود .

ثالثاً في العملة :

لم يكن للعرب قبل الاسلام نقود خاصة بهم بل كانوا يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية . ولما جاء الاسلام ضرب الخليفة عمر نقوداً اسلامية على شكل نقود كسرى، وكذلك فعل معاوية ولكن يظهر ان الكمية التي ضربت كانت قليلة بالنسبة لاتساع رقعة البلاد الاسلامية ، مما ادى الى استمرار استعمال النقود القديمة من رومية وفارسية فلما جاء عبد الملك بن مروان وضع أساساً للنقد ثابتاً وعياراً دقيقاً وعمم استعماله في جميع الاقطار العربية وطبع مقادير وافرة منه وحظر على المسلمين ان يتعاملوا بغيره ، وهدد من يخالف ذلك بالقتل ، وعلى ذلك شاع استعمال النقود العربية بدلا من الاجنبية . وكانت على ثلاثة انواع : الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضة ، والفلس من النحاس.

ومن الاعمال العمرانية التي قام بها عبد الملك بناؤه قبة الصخرة في بيت المقدس في موقع هيكل سليمان . ولعل الدافع لبناء هذا المسجد هو ان الحجاز كان بيد ابن الزبير وهو الذي يقيم الحج ، لذلك أراد عبد الملك ان يبعد اتباعه عن زيارة مكة والمدينة لكيلا يتأثروا من الثائرين على سلطان بني امية . فاختار لهم بيت المقدس لتكون مزارهم ـ ولو بصورة موقتة ـ كما انه خشي الفتنة باحتكاك حجاج الشام مع غيرهم من الحجاج الثائرين من عبد الملك . فقد روى انه في سنة ٦٨ هـ اجتمع في عرفات اربعة ألوية وهي : لواء ابن الحنفية في اصحابه ، ولواء ابن الزبير ، ولواء نجدة الحروري ،

ولواء بني امية . وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج . لذلك بالغ عبد الملك باعتنائه ببناء هـذا المسجد وتزيين قبته. فهي قبة عظيمة قائمة على دائرة مثمنة وفي داخلها دائرتان من الاعمدة وجدرانها ونوافذها وسقفها مزينة بالفسيفساء ، وأشكال الزهور والخطوط العربية المتشابكة . وقد أراد بنو العباس ان ينتحلوا لانفسهم بناء هـذه القبة فطمسوا اسم عبد الملك من احد الجدران الداخلية المكتوب عليه بالخط الكوفي تاريخ بنائها ، فاستبدلوه باسم المأمون الخليفة العباسي . إلا أن هذا المزور لم يكن بارعاً لانه ترك تاريخ بناء القبة وهو سنة ٧٢ هـ على حاله . مما يدل على ان هـذا البناء تم في زمن عبد الملك .

وقد اصلح عبد الملك بن مروان نظام البريد الذي نظمه معاوية ، إلا أن عبد الملك ادخل عليه تحسينات حتى اصبح خير وسيلة لربط أجزاء المملكة بعضها ببعض .

وكان عبد الملك اهلا لهذه الاعمال التي تمت في زمنه فقد كان حازماً عالماً أديباً خطيباً حتى قال عنه الشعبي « ما جالست احداً إلا وجدت لي الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان فاني ما ذاكرته حديثاً إلا وزادني فيه ، ولا شعراً إلا وزادني فيه » . ولما قيل له يا أمير المؤمنين عجل اليك الشيب قال : « وكيف لا ! وانا اعرض عقلي على الناس كل جمعة » . ومن اشهر خطبه قوله : « ايها الناس إني والله ما انا بالخليفة المستضعف ـ يريد عثمان بن عفان ـ ولا بالخليفة المداهن ـ يريد معاوية ـ ولا ولا بالخليفة المأفون ـ يريد يزيد بن معاوية . فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا ثم نزل » .

وفي آخر عهده اراد ان يعهد لابنه الوليد من بعده بالخلافة وكان ابوه مروان قد اوصى بها الى عبد العزيز فاستشار قبيصة بن ذؤيب فنهاه ، واستشار روح بن زنباع الجذامي فقال له : « لو خلعته ما انتطح فيه عنزان » . فبينما هو في ذلك إذ جاءه الخبر بوفاة عبد العزيز فقال لروح كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه ، وما اجمعنا عليه . وعهد الى ابنيه الوليد ثم سليمان من بعده وهما من زوجته ولادة بنت العباس من بني عبس . وتوفي بدمشق يوم الخميس في منتصف شوال سنة ٨٦ هـ عن عمر يناهز الستين ودامت خلافته ما ينوف عن احدى وعشرين سنة .

ومما عيب على عبد الملك بن مروان كثرة الضحايا التي ذهبت في زمنه ، وغدره بعمرو بن سعيد وقتله بعد ان امنه . وقوله في احدى خطبه « من قال لي بعد مقالي هـذا اتق الله ضربت عنقه » إلا اننا اذا قابلنا ذلك مع ما تم في زمنه من الاعمال نجده من اعظم خلفاء بني امية .

٦ ـ الوليد بن عبد الملك

٨٦ - ٩٦هـ أو ٧٠٥ - ٧١٥م

ولد الوليد سنة ٥٠ هـ ، ابوه عبدالملك وامه ولادة بنت العباس . وكان ابوه قد عهد اليه بالخلافة

قبل وفاته وبعد دفنه صعد المنبر قبل ان يدخل منزله ، فخطب بالناس وقال : « ايها الناس انه لا مقدم لما اخر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من قضايا الله وسابق علمه وما كتب على انبيائه وحملة عرشه ـ الموت ـ وقد صار الى منازل الابرار ، وولي ـ يعني عبد الملك ـ هذه الامة بالذي يحق عليه لله من الشدة على المريب واللين لاهل الحق والفضل ، واقامة ما أقام الله من منار الاسلام واعلامه من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارة على اعداء الله. فلم يكن عاجزاً ولا مفرطاً. ايها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الفرد . ايها الناس من ابدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه : عيناه . ومن سكت مات بدائه » ثم قام اليه الناس وبايعوه ، وتم له الامر .

سياسة الوليد الداخلية

كانت مدة الوليد غرة في جبين الدولة الاموية ، ففيها قام باصلاح داخلي عظيم ، واشتهر في الامة قواد عظام وهم محمد بن القاسم ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبدالملك. فتحوا الفتوحات الواسعة وأضافوا الى المملكة الاسلامية بلاداً واسعة واستردوا هيبتها في نفوس الامم المجاورة لها . وذلك لان عبد الملك قد وطأ الامور ومهدها ، وأخضع الفتن وأسكنها ، وقمع ثورة الشيعة والخوارج ، فلما ولي الوليد الخلافة وجد البلاد هادئة مطمئنة ، والناس مجمعون على بيعته فخفف اعباء الحياة ويسرها وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين واهتمامه باحوال رعيته وسهره على مصالحهم وعمله على تخفيف آلام مرضاهم وبذلك صفا له الجو وساد الامن والسكون وانصرف الى الفتوحات الخارجية .

سياسة الوليد الخارجية

توسعت البلاد الاسلامية كثيراً في عهد الوليد ، واصبحت حدود المملكة العربية تمتد من نهر السند والصين شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن البحر العربي والصحراء الافريقية الكبرى جنوباً ، الى جبال طورس شمالا . وفيما يلي نذكر اعمال الفتح التي تمت في زمنه في جهات المملكة الثلاثة : الشرقية ، والشمالية ، والغربية .

اولا الجبهة الشرقية :

قلنا ان الحجاج عزل ابناء المهلب بن ابي صفرة عن ولاية خرسان وعين عليها سنة ٨٦ هـ قتيبة بن مسلم الباهلي احد زعماء المضريين . وكان قتيبة قائداً باسلا عالما بفنون الحرب ، صارما شديد الوطأة . فخرج من مرو عاصمة خرسان ومركز حركاته الحربيه ، وحارب الصغد والترك سكان أواسط آسيا ، واستولى على مدن بيكند ، وبخارى وسمرقند [1] وخوارزم وفرغانة وشاش [2] الى ان وصل

١ ـ بيكند وبخارى وسمرقند مدن واقعة ما بين نهري سيحون وجيحون من اقليم يدعى بلاد خوارزم محصور بين هذين النهرين الذين يصبان في بحر خوارزم المسمى في الوقت الحاضر (بحر آرال)

٢ ـ فرغانة ، والشاش والصغد هي أقاليم تقع فيما وراء نهر سيحون .

كشغر على حدود الصين سنة ٩٦ هـ ففتحها وأرسل وفداً الى ملك الصين برأسه هبيرة بن المشمرج الكلابي فكلمهم ملك الصين وقال لهم : « قولوا لقتيبة ينصرف فإني قد عرفت حرصه وقلة اصحابه والا بعثت اليكم من يهلككم ويهلكه » . فقال له هبيرة : « كيف يكون قليل الاصحاب من اول خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قادراً عليها وغزاك . واما تخويفك ايانا بالقتل فان لنا آجالا اذا حضرت فاكرمها القتل . فلسنا نكرهه ولا نخافه » قال : « فما الذي يرضي صاحبك » قال : وانه حلف ان لا ينصرف حتى يطأ ارضكم ويختم ملوككم ويُعطي الجزية » . قال : فانا نخرجه من يمينه نبعث اليه بجزية يرضاها . ثم عاد بصحاف من ذهب فيها تراب وبعث بحرير وذهب واربعة غلمان من ابناء ملوكهم ثم اجاز الوفد . فساروا حتى قدموا على قتيبة . فقبل الجزية . وختم الغلمه وردهم ووطىء التراب ثم عاد الى مرو .

وقد وجد قتيبة وجنده في محاربة الترك صعوبات شديدة لان تلك القبائل كانت تعيش حياة أشبه بحياة البدو فكانت شديدة القتال وممارسة الحروب . إلا أن قتيبة ذلك البطل الخالد في تاريخ العرب ، عرف كيف يكسر من شوكة الترك ويخفف من حدتهم ويخضعهم لسلطانه . كما انه عرف كيف يسوس جنده ويحسن اليهم فأحبوه وأخلصوا المزيمة فقادهم الى الموت فلم يبالوا وفتح تلك البلاد الواسعة ونشر الاسلام فيها واصبحت جزءاً من الامبراطورية العربية .

وبينما كان قتيبة يفتح البلاد فيما وراء نهر جيحون كان محمد بن القاسم الثقفي يفتح بلاد الهند ، عينه الحجاج والياً على ثغر السند ، وأرسل معه ستة آلاف من جند الشام . وجهزه بكل ما يحتاج اليه من سلاح وذخيرة ، فسار حتى اتى الديبل [1] ، وقاتل اهلها وحاصرهم حتى فتحها عنوة . وبنى فيها مسجداً وسار منها الى مهران بعد ان عبر نهر السند [2] فقاتله داهر ملكها قتالا شديداً . وكان راكب فيلا فقتله احد المسلمين وانشد قائلا :

الخيل تشهد يوم داهر والقنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
اني فرجت الجمع غير معرد	حتى علوت عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج مجدلا	متعفر الخدين غير موسد

وفتح المسلمون بلاده فيما وراء نهر السند حتى وصلوا الى الرور فحاصروها وتم فتحها صلحاً على ان لا يقتلهم ولا يعرض لبدّهم [3] ، فوضع محمد عليهم الخراج وسار الى الملتان [4] فقاتل اهلها وغنم

١ — الديبل : مدينة على الساحل الغربي للهند وتعرف اليوم باسم كراتشي .

٢ — نهر السند ويسمى اليوم بالاندس نهر في غربي بلاد الهند يصب في البحر العربي

٣ — البدّ : مكان العبادة عند الهنود وهو ككنائس النصارى ومعابد اليهود وبيوت نيران الفرس

٤ — الملتان : مكان في جنوب بلاد البنجاب وكان فيها بد تهدى اليه الاموال وتنذر له النذور ويحج اليه اهل السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده .

منهم غنائم عظيمة حتى نزلوا على حكمه . وبلغه وهو في الملتان وفاة الحجاج ثم تمنى الوليد وعزله وبذلك توقف الفتح في بلاد الهند وخسر المسلمون بذلك قائداً بطلا كان له فضل عظيم في غرس بذور الاسلام في بلاد الهند .

وكان للحجاج بن يوسف الثقفي فضل كبير في هذه الفتوحات العظيمة التي قام بها قتيبة ومحمد لانه كان دائم الاتصال بهما وشديد الحرص على الاطلاع لاخبارهما واعانتها بالمدد والنصائح وكان لا تغمض له عين ولا تفتر له عزيمة ولا يهدأ لسانه من الوعد والوعيد وحثهما على الجهاد فكان بذلك خير دافع لهما في هذه الفتوحات .

ثانياً : الجبهة الشمالية :

اشتهر مسلمة بن عبد الملك بحروبه مع الروم وغزوه بلادهم ، ولم يتول الخلافة لان امه كانت أمة ، ولكنه عوض عن ذلك بفتوحاته في بلاد الروم . فكان يغزوهم في كل سنة تقريباً . وكان يرافقه في غزواته العباس بن الوليد ، فسقط عدة حصون بأيديهم منها عمورية وهرقلة وطرسوس .

ثالثاً : الجبهة الغربية :

تم في زمن الوليد فتح اسبانيا على يد عامله في افريقية موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد وسأذكر خبر هذا الفتح في الكلام عن الاندلس .

اعمال الوليد الاصلاحية

كان الوليد ميالا للاصلاح والعمران . امر بتعبيد الطرق وتسهيل السبل ، وحفر الآبار في البلدان ، وقد تم في زمنه بناء المسجدين العظيمين : مسجد المدينة . ومسجد دمشق المعروف بـ « الجامع الاموي » . ففي سنة ٨٨ هـ طلب الوليد من عامله عمر بن عبد العزيز توسيع المسجد النبوي حتى يبلغ طوله مئتي ذراع وعرضه مثلها . وان يشتري الدور الملاصقة له ، ويضم بيوت ازواج النبي اليه ، وقال له : « فان اعترض على ذلك اهل المدينة فان لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان » فقد قاما ببعض الاصلاحات في هذا المسجد . وارسل اليه بالفعلة والبنائين من الشام . وبعث الوليد الى ملك الروم يطلب منه المعونة في بناء مسجد الرسول ، فبعث اليه بمئة الف مثقال ذهب ومئة عامل ، وبأربعين جملا محملين من الفسيفساء ، فابتدأ عمر بن عبد العزيز بالعمل وقام به خير قيام (١)

---

١ — ولي عمر بن عبد العزيز ابن عم الخليفة الحجاز سنة ٨٧ هـ وقام بتأسيس مجلس شورى في المدينة مؤلف من فقهاء وعلماء اهلها . واستعان برأيهم في تصريف شؤون الولاية واعمالها . وكان لا يبت في أمر من الامور الا بعد استشارتهم وأخذ رأيهم . واحسن معاملة الحجازيين حتى ذكرهم باعمال جده لامه عمر بن الخطاب . فأتاه بعض اهل العراق هرباً من ظلم الحجاج وجوره . وكان ذلك سبب عزله وتولية عثمان بن حيان المري بالحجاز مكانه . وكان ذلك برأي الحجاج .

اما البناء الذي اكسب الوليد شهرة عظيمة فهو المسجد الاموي الذي كان سابقاً معبداً وثنياً . ثم حول الى كنيسة مسيحية ، وعندما فتح العرب دمشق بقي قسم منه كنيسة والقسم الآخر حول الى مسجد يقيم به المسلمون صلواتهم الى جانب المسيحيين . وفي زمن الوليد اتسعت المملكة الاسلامية وازداد عدد المصلين من الوافدين على عاصمة الامويين لذلك عمد الوليد لشراء القسم الآخر الذي كان بيد المسيحيين ، وضمه الى المسجد ، وعوض عليهم بارض واموال ليبنوا لهم كنيسة في مكان آخر . ويقال ان الوليد انفق على عمارة هذا المسجد خراج المملكة سبع سنين . وحملت الحسابات التي صرفت على نفقته (١٨) جملا فاحرقها الوليد دون ان ينظر فيها . وقال ياقوت الحموي في ذكر هذا الجامع « ومن عجائبه انه لو عاش الانسان مئة سنة وتأمله كل يوم لرأى فيه كل يوم شيء جديد . » ولا يزال المسجد قائماً حتى الآن بالرغم من بعض التغيرات التي طرأت على بنائه بعد زمن الوليد وهو مثار عجب كل من يدخله من الزوار والمصلين .

وقد قام الوليد باعمال عمرانية اخرى حتى شغف الناس في زمنه بالعمارة « حتى كانت مسألتهم عنها اذا تقابلوا » وقد أمر الوليد ببناء احواض الماء في الشام لتسهيل استقاء الاهلين منها ، كما امر بفتح مدارس ومستشفيات وحجر على المجذومين وخصص للفقراء صدقات تنفق عليهم ، وجعل لهم عطاء من بيت المال يقوم بسد حاجتهم .

ولاية العهد

كان عبد الملك قد اوصى بالخلافة لابنه الوليد ولأخيه سليمان من بعده . وفي اواخر ايام الوليد حاول الوليد نقل الخلافة لابنه عبد العزيز ، وعزل اخيه سليمان . ودعا الناس الى ذلك فلم يجبه الا الحجاج وقتيبة بن مسلم وبعض خواصه . واشار عليه بعض اعوانه ان يستقدم سليمان اليه ويرغمه على خلع نفسه وبيعة عبد العزيز . فكتب الى اخيه يدعوه اليه فاعتل وتلكأ عن المجيء ، فأراد الوليد ان يسير اليه بنفسه الا ان منيته حالت دون ذلك . فمات في منتصف جمادي الآخرة سنة ٩٦ ﻫ بدير مران . بعد ان بقي في الخلافة تسع سنين وثمانية اشهر ، الا انه اثار حفيظة اخيه قبل موته وبذر بذور الحقد في نفس سليمان على الذين ساعدوا الوليد بأخذ البيعة لابنه بدلا عنه .

٧ — سليمان بن عبد الملك

٩٦ — ٩٩ ﻫ او ٧١٥ — ٧١٧ م

ولد سليمان سنة ٥٤ ﻫ . أبوه عبد الملك وامه ولادة بنت العباس بويع بالخلافة بعد موت اخيه الوليد بمقتضى وصية ابيه وكان كريماً محباً للهو والزينة ، اكولا ومتأنقاً في لباسه . قرب اليه اليمنيين ونكل بخصومه القيسيين فأثار العصبية العربية بين الفريقين . اخرج المسجونين الذين كانوا

في سجن الحجاج ، ففرح الناس بذلك واعتبروا ايام حكمه ايام خير وبركة وفي ذلك يقول ابن جرير الطبري على لسان العامة : «كان سليمان مفتاح الخير ، اذهب الحجاج ، واطلق الاسارى وخلى السجون واحسن الى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز .»

سياسة سليمان الداخلية

كان سليمان يبغض الحجاج واهله وولاته ، ويميل الى يزيد بن المهلب . وكان الحجاج عارفاً لذلك حتى انه دعى الله ان يميته في زمن الوليد فاستجاب الله دعوته . فمات قبل ان يلي سليمان الخلافة . وان نجا الحجاج من سليمان ، الا ان عماله وقواد اخيه الوليد وهم : محمد بن القاسم ، وقتيبة بن مسلم ، وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقعوا في غضبه . فكان اول اعماله ان عزل محمد بن القاسم وولى مكانه على السند يزيد بن ابي كبشة السكسكي فقبض على محمد (ابن اخت الحجاج) وقيده وحمله الى العراق . فقال محمد متمثلا :

اضاعوني واي فتى اضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

ويقول البلاذري « ان الهنود بكوا محمداً لسماحته وعدله وكرم خلقه، وقد رثاه حمزة بن بيض الحنفي بقوله :

ان المروءة والسماحة والندى ... لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ... يا قرب ذلك سؤدداً في مولد »

وحبس محمد بواسط وقتل في السجن ومما قاله في سجنه :

فلئن ثويت بواسط وبأرضها ... رهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرب قينة فارس قد رعتها ... ولرب قرن قد تركت قتيلا

اما قتيبة بن مسلم : فقد بذل الطاعة لسليمان اولا وكتب اليه كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ويعلمه بلاءه وجهاده . الا ان سليمان كان حاقداً عليه لموافقته الوليد على عزله وتولية ابنه عبد العزيز مكانه . وكان قتيبة عارفاً ذلك . ولذلك ثار على سليمان وخلعه ، ودعا الناس الى مثل ذلك فأجابوا عليه وولوا امرهم وكيعاً سيد بني تميم فقتل هذا قتيبة واخوته واكثر بنيه . ولعل ذلك راجع لكرههم الحجاج وعماله . فقام اليهم رجل من العجم وقال لهم « يا معشر العرب قتلتم قتيبة ، والله لو كان منا فمات فينا ، جعلناه في تابوت ، فكنا نستفتح به اذا غزونا . وكانوا يدعونه بخرسان « ملك العرب » فقام عبد الرحمن بن جمانة الباهلي يرثيه فقال :

كأن ابا حفص قتيبة لم يسر ... بجيش الى جيش ولم يعل منبرا
ولم تخفق الرايات والقوم حوله ... وقوفاً ولم يشهد له الناس عسكرا

دعته المنايا فاستجاب لربه ... وراح الى الجنات عفا مطهراً

فما رزىء الاسلام بعد محمد ... بمثل ابي حفص فيكيه عبيراً

اما موسى بن نصير : فقد تعجل بالقدوم الى الوليد عندما استدعاه من الاندلس فجاء حاملا معه الاموال والهدايا المختلفة للوليد وكان مريضاً على فراش الموت . فطلب اليه سليمان ان يتريث حتى يموت الوليد وتؤول هذه الاموال اليه فلم يفعل ، وكان هذا سبب غضب سليمان عليه . فعزله عن جميع الاعمال وحبسه وغرمه مالا عظيما لم يقدر على وفائه ، حتى أخذ يسأل العرب المساعدة ومات على طريق الحج وهو في هذه الحالة المحزنة كما ان سليمان عزل طارق بن زياد ولم يستخدمه فذهبت جهود هذا البطل دون تقدير من الخليفة .

وهكذا نكب سليمان قادة الدولة ورجالها واستبدلهم برجال اليمنيين ومنهم يزيد بن المهلب الذي ولي العراق ثم خرسان فاخذ يلاحق القيسيين ويقتلهم ، وينتقم من خصومه اعوان الحجاج اشد انتقام وبذلك ثارت العصبية القديمة فيما بين قيس ويمن واشتدت الروح قسمين وكان ذلك من اسباب سقوط الدولة الاموية .

سياسة سليمان الخارجية

كانت بلاد الاندلس قد خضعت للامويين وتم لهم فتحها منذ زمن الوليد ، وكان المسلمون في زمن سليمان يوسعون ملكهم فيما وراء جبال البرانس (البيرنه) وسأترك الكلام عن هذه الجبهة لبحث الامويين في الاندلس . واتكلم عما حدث في الجبهتين الشمالية والشرقية .

الجبهة الشمالية :

تابع سليمان عمل مسلمة بن عبد الملك في جهاده في بلاد الروم فجهز جيشاً سنة ٩٦ ﻫ سار به الى دابق [١] وفي سنة ٩٨ ﻫ وجه سليمان اخاه مسلمة بهذا الجيش من ناحية البر وارسل معه كميات وافرة من الطعام والذخيرة لحصار القسطنطينية . وارسل الاسطول العربي ليساعده من ناحية البحر . وقد وفد على سليمان ليون الملقب بـ « أيزوري » الذي كان ناقماً على امبراطور الروم وحرضه على فتح القسطنطينية ، ووعده بأن يطلع المسلمين على خفايا قومه ومواطن الضعف فيهم . فسيره سليمان بصحبة الجيش العربي . وصل المسلمون اسوار القسطنطينية وحاصروها من ناحية البر والبحر . فتضايق الروم من الحصار . وعرضوا على مسلمة مبلغاً كبيراً من المال على ان يرفع الحصار عنهم . فأبى مسلمة ذلك ، واستمر في حصارهم . ففاوضوا اليون الخائن بأن ينصبوه امبراطوراً

---

١ — دابق مكان بقرب حلب .

عليهم فقبل بذلك ونقول بعض الروايات ان ليون احتال على مسلمة واحرق مؤونة جيش المسلمين وذخيرته وهرب الى قومه . وكان يعرف مواطن الضعف عند المسلمين نحاربهم حتى اسلاهم عن القسطنطينية ونشلت الحملة .

الجبهة الشرقية :

ولى سليمان يزيد بن المهلب على خرسان ، فقام بعدة حملات الى الشرق فتح بها بلاد دهستان وطبرستان ، وجرجان وغنم غنائم كثيرة . فكتب الى الخليفة يعلمه بذلك ومما قاله « اما بعد فان الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيماً وصنع للمسلمين احسن الصنع فلربنا الحمد على نعمه واحسانه في خلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان . . . وقد صار عندي من خمس ما افاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ستة آلاف الف . وانا حامل ذلك لأمير المؤمنين ان شاء الله . » ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة طالبه بهذه الاموال ، ولما لم يجدها عنده سجنه في قلعة حلب ولكنه هرب من السجن في آخر عهد عمر .

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عهد لابنه ايوب بالخلافة . فمات ايوب في حياة ابيه ، فلما اشتد عليه المرض في دابق ، اراد ان يولي بعض ابنائه الصغار ، ولكن رجاء بن حيوية نصحه ان يستخلف رجلا صالحاً يتذكره الناس بالخير فولى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ومن بعده ليزيد بن عبد الملك ارضاء لأخوته ، وكتب في ذلك عهداً وختمه وامر بجمع اهل بيته من الامويين ، فلما اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم ان هذا كتابي وامرهم ان يبايعوا من وليت فبايعوا كلهم من غير ان يعلموا من سماه وتوفي بدابق يوم الجمعة في ١٠ صفر سنة ٩٩ هـ بعد حكم دام سنتين وثمانية اشهر . وكانت سنه اذ توفي ٤٥ سنة . فخرج رجاء بن حيوية الى مسجد دابق وطلب الى الناس ان يبايعوا من ولاه سليمان في كتابه فبايعوا كلهم من غير ان يعلموا من هو فقرأ عليهم الكتاب . واذا به عمر بن عبد العزيز فتململ اولاد عبد الملك من ذلك لانتقال الخلافة لابن عمهم ولم يبايعوه اولا ولكنهم قبلوا به بعد ذلك .

٨ = عمر بن عبد العزيز

٩٩ - ١٠١ هـ او ٧١٧ - ٧٢٠ م

ولد عمر سنة ٦٢ هـ ، ابوه عبد العزيز بن مروان الذي كان ابوه قد عهد اليه بولاية العهد إلا ان اخاه عبد الملك ولاه مصر ونزع ولاية العهد منه . وام عمر تدعى ام عاصم بن عمر بن الخطاب ، فهو اذاً حفيد عمر بن الخطاب ، ولذلك يلقبونه « بالخليفة الصالح » . ويعتبره بعض اهل السنة خامس

الخلفاء الراشدين ، كان متواضعاً ناسكا محباً للعدل [1] والاستقامة وكان فوق ذلك متقشفاً في ملبسه غير مترف في معيشته يصرف كل يوم درهمين. تولى الخلافة وهو يقول : « انا لله وانا اليه راجعون» وأراد رجال الحكومة ان يحتفلوا بتنصيبه خليفة ، فرفض المهرجان وابهة الملك وقال : « إنما أنا رجل من الناس » ومشى بين الناس وذهب الى المسجد فاجتمع القوم لسماع خطبة العرش فقال : « لست بقاض ولكنني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من احدكم ولكني اثقلكم حملاً » . ولما تمت له البيعة اتى بمراكب الخلافة فقال : « دابتي أوفق لي » وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم بيعت فيما بعد ، ورد ثمنها لبيت المال . ثم اقبل سائراً فقيل له : منزل الخلافة ، فقال : فيه عيال أبي ايوب ، وفي فسطاطي كفاية حتى يتحولوا فأقام في منزله حتى فرغوه فيما بعد .

وكان حريص على مصلحة المسلمين ، ومنفعة رعاياه حتى عظمت عليه مسؤولية الخلافة . فيقال ان زوجته فاطمة بنت عبد الملك رأته ذات مرة بعد الصلاة يبكي ، فسألته عما يبكيه ؟ فقال : « لقد وليت امور المسلمين وغير المسلمين فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعاً ، والمرضى المحرومين ، والمعوزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين ، والشيوخ المهيضي الجناح ، فخشيت ان يحاسبني الله من اجلهم حساباً عسيراً ، ولهذا بكيت » .

قرب عمر الفقهاء والعلماء والصالحين اليه وأبعد عنه الشعراء ، ولم يعط احد منهم من اموال الامة طمعاً في تقريبهم واستمالتهم . خطب مرة في الناس فقال : «من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مانهتدي

---

[1] — ومما يدلنا على حب عمر بن عبد العزيز للعدل والوفاء ان اهل سمرقند قالوا لعاملهم سليمان بن ابي السرح ان قتيبة غدر بنا وظلمنا واخذ بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف فأذن لنا فليفد منا وفد الى امير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق اعطيناه ، فان بنا الى ذلك حاجة . فأذن لهم فوجهوا منهم قوماً الى عمر فلما علم عمر ظلامتهم كتب الى سليمان يقول له : « ان اهل سمرقند قد شكوا ظلماً اصابهم وتحاملا من قتيبة عليهم حتى اخرجهم من ارضهم فاذا اتاك كتابي فاجلس لهم القاضي فلينظر في امرهم فان قضى لهم فاخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل ان ظهر عليهم قتيبة » . فاجلس لهم سليمان (جميع بن حاضر) القاضي فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً او ظفراً عنوة . فقال اهل الصغد « بل نرضى بما كان ولا نجدد حرباً . لان ذوي رأيهم قالوا قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وامنونا وأمناهم فان عدنا الى الحرب لا ندري لمن يكون الظفر وان لم يكن لنا ، كنا قد اجتلبنا عداوة في المنازعة فتركوا الامر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا .

اليه ، ولا يغتابن احداً ، ولا يعترض فيما لا يعنيه » فانقشع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد ، وقالوا ما يسعنا ان نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعله .

سياسة عمر الداخلية

هدأت حالة البلاد في زمن عمر بن عبد العزيز ، ولم يقم عليه الا الخوارج ، فأراد ان يقنعهم بالحجة ويردهم الى السلم ، فكتب الى عامله فى العراق ، « ان لا يحاربهم إلا اذا حاربوه ، وكتب الى زعيم الخوارج الثائرين وهو بسطام من بني يشكر يدعوه للمناظرة ويسأله عن سبب خروجه[1] فأرسل بسطام رجلين من الخوارج ، ليناظرا الخليفة ، وجرت بين الطرفين مناظرة[2] تمكن فيها الخليفة من

---

١ — وهذا هو كتاب الخليفة « بلغني انك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست بأولى بذلك مني ، فهل اناظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك نظرنا في امرنا » .

٢ — وهذا بعض ما ورد في هذه المناظرة : قل لهما عمر : « ما اخرجكما هذا المخرج وما الذي نقمتم ؟ » فقال المتكلم : ما نقمنا سيرتك انك لتتحرى العدل والاحسان . فاخبرنا عن قيامك بهذا الامر ، أعن رضا من الناس ومشورة ، أم ابتززتم امرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ولا غلبتهم عليها وعهد إليّ رجل كان قبلي ، فقمت ولم ينكره علي احد . ولم يكرهه غيركم ، وانتم ترون الرضا بكل من عادل وأنصف من كان من الناس . فاتركوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم . فقال : بيننا وبينكم أمر واحد ، رأيناك خالفت اعمال اهل بيتك وسميتها مظالم ، فان كنت على هدي وهم على ضلاله فالعنهم وابرأ منهم . فقال عمر : قد علمت انكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله (ص) لعاناً وقال ابراهيم « فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم » وقال الله عز وجل: « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده » وقد سميت اعمالهم مظالم ، وكفى بذلك ذماً ونقصاً ، وليس لعن اهل الذنوب فريضة لا بد منها ... قال الخارجي : أما هم كفار بظلمهم ؟ قال لا ! لان رسول الله « ص » دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس احد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ولكن القوم اسرفوا على انفسهم على علم منهم انه محرم عليهم ولكن غلب عليهم الشقاء ... فقال الخارجي أرأيت رجلا ولي قوماً واموالهم فعدل فيها ثم صيرها بعده الى رجل غير مأمون أتراه أولى الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم ؟ قال عمر : لا ! قال أفتسلم هذا الامر الى يزيد من بعدك وانت تعرفه انه لا يقوم فيه بالحق ، قال : : إنما ولاه غيري ، والمسلمون أولى بما يكون منهم فيه بعدي . قال أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً ؟ وكان هذا السؤال الاخير محرجاً لعمر . فطلب النظرة للاجابة عنه .

اقناع احدهما ، وتردد الآخر لارتيابه من بيعة يزيد بالعهد ، التي كان سليمان قد عهد اليه بها . وأراد ان يعرض على الخوارج ما جرى بينها من المداجلة لينظروا في امرهم ويختاروا ما يريدون .

ومن الحوادث الداخلية التي جرت في زمن عمر ما كنت قد ذكرته سابقاً : وهو ان الخليفة كان قد قبض على يزيد بن المهلب وطالبه بالاموال التي كان قد كتب يعلم بهما سليمان بن عبد الملك وسجنه في قلعة حلب ولم يخرجه منها حتى هرب الى البصرة في آخر عهد عمر خوفاً من ولي العهد يزيد الذي كان ناقماً عليه . وكتب الى عمر وكان على فراش الموت يبين له سبب هربه قائلا : « اني والله لو وثقت بحياتك لم اخرج من محبسك ولكني خفت ان يلي يزيد فيقتلني شر قتلة » .

سياسة عمر الخارجية

لم يشجع عمر بن عبد العزيز ولاته على التوسع في الفتوحات الخارجية، بل اراد ان يثبت دعائم الدولة فأمر مسلمة بن عبد الملك ان يتخلى عن بعض المراكز الامامية في بلاد الروم خوفاً على المسلمين من العدو فجلي عن طرندة بعد ان خربها ، وعاد قافلا الى ملطية التي تبعد عنها ثلاثة مراحل. كما انه كتب الى ملوك السند يدعوهم الى الاسلام ، وقد كانت سيرته قد بلغتهم ، فأسلم بعضهم وتسموا بأسماء عربية .

أما في ناحية المغرب فقد وصل المسلمون بقيادة السمح بن عبد الملك الخولاني الى مدينة طولوز وقتل في اثناء حصارها .

إصلاحات عمر بن عبد العزيز

قام عمر بن عبد العزيز باصلاحات عظيمة : فأرجع اولا الحقوق المغتصبة قبل زمنه الى اهلها. ثانياً : منع سب علي وأهله على المنابر . ثالثاً : قام ببعض الاعمال الخيرية .

أما إرجاعه المظالم الى اهلها فيتجلي ذلك بانه لما ولي الخلافة احضر قريشاً ووجوه الناس وقال لهم « ان فدك (١) كانت بيد رسول الله «ص» فكان يضعها حيث أراه الله، ثم وليها ابو بكر وعمر كذلك ثم اقطعها مروان ، ثم صارت اليّ ولم تكن من مالي ،واني اشهدكم اني قد رددتها على ماكانت عليه في عهد رسول الله «ص» ثم ردها الى آل النبي «ص» .

كما انه أبطل مغارم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف . فقد كتب الى أمير العراق يقول له :«اما بعد فان اهل الكوفة قد اصابهم بلاء وشدة ، وجور في احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عمال السوء ، وان قوام الدين العدل والاحسان ، فلا يكون شيء أهم اليك من نفسك ، تحملها قليلا من الاثم ، ولا تحمل خرابا على عامر ، وخذ منه (من أماكن الخراب) ما طاق ،

١ — فدك مكان بجانب المدينة يسكنه اليهود فتحه النبي «ص» وجعله لاهله وذويه .

واصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذن من العامر الا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الارض ، ولا تأخذن اجور الضرابين ، ولا هدية النوروز ، والمهرجان ، ولا ثمن المصحف ، ولا اجور الفتوح ، ولا اجور البيوت ولا درهم النكاح ، ولا خراج على من اسلم من اهل الذمة . فاتبع في ذلك امري فاني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله »

ودخل كثير من اقباط مصر في الاسلام في زمن عمر ، فقلت مالية مصر لقلة دافعي الجزية ، فطلب والي مصر من الخليفة ان يأخذ الجزية من الاقباط بعد اسلامهم فمنعه عمر وقال له : « ان الله بعث محمداً هادياً ، لا جابياً »

ثانياً : امر الناس بترك سب علي بن ابي طالب على المنابر : وكان بنوا امية يفعلونه ، فتركه . وكتب الى الامصار بتركه ، وابدال ذلك بقوله تعالى : (ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون) فقال كثير عزة يمدح الخليفة على فعلته :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... برياً ولم تتبع مقالة مجرم
تكلمت بالحق المبين وانما ... تبين آيات الهدى بالتكلم
وصدقت معروف الذي قلت بالذي ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم

فكان عمله هذا تقوية للحزب العلوي وتنشيطاً له ، مما ساعد هذا الحزب على العمل من جديد لأخذ الخلافة لطرفه .

ثالثاً : قام عمر ببعض الاعمال الخيرية : فأمر بانشاء مسجد في مدينة سرقوسة بجنوبي فرنسا . وامر بعمل الخانات في البلدان القاصية ، وكتب الى احد عماله يقول له : « ان اعمل خانات فمن مر بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين ، وان كان منقطعاً فأبلغه بلده »

وجعل للقضاة منزلة كبيرة عنده ، ورفع سلطة الولاة عليهم ، فكان الخليفة مرجعهم الاعلى ونهى عن تنفيذ اي حكم بقتل او قطع ، الا بعد ان يراجع هو فيه ، فجعلت هذه الاعمال الاصلاحية سياسة الدولة دينية ووجهتها جهة تختلف عن سياسة الامويين السابقة : وهي السياسة العربية المستندة على مصلحة الدولة ، وهذا التغير قد اضر بالامويين كثيراً لانه قوى عليهم الاحزاب المعارضة فيما بعد من شيعة وخوارج وموالي قاموا جميعهم يعملون على قلب الدولة الاموية والدعوة الى دولة علوية جديدة . كذلك فان سياسة التسامح المالية في الخراج والجزية اضرت بمصلحة الخزينة واضعفت مواردها ، ووضعت مالية الدولة في خطر وافلاس ، مما حدا بالخلفاء الامويين من بعده ان يحيدوا

عنها ويعودوا الى سياستهم الاولى ، وكان ذلك من اسباب سخط العامة عليهم فيما بعد .

بيت عمر ووفاته :

تزوج عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان فقط ، ولما ولي الخلافة سألها ان تعيد ما وهبها ابوها من ثياب موشاة ، وجواهر نفيسة الى خزينة المسلمين فقبلت مغتبطة مسرورة . ويقال ان يزيد عرض عليها بعد وفاة زوجها ان يرد اليها مجوهراتها وملابسها ، فرفضت ذلك . وقالت : انها لم تهتم بها في حياته ، فحري بها ان لا تهتم بها بعد مماته .

وكان من اولاده عبد الملك ، سأله ابوه مرةً : « ما تقول لربك اذا اتيته ، وقد تركت حقاً لم تحييه ، او باطلاً لم تمته» ؟ فقال : « يابني ان اجدادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي وقد اقبل شرها ، وادبر خيرها ، ولكن ألبس حسناً وجميلا الا تطلع الشمس علي في يوم الا احييت فيه حقاً وامت باطلا ، حتى يأتيني الموت وانا على ذلك . »

طلب اليه الخوارج ان يعزل يزيد عن ولاية العهد فقال لهم : « انما ولاه غيري والمسلمون اولى بما يكون منهم فيه بعدي . » وقد نقم بنوا امية عليه سياسته الدينية . فقيل انهم دسوا له السم فتوفي بدير سمعان من اعمال حمص في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ ، وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة اشهر ، ولم ينبش العباسيون قبره كما فعلوا بقبور بني امية — بل بقي مزاراً يزوره الناس حتى القرن الرابع هجري .

٩ = يزيد الثاني

١٠١ - ١٠٥ هـ او ٧٢٠ - ٧٢٤ م

ولد يزيد سنة ٦٥ هـ ، ابوه عبد الملك بن مروان ، وامه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . ولي الخلافة حسب وصية اخيه سليمان ، وقام بتهديم كل ما اصلحه سلفه عمر بن عبدالعزيز وقامت في زمنه الفتن الداخلية لما اشتهر به من خلاعة ولهو ، وشرب للخمر ومجالسة للقيان .

سياسة يزيد الثاني الداخلية

قامت في زمن يزيد بن عبد الملك فتنتان : الأولى فتنة يزيد بن المهلب في العراق ، والثانية فتنة يزيد بن مسلم في افريقية .

اما الفتنة الأولى فان سببها ان يزيد بن المهلب اشتد في معاملة القيسين من اقارب الحجاج عندما ولي العراق في زمن سليمان بن عبد الملك . وكان ممن عذبه واضطهده ابنة اخي الحجاج زوج يزيد ابن عبد الملك . فاقسم هذا انه سيمزق ابن المهلب عندما تفضي اليه الخلافة ، فتحداه ابن المهلب بقوله : « انك ان فعلت قابلتك بمائة الف مقاتل . » ولما ولي يزيد بن عبد الملك هرب ابن المهلب

من سجنه في حلب، واعلن عصيانه في البصرة ، واخذ يغدق الاموال على الناس حتى تجمعوا حوله . وخضعت بلاد فارس وكرمان والاهواز لسلطته ، وعندما سمع يزيد بن عبد الملك بخبره ارسل له اماناً على ان يعود لطاعته . فرفض ذلك ابن المهلب ، فأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً من الشام بقيادة اخيه مسلمة وابن اخيه العباس بن الوليد ، فخرج ابن المهلب من البصرة الى واسط ، والتقى بالجيش الاموي في ميدان العقر على شاطئ الفرات الايمن بالقرب من الكوفة ، وجرت بين الطرفين معركة هائلة ، قتل فيها يزيد بن المهلب ، واخوه حبيب ، وهرب سائر الجند . أما آل المهلب فقد هربوا من وجه مسلمة وجنوده الى كرمان ، ومنها الى الهند ، الا ان الجند الاموي تبعهم وقضى عليهم . وهكذا كانت خاتمة هذه الاسرة الكريمة التي ابلت بلاء حسناً في محاربة الخوارج . واما مسلمة بن عبد الملك فانه بعد ان اخمد الفتن ولاه اخوه يزيد العراق وخراسان ، ولم يلبث ان عزله لانه ابطأ في ارسال الخراج اليه ، وعين مكانه عمر بن هبيرة . فعين هذا سعيد الحرشي على خراسان وسنرى اعماله فيما بعد .

اما الفتنة الثانية : فقد قام فيها يزيد بن مسلم ، ولاه يزيد بن عبد الملك ولاية افريقية فعامل اهلها البربر بالشدة والقسوة ، واراد ان يجبر من اعتنق الاسلام منهم على دفع الجزية ، كما انه حاول ان يرغمهم على البقاء في قراهم وعدم النزوح الى المدن ، فثاروا عليه وخلعوه وولوا مكانه محمد بن يزيد ، وكتبوا بذلك الى الخليفة فوافقهم على ذلك .

سياسة يزيد الثاني الخارجية

لم يقم العرب في زمن يزيد بفتوحات خارجية عظيمة ، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية ، ولظلم العمال والولاة ، وانشغال الخليفة بلهوه عن مصالح المسلمين ، وماحدث في زمنه من الفتوحات الخارجية هو : ان سعيد الحرشي والي خراسان اشترك بحروب مع الصغد من اهل سمرقند حتى كاد يستأصلهم فيها . وكذلك قام الجراح بن عبد الله الحكمي بوقائع مع اهل الخزر وارمينية كانت الحروب فيها سجالا بين الطرفين .

وفاة يزيد الثاني :

توفي يزيد بن عبد الملك في اربد من ارض البلقاء في ٥ شعبان سنة ١٠٥ هـ ويقال انه مات لحزنه على حبابة التي كان يحبها هي وجارية اخرى تدعى سلاّمة ، وقد اقام مع حبابة عدة ايام بعد موتها ، ومنع دفنها حتى جيفت ، فنصحه اهله ان يخفي حزنه عليها حرصاً على مقام الخلافة وان يدفنها . وما لبث بعد دفنها بضعة ايام حتى لحق بها ، واوصى بالخلافة الى اخيه هشام ومن بعده الى ابنه الوليد الذي كان صغير السن . ودامت خلافته نحو اربع سنين ومات وعمره ٣٨ سنة .

١٠ - هشام بن عبد الملك

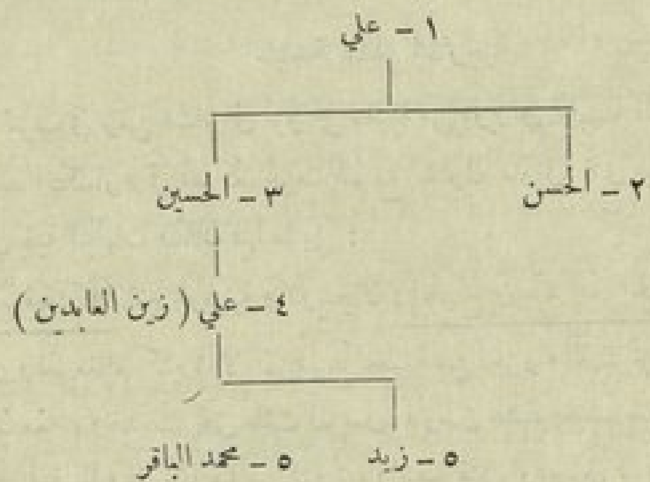
١٠٥ - ١٢٥ هـ او ٧٢٤ - ٧٤٣ م

ولد هشام سنة ٩٢ هـ، أبوه عبد الملك وامه عائشة بنت هشام المخزومية . تسلم الخلافة بعد موت اخيه يزيد وكانت حالة البلاد الداخلية والخارجية سيئة للغاية ، فالعصبية القبلية كانت مشتدة بين قيس ويمن ، والخوارج ناقمون على يزيد الثاني لخلاعته وتهتكه ، ودعاة العلويين يكيدون للامويين في الخفاء ، بينما كانت قبائل الترك والخزر تشتد من جهة الشمال والشرق وتهاجم البلاد الاسلامية فكانت البلاد في حالة ازمة شديدة ناشئة عن سوء ادارة يزيد الثاني . وتحتاج الى خليفة قوي يدير امورها بحكمة وعزيمة ، ليوقف هذا التدهور الذي كانت جارية فيه الدولة . فجاء هشام واصلح الحالة بعض الشيء، وأخر انهيار الخلافة الى وقت ابعد . فنظف البلاط الاموي مما كان فيه من اهل اللهو والمجون ، واخمد العصبية القبلية بتقريبه لرجال القيسيين واليمنيين . وقمع ثورة العلويين ، وحارب اعداء الدولة الداخليين والخارجيين . فهدأت البلاد قليلا عما كانت عليه فاعتبر هشام بذلك أحد سواس بني امية الثلاثة وهم : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام .

سياسة هشام الداخلية

كان ولاة العراق يشرفون على سير البلاد الشرقية ، ويراقبون اعمالها ، وذلك لأنهم اقرب لتلك الاقطار من الخلفاء الامويين الذين كانوا يتخذون مراكزهم في بلاد الشام . ولذلك كان ولاة العراق يتمتعون بسلطان واسع يمتد من الفرات الى حدود الصين . فهم الذين يرسلون على الاغلب عمالا الى البلاد الشرقية ، كما ان معظم مراسلات اولئك العمال كانت مع والي العراق . فانتخاب ولاة قديرين للعراق يتوقف عليه هدوء تلك الاقطار وتوسع الفتوحات فيها . فلما ولي هشام الخلافة عزل عمر بن هبيرة والي العراق في زمن يزيد وعين مكانه خالد بن عبد الله القسري الذي بقي خمسة عشر سنة والياً للعراق قام في خلالها باعمال عمرانية كثيرة : حفر الترع ، واصلح الانهار ، وبنى الابنية الكثيرة . الا انه قرب اليه اهله وعشيرته اليمنيين ، وعينهم على الولايات الشرقية ، فأثار بذلك حفيظة القيسيين . فمازالوا يشون به الى الخليفة حتى عزله وولى مكانه رجلا من القيسيين وهو يوسف بن عمر الثقفي . فكان اول عمل قام به ان قبض على خالد وحبسه هو وعماله ، فأثار بذلك نقمة اليمنيين . وكان يوسف من ذوي الاخلاق المتناقضة ، كان طويل الصلاة ملازماً للمسجد ، لين الكلام متواضعاً ، كثير التضرع والدعاء ، الا انه شديد العقوبة مسرفاً في ضرب خصومه وايذاء مناكسيه .

في زمنه قامت ثورة زيد بن علي[١] خرج بالكوفة . ويقال ان سبب خروجه يعود الى انه طلب من هشام بعض المساعدة ، فاعرض هشام عنه وأهمل شأنه ، فخرج ساخطاً الى الكوفة ، موطناً النفس على القيام في وجه الخليفة ، فنصحه أهله الا يركن الى اهل العراق ، لأنهم خذلوا جده الحسين من قبله . فأبى وأصر على الثورة ، والتف حوله في الكوفة (١٥) الفاً وقيل اربعون الفاً وبلغت اخباره يوسف بن عمر وكان بالحيرة وتهيأ له ، فلما علم بذلك أهل الكوفة جاءوا زيداً وقالوا له : « ما قولك في ابي بكر وعمر ؟ » قال : « رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت احداً من أهل بيتي يقول فيهما الا خيراً ... قد وليا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة » قالوا : « فلم يظلمك هؤلاء إذا كان اولئك لم يظلموك فلم تدعوا الى قتالهم » فقال : « ان هؤلاء ليسوا كأولئك . هؤلاء ظالمون لي ولكم ولأنفسهم ، وانما ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (س) والى السنن ان تحيا ، والى البدع ان تطفأ ، فان اجبتمونا سعدتم وان ابيتم فلست عليكم بوكيل » ففارقوه ونكثوا



فرقة الزيدية

١ ـ هو زيد بن علي بن الحسين، والى زيد تنتسب الفرقة الزيدية . او الزيود ، المنتشرون في اليمن وزيد يعتبر الامام الخامس عندهم الا ان بعض الشيعة تعتبر محمد الباقر هو الامام الخامس . وفرقة الزيدية تعتبر زيداً امامها لأنه خرج شاهراً سيفه في سبيل الدين ، محارباً الظلم والجور ، وهذه هي أهم صفات الامام عندهم فأي رجل من اهل البدو تحلى بها يصح ان يكون اماما عليهم . ولا يزال اتباع هذه الفرقة قائمون في بلاد اليمن وامامهم في الوقت الحاضر الامام يحيى حميد الدين .

بيمنه ، وقالوا سبق الامام يعنون محمداً الباقر . وكان قد مات . فسماهم زيد « الرافضة » وفي الليلة التي اتفق معهم على الخروج فيها لم يأته اكثر من مئتي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة لقلة عددهم ، وانتهى الامر بقتل زيد ، ودفنه اصحابه خلسة في ساقية واجروا الماء على قبره خوفاً ان يُمثل به . فدل بعض العبيد والي العراق على قبره فنبش القبر وأُخرج جثة زيد وصلبها . ثم احرقها وذر رمادها في الفرات بعد ان ارسل رأس زيد الى هشام ، فصلب على باب دمشق . فكان عمل يوسف بن عمر هذا خالياً من العاطفة الانسانية .

أما في خرسان وما وراء النهر فقد ولي في زمن هشام ولاة عديدون قاموا بمحاربة الترك بمواقع عنيفة جداً ، اظهروا فيها بطولة واقدام ، وآخر هؤلاء الولاة : نصر بن سيار ، ولاه هشام خرسان فكان له غزواة الى ما وراء النهر كانت كلها ناجحة ، واحسن ادارة البلاد ، ووضع الجزية عمن اسلم من العجم . الا انه كان شديد العصبية للمضريين ، فخذله لذلك اليمنيين ونقموا عليه وسنرى فيما بعد اثر هذه السياسة في قيام الدعوة العباسية

سياسة هشام الخارجية

وصل العرب في زمن هشام الى تور على مقربة من باريز في الجهة الغربية ، ولكنهم ارتدوا على اعقابهم بعد انكسارهم في معركة جرت لهم مع شارل مارتل قتل فيها قائدهم عبد الرحمن الغافقي . أما في بقية الجبهات فكان فيها ما يلي :

الجبهة الشرقية : كان امير ارمينية واذربيجان : الجراح بن عبد الله الحكمي قام بغزوات جريئة في بلاد الخزر وغنم مغانم كثيرة الا ان جموعاً عظيمة من الخزر والترك تجمعت عليه بمرج اردبيل قتلته ومن كان معه ، وتقدمت حتى بلغت الموصل فأرسل هشام جيشاً بقيادة سعيد الحرشي رد هذه الجموع على اعقابها وغنم منها غنائم كثيرة ، وانتقم لقتلى اردبيل ، واذل الخزر ، وخلص اسارى المسلمين واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه . الا ان هشاماً عزله وولى مكانه اخوه مسلمة بن عبد الملك فحارب الترك وفتح مدنهم وحصونهم ونشر الامن في تلك البلاد ، الا انه هزم امام جموع الخزر ، فعزله هشام وولى مكانه مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين وامده بمائة وعشرون الف مقاتل فتح بهم بلاد شواطىء بحر الخزر وبفضله ثبت قدم الاسلام في تلك الجهات .

الجبهة الشمالية : كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الشمال فكان الخلفاء الامويون يجهزون الصوائف والشواتي بصورة متصلة ، ويغيرون على بلاد الروم من جهة البر والبحر

ويولون قيادة هذه الحملات كبار قوادهم ، واشتهر من هؤلاء القواد في البر : مروان بن محمد ، ومسلمة ابن عبد الملك ، ومعاوية وسليمان وسعيد اولاد الخليفة هشام . ومن ابطال هذه الجبهة الذين اخافوا الروم : عبد الوهاب بن بخت ، وعبدالله البطال الذي كانت نساء الروم تخوف ابناءهـا باسمه . وقد فتحوا ثغوراً كثيرة في غزواتهم التي شنوها على الروم ، اهمها : قونية ، وقيسارية وغيرها من الحصون . وكان امير البحر في عهد هشام ، عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ومن اشهر القواد عبد الله بن عقبة ، وابي عبد الله بن مريم ، وكانت جبهة العرب في هذا الدور قوية ، لان الاحوال الداخلية كانت منتظمة ، ولذلك كانت كفة العرب راجحة على كفة البيزنطيين .

صفات هشام

كان هشام خشناً فظاً ، صارماً حليماً ، عفيفاً طاهر الذيل ، بعيداً عن الاسراف والتبذير ، الا انه متعصب في رأيه ، ضيق افق التفكير ، حريصاً على معتقدات السنة متمسكاً بها وحامياً لها عن أي خروج او تطرف . ومتمسكاً بطبيعته كثير عزل الولاة وتبديلهم ، ولم يأمن لأحـد منهم . وكان يعتمد على الجواسيس والمؤامرات للتفرقة بين خصومه واعدائه . واشتهر هشام بحسن ادارة المالية الى درجة اتصف معها بالبخل والتقتير قال عبد الله بن علي : « جمعت دواوين بني امية فلم ار ديواناً أصح ، ولا أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام » وقد رويت قصص كثيرة عن بخله منها : انه دخل بستان له ومعه ندماؤه فطافوا به . فجعلوا يأكلون من ثماره ويقولون بارك الله لامير المؤمنين . فقال هشام : « وكيف يبارك لي فيه وانتم تأكلونـه » . ثم نادى حارسه فقال له : « اقلع شجره واغرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل منه أحد شيئاً » .

قام هشام بجملة اصلاحات عمرانية . فقد اهتم بتعمير القرى والضيع ، وحفر القنوات والبرك في طريق مكة ، وقوى الثغور كما نشط صناعة الخز والقطيفة ، وكان كلفاً بالخيـل وهو اول من أقام لها الحلبات من الخلفاء ، كما عني بعدد الحرب والسلاح .

ولاية العهد

كان يزيد الثاني قد جعل ولاية العهد لابنه الوليد من بعد أخيه هشام . فحاول هشام ان يعزل الوليد ويولي مكانه ابنه مسلمة ودعا بعض القواد الى ذلك ، فساعدوه الا انه لم ينجح أخيراً في مسعاه وبقيت الولاية للوليد ، وكانت نتيجة ذلك ان غضب الوليد على انصار هشام وانتقم منهم فيما بعـد ، وتوفي هشام في الســادس من ربيع الثـاني سنة ١٢٥ هـ بعد حكم دام تسع عشرة سنة وستة اشهر .

١١ = الوليد الثاني

١٢٥ - ١٢٦ هـ او ٧٤٣ - ٧٤٤ م

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وامه تدعى ام الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي . تولى الخلافة بعد هشام وكان حاقداً عليه ، وعلى مساعديه الذين حاولوا نقض بيعته ، وتولية مسلمة ابن هشام بدلا عنه . كما ان هشاماً قد اساء معاملة الوليد ، وانزل به انواع العذاب ، وحاول ارغامه على التنازل عن الخلافة ووعده وأوعده حتى اضطره لترك دمشق والالتجاء الى البادية ، حيث قضى فتوته وشبابه بالصيد واللهو والشراب يترقب وفاة هشام بلهفة وحرقة لينتقم من اهله واعوانه ، وكان نازلا بالازرق من بلاد الاردن عندما جاءه الناعي يخبره بموت هشام . فكان اول ما فعله ان كتب الى العباس بن عبد الملك ان يأتي الرصافة ـ مقر بيت هشام ـ وان يحجز ما فيها من اموال هشام وولده وعياله وحشمه الا مسلمة بن هشام الذي طالما كلم اباه في الرفق بالوليد . ففعل العباس ما امر به الخليفة . وقد روى عن الوليد شعر كثير في الشماتة بهشام من ذلك قوله :

ليت هشاما كان حياً فيرى ... محلبه الأوفر قد إنزعى

ليت هشاماً عاش حتى يرى ... مكياله الأوفر قد طبعا

كلناه بالصاع الذي كاله ... وما ظلمناه به اصبعا

عوامل انهيار الخلافة الاموية في زمن الوليد الثاني

اولاً : سوء معاملة الوليد لاقربائه من البيت الأموي : كان ممن اجاب هشاماً الى خلع الوليد محمد وابراهيم ابنا هشام بن اسماعيل المخزوميان ، فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي والياً عليها ودفع اليه محمداً وابراهيم موثقين في عباءتين ، فقدم بهما المدينة فأقامهما للناس ، ثم حملا الى الشام فاحضرا عند الوليد ، فأمر بجلدهما ، فقال محمد : اسألك بالقرابة ، قال : وأي قرابة بيننا؟ قال : فقد نهى رسول الله (ص) عن ضرب بسوط الا في حد ، قال ففي حد اضربك وقود . انت اول من فعل بالعرجي [١] وهو ابن عمي وابن امير المؤمنين عثمان . ثم امر به الوليد فجلد هو واخوه ابراهيم ثم اوثقهما حديداً وامر ان يبعث بهما الى يوسف بن عمر وهو على العراق ، فلما قدم بهما عذبهما حتى ماتا . وكذلك فعل الوليد الثاني مع كثير من اقاربه من العائلة الاموية حتى ضاعت هيبة الامويين عند الناس ، وزال احترامهم لهم فقد امر الوليد بضرب سليمان بن هشام بن عبد الملك

---

١ ـ كان محمد قد اخذ العرجي وقيده واقامه للناس وجلده وسجنه الى ان مات بعد تسع سنين لهجائه اياه .

مائة سوط وبحلق رأسه ولحيته ، وبتغريبه الى عمان من ارض الشام . وحبس يزيد بن هشام وغيره من ولد الوليد وكلهم من افراد البيت الاموي .

ثانياً : اضطهاد آل البيت والشيعة : عندما ثار يحيى بن زيد بن علي احد أئمة الشيعة في خرسان وكان واليها نصر بن سيار ، أرسل نصر جيشاً فرق به جموع يحيى وقتله وحمل رأسه الى الوليد ، وصلب جسده في خرسان وقيل انه بقي مصلوباً حتى جاء ابو مسلم الخرساني احد دعاة العباسيين فأنزله ودفنه وتتبع قتلته ، فمن كان حياً منهم قتله ، ومن كان ميتاً الحق بأهله السوء ، وكان مقتل يحيى ومن قبله زيد من اهم العوامل في نصرة أهل خرسان لآل البيت حتى قيل انه لم يلد في تلك السنة التي قتل فيها يحيى مولوداً الا وسمي يحيى او زيد لما دخل أهل خرسان من الحزن عليهما .

ثالثاً : سوء معاملة اليمنيين وتقريب الوليد للقيسيين : كان خالد بن عبد الله القسري سيداً من سادات اليمن ، وكان والياً لهشام بن عبد الملك في العراق ، فطلب اليه الوليد ان يبايع لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده ، فأبى ، فغضب عليه الوليد وعزله عن ولاية العراق ، وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفي احد زعماء المضريين ، وسلم الوليد خالد بن عبد الله القسري الى يوسف مقابل خمسون الف الف درهم ، فعذبه عذاباً شديداً حتى مات ، فغضب اليمانيون على الوليد وانفضوا من حوله وكانوا هم اكثر جنده فخسر بذلك قوة لا يستهان بها .

رابعاً : خلاعة الوليد وتهتكه : كان بنوا امية يشيعون عن الوليد الثاني بين الناس القبائح والكفر حتى لقبوه — بخليع بني مروان — وكان صاحب شراب وله اشعار جيدة في وصف الخمر . وحج مرة فحمل معه كلاباً في صناديق . ويروى انه استفتح فألا في المصحف فخرج (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فالقاه وضربه بقوسه وقال :

تهددني بجبار عنيد	فهم انا ذاك جبار عنيد
اذا لاقيت ربك يوم حشر	فقل يا رب مزقني الوليد

ونحن نذكر هذه الروايات عن اخلاق الوليد بشيء من الحذر والتحفظ لان تاريخ بني امية قد دون في زمن العباسيين الناقمين على الامويين ولأن بعض الروايات تصف الوليد بغير هذه الصفات وتقول : « انه كان من أصبح الناس ، وأشعر الناس ، واصلح الناس » وعلى كل إذا لم يكن الوليد من اصلح الناس فلا بد ان الروايات التي ذكرت عن كفره وخلاعته فيها بعض المبالغة .

خامساً : مقتل الوليد الثاني : كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك يريد الخلافة لنفسه ، فاظهر النسك والزهد والتواضع ، فالتف حوله اليمانيون ، واجبروه على البيعة ، ليتنقموا من القيسيين اعدائهم . فاستشار بذلك اخاه العباس ، فنهاه ، فلم يقنه ، وبايعه الناس سراً ، وأرسل دعاته يدعون

الناس اليه ، فبلغ الخبر مروان بن محمد وهو بارمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك يأمره ان ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ، ويخوفهم خروج الامر عنهم ، فأعظم سعيد ذلك ، وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعى أخاه يزيد وتهدده ، فكتم يزيد الخبر فصدقه ، ولما اجتمع ليزيد امره أقبل الى دمشق ، وقد بايع له اكثر أهلها سراً فاستولى عليها ، وسير جيشاً لمقاتلة الوليد وكان في قصر له في عمان ، فخرج العباس اخو يزيد للدفاع عن الخليفة ولكنه لم ينجح وعندما احس الخليفة بالغلبة دخل قصره واغلق عليه بابه ، وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه. وقال يوم كيوم عثمان ، فدخلوا عليه وقتلوه ، وأرسلوا رأسه الى يزيد فنصبه على رمح وأمر ان يطاف به في دمشق . وكان قتله في آخر جمادي الآخرة سنة ١٢٦ ﻫ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر وكان في مقتله انقسام البيت الاموي على نفسه وانهيار الخلافة الاموية .

١٢ = يزيد الثالث

١٢٦ ﻫ او ٧٤٤ م

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وامه ام ولد اي ليست عربية ، بل فارسية ترجع بنسبها الى كسرى وفي ذلك يقول يزيد :

انا ابن كسرى وأبي مروان   وقيصر جدي وجدي خاقان

كان يزيد تقياً ورعاً متمسكاً باصول الدين اشار في الخطبة التي القاها عقب مبايعته الى اسباب خروجه على ابن عمه ووعد بان اول ماسيعنى به هو تحصين الحدود واقامة الحاميات في المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الظالمين . الا انه لم يعش ليطبق مشروعه الذي صرح به ، ولم تسمح له الظروف بانجاز ما وعد به من الاصلاحات وقد لقب ـ بالناقص ـ لانه انقص اعطيات الجند الى ما كانت عليه في زمن هشام بعد ان زادها الوليد الثاني .

سياسة يزيد الثالث الداخلية

قامت الاضطرابات في زمن يزيد الثالث في حمص وفلسطين ، والاردن والعراق ، وخرسان . فكانت مدة حكمه كلها قلاقل قام بها اهل بيته من الامويين وعمال الوليد الثاني المضريين ، لان الخليفة يزيد حاول ان يعزلهم عن مناصبهم ليوليها الى انصاره اليمنيين ، الذين ساعدوه على الوصول الى الخلافة . فكان لقيام بعض افراد البيت الاموي وقيادتهم الثورة في وجه ابن عمهم الخليفة واشتعال نار العصبية القبلية بين قيس وعن الاثر السيء على الخلافة الاموية .

وفاة يزيد الثالث

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فقد توفي في العشرين من ذي الحجة سنة ١٢٦ ﻫ بعد حكم دام

نحو ستة اشهر وعهد بولاية العهد لأخيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

ابراهيم بن الوليد

عندما توفي يزيد قام بالامر من بعده اخوه ابراهيم ، ولم تتم له البيعة . فكان تارة يسلم عليه بالخلافة وتارة بالامارة ، وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما . ولم يبايعه الا قسم من اهل الشام ، أما بقية الاقطار الاسلامية فلم تعترف بخلافته ، وبقيت تابعة لولاتها . وقام مروان بن محمد والي الجزيرة وأرمينية بجيش قوي حارب به جيش ابراهيم وهزمه ودخل دمشق واستولى عليها ، فهرب ابراهيم الى تدمر بعد ان قتل ابني الوليد الثاني . فأمنه مروان بعد ذلك . ولم يعتبر بعض المؤرخين خلافة ابراهيم بن الوليد . ودام حكمه شهرين وعشرة أيام .

١٣ – مروان الثاني

١٢٧ – ١٣٢ هـ او ٧٤٤ – ٧٤٩ م

ولد مروان بن محمد سنة ٧٠هـ.وهو حفيد مروان بن الحكم ، وامه ام ولد كردية ، كان ابوه محمد عاملا على ارمينيا والجزيرة ، ثم خلفه ابنه مروان من بعده على تلك الولاية وبقي ١٢ سنة في ولايته يحارب الروم والخزر ، فأكسبته حياته الشاقة التي كان يزاولها في ميادين القتال قوة الاحتمال على شظف العيش ، حتى لقب بالحمار ، لانه كان لا يجف له لبد في محاربة الخارجين عليه . فكان يوصل السير بالسير ،ويصبر على مكاره الحرب . ولقب ـ الجعدي ـ نسبة الى مؤدبه : الجعد بن درهم . وكان يكني أبا عبد الملك ، وقد اشتهر بالشجاعة والدهاء والمكر والتقشف . وكان يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشيء سواء كان ذلك في وقت السلم او في ميادين القتال . واستمر على تلك الحياة حتى بعد ان بايعه اهل دمشق بالخلافة . فقام بإطفاء الفتن بعزم شديد ، ونفس قوية ، ولكن سيل الاضطرابات كان جارفاً ، فلم يستطع مروان ان يوقفه ، فانجرف معه .

سياسة مروان الثاني الداخلية

حكم مروان والثورة مندلعة في جميع الاقطار ، فقام يطفئها بعزيمة صادقة . ثار عليه اهل الشام لانه نقل العاصمة من دمشق الى حران لذلك ثار اهل حمص وتدمر والغوطة وفلسطين ، فحاربهم مروان وتغلب عليهم . ثم قام بقنسرين احد اقاربه من الامويين وهو سليمان بن هشام بن عبد الملك يطالب بالخلافة . فأخضعه مروان وقتل عدداً عظيما من جنده . ثم اشتعلت نار الثورة في العراق فقام الشيعة بالكوفة بقيادة عبد الله : احد اولاد جعفر بن ابي طالب فقمعت ثورته . ثم قام الخوارج بقيادة الضحاك بن قيس الشيباني واستولوا على الموصل فحاربهم عبدالله بن الخليفة مروان ، ثم جاء مروان بنفسه فقاتلهم وكادوا يهزمونه ولكنه تمكن بعد قتال عنيف ان ينتصر عليهم ويقتل الضحاك زعيمهم ،

فولوا بدلا عنه شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي قاتل جيوش الخليفة وانهزم من وجهه الى سجستان ، وهلك فيها سنة ١٣٠ هـ . كذلك خرج عليه المختار بن عوف الأزدي الشهير بأبي حمزة ، وانضم الى عبد الله بن يحيى وكان في الحج وهو من اهل حضرموت فبايعه ابو حمزة بالخلافة ، ودعا الناس الى قتال مروان . وكادت الحرب تقع بين اصحاب أبي حمزة وبين والي مكة والمدينة عبدالواحد ابن سليمان بن عبد الملك في اثناء الحج . إلا انهم تهادنوا الى ما بعد الحج وجرت معركة بين الطرفين كسر فيها جيش عبد الواحد وقتل منهم عدد عظيم واستولى ابو حمزة على المدينة وخطب بأهلها ، ومما قاله بعد ان حمد الله وأثنى عليه « يا أهل المدينة ، إنا لم نخرج من ديارنا وأموالنا أشراً ولا بطراً ولا عبثاً ولا لدولة ملك نريد ان نخوض فيه ، ولا لثأر قديم نيل منا ، ولكنا لما رأينا مصابيح الحق قد عطلت ، وعنف القائل بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الارض بما رحبت ، وسمعنا داعياً يدعو الى طاعة الرحمن ، وحكم القرآن فأجبنا داعي الله . . . وانتم يا اهل المدينة إن تنصروا مروان وآل مروان يسحتكم الله عز وجل بعذاب من عنده . . . »

ثم ان أبا حمزة ودع اهل المدينة وسار نحو الشام فأرسل اليه مروان جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف فارس ، عليه عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي فالتقى بأبي حمزة في وادي القرى ، فقاتله حتى قتله وهزم اصحابه وسار الى المدينة . فأقام بها شهراً ثم سار الى اليمن ، وحارب عبد الله بن يحيى فقتله وحمل رأسه الى الشام .

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت تجري بالشام والعراق والحجاز واليمن شغلت مروان عن خراسان وما كان يجري فيها . فكان ذلك اعظم مساعد لشيعة بني العباس ، ودعاتهم الذين تمكنوا من تأليف قوة استولت على خراسان والكوفة ، ونصبت السفاح خليفة . فجهز السفاح جيشاً أرسله مع عمه عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد ، فجرت معركة على الزاب إحدى فروع نهر الدجلة . انكسر بها مروان وجيشه ، فانهزم الى حران ثم الى دمشق ثم الى مصر فتبعه عبد الله بن علي ، قتله في بوصير بالفيوم في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ . وبقتله انتهى حكم الخلفاء الامويين وابتدأ عصر جديد بقيام — الخلافة العباسية . —

أسباب سقوط الدولة الأموية

كنت عرضت اسباب سقوط الدولة الاموية في خلال بحثي المتقدم عن الامويين وسأذكر الآن النقاط الرئيسية فقط واترك للطالب ان يتحرى الأمثلة عنها بنفسه مما عرفه من الابحاث السابقة .

يعود سقوط الخلافة الاموية الى الاسباب التالية :

١ ـ ولاية العهد ، وتوليتها لأكثر من شخص واحد .

٢ ـ مطالبة آل البيت بالخلافة ، وثورة الشيعة لهم .
٣ ـ الحركات الدينية والسياسية التي قام بها الخوارج والشيعة .
٤ ـ العصبية الجاهلية بين قيس ويمن ، وإذكاء الخلفاء والشعراء لها .
٥ ـ تغيير الولاة والقواد حسب تغيير النزعات .
٦ ـ سياسة الدولة العربية واحتقار الموالي ، ورد الفعل من هؤلاء .
٧ ـ تغيير هذه السياسة في زمن عمر بن عبد العزيز وقلبها الى سياسة دينية ، وإعفاء من اسلم من اهل الذمة من الجزية . وإعادة هذه الضريبة بعد وفاته .
٨ ـ سوء اخلاق بعض المتأخرين من الخلفاء الامويين ، واستهتارهم بالدين وانغماسهم في اللهو والمجون ، وشدة إسرافهم وترفهم . (١)
٩ ـ انقسام البيت الاموي على نفسه . (٢)
١٠ ـ نقل مروان العاصمة من دمشق الى حران ، وتخلي اهل الشام عن نصرتهم له .
١١ ـ اتساع بلاد الخلافة الاموية .

مميزات العصر الاموي

إن احكامنا على العصر الاموي في ذكر مميزاته تنطبق على العصر بكامله لا على اجزائه فهو عصر انتقال من حياة البداوة البسيطة المتأثرة بالنهضة الدينية الاسلامية في زمن الخلفاء الراشدين

---

١ ـ ذكر المسعودي ان سبب سقوط الدولة الاموية يعود لما يلي : « سئل بعض شيوخ بني امية ومحصليها عقيب زوال الملك عنهم الى بني العباس . ما كان سبب زوال ملككم ؟ قال : إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تفقده يلزمنا ، فظلمنا رعيتنا فيئسوا من إنصافنا وتمنوا الراحة منا ، وتحومل على اهل خراجنا فتخلوا عنا ، وخربت ضياعنا فخلت بيوت اموالنا ، ووثقنا بوزارئنا فآثروا مرافقهم على منافعنا وأمضوا اموراً دوننا ، وأخفوا علمها عنا ، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا ، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا ، وطلبنا اعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة انصارنا . وكان استتار الاخبار عنا من اوكد اسباب زوال ملكنا » (مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ١٩٤)

٢ ـ وقد حذر عباس بن الوليد اهله الامويين من هذا الانقسام فقال :

إني اعيذكم بالله من فتن ... مثل الجبال تسامى ثم تندفع
ان البرية قد ملت سياستكم ... فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تلحمن ذئاب الناس انفسكم ... ان الذئاب اذا ما الحمت رتعوا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم ... فثم لا حسرة تغني ولا جزع

الى حياة منظمة معقدة بعض الشيء بلغت أوجها في العصر العباسي .

فهو اولاً انتقال من خلافة دمقراطية دينية الى ملك مركزي دنيوي . او بكلمة اخرى انتقال من حكم انتخابي الى حكم إرثي . فبينا كان الخلفاء الراشدون يتصلون بالناس ويلبسون ابسط اللباس ولا يميزون انفسهم عن غيرهم بحرس او بلاط، نرى ان الخلفاء الامويين قد اعدوا بلاطاً فخماً احاطوه بالحرس والحجاب وأنشأوا المقاصير في المساجد ولبسوا افخر اللباس ، وقلدوا ملوك الروم وأكاسرة الفرس ... ويظهر هذا التحول ايضاً في سياسة اللين والورع عند الخلفاء الراشدين وسياسة الشدة والحزم وسفك الدماء عند الخلفاء الامويين .

ثانياً كان العصر الاموي عصر ترف وبذل للاموال انفقها الخلفاء الامويون على اشراف العرب في سبيل استمالتهم اليهم وإسكات المطالبين منهم بالخلافة وتقريبهم اليهم وكسب ألسنة الشعراء ليساعدوهم وينصروهم في دعم ملكهم ولذلك عاش كثير من العرب في بحبوحة ونعيم ولا سيما في ايام الهدوء والسكينة وبصورة خاصة في الحجاز .

ثالثاً : اتبع الامويون سياسة عربية متأثرة بالعصبية القبلية . اما الخلفاء الراشدون فقد كانت سياستهم دينية مستندة على تسوية عناصر الامة الاسلامية بعضها ببعض . واخفاء العصبية الجاهلية القديمة .

رابعاً : يمثل العصر الاموي التقاء العرب بغيرهم من الاقوام ومزج ثقافة تلك الاقوام باللغة العربية وصهرها بقالب عربي جديد له صفاته ومزاياه وطابعه الخاص وبذلك اختلفت الحضارة العربية عن حضارة الاقوام التي امتزجت فيهم .

خامساً : كان العصر الاموي عصر نزاع بين القديم والجديد . يتمثل ذلك في قيام اصحاب النبي وتابعيهم في وجه شباب ذلك العصر ونقدهم إياهم وردهم الى الحياة الدينية الاولى . وقيام الثورات في وجه بعض الخلفاء لاصلاح حالهم، وظهور بعض الفرق الدينية الناقمة على الحياة الجديدة كالخوارج مثلاً .

سادساً : يمثل العصر الاموي عصر الاعداد والتهيؤ لعصر حضارة أزهى وأوسع في المستقبل سواء من الناحية الادارية او العلمية او الاجتماعية او الفنية لما قام به الامويون من الجهود في هذا السبيل ولما عملوه في سبيل توسيع حدود بلادهم في الشرق والغرب . فأعدوا الهيكل الرئيسي للعمل فجاء العباسيون من بعدهم ونسجوا عليه حضارتهم ويتمثل ذلك بما قام به الخلفاء وعمالهم من الاصلاحات في تعريب الدواوين وتنظيم الجيش والاسطول وانشاء البريد وضرب النقود وإصلاح الخط العربي وبناء المساجد والقصور وغير ذلك وسنرى ذلك في بحث الحضارة .

الباب الثاني

الحضارة العربية في عهد الخلافة الاموية

نظام الحكم

الخلافة

كان الخليفة في ايام الخلفاء الراشدين ينتخب من المسلمين باجماع الرأي، ولم يشترك جميع العرب في انتخاب الخلفاء بل كان الامر بيد زعماء الانصار والمهاجرين . ولم يرشح اي فرد من المسلمين للخلافة بل كانت محصورة في قريش . وان كان من الممكن نظرياً ان ينتخب اي فرد من المسلمين توفرت فيه شروط الخلافة . ولم تتبع طريقة الانتخاب دائماً بل شذ عنها ابو بكر فولى عمر من بعده، وحصر عمر الخلافة برجال الشورى الستة المرشحين للخلافة .ولما انتقل الحكم للامويين لبست الخلافة في زمنهم مظهر الملك الارثي ، واستأثر الخلفاء بالخلافة وحسبوا ان تسمية من يأتي بعدهم إن هو إلا حق من حقوقهم المشروعة فقد عهد معاوية بالخلافة الى ابنه يزيد من بعده ، وسار الامويون على غراره وليت الامر اقتصر على تسمية واحد فقط للخلافة لكانوا احسنوا لهـذه الامة ووفروا عليها كثير من الخصومات والمنازعات ، ولكن الامر تجاوز ذلك الى تولية اثنين لولاية العهد ، مما جر الخراب والخسران على الاسرة الاموية وعلى الامة العربية . وانتقل الحكم من نظـام جمهوري الى نظام ملـكي . ومن نظام الشورى بين المسلمين الى نظام التوريث والحصر في خليفة معين واسرة معينة.

البيعة

كانت مراسيم البيعة تقام في المسجد الجامع حيث كان المسلمون يجتمعون في حشد حافل بعد وفاة الخليفة ليبايعوا الخليفة الجديد ويعاهدوه على الطاعة والولاء . اما في زمن الامويين فكان الخلفاء يأخذون البيعة في حياتهم لولاة عهودهم ، واحياناً يجبرون الناس عليها ، وكان الخليفة يأخذ البيعة لولي عهده في دمشق بنفسه وفي الامصار الاسلامية يأخذها بواسطة عماله وولاته . وبعد موت الخليفة تجدد البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد والميثاق. واول من كان يبايع امراء البيت الاموي ثم يليهم القواد ثم امراء الامصار ثم بقية المسلمين.ويقول السيد أمير علي « ان هذا النظام : نظام البيعة بولاية العهد يجمع بين مساوي‌ء الدمقراطية والاوتوقراطية دون ان يستفيد من مزايا إحداها . أما موافقة الشعب فكانت تغتصب اغتصاباً ، سواء بطريق القوة او التملق او الرشوة ولكنها كانت بعد اجراء المراسيم المعتادة تصبغ الانتخاب بالصبغة الشرعية . »

عمل الخليفة :

الخلافة هي رئاسة المسلمين عامه في امور دينهم ودنياهم . فالخليفة هو الحاكم الديني والدنيوي معاً له حق القيام بامور المسلمين الدينية بتطبيق احكام الدين وتنفيذ شرائع المسلمين حسب ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي (ص) ، وله حق النظر في شؤون دنياهم ، فبيده زمام الامة السياسي وهو الذي يولي الولايات ويعين القواد ، وبيده مالية الدولة . وهو الحاكم الزمني والروحي معاً .

الولاة :

كانت البلاد الاسلامية تدار بمعرفة أمراء او ولاة يختارهم الخلفاء من اسرهم او من غيرها ، وهم نواب عنهم في الولايات التي يحكمونها . وكان هؤلاء الافراد يختارون عمالا على الكور والاقاليم التي هي في حدود امارتهم . أما عمل هؤلاء الامراء والعمال فهو النيابة عن الخليفة في الامور الآتية :

اولا : إقامة الصلاة ، وإلقاء الخطب في المساجد يوم الجمعة .

ثانياً : قيادة الجيوش او إنابة احد عنهم .

ثالثاً : جباية الخراج والصدقات ووضع ذلك في مواضعه وإرسال ما يبقى منها للخليفة .

رابعاً : القضاء بين الناس في منازعاتهم ، وكان الخلفاء احياناً يولون جبايه الخراج والقضاء بين الناس رجالا من عندهم يتصلون بهم مباشرة دون تدخل الامراء او الولاة في شؤونهم وذلك لأهمية هاتين الوظيفتين بنظر الخليفة .

وكان الخلفاء الامويون يولون البلاد احياناً الى بعض الامراء ولاية عامة أي تكون الولاية كلها بيد الامير والوالي ويكون مستقلا فيها استقلالاً ادارياً يتصرف فيها كما يشاء ولا يشاور الخليفة إلا في الامور الهامة . واظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق ومصر . أما في العراق فقد استقل بالولاية زياد بن ابيه وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف وعمر بن هبيرة وخالد بن عبد الله القسري أما في مصر فقد استقل بالولاية عمرو بن العاص وبعض الولاة الذين جاؤا من بعده .

ولعل الذي دعا الخلفاء ان يولوا بعض الامراء ولاية عامة هو صعوبة المواصلات وبعد المسافات بين عاصمة الخلافة وبين بقية الولايات . إلا أن الخلفاء كانوا يقبلون كل مراجعة او ظلامة او شكوى على عمالهم ، فيردون الحق الى اهله ، وما كانوا يتأخرون احياناً عن عزل عمالهم ومصادرة اموالهم وسجنهم اذا اقتضى الامر . إلا أن هذه السياسة وجدت فقط في زمن الخلفاء الحازمين ، الحريصين على حقوق الرعية لا سيما عمر بن عبد العزيز . أما في زمن يزيد الثاني والوليد الثاني فقد اخذت المحسوبيات تدخل في جسم الدولة في تولية الامراء ، وفي سماع شكاوي الناس ، حتى ان من بعض الامراء كانوا يتركون مراكز اعمالهم وينزحون الى العاصمة ليتمتعوا بمباهج المدنية ومسراتها ، تاركين

زمام الحكم رتد بيد دفة الامور الى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلا لابتزاز اموال الدولة والجنوح الى الرشوة والاختلاس .

الامارات :

كانت البلاد الاسلامية في العصر الاموي مقسمة الى خمس أمارات كبرى وهي :

١ ـ الحجاز : ويشتمل المدينة ومكة والطائف ، ويقيم الامير بالمدينة ، وكان يضاف احياناً الى ذلك بلاد اليمن واحياناً تكون مستقلة بأمير .

٢ ـ العراق : ويشتمل الكوفة والبصرة وخرسان وعُمان والبحرين وكرمان وسائر بلاد ما وراء النهر والسند وبعض اقسام البنجاب . وكانت جميعها تؤلف امارة واحدة يحكمها أمير العراق الذى يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها . وكانت خراسان تستقل احياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً عاصمته في مرو .

٣ ـ الجزيرة وأرمينية : وتشمل بلاد الموصل وأذربجان وولايات ارمينية . ويقيم اميرها في حرّان

٤ ـ أجناد الشام : وهي خمسة : تضم فلسطين والاردن ودمشق وحمص وقنسرين . وكانت قنسرين تابعة لحمص ثم فصلت عنها في زمن يزيد بن معاوية .

٥ ـ مصر وافريقية : وتشمل مصر العليا والسفلى وشمالي افريقية والاندلس وجنوبي فرنسا وجزائر صقلية وسردينيا والبلاريك .

وكانت افريقية تستقل عن مصر احياناً ويولى عليها امير يخاطب الخليفة مباشرة عاصمته في القيروان ، وكانت الاندلس تابعة له يولى عليها اميراً من قبله عاصمته قرطبة .

الدواوين :

كان النظام الاداري في زمن الخلفاء الراشدين إبتدائياً يتناسب مع الحياة العربية فكان الخلفاء يتخذون الكتاب يكتبون لهم ما يتعلق بادارة الدولة من مراسلات مع الملوك في خارج المملكة الاسلامية او يكتبون لهم كتباً الى الامراء والقواد في داخل البلاد . إلا ان عمر بن الخطاب أقام نظاماً جديداً اقتبسه عن الفرس وهو نظام الدواوين . فأنشأ ديوان الجند لكتابة اسماء الامراء والجند وما يخص كل منهم من العطاء . وانشأ ديوان الخراج والجباية لتدوين ما يرد الى بيت المال . وما يفرض لكل مسلم من العطاء . واستمرت الحالة على ذلك الى ان قامت الدولة الاموية فتوسعت الادارة قليلا نظراً لما حدث في زمنهم من الفتوحات . وتعددت الدواوين ولكنها ظلت اولية بالنسبة لما وصلت اليه في العصر العباسي وهذه هي اسماء الدواوين التي حدثت في زمن الخلافة الامويه وأم اعمالها:

١ — ديوان الرسائل : وكان لصاحبه حق الاشراف على الولايات وتصدر عنه الرسائل الى الامراء والعمال .

٢ — ديوان الخاتم : وقد نشأ في زمن معاوية بن ابي سفيان وكان فيه نواب مهمتهم نسخ أوامر الخليفة وابداعها هذا الديوان بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختم بعد ذلك بخاتم صاحب هذا الديوان . وكان هذا الديوان اكبر دواوين الدولة الاموية ، وظلت له اهمية كبرى حتى أواسط الدولة العباسية إذ الغي نظراً لتحول الاعمال من الخليفة الى الوزراء والامراء والسلاطين .

٣ — ديوان المستغلات : او الايرادات المتنوعة .

٤ — ديوان الخراج : ويشبه وزارة المالية في العصر الحاضر . وقد نقل هذا الديوان الى اللغة العربية في زمن عبد الملك بن مروان .

مالية الدولة :

كان بيت المال في زمن الخلفاء الراشدين ملكاً للمسلمين ، وكان لكل فرد من افراد الامة نصيباً معيناً يأخذه حسب قرابته للنبي او اسبقيته في الاسلام او بلائه في الجهاد ، ولما قامت الدولة الاموية اصبح بيت المال تحت تصرف الخلفاء الامويين يعطون او يحرمون من أرادوا حسب اهوائهم. وكانت واردات الدولة تجبى من نفس المصادر التي كانت تجبى منها في زمن الخلفاء الراشدين وهي : الغنيمة والزكاة والخراج والجزية والمكوس .

أما نفقات بيت المال فهي :

اولاً : رواتب القضاة والعمال والولاة والقائمين على بيت المال وسواهم من الموظفين .

ثانياً : اعطيات الجنود ، وثمن المعدات الحربية .

ثالثاً : إنشاء الطرق وفتح الترع وحفر الاقنية واعمال العمران .

رابعاً : نفقات الخليفة وأعطياته للاشراف والشعراء وغيرهم .

خامساً: النفقة على المسجونين واسرى المشركين .

وكانت كل ولاية تصرف إيرادها على مرافقها الخاصة ثم ترسل ما تبقى بعد ذلك الى الخزينة العامة ، وكانت حالة البلاد تختلف من ضيق الى رخاء حسب سياسة الخلفاء واهتمامهم بشؤون دولتهم ورعيتهم،ومراقبة الولاة واصحاب الخراج . او حسب قيام الثورات والاضطرابات في الدولة ، وقوة الدولة او ضعفها ، او حسب تقدم الفتوحات وتأخرها ، كل هذه العوامل وكثير غيرها كانت تؤثر على سياسة الدولة المالية .

الجيش

لم يكن للعرب في جاهليتهم جيش منظم بل كانوا متفرقين الى قبائل تسير كل قبيلة تحت راية زعيمها ، وقد وُجد بعض التنظيم في جيوش المناذرة،والغساسنة نظراً لاحتكاكهم بالفرس والروم . فكان للمناذرة مثلا كتيبتان من الجند أحدهما تدعى الدوابر والثانية الشهباء . ولما جاء الاسلام تغير وضع الجند فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع المسلمين القادرين على حمل السلاح من مهاجرين وانصار ، وكان قائدهم النبي (ص) في اكثر غزواتهم . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين . إلا أن قيادة الجيوش قد انتقلت من الخلفاء الى قواد يعينهم الخليفة من كبار المسلمين نظراً لانشغال الخلفاء في ادارة شؤون الدولة . وكان جميع المسلمين يتطوعون في الجيش من تلقاء انفسهم دون اجبار او كره . أما التجنيد الاجباري فقد ظهر على الاكثر في زمن الدولة الأموية لان الفتن الداخلية اضعفت الدافع الديني للجهاد في نفوس المسلمين فانصرف كثير منهم الى مزاولة الزراعة والتجارة . ولما رأى الكثير من المسلمين وانصرفوا عن الجهاد مما اضطر عبد الملك بن مروان الى إجبار الناس على حمل السلاح وإلزامهم بالخدمة العسكرية . واستعان على ذلك بعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي . وأصبح الجيش في زمن الامويين مؤلفاً من عنصرين :

المرتزقة : وهو الجيش الدائم الذي يتناول الزاد والرواتب في أيام الحرب والسلم .

والمتطوعة : وهو الجيش الاحتياطي الذي كان يتشكل عند الحاجة من المسلمين.

التعبئة :

كان نظام القتال عند العرب في الجاهلية هو الكر والفر : وهو ان يكر المحاربون على خصومهم اذا لمسوا منهم ضعفاً ثم يفرون اذا انسوا منهم قوة . فلما ظهر الاسلام ونزلت الآية الكريمة « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » اتبع المسلمون نظام الصفوف وهي ان يتصفوا صفاً واحداً أو اكثر كأنهم في الصلاة متلاصقين بعضهم الى جانب بعض ، ويتلقوا عدوهم كأنهم بنيان مرصوص . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين فكانوا ينظمون جيوشهم على ثلاثة صفوف متراصة يتقدمها حاملوا السيوف وخلفهم حاملوا الرماح ، ثم يليهم حاملوا السهام . والفرسان يقفون على ميمنة الجيش وميسرته، والمعارك تبدأ بالمناهدة او المبارزة بين الافراد، ثم يلتحم الجيشان بعد ذلك . ومن اقدم الأزمان كان الجيش يقسم الى خمسة اقسام ولذلك سمي بالخميس . وهذه الاقسام هي : الميمنة ، والميسرة ، والقلب ، والمقدمة ، والساقة (المؤخرة) وكانوا يقسمون الجيوش الى فرق يضعون على كل عشرة جنود عريف ، وعلى رأس كل مئة جندي نقيب ، وعلى رأس كل الف جندي قائد ، وعلى رأس كل عشرة آلاف جندي أمير ، يخضع هؤلاء بعضهم الى

بعض حسب التسلسل في الرتبة . واذا اجتمع عدة امراء في معركة واحدة فأمير القوم من يسلمه الخليفة الرايةويأمره باقامة الصلاة بالجنود. وقد أدخل مروان الثاني آخر الخلفاء الامويين نظام الكراديس في تعبئة الجيش .

وكان العرب يحملون معهم نساءهم لساحات القتال ويجعلونهم في مؤخرة الجيش يرتكزون عليهن بالكر والفر . وكان النساء يشجعن المحاربين على القتال والاقدام ويمرضن الجرحى ، ويطهين الطعام ويجمعن السهام واحياناً كثيرة يحاربن في صفوف الرجال .

وكان المسلمون يقرأون سورة الانفال قبل بدء القتال ويرتلون الآيات القرآنية والقصائد والاشعار أثناء المعركة وكثيراً ما كانت تدق الطبول وتقرع الصنوج في سبيل إثارة الحماسة في قلوب المحاربين.

وكان لقواد الجيوش وامرائها فضل عظيم في إذكاء الشجاعة والاقدام في نفوس المحاربين واليهم يعود الفضل في تنظيم الجيوش وتعبئتها وانتصارها في اكثر الاحايين. ومن امثال هؤلاء القواد في زمن الامويين المهلب بن ابي صفرة وقتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي ومسلمة بن عبد الملك وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وموسى بن نصير وغيرهم من القواد الذين ابلوا بلاءاً حسناً في الجهاد ورفعوا راية الامويين عالية في البلاد .(١)

أسلحة الجيش

كان الجيش يتألف من فرسان ومشاة ورماة ويحمل كل من هؤلاء سلاحاً خاصاً به . فالفرسان يركبون الخيل والهجن ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح. أما المشاة فسلاحهم الدروع والسيوف والحراب والقسي والسهام مما يدل على ان الرماة كانوا فرقة من المشاة ولها أهمية عظيمة في الجيش وذلك لان العرب مهروا في الرمي فكان احدهم يرمي إحدى عيني الغزال دون الاخرى . وهؤلاء يسمون « رماة الحدق » . وكان الخلفاء والقواد يحثون رجالهم على إتقان الرماية كما يحضونهم على العناية بخيولهم مثل عنايتهم بنسائهم . وكان للعرب اسلحة ثقيلة تستخدم في الحصار اخذوها عن

---

١ — اوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء وهي :

(١) حراستهم من غرة يظفر بها العدو منهم . (٢) ان يتخير لهم موضع نزولهم لمحاربة عدوهم . (٣) إعداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعلوفة وتفرق عليهم في وقت الحاجة . (٤) ان يعرف اخبار عدوه . (٥) ترتيب الجيش في مصاف الحرب . (٦) ان يقوي نفوسهم بما يشعرهم من الظفر. (٧) ان يعدهم ثواب الدنيا والآخرة . (٨) ان يشاور ذوي الرأي فيما أعضل . (٩) ان يأخذ جيشه بما أوجبه الله تعالى من حقوقه حتى لا يكون بينهم تجوز في دين . (١٠) ان لا يمكن احداً من جيشه ان يتشاغل بتجارة او زراعة ...

الفرس والروم وأهمها المنجنيق والدبابة (١) والكبش (٢) والنار اليونانية . وكانت معدات الجيش وذخيرته تحمل على الأبل وتوضع في مؤخرة الجيش اثناء المعركة . وقد ساعد الجمل العرب في نقل مؤونتهم وذخائرهم الى مسافات طويلة بصبره على الجوع والعطش وتحمله لمشاق الاسفار وقطع البوادي . وكان عاملاً من عوامل نجاح المسلمين على غيرهم من الامم التي حاربوها .

رواتب الجند :

لم يكن للجند في زمن النبي (ص) رواتب معينة بل كانوا يأخذون اربعة أخماس الفيء والغنيمة . الى ان قام عمر بن الخطاب وتوسع المسلمون في الفتوحات وكثرت الاموال بأيديهم ومالت نفوس بعض المسلمين الى الراحة والعمل بالصناعة والزراعة ، فبعث الخليفة عمر مناديه ينادي في المسلمين « إن عطاءكم قائم وإن رزق عيالكم سائر فلا يزرعون » . وأسس ديوان الجند وسجل فيه اسماء المسلمين وجعل لكل منهم عطاءاً خاصاً من بيت المال ، أضف الى ذلك ما كان يدفعه الى الجند وأولادهم من العطايا والحبوب . وظل الامر كذلك الى أوائل العصر الاموي . فقام معاوية يفرق الاموال على جنده وزاد في رواتبهم ليستجلب اليه قلوبهم لينضموا الى حزبه ، وبلغ راتب الجندى في زمانه الف درهم في السنة أي نحو ضعفي راتب الجندي في ايام عمر بن الخطاب . هذا عدا ما كان يعطيه معاوية لرؤساء الجند والامراء من المنح والهدايا ، وما كانت تقدمه الدولة للجنود من السلاح والذخيرة . وقد نقصت رواتب الجند بعد معاوية لان حكم الامويين قد توطد وثبتت أركانه . ومع ذلك فقد ظل راتب الجندي العربي اكثر من زميله الجندي البيزنطي .

معاملة الخلفاء الامويين لجندهم :

كان الامويون من اشد الدول على جنودهم وهم في احسن جند ، لان الشاميين عرفوا بطاعة السلطان من بين جميع اهل البلدان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعة . قالوا وإنما ورث زناد معاوية بأهل الشام لانه كان في أطوع جند منهم ، والطاعة اول خطة يسلكها جندي وبفضل هذه الصفة المستحسنة رفعت اعلام الامويين في الصين من بلاد الشرق ، وفي الاندلس من بلاد الغرب وما بينها . وكان الامويون اذا عرض لجيوشهم شيء من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة ،

---

١ ــ الدبابة هي آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز وتغلف باللبود او الجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك .

٢ ــ الكبش : هو كالدبابة ولكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش متصل في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري على بكر معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرها يستخدم هذا العمود لثقب الاسوار وتهديمها ويحتمي الرجال الذين يدفعون العمود تحت سقف الدبابة .

فيرد جماحها ، ويجمع على الطاعة قلوبها كما فعل زياد والحجاج بالعراق،ولولا شدتهما لخرج ذاك القطر عن طاعة بني امية .

وكان اليمانيون أكثرية الجيش الشامي ، وعليهم جل اعتماد رأس بني امية في الشام . وكان بعض الخلفاء يقربون القيسيين ويدخلونهم فيعداد جندهم . وكان الامويون في الايام العصيبه يجندون الشباب واشتد الحجاج حتي جند المحتلمين ومن انبت من الصبيان .

وقد استخدم الامويون اهالي البلاد المفتوحة في جيوشهم من البربر والفرس والترك وغيرهم من الاقوام إلا أن العنصر العربي كان المميز على جميع هذه الاقوام وكانت القيادة بيد العرب . وهذا ما يميز العصر الاموي على غيره من العصور .

الاسطول

الاسطول هو مجموع المراكب البحرية التي تعد للقتال في البحر . والمراكب الحربية عند العرب على انواع مختلفة حسب الغرض الذي اعدت له فبعضها يستخدم للقتال ، وبعضها لحمل الاثقال، والبعض الآخر للملاحة النهرية . وجميعها كان العرب يستخدمونها في أساطيلهم . ولكل نوع من انواع هذه المراكب اسماء خاصة .وقد تطورت هذه الانواع بحسب العصور العربية واكتفي بوصف مراكب القتال التي كانت في العصر الاموي فقط . إلا أن شكل المراكب بصورة عامة كان كما وصفه لنا ابن خلدون « المراكب أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت ، واعتبار سبحه في الماء، بقوادمه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسمك تحريك الرياح وربما اعينت بحركة المقاذيف كما في الاساطيل » .

ومن مراكب الاسطول أذكر :

اولاً الشونة :

الشونة مركب معد للجهاد في البحر ، يحمل فيه المقاتلة والرماة والجذافون ، ويكون مع المقاتلة اسلحتهم وعددهم الحربية . وفي الشونة ابراج(١) وقلاع(٢)، ومناظر وتوابيت (٣) ومنجنيقات

---

١ — الابراج : هي الابنية الخشبية التي تعمر على ظهر المراكب ليقف عليها المحاربون ويقاتلون منها الاعداء ، وكثيراً ما كانت هذه الابراج محاطة بالجلود المسقاة بالخل او المطلية بالطين والادوية التي تمنع النار من احراقها . ٢ — القلاع : هي امكنة خشبية تكون في المراكب يتحصن بها المقاتلون من سهام الاعداء ويرمون منها النبل والنفط . ٣ — التوابيت : هي صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها يصعد اليها الرجالة قبل استقبالهم العدو فيقيمون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في مخلاة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالحجارة وهم مختبئون بالصناديق .

ومرامي نفط (١) ونقابين بأيديهم مثاقب يسبحون تحت الماء ليثقبوا سفن الاعداء عند اشتباك القتال وتزين الشون بالاعلام قبل ذهابها للحرب. وينتدب لركوبها جماعة من الجند الاقوياء مزودين بأحسن الاسلحة يقفون صفوفاً على ابراجها المؤلفة من طبقات وبأيديهم قسيهم وسهامهم . وفي الطبقة السفلى من الشونة يكون البحرية والجذافون يعملون على تسيير الشونة ، وفي بعض الشون اكثر من مئة مجذاف يعمل على الجذاف الواحد رجلان والشونة سريعة الجري . سهلة الحركة قوية البناء ، بنيت خصيصاً للقتال وغزو السواحل . وقطع الطرق على سفن العدو واخذها وسلب ما فيها . وقد وصفها احد الشعراء بقوله :

أنشأت شواني طائرة	وبنيت على مائة مـــدنا
ببروج قتال تحسبها	في شم شواهقها قننا
ترمي ببروج ان ظهرت	لعـدو ، محرقة بطنا
وبنفـط ابيض تحسبه	ماء وبه تذكى السكـنا
ضمن التوفيق لها ظفراً	من هلك عداتك ما ضمنا.

وكان في مقدمة الشونة حديدة رفيعة تدعى اللجام (٢) تثقب بها جوانب سفن الاعداء اذا صدمتها بعنف .

ثانياً : البارجة :

إن كلمة بارجة محرفة عن الهندية ـ بيرة ـ وهي سفينة كبيرة من سفن الحرب تستخدم في بحر الهند كالشونة في البحر المتوسط ، كان الهنود يقطعون على المسلمين طرقهم بهذه البوارج ، ثم اتخذها العرب في هذا البحر في فتوحاتهم البحرية في خليج فارس والهند .

ثالثاً : الحراقة :

الحراقة هي سفن فيها مرامي النفط ، يرمى بها العدو في البحر وهي مراكب حربية كبيرة فيها العرادات ٣

---

١ ــ كان النفط يرمى بآلة تدعى ـ الزراقة ـ وهي انبوبة من نحاس تجعل في السفن وتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق سفن العدو .

٢ ــ اللجام : حديدة طويلة محدودة الرأس وأسفلها مجوف كسنان الرمح ، تدخل من اسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدم السفينة ، يقال لها ـ الاسطام ـ فيصير اللجام كأنه سنان الرمح بارز في مقدمة المركب يطعنون به مراكب العدو فلا يلبث حتى يخرق فينصب فيه الماء .

٣ ــ العرادة : آلة اصغر من المنجنيق ، يرمي بالحجارة او السهام مرامي بعيدة وترمي ايضاً بقدور النفط او العقارب وما اليها .

والمنجنيقات والزرقات التي يرمي بها النفط المشتعل على الاعداء . فهي اذن مراكب مشحونة بالمواد المحرقة . وأول من استعملها اليونان وكانوا يقذفون بالنار اليونانية منها . ثم أخذها عنهم العرب وكانت تسير بالمجاذيف ، ويركب النافطون فيها لابسين ثياباً تقيهم النيران ١ وقد اطلق اسم الحراقة فيما بعد على مراكب النزهة التي يركبها الخلفاء في الدجلة والنيل ، وقد صنع للخليفة الامين حراقات بشكل الليث والعقاب والدلفين مزينة احسن زينة بالكسوة الجميلة والستور الفاخرة ٢

رابعاً : الطريدة :

مراكب للنقل كانت تستعمل في الاسطول لحمل الخيول والفرسان . وأكثر ما يحمل فيها اربعون فرساً . وكانت على الاكثر مفتوحة من خلفها يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ثم يخرج للبر . وكانت تسير بالمجاذيف على الاكثر .

هذه هي أهم سفن القتال في زمن الامويين وكانت ترافق هذه السفن زوارق وقوارب وسنابك صغيرة وكبيرة تستخدم لانزال الرجال الى السفن وحملهم الى البر ونقل المعدات والمؤن . وأهم المعدات التي كانوا يحملونها هي السلاح على انواعه والحبال والسلاسل والكلاليب التي تستخدم عند التحام الطرفين في وقت المعركة . فاذا دنوا من سفن عدوهم القوا الكلاليب عليه فيوقفونه ثم يشدونه اليهم ويرمون عليه الالواح كالجسر ويدخلون اليه ويقاتلونه في داخل مركبه واذا كان العدو قوياً أبطل عمل الكلاليب بفأس ثقيل من فولاذ ، يضربون به تلك الكلاليب فتنقطع وتنجو السفينة .

---

١ — ثياب النفاطين : هي ثياب تطلى من الداخل والخارج بمواد متخذة من النشادر والشب المصري ، والبهاني ومواد اخرى ... فاذا التهبت النار في الثوب لا تزال مشتعلة فيه وانت تنضح على الثوب من النفط ساعة بعد ساعة يومك أجمع ولا يصل الى داخل الثوب شيء ويلبسها الرجال اتقاء النار في القتال .

٢ — وصف أبو نواس هذه الحراقات بقوله :

سخر الله للامين مطايا ... لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن براً ... سار في الماء راكب ليث غاب
عجب الناس إذ رأوه على صو ... رة ليث يمر مر السحاب
سبحوا اذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنسر وجناحيـ ... ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اسـ ... ـتعملوها بجيئة وذهاب
بارك الله للامين وابقا ... ه وأبقى له رداء الشباب

دار الصناعة

دار الصناعة [١] هي مكان قداعد لانشاء المراكب البحرية ، وفيه عمال ومستخدمون يقومون بالاعمال الضرورية من بناء وانشاء للسفن وصنع أدوات ومعدات لها ويتناول هؤلاء العمال اجورهم من خزينة الدولة . والخشب هو الاساس في صنع المراكب إلا أن وصل الالواح بعضها ببعض يحتاج لربطها بمسامير من حديد أو ألياف بعض الاشجار الخاصة . ولذلك تعتبر هذه الصناعة من نوع « النجارة » كما يقول ابن خلدون . وبعد صنع المراكب تطلى بالقار [٢] او بغيره من المواد حتى لاتفسد ولا يدخل لجوفها الماء ، أو لسد خرزها ولتطرية أعوادها .

كيفية صنع السفن

لم يكن للمسلمين في بدء عهدهم خبرة في صنع السفن وركوب البحر وسبب ذلك في رأي ابن خلدون يعود الى « ان العرب لبداوتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافتــه (البحر) وركوبه . والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم في التغلب على اعواده مرنوا عليه ، فأحكموا الدرايــة بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خولاً لهم وتحت ايديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجاتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثو بصراء بها ، فتاقت نفوسهم الى الجهاد فيه ، وانشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال وامطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من امم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان اقرب الى هـذا البحر وعلى حافته ، مثل الشام وافريقيــة والمغرب والاندلس » .

وصناعة السفن تحتاج الى خبرة في الهندسة وإلى معرفة التناسب في المقادير لاخراج الشيء على وجه الاحكام لذلك لايستغنى فيها من الرجوع الى المهندسين ولذلك استخدم العرب الأفيقيين سكان الساحل السوري في صنع مراكبهم ، حتى اتقنوا الصنعة بأنفسهم وصنعوا مراكبهم .

والسفن التي صنعها العرب على قسمين منها سفن مسمارية ، أدخــل في بنائها المسمار وهي سفن

---

١ — ان كلمة Arsenal الاوربية مأخوذة من لفظ دار الصناعة العربية . وقد اخذ الاتراك هذا اللفظ عن الاوربيين فقالوا : ترسانه او ترسخانه . ثم استعمل العرب اللفظ التركي ظانين أنه كلمة آتية عن الاوربية . والحال ان مصدرها عربي ! !

٢ — القار مادة سوداء يطلى بها سفن البحر المتوسط ويؤتى به من جهــة العراق وفي البحر الهندي والاحمر وخليج فارس حيث لا يصلح القار لدهن المراكب كان أهلها يدهنون سفنهم بدهن الخروع ودهن القرش وهو شحم بعض الحيتان . لأن صنع سفنهم يقتضي ذلك .

البحر المتوسط . ومنها سفن مخيطة بحبال الليف كسفن بحر القلزم (الأحمر) والمحيط الهندي والخليج الفارسي .

أما السفن المسمارية : فيبدأ بانشائها اولا بقرب البحر على قاعدة أو مسطبة ويبدأ اولا ببناء فرش المركب او اساسه ثم يكمل الانشاء داخل البحر الى ان يتم . وتجري حفلة رسمية عند انتهائه يحضرها الخليفة والامراء والقواد والجند وعامة الناس ويكون يوم مشهود لما تقوم به البحرية من الالعاب والمناورات ويخلع الخليفة على رجاله الخلع والهدايا والأعطيات .

أما السفن المخيطة : فكانت تصنع بأن يثقب الألواح بعناية من نهايتها بواسطة مخرز من حديد ثم تخاط بأمراس من القنباري « وهو قشر جوز النارجيل يفتلون منه امراساً يخيطون بها المراكب » وبعد ذلك يخللونها بدسر من عيدان النخيل ثم يسقونها بسمن أو بدهن الخروع أو القرش ثم يرمونها الى البحر .

مراكز دور الصناعة

كانت دور الصناعة تبنى في السواحل قرب مصاب الانهار ، لا سيما في الاماكن التي تتوفر فيها الاخشاب كالصنوبر والسنديان والأرز وغيرها من انواع الاخشاب . وكانت شواطىء البحر المتوسط احسن المناطق لبناء مراكز الصناعة ، لذلك بنى الامويون دور الصناعة فيها . وكانت هذه المراكز ايضاً ملجأ للاسطول في غزواته يخرج منها للغزو ويعود اليها ، واول دار صناعة بنيت في ساحل الشام كانت في ثغر عكا وذلك في زمن معاوية بن ابي سفيان سنة (٤٩) ﻫ لأنها بعيدة عن تأثير الاسطول البزنطي الذي كان لا يتوانى عن غزو ساحل سورية وايقاع الضرر بمراكب المسلمين . وما زالت عكا مركز الصناعة حتى زمن بني مروان فنقل هشام بن عبد الملك الصناعة الى صور . وكانت مدينتي طرابلس وحيفا تشاركان عكا وصور في صنع المراكب في زمن الامويين . وكذلك كانت بيروت مركز صناعة المراكب في زمن معاوية ومنها جهز الاسطول الذي غزا به جزيرة قبرص .

اما في مصر : فكانت الاسكندرية مركز الصناعة في زمن الخليفة عثمان ومنها خرجت مراكب عبد الله بن سعد بن ابي سرح للاشتراك في معركة ذات الصواري .

اما في شمالي افريقية : فكانت تونس مركز الصناعة في زمن عبد الملك بن مروان وهو الذي اوعز لعامله حسان بن النعمان ان يتخذ دار الصناعة فيها لانشاء المراكب والآلات البحرية ليحافظ على مراسم الجهاد .

اما في الاندلس : فكانت المرية دار صناعة المراكب وهي مدينة مسورة على حافة بحر الزقاق واسوارها عالية وقلعتها منيعة شامخة وحولها الجبال المرتفعة . وكذلك دانية : كانت مركز انشاء

واقعة بشرق الاندلس على البحر وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر، وقد بني بهندسة وحكمة والسفن واردة عليها صادرة ومنها كان يخرج الاسطول للغزو . وكذلك طرطوشة : الواقعة على نهر الابرة وبها انشاء للمراكب الكبار من خشب جبالها . وبجبالها خشب الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والغلظ ومنه تتخذ الصواري وهو خشب احمر صافي البشرة بعيد عن التغيير لا يفعل فيه السوس ما يفعله في غيره من الخشب . وعلى المدينة سور صخر من بناء بني امية وهي باب من أبواب البحر...

ونلاحظ ان مراكز الصناعة كانت محصنة بنى الخلفاء والولاة حولها الاسوار المشرفة والخنادق السحيقة والابراج المتينة ليحافظوا عليها من غارات الاعداء.

وكان عمر بن الخطاب أول من شدد على عماله في تحصين السواحل فكتب الى معاوية بن أبي سفيان يأمره « في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها وإتخاذ المواقيد لها ولم يأذن له في غزو البحر » فلما قام عثمان كتب الى معاوية « يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزل اياها القطائع ففعل . . . ثم ان الناس بعد ذلك انتقلوا الى السواحل من كل ناحية » واستمر معاوية في تحصين السواحل وبناء الحصون عليها في ايام خلافته فحصن جبله وانطرطوس ومرقية وبلنياس وبنى حصن سفيان قرب طرابلس وبنى جبلة وكانت حصناً للروم جلوا عنه . واصلح مدينتي عكا وصور قبل ذهابه لغزو قبرس . وقام عبد الملك باتمام ما بدأ به معاوية واصلح ما خرب من الحصون والمدن الساحلية ولا سيما عكا وصور وحصن طرابلس . وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز الذي بنى وحصن مدينة اللاذقية الا ان العمل لم يتم في زمنه بل في زمن يزيد بن عبد الملك ومما قاله البلاذري عن اعمال الامويين الاصلاحية ما يلي « قل كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة ، وتقيم المراكب للغزو وترتب الحفظة في السواحل . »

قيادة الاسطول

ان قيادة الاسطول لا تنفصل عن قيادة الجند فكلاهما مكمل للآخر وادارتها تتبع على الاكثر نظام واحد وجماعة واحدة يقول ابن خلدون « قيادة الاساطيل وهي من مراتب الدولة وخططها في ملك المغرب وافريقية ومرؤوسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال » ويقول ابن خردادبة : « والمدبر لجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية » وكان جند الاسطول ينتخبون من فرق الجيش البري . فمعاوية بن ابي سفيان « صار يغزي البحر باليمنية والبر بالقيسية ، فشق ذلك على اليمنية لان القيسية من حضر ، فعاتبوه لجمع بين القبيلتين واغزاهم معاً . »

والقيادة في الاسطول على نوعين : نوع يختص بادارة الجند والعسكر المحارب وهذه تبقى كما هي في الجيوش البرية . والنوع الآخر يتعلق بادارة سفن الاسطول وهذه لها رتب خاصة أعلاها رتبة أمير البحر [1] : وهو امير كبير من اعيان الامراء واقوام جأشا يكون على رأس الاسطول ، يقول ابن خلدون : « فاذا اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل او غرض سلطاني مهم عسكرت بمرفئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلها لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم . وينتظر ايابهم بالفتح والغنيمة . »

وتحت امرة امير البحر رئيس البحرية ويقال له الريس او الربان ، او المعلم ويكون له ميزة تسيير المراكب واجرائها بالريح او بالمجاذيف . وقائد : يدبر أمر الجند والقتال في البحر .

ومن مشاهير رجال الاسطول العربي في العصر الاموي عبد الله بن قيس الجاسي الذي فتح قبرس سنة ٢٨ هـ وغزا خمسين غزوة بين شاتية وصائفة في البحر والبر وكان لمقتله حادثة غريبة « خرج في قارب طايعة فانتهى الى المرفأ من أرض الروم وعايه مساكين يسألون فتصدق عايهم فرجعت امرأة منهم الى قريتها فقالت للرجال هذا عبد الله بن قيس في المرفأ ! ! فثاروا اليه فهجموا عليه فقتلوه بعد ان قاتلهم . . . وقيل لتلك المرأة بعد . بأي شيء عرفتيه ؟ قالت كان كالتاجر ، فلما سألته أعطاني كالملك فعرفته بهذا ... !! » وكان عبد الله يصحب زوجته معه في غزواته في البحر كما كان يفعل غيره من العرب .

وهناك عدد كبير من ابطال العرب نبغوا في البحرية لا حاجة لتعدادهم وقد رفعوا علم الاسلام عاليا فوق لجة البحر حتى خافهم الروم وغيرهم من امم البحر المتوسط .

فى العمارة

أخذ العرب فن العمارة في بدء تكون حضارتهم عن الفرس والبيزنطيين ، وكيفوه حسب حاجتهم ومعتقداتهم ، واستخدموا البنائين والصناع من سكان البلاد المغلوبة في باديء الامر ، الا انهم وجهوهم في عملهم حسب الذوق العربي والطبيعة العربية فنشأ من ذلك فن له ميزاته وخصائصه التي تختلف عن المصادر الاولى التي صدر عنها .

فن العمارة في الاسلام :

كان عند العرب قبل الاسلام بعض الفنون لاسيما فن البناء ، فأهل اليمن بنوا السدود والقصور والهياكل والقلاع والاسوار ، ومنها سد مأرب وقصر غمدان . وكذلك عرف الانباط والتدمريين

---

١ — أخذ الاوربيون هذا اللفظ عن العرب واستعملوه في لغتهم فقالوا : Amiral .

رقياً عمرانياً عظيماً ولا تزال آثار مدنيتهم في البتراء وتدمر جاثمة حتى الآن . وكذلك آثار الغساسنة من قصور واقواس نصر ، وكنائس وحمامات ومسارح باقية حتى الآن في أرض حوران والاردن . أما اللخميين في الحيرة فقد عرفوا بقصري الخورنق والسدير . اما بقية القبائل العربية فكانت تكره المعيشة في القصور وتحتقر الصناعات ولذلك آثروا حياة الصحراء تحت الخيام وعاشوا على تربية انعامهم ومنتجاتها .

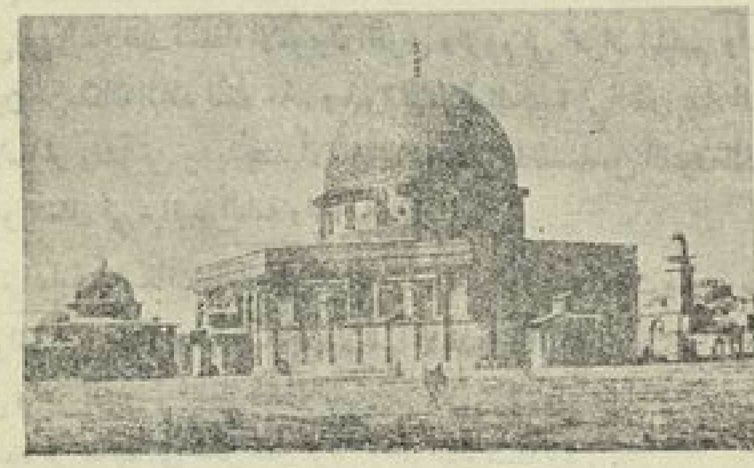
ولما جاء الاسلام لم يهتم المسلمون في بدء امرهم بفن البناء لأنهم كانوا مشغولين بنشر الاسلام واول المباني التي قام بها النبي (ص) هي المساجد وتابعه على ذلك الخلفاء الراشدون من بعده . فكانت ابنيتهم بسيطة بعيدة عن الزخارف والاشكال المصورة . مبنية من الطين المجفف والخشب سوى ما بني في زمن عثمان بن عفان وقد تابع الولاة الخلفاء في ذلك فالمدن والمعسكرات التي بنوها لجندهم في العراق والشام ومصر وشمالي افريقية : كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها كانت مبنية في اول الامر باللبن المجفف والطين والقصب والخشب ومنذ ان قامت الدولة الاموية حدث تغيير في فن البناء فقلد الخلفاء الامويون الفرس والروم في عمران ابنيتهم واستخدموا مهرة الصناع والبنائين من سكان البلاد المفتوحة . وبذلوا الاموال الكثيرة في الفن ببناء المساجد والقصور والحصون والاسوار ونشأ فن جديد عند الامويين يختلف عما تقدمه من الفنون العربية والبيزنطية والفارسية وهو يتمثل في مبانيهم العامة والخاصة .

أما مبانيهم العامة : فكانت خالية من الفنون التصويرية كالرسم والنحت وخصوصاً رسم الاشكال الآدمية والحيوانية واستعاضوا عنها بالكتابات لا سيما الآيات القرآنية ، واشكال النباتات من زهر وورق وغصن وشجر إلى رسم الخطوط الهندسية التي تمثل مختلف الاشكال والرسوم وكان القوس الذي استخدموه في بنائهم على شكل نعل فرس والمواميد مستديرة ...

أما في قصورهم الخاصة : فقد تسامحوا برسم الاشكال الحية التي تمثل حيوانات الصيد واشكال الآدميين المتنوعه . وسيتجلى لنا أثر ذلك بوصف بعض الابنية التي خلفها الامويون .

المساجد : كانت المساجد التي بنيت في العصر الاموي تتبع النمط الذي بنى به محمد (ص) مسجده في المدينة سنة ٦٢٢ م والذي بقي نموذجاً لسائر المساجد في جميع العصور « وكان هذا المسجد مساحة من الارض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر وقد كان هناك سقف على جزء من اجزاء هذا الجامع حيث كان النبي يؤم المصلين . ولعل الاسقف كانت مصنوعة من جريد النخيل ، وكان اتجاه القبلة يحدده المصلون بطريقة ما . » ثم اخذت المساجد تتطور مع الزمن ويزاد في بنائها أشياء جديدة ففي سنة ٩٣٩ م كان سقف المسجد الذي بني في الكوفة

مرفوعا على عمد من الرخام قد أتي بها من قصر احد ملوك الفرس في الحيرة ، وفي سنة ٦٤٢ م كان في المسجد الذي بناه عمرو بن العاص في الفسطاط منبر مرتفع . وفي زمن معاوية بن ابي سفيان ادخلت المقصورة لتحجب الخليفة عن سائر المصلين . وفي اواخر القرن السابع ظهرت المآذن ثم أدخل المحراب في جهة القبلة واخيراً دخلت زيادات ثانوية في بناء المساجد وهي الايوانات والاروقة التي تحيط بالصحن ، غرضها وقاية المصلين من المطر وحرارة الشمس. فكان شكل الجامع الاخير هو كما يلي : باحة وسطى مكشوفة تعرف بصحن الجامع ، يتوسطها حوض ماء للوضوء . وحولها اروقة قائمة على عمد مرتفعة ، وفي داخل رواق القبلة قاعة الصلاة الرئيسية التي تحتوي على المنبر والمقصورة والمحراب الذي يرشد الناس الى اتجاه الكعبة . ثم مأذنة عالية في احدى جوانب المسجد لاعلام المسلمين بوقت الصلاة . وأهم المساجد التي بنيت في العصر الاموي هي :



شكل (١) قبة الصخرة

قبة الصخرة :

شيدت قبة الصخرة قرب المسجد الصغير الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب في القدس بعد فتحها سنة ٦٣٩ م ولذلك يسمى هذا المسجد ايضاً بجامع عمر . وهذا المسجد بناء على شكل مثمن مبني من الحجر شيده عبد الملك بن مروان سنة (٦٩٠) م فوق الصخرة التي يروى ان النبي (ص) وضع قدمه عليها لما صعد الى السماء وفوق البناء قبة عالية تنطيها فسيفساء فيها موضوعات زخرفية باللونين الاخضر والذهبي ، والقبة محمولة على دائرة من أعمدة ضخمة من الرخام الاخضر والذهبي ذات تيجان مذهبة . وقد انفق عبد الملك في بناء هذا المسجد خراج مصر سبع سنين .



شكل (٢) الجامع الاموي

الجامع الأموي :

كان الجامع الاموي معبداً قبل الاسلام ، ثم صار في زمن البيزنطيين كنيسة القديس يوحنا الى زمن الفتح العربي ، فاخذ المسلمون نصفه الشرقي وبقي القسم الغربي بيد النصارى . وكانوا يدخلون من باب واحد وهو باب المعبد الاصلي في القبلة ، فينصرف النصاري الى جهة الغرب والمسلمون الى الشرق . ولما جاء الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) م عوضهم عن قسمهم وجعل كامل البناء مسجداً جامعاً وكان مبنياً على اعمدة الرخام طبقتين : الطبقة السفلى مؤلفة من أعمدة كبار وفوقها في الطبقة الثانية أعمدة صغار وفي خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء الذهب والأخضر والاصفر . وفي قبليه القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق أعلى ولا أبهى منظراً ، وفيه ثلاث منائر (مآذن) احداها وهي الكبرى كانت برجاً للروم وأقرت على ما كانت عليه وصيرت منارة . وتم بناء المسجد في سنة وفاة الوليد ، وقد جدد بناؤه ثلاث مرات على اثر ثلاث حرائق نشبت فيه .

واجمل ما وصف به هذا الجامع قول ابن منقذ الكناني :

وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يعير من المساجد جحفلا

(١٠)

ذو قبة رفعت فضاهت قلة | ومنابر بنيت فحاكت معقلا
تبدو الأهلة في أعاليها كما | يبدو الهلال تعاليا وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً | يعلو جداراً بالرخام مزملا
فكأنما محرابه من سندس | أو لؤلؤ وزمرد قد فصلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت | منه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما | تبدو العرائس بالحلي لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة | سالت فظنوها معيناً سلسلا
وببابه حركات ساعات اذا | فتحت لها باب تراجع مقفلا

وقد بنى الأمويون غير هذين المسجدين مساجد كثيرة منها مثلاً جامع القيروان الذي بُني في زمن هشام وتعتبر مأذنته الباقية حتى الآن من اقدم المآذن وهي عبارة عن برج مربع ضخم يضيق كلما ارتفع . وبني ايضاً في زمن هشام جامع الزيتونة في تونس .

القصور :

بنى الخلفاء الامويون القصور في المدن والبادية أو ما يقرب منها . لانهم كانوا يحبون حياة البادية ويحامون نزول العاصمة دمشق لرطوبتها التي تضر بصحتهم وقلما نجد خليفة أموياً إلا وابتنى له قصراً في إحدى مناطق الشام . ولا تزال آثار بعضها باقية حتى الآن .

وأقدم قصور الأمويين في دمشق قصر معاوية المعروف بالخضراء الذي استمد اسمه من لون زخرفته ونقوشه ، بُني بقرب المسجد الاموي وبني حوله قصور الامراء الامويين . «وكان قصر الخلافة في دمشق مزخرفاً بالذهب الوهاج والمرمر الناصع تكتنفه الحدائق الوارفة الظلال . وكانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطلية بماء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة» . وكانت الحفلات الخاصة في عهد هشام تقام في البهو الفسيح المبلط بالمرمر المشدود بالاسلاك الذهبية ، والمفروشة بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المآدب الحافلة متشحاً بالملابس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر . وكان الخدم والوصيفات يتشحون بثياب صفر وحلي الذهب ، او ثياب خضر وحلي الزمرد .

أما قصورهم التي في اطراف الشام فهي كثيرة جداً بعضها جعل للصيد والقنص يسكنها الخلفاء في رحلاتهم للصيد ، وبعضها الآخر جعل للسكن كمصيف أو مشتى . وهذه القصور على شكل قلعة لها مدخل واحد وأسوار وخنادق حولها ، وأبراج مستديرة في زواياها وعلى جوانبها ولكنها ليست

كلها ذات صفة عسكرية ، بل بعضها له طابع مدني لا سيما في فرشه وأثاثه . وأشهر هذه القصور :

قصر عمرا :

وهو قصر أموي يجمع بين مزايا الصروح الملكية والحصون ، اكتشفه (موسيل) سنة ١٨٩٨م في شرق الاردن . وهو بيت للصيد يُظن ان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذي شيده . وفيه مشاهد رياضية مرسومة على الجدران كالجريد وصيد الطيور والسمك ، وفيه صور تمثل الصناعات وصور رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتاريخ والفلسفة والشعر وخليفة جالس على العرش وحوله رجال ونساء وامرأة عريانة محلاة باللؤلؤ ، وفيه صور اشجار الكرمة والنخيل والحيوانات والطيور ... وتجلى في بنائه هندسة الروم والشاميين والفرس .

قصر الحير :

وهو من أجل القصور التي شيدها الامويون في البادية قرب تدمر . وقد كان مكاناً للسكن والصيد بني بجانبه جامع وحمام في وسط ارض زراعية خصبة . وزخارفه متنوعة ، جمعت عناصر الفنون القديمة . ففي الأربعين نافذة التي فيه يندر ان توجد نافذتان متشابهتان في زخارفهما . وبين الأعمدة الصغيرة التي في واجهة القصر توجد سبعة انواع مختلفة بعضها ذات اضلاع مستقيمة وبعضها مستديرة وبعضها اضلاعها معوجة أو تشبه جذوع النخيل ... وقد نقل هذا القصر الى دار الآثار بدمشق .

وعدا هذين القصرين يوجد قصر الرقط في مكة بناه معاوية بن أبي سفيان ، وجمل له بنائين فرساً من العراق فكانوا يبنونه بالحصى والآجر . وارتفع ثمن البناء في الحجاز حتى رووا ان معاوية اشترى داراً بالمدينة بستين الف دينار ، كان صاحبها قد اشتراها فيما يذكرون بزق خمر . ويروون مع ذلك انه قيل لصاحبها : « قد غبنك معاوية » ويوجد ايضاً قصر الخزنة وقصر الطوبا ، وقصر المشتى في شرق الاردن ، وقصر هشام بن عبد الملك في الرصافة (جنوبي الرقة) وغيرها من القصور الكثيرة .

هذه هي أهم قصور الخلفاء . أما مباني عامة الناس فكانت في الشام تعمر على الطراز البيزنطي وفي العراق تشاد على النمط الفارسي . أما في الحجاز فكانت تبنى على النمطين معاً . فكانوا يزينون البناء ويجصصونه من الظاهر والباطن ويستخدمون الحجارة المختلفة الالوان حتى تغنى الشعراء بهذه القصور لا سيما التي كانت بالعقيق في وادي المدينة . « وقد اتسع البناء في العقيق حتى كاد يفسد جمال عرصته المشهورة ، فمنع بنو امية البناء فيها ضناً بها ومحافظة على جمالها » .

الحياة الاجتماعية

كانت طبيعة عرب الجاهلية واخلاقهم نتيجة لاساليب معيشتهم واقليمهم ، وكان اهم ما اتصفوا به من الطباع هو العصبية القبلية ، والشجاعة والكرم والوفاء ، والنجدة والمروءة وحب الاستقلال واحترام الشيخوخة والاخذ بالثأر . وقد اشتهر من بينهم افراد اختصوا ببعض هذه الصفات حتى ضرب المثل فيهم ...

ولما جاء الاسلام بقي كثير من هذه الصفات عند العرب ، وتعدل بعضها حسب مقتضى الدين الحنيف ، لا سيما العصبية القبلية التي استبدلت بجامعة الدين ووحدة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وربطتهم بعضهم مع بعض .

ولما جاء العصر الاموي عادت العصبية القبلية من جديد ، وشجع الخلفاء بعض القبائل على الاخرى بتقريب رؤسائهم واعطائهم الاموال . وظهرت حياة جديدة في قصور بعض الخلفاء ، قوامها الغدر واستعمال السم ، وتقريب الجواري الاجنبيات وتقاليد الاعاجم في حياتهم الاجتماعية ، فقد قال ابن خلدون : « وأهل الدول أبداً يقلدون في طور الحضارة وأحوالها الدولة السابقة قبلهم ، ومثل هذا وقع للعرب لما كان الفتح ، وملكوا فارس والروم . واستخدموا بناتهم وأبناءهم ، ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة . فقد حكي أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقاعاً ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحاً ، فلما استعبدوا أهل الدول قبلهم ، واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك أفادوهم علاج ذلك ، والقيام على عمله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من اتساع العيش ، والتفنن في احواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الاحوال ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني ، والاسلحة والفرش والابنية ، وسائر الماعون والخرثي . وكذلك أحوالهم في ايام المباهاة ، والولائم وليالي الاعراس . فأتوا من ذلك وراء الغاية » . ومما اخذوه عن حضارة الامم المغلوبة : بناء الحمامات والقصور ، واستخدام الوصيفات في البيوت ، وتطاير الحمام ولعب الشطرنج والنرد في النوادي ، وسيتجلى اثر هذا التطور عند العرب في وصف نظام معيشتهم .

اولا . اللباس :

كان الخلفاء الراشدون يكتفون بالملابس البسيطة وهي عبارة عن وشاح أبيض وعمامة بيضاء . الا ان ولاتهم تأثروا بلباس اهل البلاد المفتوحة . يروى إن عمر بن الخطاب كتب الى ابي موسى الاشعري يوبخه فقال : « وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك

ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، ولما لقي عمر بن الخطاب معاوية عند مجيئه الى الشام ، ورأي زيه من الحديد والعدة وما فيه من ابهة الملك استنكر ذلك وقال « اكسروية يا معاوية ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين . انا في ثغر تجاه العدو ، وبنا الى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة » وروى عن الخليفة عمر انه قال : « اتزروا وارتدوا وانتعلوا واحتفوا ... ودعوا التنعم وزي العجم » .

ولما آل الامر الى الخلفاء الامويين اتخذوا دور الطراز لصنع ملابسهم وتزينها . وكانوا حريصين على أن يظهروا بأحسن هندام وأجمل زي فكانوا يخرجون الى المساجد لابسين ملابس وعمامات بيضاء منضدة بالجواهر الثمينة وبيدهم خاتم النبي (ص) والقضيب اشارة الخلافة . واذا ذهبوا الى الحج صحبوا معهم نساءهم وجواريهم عليهن الجلابيب والثياب المعصفرة التي هي فتنة للناس . وكان بعض الخلفاء لايلبسون القميص الا لبسة واحدة . الا ان يكون القميص نادراً معجباً . وكان عمالهم يرسلون لهم هذه الاثواب والحلل من ولاياتهم من اليمن والمشرق والمغرب . ويروى ان هشام بن عبد الملك كان مغرماً بالزينة والهندام حتى زعموا انه لم يكن في بني مروان اعطر ولا البس منه ، وانه خرج حاجاً فحمل ثياب ظهره على ستمائة جمل .

وكان الامويون لايظهرون في الحفلات امام الناس الا بأحسن الثياب ، قيل أن الوليد الثاني كان يتشح بالاثواب الحريرية المشجرة والموشاة بالقصب والسراويل المصنوعة من الحرير والدمقس . وتقلد الاشراف بالخلفاء — لان الناس على دين ملوكهم — فكانوا يلبسون القلانس ورقيق الثياب ومصبغاتها ، وثمينها وصقيلها حتى قيل ان مروان بن أبان بن عثمان كان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض وفوقها رداء عدني بالفي درهم .

ولم يكن النساء أقل حظاً من الرجال . فقد التفتت بعض النساء الى التزين في الثياب الملونة الشفافة ، واعتنين بهندامهن وهيأتهن ، ورغبن في اقتناء الحجارة الكريمة ، واللآلىء ، وانواع الحلي وكن يتزين بها .

وكان بعض النساء يتفنن بتصفيف شعورهن على شكل خاص . وكانت بعضهن يضعن على وجوههن الحجب او الخمر الرقيقة بقصد الزينة .

ثانياً الطعام :

كان طعام العرب في بدء عهدهم بسيطاً وهو عبارة عن الالبان والتمر والحبوب واللحوم . وكانوا يصنعون منها اطعمة مركبة كالثريد من اللحم واللبن والخبز ، والعصيدة : من اللبن والدقيق ، والوضيعة : من الدقيق والعسل والسمن ، وعندما قامت الفتوحات تعلموا انواعاً جديدة من المآكل وتفننوا بمعالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل على اساليب شتى . وقد حاول الخليفة عمر صد

الناس عن طعام الاعاجم والاكتفاء بمآكل العرب الا انه لم يفلح لان الناس تطوروا مع الزمن .
وعندما قامت الدولة الاموية زادت رغبة الناس في تنويع الطعام حتى قيل « ان العرب لا تعرف كثرة الالوان في اطعمتهم ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح ، حتى كان زمن معاوية فاتخذ الالوان ، وجرى بقية الخلفاء الامويين على نهجه وزادوا عليه فكان سليمان بن عبد الملك يصحب معه طباخه في رحلاته . نزل مرة ضيفاً في الطائف ، فقدم له جدي ودجاج هندي وحريرة فاكل ثم نادى برئيس طعامه فقال: افرغت من غذائي ؟ قال نعم قال وما هو ؟ قال ثمانون قدراً ، قال ائتني بها قدراً قدرا ، قال فاكثر ما اكل من كل قدرة ثلاث لقم ، واقل ما آكل لقمة . »
ولم يكن الخلفاء وحدهم يهتمون بطعامهم بل كان ولاتهم ايضا يسيرون على غرارهم . حتى قال امية بن عبد الله بن خالد وكان واليا على خراسان في زمن عبد الملك « ان خراج خراسان لايفي بمطبخي ! »
وكذلك كان بقية الاشراف يتمتعون بمثل هذه الحياة المترفة . وهناك روايات عديدة في الاغاني تدل على ذلك . الا اننا يجب ان نلتفت لحياة عامة الناس ونرى كيف كانت حياتهم ومعيشتهم . وخير صورة نمثل بها ذلك هو ما رواه إعرابي عن نفسه قال: « اني دخلت قرية بكر بن عاصم الهلالي ، واذا انا بدور متباينة ، واذا خصاص يبض بعضها الى بعض ، واذا بها ناس كثير مقبلون ومدبرون ، وعليهم ثياب حكوا بها انواع الزهر ، فقلت لنفسي : هذا احد العيدين الفطر او الاضحى ، ثم رجع الي ماعزب من عقلي فقلت خرجت من أهلي في عقب صفر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك . فبينا انا واقف اتعجب ، اذ اتاني رجل فأخذني بيدي ، فأدخلني بيتاً قد نجد ، وفي وجهه فرش ممهدة ، وعليها شاب ينال فرع شعره كتفيه ، والناس حوله سماطين ، فقلت في نفسي ، هذا الامير ! الذي يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، فقلت وأنا ماثل بين يديه : السلام عليك ايها الامير ورحمة الله ، قال فجذب رجل بيدي ، وقال ليس بالامير ، اجلس . قلت : فمن هو ؟ قال عروس . قلت : واثكل اماه ، لرب عروس بالبادية قد رأيته أهون على اصحابه من ... فلم البث ان ادخلت الرجال علينا آنات متدورات من خشب ، اما ماخف منها فتحمل حملا ، واما ماثقل فيدحرج ، فوضعت امامنا وحلّق القوم عليها حلقاً ، ثم اتينا بخرق بيض ، فالقيت عليها ، فهممت والله ان اسأل القوم خرقة منها ارقع بها قميصي ، وذلك اني رايت لها نسجا متلاحماً ، لايتبين له سدى ولا لحمة ، فلما بسط القوم ايديهم ، اذا هو يتمزق سريعاً ، واذا صنف من الخبز لا اعرفه ! ثم اتينا بطعام كثير من حلو وحامض ، وحار وبارد فأكثرت منه » .
هكذا كانت حالة الاعراب في زمن بني امية .

ثالثاً الغناء :

كان فن الغناء معروفاً عند العرب ، سما في الجاهلية والاسلام، وقدعرف باليمن والشام والحيرة حتى ان ابن عبد ربه قال « وانما كان اصل الغناء ومدنه في امهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة جندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع اسواق العرب » وكانوا يعزفون على المزاهر والبرابط(١) والعيدان (جمع عود) وكانت تغنيهم قيان ومغنيات روميات .الا ان فن الغناء ارتقى وازدهر في العصر الاموي لاسيما بعد ان اختلط العرب بالفرس والروم وغيرهم من الشعوب . وجاءتهم المغنيات من جميع البلاد تحمل كل واحدة فن قومها حتى اجتمع لديهم غناء الامم القديمة ، فعربوه وشذبوا منه مالا يتلاءم مع ذوقهم ، والبسوه حلة جديدة ، وصار فناً منظماً يقصد اليه له انظمته ، وحدوده ورجاله ومعلموه . ودخل المجتمع العربي في مجالس الخلفاء وفي قصور الاغنياء والاشراف ودور العامة والفقراء . فأثر في نفوس فتيان العرب من الامويين فغير من خلقهم ، ولطف من مزاجهم ، ورقق من طباعهم فعمدوا الى اللهو ، واخذوا بأسبابه حتى قالوا « لقد فهم قدر الدنيا من فهم قدر الغناء » .

وكان المغنون والمغنيات على جانب من الثقافة عظيم في فن الشعر والادب والسير والاخبار ، يصحبون الشعراء لينظموا لهم الاشعار فيلحنوها ويغنوها . وكان اهتمام الناس بالمغنين عظيماً واحترامهم لهم كبيراً لاسيما في الحجاز وبصورة خاصة في المدينه ، وكان هناك اندية خاصة فيها مغنون اخصاء يغنون فيها مختلف الغناء .

من أشهر المغنين والمغنيات في العصر الاموي: سعيد بن مسجح ، وطويس ، والغريض ، وجميلة ، وحبابة ، وسلامة وغيرهم . أما آلات الموسيقى فزيادة عما ذكرناه سابقاً فقد استعملوا المزامير والمعازف والطنابير .

المرأة

حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها ايام الجاهلية رغماً انتشار اللهو والترف في عهد الامويين . فكان نساء العرب يقابلن الرجال وتحدثن اليهن ويعقدن المجالس للشعراء والادباء . ويفاضلن بينهم . وممن اشتهر من النساء عائشة ام المؤمنين التي ضربت

---

(١) وصف اعرابي البربط فقال : « هي خشبة عيناها في صدرها فيها خيوط أربعة يدعى الاسفل منها الزير والذي يليه المثنى ، والذي يليه المثلث والأعلى البم » وقال عن العازف عليه : « فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف اذنه وعرك آذانها وحركها بخشبة في يده فنطقت ... »

بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث ، والفتيا ، والتاريخ والنسب والشعر وكذلك اسماء بنت ابي بكر وقد عرفت برواية الحديث والشجاعة والكرم . وسكينة بنت الحسين وكانت مولعة بالادب ومحبة للشعر وتعقد للشعراء مجالس يفدون اليها ، ويتناشدون في حضرتها فتسمع اليهم ، وتنقد ما ينظمون وتروي بعض اشعارهم ، وتشرح لهم فنونهم الشعرية وتفاضل بينهم . وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة اديبة عصرها يجتمع اليها الشعراء ويتبارون امامها وكانت متغلبة على زوجها مصعب بن الزبير وكانت هي وسكينة تسميان « عقيلتي قريش » حفظتا مكانة المرأة العربية في ذلك العصر ورفعتا مقامها وشأنها الى اسمى ما يتصوره العقل . وكذلك اشتهرت ام البنين زوجة الوليد بن عبد الملك وكان لها نفوذ عظيم عليه ولها حديث طريف مع الحجاج الذي اشار على الخليفة ان يتخلص من نفوذها فاجتمعت به ، فعاتبته وانبته ، حتى خرج من عندها وكان بطن الارض احب اليه من ظهرها . وكذلك ام الخير رابعة العدوية التي عرفت بصلاحها وعبادتها . وهناك كثير من شهيرات النساء في هذا العصر لا يمكننا ذكرهن جميعا .

وقد اتخذ الامويون الارقاء والخصيان في قصورهم ، وقد اقتبسوا هذه العادة من البيزنطيين وكان هذا مظهراً من مظاهر الفساد في البلاط الاموي وكان لكثرة السبايا والاماء تأثير على البيت العربي لان الرجل يتزوج بمن شاء من السبيات سواء كان قد غنمهن في الحرب او اشتراهن بالمال فامتزج الدم العربي بدم اجناس الامم المتنوعة فخرج من ذلك التزواج جيل جديد يختلف بطباعه وتربيته ، واخلاقه عن الجيل الاول . وكان لبعض السبيات تأثير غريب على رجال ذلك العصر حتى انهن فتن ذا النشء الجديد فغيرن من خلقه وطبعه فشغف باللهو والعبث ، وملكن عليه عقله فعاق بهن وخضع لسلطانهن . حتى لم يتخلص من ذلك بعض الخلفاء كيزيد بن عبد الملك وغيره وكان دخول الاماء الاجانب في البيت العربي عاملا من عوامل تدهور العرب .

الحياة الفكرية

لم يهتم العرب في صدر الاسلام بالعلوم والاداب ، لاشتغالهم بالحروب ، وفتوح البلدان وتنظيم ادارة الدولة ، وكانت معارفهم في هذا الدور ابتدائية تشبه معلومات العصر الجاهلي ، مع ما تعلموه من الاسلام من القرآن الكريم والسنة . فكانوا عارفين بالشعر والنسب ، وقيافة الاثر وعلم الانواء والنجوم ، وبعض المعلومات الطبية العملية . وقد شجع النبي (ص) المسلمين على طلب العلم فقال « اطلب العلم من المهد الى اللحد » وقال ايضا «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، وغيرها من الاحاديث التي تحض المسلمين رجالا ونساء على التعلم . وقد فرض النبي (ص) على فقراء اسرى

بدر أن يعلّم كل من يحسن الكتابة منهم عشرة من ابناء المسلمين ، مقابل فك أسرهم . كما ان الخلفاء الراشدين ساروا على نهج الرسول فلما فتحوا العراق جلبوا كثيراً ممن يحسن اللغة العربية من أهل الحيرة ليعلموا المسلمين الكتابة والقراءة . وعند ما نصل الى العصر الاموي نجد ان معارف العرب قد اتسعت وازدادت ، إلا انها ظلت اولية ، وبقيت ممتزجة بعضها ببعض ، ولم تستقل العلوم الا في العصر العباسي .

وسأذكر اهم علوم العرب في صدر الاسلام وفي العصر الاموي .

القرآن :

القرآن كلام الله ، أنزل على نبيه في نحو عشرين سنة ، بلغة قريش العربية . نزل تدريجاً حسب مقتضيات الاحوال في مكة والمدينة . لذلك فآياته على قسمين مكية ومدنية . وقد انزل على النبي (ص) بطريق الوحي ، بواسطة جبريل . وقد حفظه الله سبحانه وتعالى من كل تحريف او تبديل . وقد اهتم المسلمون كثيراً بجمعه بعد وفاة النبي ، وكان مفرّقا في الصحف التي كتبها كتاب الوحي والصحابة ومحفوظاً في صدر الحفاظ من المسلمين . وقد جمعت الصحف في زمن ابي بكر بمشورة عمر بن الخطاب . وقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحي في زمن الرسول . فجمع ما كان مكتوب منه ودوّن مالم يكن مدونا ، وسلم هذه الصحف الى ابي بكر ، فبقيت عنده حتى وفاته سنة ١٣ هـ ولما تولي عمر بن الخطاب الخلافة حفظت هذه الصحف عند ابنته حفصه زوج النبي (ص) . وفي زمن عثمان جمع القرآن بصورة نهائية ونسخ منه ستة مصاحف . بعث الخليفة باربعة منها الى مكة ، والبصرة ، والكوفة ، والشام ، وابقى واحداً لاهل المدينة ، واحتفظ بالآخر لديه وكان يسمى « الامام » ، وأمر الخليفة عثمان بحرق جميع المصاحف والصحف الاخرى التي كانت قبل ذلك . وبقي القرآن الكتاب المعول عليه فيما بعد من ناحية التشريع ، واستنتاج القوانين والاحكام الفقهية . ولذلك فقد اهتم المسلمون بتفسير آياته وفهمها ، ومعرفة احكامها ، ليطبقوها في حياتهم واحوالهم . وكانو يتناقلون التفسير شفاهاً الى أواخر القرن الاول ويروى ان عبد الله بن عباس المتوفي سنة ٦٨ هـ وضع تفسيراً للقرآن . وأن محمد الباقر كان له تفسيراً آخر . ولم تظهر التفاسير المفصلة الا في العصر العباسي .

الفقه :

الفقه هو العلم الباحث عن الاحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من ادلتها التي هي القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والقياس ،

فالقرآن : هو الاساس الذي استند اليه التشريع الاسلامي . ثم تأتي السنة بعده وهي تشتمل على ما قاله النبي (ص) أو فعله ، او حدث امامه واستحسنه ، اما الاجماع : فهو اتفاق المجتهدين من ائمة المسلمين في عصر من العصور على حكم من الاحكام . اما القياس : فهو الحاق امر بآخر في الحكم الشرعي لاتحاد بينهما في العلة . وقد ظهر من الفقهاء في هذا الدور عبد الرحمن بن عوف وعبد الله ابن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعري وابو حنيفة النعمان وغيرهم من الفقهاء .

اللغة :

ان العلوم اللغوية في صدر الاسلام لم تكن الا امتداداً مهذباً للعصر الجاهلي . لان المسلمين كانوا منشغلين في الفتوحات ، وتوطيد الاسلام في البلاد التي فتحوها . فلم تحدث علوم جديدة في اللغة وكل ما طرأ على اللغة في هذا الدور مقتصر على ما احدثه القرآن الكريم والحديث الشريف من توحيد اللهجات ، وتهذيب اللغة ، وزيادة مادتها بالفاظ نشأت ولم يكن العرب يعرفونها ، واخرى عرفت بمعان ، فحدث بها معاني جديدة : كالمؤمن والكافر ، والمنافق ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة وغيرها . . .

ولما انتقلت الخلافة إلى الامويين تابعوا عمل الخلفاء الراشدين في توسيع الفتوحات الا انهم جعلوا من الخلافة ملكا ، فعربوا الدواوين واحدثوا ديوان الرسائل ، واختلطوا بالاعاجم ، فكان من ذلك تجديد في الحياة لابد للغة من أن تتسع معه ، وتمتد لتنهض بمقتضيات هذا التجديد ومستحدثاته ولذلك ظهر في اللغة كلمات جديدة والفاظ حادثة ، في جميع نواحي الحياة : في أنواع الاسلحة ، والملابس والمآكل ، ومصطلحات الدواوين ، كما كان لاختلاط العجم مع العرب في المصاهرة والمتاجرة والتسري ، أن طرق الخلل الى لسان العرب وأخذ الفساد يدب في سليقتهم اللغوية وظهر اللحن ، وفشا في الامصار ، وتعدى الاعاجم وابناءهم الى العرب الخلص ، لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ففسدت ملكاتهم . فقام العلماء يضبطون هذه اللغة فنشأت العلوم اللغوية التي ظهر منها في صدر الاسلام والعصر الاموي علم النحو .

النحو :

النحو هو أول العلوم اللغوية التي ظهرت في الاسلام ، ويقال إن اول من فكر فيه علي بن ابي طالب ولقنه لأبي الاسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٧ هـ . ثم اخذه عن ابي الاسود جماعة التفوا حوله ونسجوا على منواله ، وزادوا على ماجاء به ، واكثرهم بصريّون لان مدرسة البصرة سبقت مدرسة الكوفة بمائة سنة تقريباً في درس هذا العلم ، ونشأ بين هاتين المدرستين مناظرات واختلافات في

عبد الله بن مسعود

الحسن البصري ت ١١٠
ابن شهاب الزهري

وظهر بعد ابي اسود الدؤلي من علماء البصرة الخليل ابن احمد وهو اول من وضع معجماً عربياً «كتاب العين» واليه ينسب اصحاب التراجم استنباط بحور الشعر واصول العروض كما ينسبون الى تلميذه "سيبويه" وضع اول مصنف مدرسي منظم في النحو يعرف باسم الكتاب

الاعراب وتعليله. ولعل سبب ظهور النحو في العراق قبل بقية الاقطار لامتزاج العجم بالعرب في هذا القطر واختلاطهم بهم قبل أن يحصل مثل هذا التمازج في بقية الاقطار ولذلك كانت ضرورة ضبط اللغة حاجة ماسة لابد منها. واستنبط العلماء قواعد النحو على مايظهر من اللغات الاجنبية كاليونانية والسريانية. فضُبط المفتوح من الحروف بنقطة واحدة فوقه، والمكسور بنقطة واحدة تحته، والمضموم بنقطة بين يدي الحرف، وترك الساكن بدون نقط. وكانت هذه النقط عوضاً عن الحركات من فتحة وكسرة وضمة وسكون، التي حلت محل النقط فيما بعد. ثم اخذت بقية الحركات تظهر بالتدريج في العصر الاموي والعصور التي تلته.

الحياة الادبية

كانت الحياة الادبية في صدر الاسلام متأثرة بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وذلك لان العرب التفتوا لدرس القرآن وفهمه وحفظه، كما فعلوا ذلك بالحديث ايضاً. وكانوا يرصعون خطبهم ورسائلهم بآيات القرآن ويميلون فيها الى الايجاز، كما كانت اشعارهم فيها بعض الالفاظ والمعاني الاسلامية التي تبحث في الجنة والنار والحساب والعذاب والبعث والنشور، مما لانجده في الشعر الجاهلي الا ان هذا التطور الذي حصل في الحياة الادبية ليس معناه القضاء على الاساليب والاغراض القديمة التي كانت متبعة في العصر الجاهلي. وانما هو تطور اقتضاه الاسلام وتعاليمه الجديدة.

ولما جاء العصر الاموي: تغيرت الحالة تغيراً ظاهراً في الحياة الادبية نظراً لدخول عوامل جديدة في الحياة السياسية، والاجتماعية والعقلية. فظهرت في الحياة السياسية احزاب مختلفة تطالب بالخلافة ونشأ عنها ثورات داخلية. فكان شعراء كل حزب يدعمون حزبهم بقصائد واشعار كثيرة كانت تقوم مقام الصحف في زمننا هذا. واستمال الخلفاء الشعراء بالمال ليدعموا سلطانهم وليشيدوا بعظمة ملكهم وينكلوا بخصومهم ومخالفيهم. كما تغيرت الحياة الاجتماعية: بما أفاء الله على العرب من أموال وثروات وأرقاء وسراري، فارتقت بذلك الحياة العربية من حياة البداوة الى مستوى الحضارة فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر والادب لم تكن موجودة من قبل. وكذلك تطورت الحياة العقلية بما أخذه العرب من حضارة الاقوام التي غلبوها، فأثر ذلك في عقائدهم ونظم اداراتهم وعلومهم مما يتمثل لنا في نثرهم وشعرهم.

النثر:

جاء القرآن الكريم نثراً لاشعراً وهذا ماقوى النثر في العصور الاسلامية وجعل المسلمين

يهتمون به أكثر من قبل وكانت هناك عوامل شتى ساعدت على رقي النثر منها حاجته الخلفاء والامراء الى الخطابة في المسلمين في كل جمعة وفي كل مناسبة يقتضيها منصبهم الديني والسياسي . فكان الخليفة يلقي خطاب العرش عند تسنمه سدة الخلافة ، ويلقي خطبة في كل جمعة في المسجد . وكان الامراء يقومون بمثل هذا العمل في ولاياتهم ، وكان القواد يخطبون بالجند قبل بدء القتال،فنشأ من ذلك نمو الخطابة وازدهارها . وكان الانشاء في اكثر هذه الخطب متين العبارة ، حسن السبك ، شديد الاسر ، موجزاً مع شيء من الاطناب في المناسبات التي تقتضي الاطناب . ومع ان اجزاء الخطب لم تكن مرتبة منطقياً ، فقد كان وقعها في أغلب الأحيان عظيما .

ومما ساعد على رقي النثر ايضاً حاجة الخلافة الاموية الى إنشاء ديوان الرسائل ، الذي اوجد نوعاً من النثر لم يعرفه العرب ، ولم يكن لهم به عهد ، وهو ما يدعى « النثر الفني » ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر الى ولاته وعماله في الاقاليم في شؤون الدولة . وشهد آخر العصر الاموي نفراً من الكتاب الذين خدموا في هذا الديوان وبرزوا فيه ، وأعظمهم عبد الحميد الكاتب ، زعيم الكتاب وواضع اصول الكتابة وقواعدها . كتب لمروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين وقد حفظت عنه رسائل كثيرة ، ويلوح في هذه الرسائل شيء من تطور النثر في ذلك العصر ، ولعل أظهر ما في هذا التطور امران : أولهما طول الرسائل ، وثانيهما طول الجمل ، وكثرة الترادف ، والعطف فيها .

ولعل أظهر خصائص فن الرسائل في هذا العصر متانة التركيب ؛ وشدة الاسر وحدة العاطفة ، وتمكين المعاني باسراد جمل تكاد تكون متقاربة في مدلولها ، ومترادفة في معانيها ، وايثار الايجاز وعدم تكلف السجع .

الشعر :

شجع الخلفاء الامويون الشعراء ، وقربوهم اليهم واعطوهم العطايا الوافرة ، ولا يوجد خليفة أموي سوى عمر بن عبد العزيز من لم يكن له شاعر او اكثر متقرب اليه ويدافع عنه ، حتى ان خلفاء بني امية كانوا شعراء يجيدون قول الشعر ولهم رأي في جيده وقبيحه . «وقد كان لرغبة هؤلاء الخلفاء في قرض الشعر وسماعه وقدرتهم على فهمه ونقده ، وتقديرهم إياه قدره وتشجيعهم الشعراء ورعايتهم لهم وإحسانهم اليهم بأجزل العطاء ، كان لهذا كله أثر كبير في تقدم الشعر ورواجه وانتشاره واقبال عامة الناس عليه » .

وقلد الأمراء والقواد والأشراف الخلفاء في تشجيع الشعراء واسباغ النعم عليهم ورعاية الادب ،

حتى وان يكون منهم ادباء وشعراء . وانتقل الشعر الى صفوف العامة من مختلف الطبقات رجالاً ونساءً ، وعقدوا له الحلقات والمجالس في مختلف المواضع التي كانوا يجتمعون فيها ، وفي شتى المناسبات فتناشدوا في المساجد ، ولهوا بسماعه في رحلاتهم وأسفارهم ، ومواسم حججهم ومنتزهاتهم ، حتى كانت تعقد حلقات خاصة للشعر في العقيق [1] والمربد [2] وفي غيرها من الامكنة . وما اسرع ما كان يدير هذا الشعر على الأفواه ، وما اسرع ما كان ينتشر ويذيع في الآفاق ، فلا يكاد يفرغ من نظمه الشاعر حتى تتناقله الركبان وتسير به الى اقصى البقاع التي استولى عليها العرب .

وكانت الخصومة الأدبية تقوم بين الشعراء ، ويقويها انقسام العرب الى قيسيين ويمانيين ، وخصومات بين الاقطار والاقاليم وعداء بين الاحزاب المختلفة من شيعة علي بن ابي طالب ، وحزب الامويين والخوارج والزبيريين وغيرهم من الاحزاب الدينية والسياسية . والتف حول كل حزب شعراء يذودون عن حياضه ، ويردون على خصومهم . فكان الأخطل مثلاً يدافع عن بني امية ، وعبيد الله بن قيس الرقيات يناضل عن الزبيريين ، وقطري بن الفجاءة يمثل حزب الخوارج ، والكميت ابن زيد الاسدي من شعراء الشيعة . وهكذا فلكل حزب شاعر او شعراء يدافعون عنه ويشرحون آراءه ، ويدعمون سياسته ، فكانت هذه الاشعار توقد الفتن وتزيد في حدتها وشدتها . إلا أنها من ناحية ثانية تصور لنا ذلك العصر احسن تصوير فهي معين فياض لكل من أراد درس الحياة الادبية والسياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

---

(١) العقيق : وادي قرب المدينة يبعد عنها نحو ميلين او ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية . وتنحدر اليه السيول الهابطة من الجبال حوله ، فتجعل فيه نهراً . فعندما يسيل العقيق يخرج اهل المدينة فيتمتعون بمنظره المبهج وينفرد بعضهم ليستحم بمائه ، ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياضه حلقات الانس والطرب . فيستنشدون الشعراء فينشدونهم من شعرهم ، ويلتمسون المغنين فيغنونهم من عذب أنغامهم . وينزوي بعضهم تحت نخيله لاهو ...

(٢) المربد : محلة في البصرة ، والاغلب انها كانت موضع سوق الابل ثم صارت سوق أدب اهل العراق . فكان الشعراء يجتمعون في ساحته ويتنافرون ويتهاجون ويتفاخرون ، وكان يحضر مجالسهم هذه جماهير من الناس تستمع الى اقوالهم ، وكان المستمعون ينقسمون فيما بينهم فيميل فريق مع شاعر ويميل الفريق الآخر مع شاعر آخر وقد يجوز ان يكون بينهم شعراء فيعينون احد المتبارين والمتهاجين على خصومه .

العلوم النقلية والادبية

— التاريخ :

كان العرب منذ جاهليتهم يحفظون الحوادث الخطيرة التي تمر عليهم ويتناقلونها بالرواية الشفوية جيلا بعد جيل ، كانهدام سد مأرب ، وهجرة القبائل القحطانية وايام العرب ، وكانوا يحفظون انسابهم ، فمجموع هذه الاخبار كان يشكل التاريخ .

ولما جاء النبي (ص) رغب المسلمون في تقصي اقواله وافعاله ليقتدوا بها ، فكان من ذلك علم خاص هو علم الحديث . وبقي هذا العلم سائداً في زمن الخلفاء الراشدين نظراً لشدة تمسكهم بالاقتداء باقوال النبي وافعاله . ولكن بقي المسلمون في هذا الدور يتناقلون الاحاديث والاخبار بطريق الرواية الشفوية . ولم يدون المسلمون أحاديث النبي (ص) واخبار الفتوحات الاسلامية الا في زمن الدولة الاموية ، لانهم كانوا قبل ذلك يجهلون التاريخ ، فلم يكن لهم مجال لتدوين اعمالهم ، وكان التدوين في زمن الامويين في خطاه الاولى ، حتى ان الذي دُون في العصر الاموي لم يصلنا كما دون لرغبة العباسيين في طمس التاريخ الاموي ، ولذلك ضاع معظم ما كتب في ذلك العصر ، ولم يبق منه إلا البقية الباقية الموجودة في الكتب التي وضعت في العصر العباسي .

أما اسباب وضع التاريخ فكثيرة منها :

١ — رغبة الافراد في حفظ تاريخهم ومعرفة الحوادث المهمة التي تمر بهم .

٢ — رغبة المسلمين في حفظ اعمال النبي (ص) وافعاله .

٣ — رغبة العرب في حفظ انسابهم العربية والاسلامية . لا سيما بعد ما سن الخليفة عمر بن الخطاب نظام العطاء من بيت مال المسلمين للأفراد بحسب قرابتهم للنبي واسبقيتهم في الاسلام وبلائهم في الجهاد .

٤ — رغبة بعض الخلفاء الامويين من سماع اخبار الامم الماضية ، لا سيما معاوية الذي كان شغوفاً بسماع اخبار ملوك الامم القديمة .

٥ — العاطفة القومية عند العرب التي نشأت بعد قيام الفرس بحركتهم الشعوبية وافتخارهم بملكهم الماضي .

أما انواع كتب التاريخ العربي فهي :

اولاً : كتب السير والتراجم والطبقات : وأهم السير التي كتبت في هذا الدور هي سيرة النبي (ص) كالسيرة التي كتبها عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤ ﻫ وهو اقدم من ألف في السيرة النبوية ، وكذلك سيرة أبان بن عثمان بن عفان المتوفى سنة ١٠٥ ﻫ التي جمعها له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة ، وكانت

اخبار هذه السيرة تنقل بطريق السند بالتسلسل ، حتى ترجع الى زمن النبي (ص) وكانت الحاجة لمعرفة صحة السند عظيمة ، فنشأ من ذلك علم خاص وهو علم التجريح والتعديل ، ومن ذلك نشأت كتب خاصة عن طبقات المحدثين لمعرفة ثقة كل رجل من العلم ومكانته في هذا العلم ومقدار إمكان الأخذ عنه .

ثانياً : كتب الفتوح والمغازي : وهي الكتب التي تبحث عن الحروب التي تمت في عهد الرسول بصورة خاصة . وتفيد في معرفة معاملة أهل البلاد المفتوحة ، لأن طريقة معاملتهم تختلف بحسب فتحهم للبلد بالحرب او بالمفاوضة والسلم . ككتاب ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ في المغازي وكتاب موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ هـ في المغازي ايضاً . وكتاب ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ وغيره ...

ثالثاً : الرسائل والمؤلفات الخاصة : وهي رسائل تبحث في موضوع خاص له أهميته في تاريخ المسلمين ، وله أثره في حياتهم كبيعة ابي بكر الصديق وقتل عثمان بن عفان ، وواقعة الجمل وصفين وغيرها . وقد كتب في هذه المواضيع ابو مخنف وهشام الكلبي . وقد ضاعت هذه الرسائل ولم يبق منها إلا نتف يسيرة في الكتب العامة . لا سيما في كتاب ابن جرير الطبري .

وقد حدث انواع اخرى للتأليف التاريخي في العصر العباسي .

الطب والكيمياء :

كان الطب عند العرب في صدر الاسلام عملياً ، اي انهم بنتيجة تجاربهم عرفوا بعض انواع الامراض وعلاجاتها . ولما قامت الفتوحات الاسلامية واختلط العرب بغيرهم من الامم المجاورة ، أخذوا عنهم بعض المعلومات الطبية ، واشتهر من الاطباء في زمن النبي (ص) الحارث بن كلدة الثقفي وابنه نضر من بعده . ويروى عن الخليفة خالد بن يزيد الأموي انه عمل على نقل بعض الكتب الطبية اليونانية الى العربية ، وكان عمله فريداً من نوعه لان بقية الخلفاء الامويين لم يهتموا بهذه الناحية ، ولم يتابعوا عمل خالد .

كذلك انصرف خالد الى علم الكيمياء والنجوم . ويقول ابن النديم في كتابه الفهرست : « إن الذي عنى في إخراج كتب القدماء في الصنعة هو خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو أول من ترجم له كتب الطب ، والنجوم والكيمياء . وله عدة كتب ورسائل فيها . وينسب الى خالد ديوان شعر في الكيمياء ، يصف فيه عملية التقطير والتكليس بوصف جميل . ولم تزدهر هذه العلوم وتدرس بصورة واسعة إلا في العصر العباسي .

الخلاصة : ان العرب في صدر الاسلام والعصر الأموي قد تطوروا قليلا في سلم الحضارة ، فكان اهتمامهم اولا بالعلوم القرآنية واللغوية . ثم بدأوا يهتمون بالعلوم النقلية والعقلية . وكانت تعليلاتهم في الأكثر مستمدة من القرآن والحديث . ولم يكن للاستنباط العقلي عندهم إلا الحظ القليل . إذ كان نشاط العرب العلمي في هذا الدور منصرفاً الى الناحية الشرعية واللغوية ، فدرسوا لغتهم ، وتفهموا دينهم وقاموا بنشره في البلاد التي فتحوها . ولم تكن العلوم قد استقلت بعضها عن بعض ، فكان الشخص الواحد قارئاً ومفسراً ومحدثاً وفقيهاً وراوياً للاخبار والشعر والأدب . ولم تستقل هذه العلوم بعضها عن بعض ، وتشكل ابحاثاً اختصاصية وتدون إلا في العصر العباسي .

الباب الثالث

حالة أوربا في زمن الخلافة الأموية

الامبراطورية الرومانية :

لا يستطيع احد ان يقدّر القرون الوسطى ، إلا أن يعرف شيئاً عن حالة الامبراطورية الرومانية التي ظهر في ضمن حدودها البرابرة الجرمن ، ونشأت بعد تطور طويل دول اوروبا الحالية .

لم يكن حكومات مستقلة في اوربا كما نشاهد اليوم على المصورات الجغرافية في مطلع القرن الخامس ميلادي . فجميع البلاد التي تشكل اليوم انكلترا ، وفرنسا ، واسبانيا ، وايطاليا ، كانت مملكة واسعة النطاق خاضعة للامبراطور الروماني وولاته . وكانت بلاد الجرمن ، مقاطعة مملوءة بالغابات يسكنها أقوام متوحشون . حاول الرومان — دون جدوى — الاستيلاء على بلادهم ، وأخيراً اكتفوا بمنع هجمات الجرمن بتحصين الحدود وبناء القلاع ، ووضع الحاميات على امتداد نهر الرين والدانوب .

وكانت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد على جنوبي وغربي اوربا ، وغربي آسيا والقسم الشمالي من أفريقية ، وتضم مختلف الشعوب والاجناس من مصريين وعرب ويهود ويونان وجرمن وغاليين وبريطانيين وإيبريين ، وكلهم خاضعون لسلطة رومة . وقد ورثت هذه الامبراطورية الكبيرة حضارة أثينا والاسكندرية وانطاكية وقرطاجه ، وسواء عاش الانسان في انكلترا او في بيت المقدس او في قرطاجة او فينا ، كان عليه ان يدفع ضريبة لخزينة رومة ، وان يخضع للقوانين الرومانية ، ويُحمى من قبل الجيش الروماني .

وللنظرة الاولى لا يصدّق المرء ان مثل هذه الامبراطورية العظيمة التي تضم على بعض شعوب إفريقية ، وآسيا ومعظم شعوب اوربا على اختلاف درجة حضاراتهم ان تبقى متماسكة مدة خمسة قرون قبل ان تقضي عليها هجمات البرابرة . وتؤسس في ضمنها ممالك متعددة . ويمكننا ان نعلل وحدة هذه الامبراطورية الى الامور التالية :

١ — نظام الحكم المتقن ، الذي ينفذ الى جميع اجزاء الامبراطورية دون ان يفوته جزء منها .
٢ — عبادة شخص الامبراطور الذي تمثل في الدولة .
٣ — تطبيق القانون الروماني في جميع اجزاء المملكة .

٤ — الطرق المعبدة الممتدة في جميع انحاء الامبراطورية ، ونظام النقد الموحد الذي يشجع على المبادلات الاقتصادية . ووحدة الاوزان والقياسات في جميع البلاد الرومانيه .

٥ — المعلمين الذين ترسلهم الحكومة لتوحيد الثقافة ونشرها بين صفوف الشعب الروماني . وكان يظن ان هذه الامبراطورية الرومانية ستبقى الى الأبد .

سقوط الامبراطورية الرومانية

لماذا سقطت هذه الامبراطورية القوية امام غارات البرابرة المتفرقة ؟

إن الجواب على مثل هذا السؤال صعب جداً . ولكن لعل ذلك يعود الى ان سكان هذه الامبراطورية اضاعوا بالتدريج قوتهم ووحدتهم ، وأصبحوا اقل نجاحاً مما كانوا عليه ، ولعله يمكننا تعليل اسباب هذا السقوط بالامور التالية :

١ — نظام الضرائب الجائر الذي اثقل كاهل جميع الطبقات حتى الغنية منها ، وذلك لسد نفقات البلاط .

٢ — نظام الرق الذي انزل اجور اليد العاملة ، وانقص العمل في وجه العمال الاحرار لرخص اجور الأرقاء وكثرة عددهم ، فكان الفقير في رومة من لا يملك عدة عبيد ، اما الغني فيملك عدة الالوف منهم .

٣ — سوء انتاج الارض ، وانحطاط محصولها بسبب قلة خصبها .

٤ — تسرب البرابرة الى البلاد الرومانية الذين سهلوا الطريق لاخوانهم فيما بعد لا كتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية . وقد استعان الاباطرة الرومان بهؤلاء البرابرة في جيوشهم ليقفوا على حدود الامبراطورية ، ويمنعوا اخوانهم الجرمن من الدخول الى بلاد الرومان . وكان يوليوس قيصر اول من استخدمهم في جيشه ، وحذا حذوه من جاء بعده من الأباطرة ، حتى صار استخدام الجرمن في الجيش الروماني امراً عادياً . وكنت ترى جيوشاً رومانية بكاملها مؤلفة منهم، حتى ان بعض القبائل الجرمانية كانت تنضم بكاملها الى الجيش الروماني وتبقى تحت قيادة رؤسائها . ونبغ من هؤلاء الجرمن بعض القواد ، ونال بعضهم وظائف كبيرة في الجيش وفي الحكومة .وبهذه الصورة صار عدد عظيم من سكان الامبراطوريه الرومانية من الجرمن قبل غارتهم الكبرى على البلاد . فتزوجوا من نساء الرومان وعرفوا مواطن الضعف في الامبراطورية وسهلوا الطريق لاخوانهم فيما بعد لاجتياح الامبراطورية الرومانية .

قبائل الجرمن

الجرمن : هم الاقوام الذين كانوا يسكنون الاراضي الواقعة بين نهري الرين والفيستول وما بين

بحر البلطيك ونهر الدانوب . وهم قبائل كثيرة العدد يقسمون الى ثلاثة اقسام :

اولاً : الجرمن الغربيون . ـ ومنهم الفرنك والالمان والسكسون ...

ثانياً : الجرمن الشماليون . ـ ومنهم الدانيمارکيون وسكان اسكانديناوية ...

ثالثاً : الجرمن الشرقيون . ـ ومنهم القوط والفاندال .

وجميع هؤلاء الجرمن من اخلاق متقاربة ، ومن اشكال متشابهة . فهم طوال القامة ، بيض البشرة ، حمر الوجوه ، شقر الشعور ، زرق العيون ، يكتسون بجلود الحيوانات او يلبسون نسيجاً من الصوف ، وأغنياؤهم يلبسون قمصاناً وسراويل ضيقة . ولباس نسائهم كلباس الرجال الا أنه أوسع منه . وأما الاولاد فهم عراة تقريباً .

وكان الجرمن يعيشون قبائل مستقلة لهم رؤساء يديرون امورهم ويحكمون بينهم ، وكانوا مولعين بالحرب والخمر والميسر . وكانوا ثلاث طبقات : الأشراف والعامة والعبيد . وكانت قراهم مؤلفة من أكواخ عارية من الاساس والفرش ، عملهم تربية المواشي : من غنم وبقر وخنازير . وكانوا مولعين بصيد الحيوانات المفترسة . وكانوا يزرعون الشيلم والشوفان ، ونساؤهم يغزلن وينسجن الملابس . وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والنبل . واذا ذهبوا الى الحرب كانوا يأخذون نساءهم واطفالهم معهم ويضعونهم في عجلات كبيرة . وكانوا يعبدون قوى الطبيعة من اشجار واحجار ونجوم . وكانو يعتقدون انها تسكن السهول وقمم الجبال والصحاري . ولم يكن عندهم كهنة ولا رجال دين . واخذوا يعتنقون المسيحية في القرن الرابع ميلادي عندما ترجم احد القوطيين الكتاب المقدس ونشر المسيحية بينهم .

هجمات البرابرة وانقسام الامبراطورية الرومانية

كانت محاولات الجرمن German قبل سنة ٣٧٥ م للدخول في بلاد الامبراطورية الرومانية تعود لحبهم للمغامرة . واملهم في كسب حضارة الرومان ، والانغماس في نعيمها ، او لكسب اراضي جديدة لتزايد عددهم في بلادهم ، وكان الرومان يمنعون هؤلاء البرابرة من الدخول لبلادهم بواسطة جيوشهم وحصونهم وحامياتهم . وقد حدث ان جاءت قوة جديدة من قبائل الهون Huns (وهي قبائل مغولية من اواسط آسيا) دفعت القوط نحو الامبراطورية الرومانية.(وهؤلاء القوط Goths من القبائل الجرمانية التي كانت تسكن الضفة العليا لنهر الدانوب) ، فاجتاز بعضهم نهر الدانوب والتجأ الى الامبراطورية الرومانية . فصدهم الجيش الروماني وجرت معركة عظيمة عند أدرنة Adrianople سنة ٣٧٨ م تغلب فيها القوط وقتلوا الامبراطور الروماني فالنز Valnes .

دخل الجرمن ارض الامبراطورية ، وعرفوا انهم يستطيعون التغلب على الجيوش الرومانية . وكانت معركة « أدرنة » مبدأ اكتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية من قبل الجرمن. واستمرت الغارات بعد ذلك فبعد عدة سنوات من هذه المعركة جاءت جموع من قوط الغرب Visigoths وقبلت شروط المعاهدة التي قدمها رجال الامبراطور ، وانضم بعضهم الى الجيش الروماني .

أما الاريك Alaric احد قواد الجرمن ، فلم يقبل تلك المعاهدة ، فجمع جيشاً مختلطاً كانت نواته من قوط الغرب (الفيزيقوط) وهاجم ايطاليا ، واستولى على رومة سنة ٤١٠ م ونهبها رجاله. وكان عجب الاريك من الحضارة الرومانية عظيما ، لذلك امر جنده ألا يخربوا المدينة ، ولا يحدثوا فيها أضراراً ولا يتعدوا على الكنائس او ينهبوها . وبذلك نجت رومة من الخراب . ومات ألاريك قبل ان يوطد لجنده في ايطاليا ارضاً يسكنوها ، لذلك انتقل قوط الغرب الى غاليا – أي فرنسا – Gaul ثم الى اسبانيا ، وكان يسكنها من قبل بعض القبائل البربرية . ومنهم الفاندال Vandals والسويف Suevi الذين اجتازوا نهر الرين وسكنوا غاليا قبل فتح الاريك لروما بأربع سنوات . وقد عاثوا في البلاد فساداً وخربوها . ثم اجتازوا جبال البيرنة ودخلوا الى اسبانيا . وعندما وصل قوط الغرب الى اسبانيا ، عقدوا صلحاً مع الرومان ليتفرغوا لمحاربة الفاندال . فحاربوهم وكسروهم مما جعل امبراطور الرومان ان يمنحهم سنة ٤١٩ م أرضاً واسعة في غاليا ، حيث اسسوا مملكة قوط الغرب فيها. وانتقل الفاندال بعد عشر سنوات الى افريقية ، وهناك أسسوا مملكة سادت غرب البحر المتوسط جميعه، وحل محلهم في اسبانيا قوط الغرب الذين تغلبوا بقيادة ملكهم أوريك Euric (٤٦٦-٤٨٤م) على معظم شبه جزيرة ايبرية . واصبح ملكهم يمتد من نهر اللوار حتى مضيق جبل طارق . وقد حارب العرب عند فتح بلاد الاندلس الفاندال ، وتغلبوا عليهم واستولوا على شبه الجزيرة منهم .وقد اطلق اسم « اندلوسيا » على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبريا . ثم شمل هذا الاسم شبه الجزيرة بكاملها .

ولا فائدة من تتبع حركات البرابرة وتنقلاتهم التي حصلت في القرن الخامس ميلادي . لانه لم تنج قطعة ارض من اوربا من خطرهم حتى بريطانيا التي اجتاحتها قبائل من الجرمن وهم الانكل Angles والسكسون Saxons . الذين اندمجوا مع بعضهم فيما بعد وشكلوا العرق (الانكلوساكسون) ، واطلق اسم انكلترا على الارض التي سكنتها قبائل الانكل، وكانت هذه القبائل متوحشة وثنية في بادئ امرها كبقية القبائل الجرمانية التي تقدم ذكرها . إلا أنهم اعتنقوا الديانة المسيحية عندما أرسل لهم البابا مبشرين يدعونهم للدين المسيحي .

ونضيف الى الاضطراب الذي عم اوربا بسبب طغيان البرابرة الجرمن مجيء الهون

مرة ثانية الى غربي اوربا بقيادة رئيسهم اتيلا Attila الذي اجتاح غاليا ، وملأ غرب اوربا رعباً . إلا ان الرومان والجرمن اتفقوا عليه وغلبوه في معركة شالون Châlons سنة ٤٥١ م . فسار اتيلا بعد انهزامه الى ايطاليا ، وحلق الرعب فوق سماء رومة ، إلا ان البابا ليو الكبير Leo the great انقذ الموقف بان استماله اليه ، ومات اتيلا بعد سنة وبموته زال خطر الهون عن اوربا بصورة نهائية.

تعريف القرون الوسطى

اعتبرت سنة ٤٧٦ م بصورة عامة ، تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، وابتداء القرون الوسطى . وقد حدث بعد موت تيودوسيوس الكبير Theodosius The Great في سنة ٣٩٥م ان اوصى بان تقسم ادارة الامبراطورية الرومانية بين ولديه . وبعد اقتسامها توالى على عرش القسم الغربي من الامبراطورية حكام ضعاف ، وكان البرابرة في هذا الزمن يتجولون هنا وهناك كما يريدون ، وكانت فرق الجيش المؤلفة من الجرمن ، والتي كانت بخدمة الامبراطورية الرومانية الغربية تتسلى بعزل وتعيين اباطرة كالعب بايديهم. وفي سنة ٤٧٦ م طلب جنود الجرمن المرتزقة الذين كانوا في الجيش الروماني بان يعطوا ثلث اراضي ايطاليا . وعندما رفض طلبهم عاقب قائدهم اوداكر Odoacer الطفل الصغير المنصوب امبراطوراً على القسم الغربي من الامبراطورية (وكان اسمه للمزاح القدر رومولوس الصغير ، كاسم مؤسس روما الاول) بنفيه الى قصر بقرب مدينة نابولي . وارسل (اوداكر) الى امبراطور بيزنس (وهو اسم الامبراطورية الرومانية الشرقية وسميت بذلك نسبة لعاصمتها بيزنس) يسأله ان يحكم ايطاليا باسمه ، بالنيابة عنه فوافق على ذلك . وتم بذلك انقراض امبراطورية رومة الغربية سنة ٤٧٦ م بعد ان عاشت نحو الف سنة ، وظل قياصرة بيزنطة يحكمون في القسطنطينية نحو الف سنة اخرى ، إلى ان سقطت امبراطوريتهم على يد السلطان محمد الفاتح العثماني سنة ١٤٥٣ م . وفي هذه السنة يعتبر المؤرخون نهاية القرون الوسطى ، ويبدأ عصر جديد وهو القرون الحديثة .

قوط الشرق Ostrogoths اصبحت ايطاليا منذ سنة ٤٧٦ م بيد اوداكر فاخذ بتنظيم شؤونها ونهض بالبلاد من كبوتها، وعاد الرخاء الى ايطاليا . إلا ان اوداكر لم يتمكن من انشاء مملكة جرمانية في ارض ايطاليا ، وذلك لان عدواً جديداً هاجمه وهو تيودوريك Theodoric ملك قوط الشرق (استروقوط) وكان هؤلاء يسكنون اواسط حوض الدانوب ، وقد خضعوا لقبائل الهون، واشتركوا في انتصارات اتيلا وهزائمه ، ولما عادوا من الغرب ، سكنوا شمالي البلقان وشرقي بحر الادرياتيك وكانوا يضايقون الامبراطورية الشرقية ويهددون عاصمتها من وقت لآخر ، وقضى تيودوريك عشرة

سنوات من سنين صباه في القسطنطينية. ومنحه امبراطور القسطنطينية القاب شرف متعددة ليستميله اليه ومنح شعبه اراضي واموالا كثيرة ، وشجعه على غزو ايطاليا ليتخلص منه ومن شعبه فقبل ان يذهب وان يبقى تابعاً له ان انتصر على اودآكر الذي كان يحكم ايطاليا فذهب وجرت بين الطرفين معارك حاميه امتدت عدت سنوات . تمكن تيؤدوريك اخيراً من التغلب على عدوه وقتله بيده سنة ٤٩٣ م . وأخذ ينظم شؤون ايطاليا ، واستفاد من حضارة الرومان الغابرة وتعاون مع اهالي ايطاليا في اصلاح بلادهم وتحسين حالتهم فعبد الطرق ، وجفف المستنقعات ، ونشر العدل والامن بتطبيق القانون الروماني في البلاد ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وصك عملة جديدة وضع عليها اسم الامبراطور البيزنطي وكان تيؤدوريك حر التفكير ومتسامحاً في شؤون الدين ، حتى قال « لا نستطيع ان نحكم في قضايا الدين ، لانه لا يمكن ان يجبر انسان على ان يعتقد خلاف ارادته » وبهذه الطريقة أرضى البابا وسكان ايطاليا بالرغم من انه وقبيلته واكثر الشعوب الجرمانية كانت تتبع في مذهبها تعاليم اريوس Arius (١) وكان له نفوذ كبير في غربي اوربا ، وذلك لانه تربطه صلات المصاهرة والمحالفة مع اكثر القبائل الجرمانية . ولكن ملكه تبدد بعد موته سنة ٥٢٦ م وذلك لعدم وجود وارث له . والخلاف الديني الذي نشأ بين قومه وبقية سكان ايطاليا . فانضمت ايطاليا لحكم جوستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) م امبراطور بيزنطة وظلت طيلة حياته تابعة له ، وبعد موته هاجمتها قبائل اللمبارديين

<u>قبائل اللمبارد</u> : كان انقراض مملكة قوط الشرق من ايطاليا وبالا على البلاد لان قبائل جرمانية متوحشة وهم اللمبارديون هاجموا المقاطعات الواقعة في شمالي نهر (البو) والتي سميت منذ ذلك الزمن حتى وقتنا هذا باسمهم . ثم توسعوا في فتوحاتهم نحو الجنوب وعاثوا في شبه الجزيرة فساداً فخربوها ، ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها ، الا انهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على جميع اقسامها ، فقد ظلت رومة وجنوبي ايطاليا والجزر التابعة لها بعيدة عن خطر هؤلاء وتابعة للامبراطورية البيزنطية ولم يلبث أن تحضر اللمبارديون ، وهدأ توحشهم بنتيجة احتكاكهم بالسكان الاصليين واعتنقوا النصرانية وبقيت مملكتهم في ايطاليا نحو مئتين سنة ، الى ان قضى عليها شارلمان .

---

(١) اريوس كان بطريق الاسكندرية سنة ٣٣٦ م ، خالف الكنيسة الرومانية في نظرته الى طبيعة المسيح وصلته بالثالوث المقدس ، وحكم عليه بالموت في اجتماع نيقيا ، وكان له اتباع كثيرون انتشروا في الشرق والغرب . كانوا يبشرون بتعاليمه بين البرابرة الجرمن وقد اعتنق قوط الشرق تعاليمه ايضاً . وكانوا بنظر كنيسة روما هراطقة مارقين من الدين .

المملكة الفرنكية

الأسرة الميروفانجية : (١) لم تمكن قبيلة من القبائل الجرمانية التي تكلمنا عنها حتى الآن ان تؤسس مملكة دائمة إلا قبيلة الفرنك Franks اما بقيه القبائل فقد اندثرت بسبب منازعاتها بعضها مع بعض ، أو من قبل الامبراطورية البيزنطية ، او من قبل العرب كما هي حالة القبائل التي كانت في بلاد الاندلس . اما الفرنك الذين سنتكلم عنهم فقد اخضعوا معظم القبائل الجرمانية لسلطتهم ،حتى امتد نفوذهم الى البلاد التي يسكنها السلاف Slavs وأول ما عرف التاريخ هؤلاء الفرنك عندما كانوا يقيمون في الجزء الاسفل من نهر الرين أي ما بين مدينة كولون وبحر الشمال . وكانت طريقة استيلائهم على البلاد الخاضعة للامبراطورية الرومانية تختلف عن الطرق التي اتبعها القوط واللمبارديون والفاندال وغيرهم من الشعوب الجرمانية ، فبدلا أن يقطعوا صلتهم بقبائل الجرمن ويصبحوا كجزيرة في بحر الامبراطورية الرومانية ، كانوا يحتلون بالتدريج الاراضي التي حولهم ، ويبقوا على اتصال مع القبائل البربرية . وبهذه الصورة ظلوا محافظين على حماسهم الحربي الذي كان يفقده غيرهم من القبائل التي اتصلت بالامبراطورية الرومانية واكتسبت الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس ميلادي احتل الفرنك المقاطعات التي تؤلف اليوم مملكة بلجيكا والاراضي التي في شرقها . وفي سنة ٤٨٦ م تقدموا بقيادة ملكهم الكبير (كلوفيس Klovis)(٢) واحتلوا بلاد الغال Gaul اي فرنسا بعد ان تغلبوا على قائد الرمان هناك . وبلغت حدود بلادهم الجنوبية نهر اللوار . ثم وسع كلوفيس حدود مملكته من ناحية الشرق ، فتغلب على قبائل (الالمان Alemanni) وهي قبائل من الشعب الجرماني كانت تسكن مقاطعة الغابة السوداء وجرت بين الطرفين معركة مهمة سنة ٤٩٦ م تأخرت صفوف جنود كلوفيس في بدئها وكان وثنياً وزوجته نصرانية ، فنذر أن يتنصر ان انتصر في المعركة ووفى نذره بعد ظفره بأن تنصر هو وثلاثة آلاف من جنوده وما لبث كلوفيس بعد ذلك ان وفق مصالحه مع مصلحة الكنيسة الكاثوليكية . وكان لاتحاده مع البابا اثر عظيم في تاريخ اوربا الغربية .

وكانت تقوم في جنوب مملكته مملكة قوط الغرب . وفي الجنوب الشرقي مملكة برغانديا Burgnndy وسكانها من الجرمن . فحارب كلوفيس القوط وطردهم الى ماوراء البيرنه . واخضع

---

(١) الأسرة الميروفانجية : تنتسب الى ميروفة ومنه اخذت اسمها ، وميروفة هذا جد كلوفيس الذي وحد قبائل الفرنك والف المملكة الفرنكية

(٢) من كلوفيس أتى اسم لويس وهو الاسم الذي كان يطلق على اكثر ملوك فرنسا .

البرغانديين لحكمه ، فكانوا يدفعون ضريبة له ، ثم ضمهم الى مملكته . وبعد محاولات قتل عديدة قام بها كلوفيس ضم اليه أقسام بلاد الغال جميعا ووحد الاقسام التي كانت مستقلة ومنفصلة عنه .



مملكة الفرنك تحت سلطة الاسرة الميروفانجية

يُظهر هذا المصور نمو مملكة الفرنك ، في سنة ٤٨٦ م عندما كان كلوفيس شاب هزم القائد الروماني (سبا كريوس Spaqrius) بقرب سواسون ، واضاف المقاطعة التي حول باريز لمملكته ثم اضاف سنة ٤٩٦ م مقاطعة المانيا الواقعة في شرقي مملكته ، وفي سنة ٥٠٧ م اتخذ باريز عاصمة ملكه ، واحتل اكيتانيا التي كانت قبلا بيد قوط الغرب وبدأ بضم برغانديا . وتابع اولاده عمله من بعده فاكملوا ضم برغانديا ، واستولوا على بروفانديا ، وبافاريا ، وغاسقونيا ، بمدة نصف قرن .

بعد موت كلوفيس سنة ٥١١ م في باريز التي كانت عاصمة ملكه ، اقتسم اولاده الاربعة البلاد فيا بينهم ، وقامت المنازعات بين الاخوة جعلت مملكة الفرنك في اضطراب دموي مدة مئة سنة تقريباً ومع ذلك فقد استمر تشكيل مملكة الفرنك بالرغم من هذه الاضطرابات . وذلك لانه لايوجد دولة قوية تهاجمها .

وقد احتفظت هذه المملكة بشيء من الوحدة بالرغم من المنازعات القائمة بين أفراد الاسرة المالكة على الاراضي . وقد امتد نفوذ ملوك الفرنك على جميع البلاد التي تضم فرنسا في الوقت الحاضر ، يضاف اليها بلجيكا ، وقسم كبير من غرب المانيا .

وآخر ملوك الاسرة الميروفانجية هو داغوبرت Dagobert حكم سنة ٦٣٨ م ووحد مملكة الفرنك مرة ثانية وجعلها في سلالته .

وكان هناك خطر جديد يهدد هذه المملكة وهو ظهور نبلاء الجرمن الذين ينالون رتباً كبيرة في الجيش ، وكان ملوك الفرنك يكافئونهم على ذلك باقطاعهم اراضي واسعة في مملكتهم ولم يلبث هؤلاء النبلاء ان استقلوا في مقاطعاتهم وشكلوا ممالك مستقلة . وكان من اكبر وظائف الشرف التي كان نبلاء المملكة يتزاحمون عليها هي وظيفة « حاجب القصر » Mayor of the Palace التي تشبه وظيفة رئيس الوزارة في وقتنا هذا ، او وظيفة امير الامراء في العصر العباسي . وكان حجاب القصر بعد موت داغوبرت يحكمون باسم الملوك الميروفانجيين الذين كانوا ملوكا بالاسم فقط ، وليس لهم من السلطة شيء . وكان حاكم القصر في (اوسترازيا Austrasia) وهي احدى الاقسام التي تتألف منها مملكة الفرنك يدعى (بيبان Pippin) تمكن أن يضم اليه قسمين آخرين من مملكة الفرنك وهما :

نوستريا Neustria وبرغانديا Burgundy وأن يجعل السلطة في أسرته وهي الاسرة الكارولنجية التي سيأتي الكلام عنها .

اثر اختلاط البرابرة الجرمن بالرومان

لم يكن عدد الجرمن على اختلاف قبائلهم الذين هاجموا الأمبراطورية الرومانية عظيماً جداً ، لذلك لم يلبثوا ان اندمجوا بالرومان واخذوا حضارتهم ، واقتبسوا عاداتهم ، وتكلموا لغتهم اللاتينية التي كانت منتشرة في كل مكان وطئته قدم الرومان . اما البلاد التي لم يستول عليها الرومان فظلت تتكلم لغاتها المحلية كالسكاندينافية ، والأنكلوساكسونية ، والدنيماركية ، والسويدية وغيرها . وبقيت بعيدة عن تأثير اللاتينية فيها . كذلك نرى ان الشعوب الاوربية التي اختلطت بالرومان لم تلبث لغاتها ان انفصلت بالتدريج عن اللغة اللاتينية ، وشكلت لغات محلية هي اللغات الافرنسية ، والاسبانية ، والايطالية والبرتغالية . التي تمت بصلة النسب الى اللغة اللاتينية . الا ان ظهور هذه اللغات المحلية لم يكن من عمل البرابرة أنفسهم بل سبق مجيئهم . وكل ما عمله البرابرة هو أن اكملوا هذا العمل واضافوا بعض الكلمات البربرية الى اللغات المحلية ،

ولم يكن الجرمن يكرهون الرومان . حتى ولا الرومان يبغضون الجرمن عند ما تكون عقائدهم موحدة، وينتسبون الى فرقة دينية واحدة ،وكانوا يتزاوجون من بعضهم البعض ، حتى ويستخدمون موظفين في الحكومة وجنداً في الجيش من كلا الشعبين . ولا يفترق الرومان عن الجرمن الا في قضية واحدة ، وهي اتباع كل منها قانونه الخاص . فكان الجرمن يحتكمون الى قانونهم البربري ، كما ان الرومان يتقاضون بحسب القانون الروماني .وبقيت الحالة كذلك في جنوبي اوربا طوال القرون الوسطى ، لان الجرمن كانوا قلائل اما في بقية الجهات فظل القانون البربري سائداً حتى القرن الثالث عشر والرابع عشر .

وكانت المحاكمات تجري بحسب القانون البربري بطريقة خاصة تختلف عنها في القانون الروماني . فكان يعرف البريء من المذنب مثلا باحدي صور ثلاثة .

(١) إما ان يحلف بانه بريء، ويحلف معه من قبيلته عددمن الاشخاص تعينهم المحكمة بانه بريء (٢) أو يبارز خصمه ، وينصر الله البريء ويخذل الجاني . (٣) أو يغمس المذنب يديه بالماء الحار ، او يقبض على حديدة حامية مسافة معينة ، او يسير على الجمر فان اجتاز هذه الصعوبات ولم يتأثر منها لمدة ثلاثة ايام يكون عندها بريئاً !!

انتشار الجهل

إن هذه المحاكمة هي مثال لما كانت عليه حالة الجرمن القاسية وحضارتهم المتأخرة التي قامت مقام المدنية الرومانية والقانون الروماني ، وقد انمحت العلوم والآداب والفنون في هذه العصور المضطربة . ومات معها العلماء والادباء ورجال الفن منذ سنة ٥٢٥ م . وما وجد في ذلك العصر من المعارف إن هو الا رسالة كتبها كاسيودورس Eassiodorus سنة ٥٧٥م وهي تبحث في القواعد، والحساب ، والمنطق ، والهندسة ، والموسيقى ، والبلاغة والفلك ، كتبت بقصد تعليم رجال الدين بعض معلومات اولية تمكنهم من فهم الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ، وهذه الرسالة التي كتب مؤلفها عدة صفحات عن كل علم من العلوم السبعة المتقدمة ؛ والتي هي مضحكة بالنسبة لأبناء هذا العصر ، تبين انحطاط التعليم في ايطاليا في القرن السادس . ومع ذلك فقد ظلت هذه الرسالة نموذجا عالياً يقتدي به كل من كتب في هذه المواضيع زمن القرون الوسطي . وكانت هذه الرسالة وامثالها عماد العلم والمعرفة في اوربا ، وتدل الى اي درجة انحطت اللغة اللاتينية في القرون الوسطى .

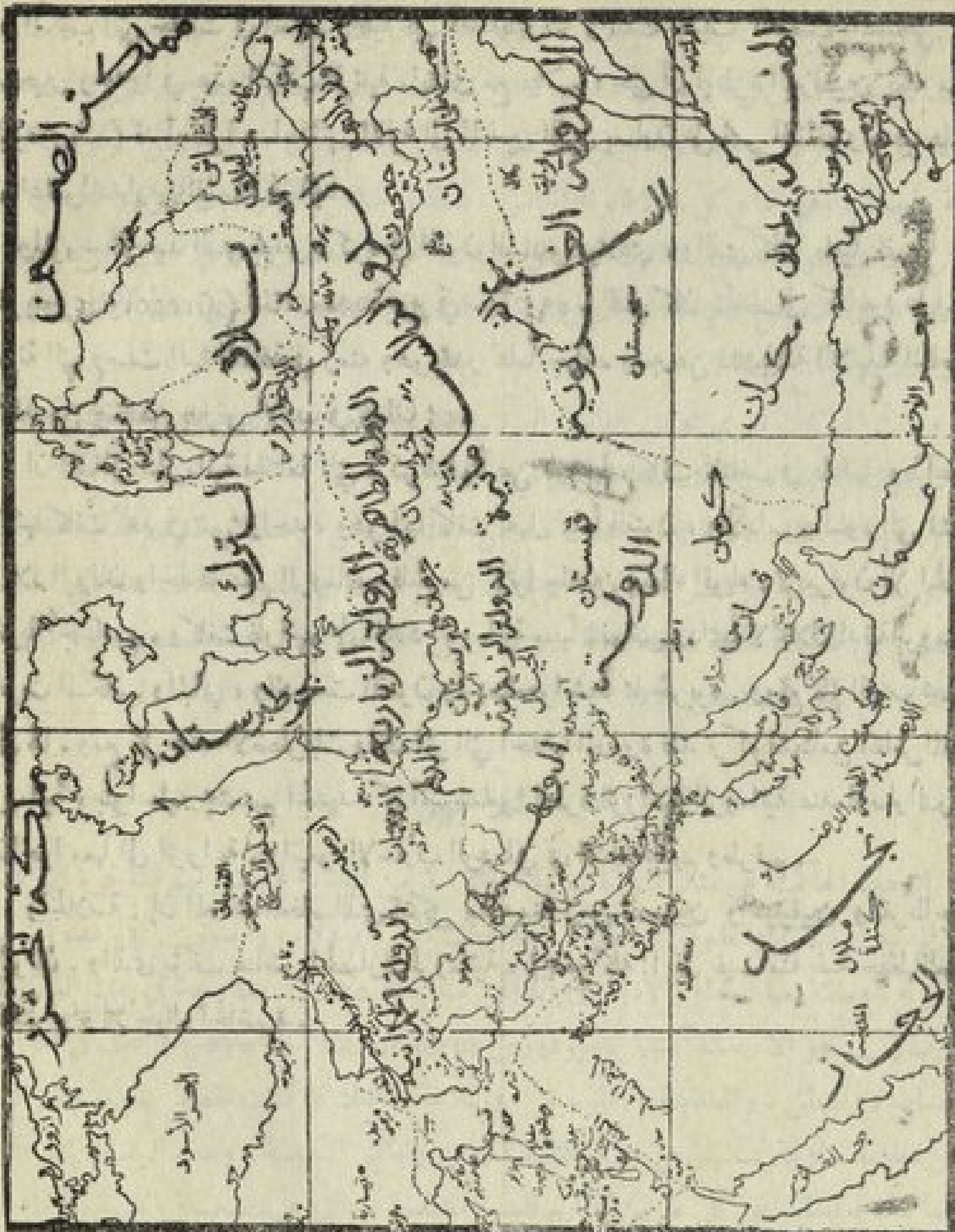
وفي مدة ثلاثمائة سنة حتى مجيء شارلمان ، يندر أن تجد في اوربا كاتباً واحداً يستطيع ان يصف حوادث زمنه ، حتى ولو بأسوإ كتابة لاتينية . وقد تضافرت جميع العوامل على اهمال التعليم

فعواصم الثقافة : كقرطاجه وروما والاسكندرية وميلان ، قد خربت من قبل البرابرة ، حتى ان دور الكتب التي حفظت في المعابد والهياكل قد اندثرت واتلفت بسبب التعصب المسيحي لان المسيحيين وجدوا في هذه الكتب الوثنية مايتنافى مع دياناتهم . حتى أن أباطرة البيزنطيين بعد موت (تيؤدوريك) قد أوقفوا مساعداتهم المالية الى المعلمين الذين يعملون على نشر الثقافة وتوحيدها . كما انهم اغلقوا مدارس الفلسفة في اثينا .

والمؤرخ الوحيد الذي يجدر ذكره في القرن السادس ميلادي ، والذي كان عامياً تقريباً هو (غريغوري Gregory) أسقف مدينة تور في سنة ٥٩٤ م الذي كان يتأسف في كتابه ، على الحالة الحزينة التي وصلت اليها الثقافة في زمنه وهو يقدر تماماً جهله ، ويعبر عن ذلك باللغة اللاتينية الخاطئة : « فقد من بيننا من يدرس الادب في زماننا ! ».

ان القبائل الجرمانية المختلفة التي ذكرنا شيئاً عن تاريخها ، كانت تختلف في عاداتها وطباعها الا انها كانت تتحد في شيء واحد ، وهو انها كانت تجهل تماماً الفنون ، والآداب والعلوم التي نشأت في بلاد اليونان واخذها عنهم الرومان . فالجرمن كانوا جاهلين بسطاء اقوياء . لايعرفون الا الحرب وتقوية أجسامهم . وكانت غاراتهم على البلاد الرومانية سبباً للفوضى وداعياً لانحلال المدنية الرومانية فخربت المكاتب والمباني ، واندرست الفنون ولم يصلحوا شيئاً مما خربوه . ووقع عالم الغرب بحالة يرثى لها . ومع كل هذه الاضطرابات والخسائر التي احدثها البرابرة فقد تركوا شيئاً من انقاض المدنية الرومانية ، بنوا عليه مجتمعهم الجديد . كما أنهم تعلموا الطرق الزراعية الرومانية عندما وصلوا الدرجة احتاجوا معها الى الزراعة . واتبعوا الاسلوب الروماني في انشاء ابنيتهم وطرقهم .

والخلاصة : إن الميراث العظيم الذي تشكل ببطء منذ زمن المصريين والفينيقيين والقرطاجيين واليونان . والذي يؤلف عناصر الحضارة الرومانية ، لم يضع كله !! بل بقيت منه بقية حفظها العرب وكانت نواة للأجيال الحاضرة .



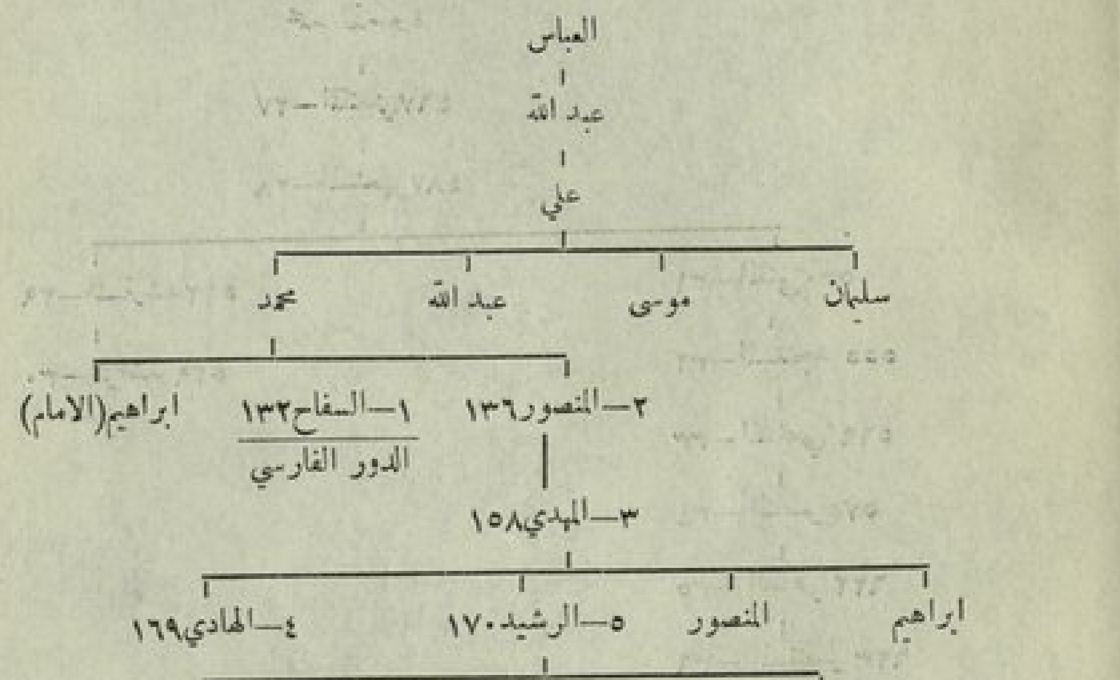
انقسام الخلافة العباسية

تظهر هذه الخريطة بعض الدويلات المستقلة التي انفصلت عن الخلافة العباسية في بغداد مع المناطق التي كانت فيها تلك الدويلات .

القسم الثاني

الخلافة العباسية

السلالة العباسية



٢٥ـ القادر ٣٨١

٢٦ـ القائم ٤٢٢

الدور السلجوقي

محمد الذخيرة

٢٧ـ المقتدي ٤٦٧

٢٨ـ المستظهر ٤٨٧

٢٩ـ المسترشد ٥١٢

٣٠ـ الراشد ٥٢٩

٣١ـ المقتفي ٥٣٠

٣٢ـ المستنجد ٥٥٥

٣٣ـ المستضيء ٥٦٦

٣٤ـ الناصر ٥٧٥

٣٥ـ الظاهر ٦٢٢

٣٦ـ المستنصر ٦٢٣

٣٧ـ المستعصم ٦٤٠ ـ ٦٥٦

نهاية الخلافة العباسية

الباب الرابع

البيت العباسي :

ينتسب العباسيون إلى العباس عم النبي(ص) وهو من سادات بني هاشم وعقلائهم ، تولى سدانة الكعبة لما تخلى عنها ابو طالب لفقره . وكان صديقاً وفياً لابي سفيان ، ولما جاء الاسلام بقي على دين قومه اولا إلا انه ساعد النبي (ص) وحماه ، وخرج معه في بيعة العقبة الثانية ، وخطب في اهل يثرب ومما قاله لهم : « يامعشر الخزرج ، انكم قد دعوتم محمداً الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من اعز الناس في عشيرته يمنعه والله من كان منا على قوله. ومن لم يكن منا على قوله ، منعة للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم اهل قوة وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة فانها سترميكم عن قوس واحد، فارتؤا رأيكم وأتمروا امركم ولا تفترقوا الا عن ملاء منكم واجتماع ، فان احسن الحديث اصدقه ... » وخرج العباس مع قريش الى بدر مكرهاً وأسر في تلك المعركة ففدى نفسه ورجع الى مكة ، وكان يكتب للنبي (ص) باخبار قريش وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان سبباً في نجاة ابي سفيان يوم فتحها ، وخرج الى المدينه واقام بها وكان النبي (ص) يحبه ويكرمه وبعد وفاة الرسول (ص) لم يطمع بالخلافة مع أنه كان اكبر بني هاشم سناً ، وطلب ابو سفيان ان يبايعه فابى . وتوفي في خلافة عثمان بن عفان سنة ٢٣ هـ وله عدة اولاد يهمنا منهم .

عبد الله بن العباس :

كان عبد الله اعلم الناس بآيات القرآن الكريم وتأويلها ، وأصول الفقه والدين ، اشتهر برجاحة عقله وذلاقة لسانه ، وكان مقرباً الى النبي (ص) والى الصحابة من بعده ، استشاره الخليفة عمر ، وولاه عثمان موسم الحج ، ولما بويع الامام علي بالخلافة كان له عضداً ونصيراً في حروبه كلها وولاه البصرة واعمالها ثم اختلف مع علي بن ابي طالب واعتزل السياسة،ورحل الى الطائف واقام بها حتى سنة وفاته ٦٨ هـ . ومن نسله نما البيت العباسي واشهر اولاده :

علي بن عبد الله : ولد ليلة مقتل علي بن ابي طالب في سنة ٤٠ هـ فسمي باسمه وكنى بكنيته ابي الحسن ، وكان سيداً شريفاً بليغاً ، وقد اقطعه الوليد بن عبد الملك ارضاً في الحميمة (١) ليكون

---

(١) — الحميمة : ارض في شرقي الاردن ، بين الشام والحجاز .

بعيداً عن الحجاز ، واخذ يحيك الدسائس لنزع الخلافة من الامويين وجعلها في عقبه فادعى ان ابا هاشم محمد بن الحنفية بن الامام علي قد تنازل له عن حقه بالخلافة ، والتف حوله جماعة الكيسانية من الشيعة (١) كانوا نواة الحركة العباسية . وتوفي سنة ١١٧ هـ واعقب اثنين وعشرين ولداً ذكراً واحدى عشرة انثى واشهر اولاده محمد بن علي .

الدعوة العباسية

محمد بن علي مؤسس الجمعية السرية ومنظم الدعوة العباسية ، التي كتب لها النجاح في قلب الدولة الاموية ، وجعل الخلافة في اولاده وهم : ابراهيم الامام : وابو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور اتخذ مركزه في الحميمة ، واتخذ الدعاة يدعون الناس الى ولاية «أهل البيت» بدون ان يسموا احداً ، خوفاً من بني امية ان يقضوا على المدعوا اذا عرف ولكي لا يغضب العلويون ويطالبون متفردين بالخلافة ومنفصلين عن العباسيين ، ورأى أن احسن منطقة يبث فيها الدعوة هي : الكوفة وبلاد خراسان . وذلك لأن الكوفة مهد التشيع لأهل البيت من قديم فيمكنهم ان يأووا اليها ويجعلوها نقطة مواصلاتهم ، واما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على ثلاثة امور (١) ان اهل خراسان كانوا خاضعين الى ملوك الفرس ، ويعتبرون ان حق الملك يجب ان يبقى في الاسرة المالكة ولذلك كانوا يرون ان اهل بيت النبي (ص) هم احق بالخلافة ، وان الامويين قد اختلسوا الحكم منهم (٢) أن الامويين قد اضطهدوا الفرس . وعاملوهم معاملة سيئة ، لذلك كانوا ينضمون لكل ثائر على الامويين ، لعله ينقذهم من الحالة الذليلة التي كانوا فيها (٣) أن الفرس كانوا يطمعون باعادة ملكهم المندثر وارجاع سلطانهم الغابر . فكانوا يشغبون على العرب ويندسون في صفوف ابناء العم في سبيل تفريق كلمتهم وإذكاء نار العداوة بينهم . واتبع محمد بن علي نظام التسلسل والمراتب في تنظيم الدعاة فكان يتصل بميسرة مولى علي بن عبدالله الذي كان مقيما في الكوفة وخلفه بعد موته بكير بن ماهان ، وهو

---

١ — راجع عن الكيسانية هامش صفحة ١٢ من هذا الكتاب. وابو هاشم محمد بن الحنفية جاء سنة ٩٨ هـ الى سليمان بن عبد الملك الأموي فاكرم وفادته واظهر التودد له، ولكنه دبر امر قتله خشية ان يدعوا الى نفسه . فدس له من سمه وهو في طريقه الى الحميمة ، حيث كان يقيم علي بن عبدالله ، وقد قيل إن أبا هاشم لما شعر بدنو اجله ، افضى باسرار الدعوة الهاشمية إلى علي ونزل له عن حقه بالامامة ، وامده باسم داعي دعاته في الكوفة ، ومن يليه من الدعاة كما سلمه رسائل يقدمها اليهم ومنذ ذلك الحين انتقلت الدعوة الهاشمية من العلويين الى العباسيين .

شيخ عليم وموسر كبير ساعد الدعوة بماله وجاهه وكان يتصل بدعاة خراسان، وكان فيها محمد بن حنيس وأبو عكرمة السراج، وكان يخضع لهما اثني عشر نقيباً أشهرهم سليمان بن كثير الخزاعي، وقحطبة بن شبيب الطائي ... وتحت امرة هؤلاء سبعون داعية منبثون في الاقاليم وينشرون الدعوة. وقد كتب لهم محمد بن علي كتاباً ليكون مثالاً ومنهجاً يتبعونه ويسيرون بموجبه. وفي هذا الكتاب يقول: «... وأما الكوفة وسوادها، فشيعة علي وولده. وأما البصرة وسوادها فعثمانية، واما الجزيرة فحرورية مارقة، وأما اهل الشام فليس يعرفون إلا آل سفيان وطاعة بني مروان، وعداوة راسخة وجهلاً متراكماً، واما مكة والمدينة؛ فقد غلب عليهما ابو بكر وعمر. ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير، والجلد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة، لم تتقسمها الاهواء، ولم يتوزعها الدغل، وهم جند لهم ابدان وأجسام، ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة، تخرج من اجواف منكرة ... وبعد فاني أتفاءل الى المشرق، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.»

وكان الدعاة يتنقلون في مختلف الامصار، وكانوا في ظاهر الامر طلاب رزق يزاولون التجارة وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء، يبثون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. ويدعون الناس الى مناصرتهم بشتى الأساليب. وكانوا يبلغون امرهم واخبارهم الى القائم بالكوفة، وهذا يوصلها الى الحميمة او الى مكة في مواسم الحج. وكان الحج اعظم ساتر لهؤلاء الدعاة، وخير فرصة لهم للتنقل من مكان لآخر ولتبليغ الاوامر وإعطاء المعلومات. وقد لحق هؤلاء النقباء والدعاة أذى كبير من ولاة بني امية، ولكنهم صبروا وتكتموا وساعدهم على نشر دعوتهم انشقاق البيت الاموي على نفسه، وبعد حركتهم عن مركز الخلافة في دمشق، وانقسام العرب في خراسان الى قيسيين ويمانيين. وكان رئيس القيسيين وكبيرهم نصر بن سيار والي خراسان الأمويين. وزعيم اليمانية جديع بن شبيب الملقب «بالكرماني» لانه ولد بكرمان. وجرت حروب شديدة بين الطرفين اضعفت قوى العرب وقلت هيبتهم في نفوس الفرس الذين انضم كثير منهم الى الدعوة العباسية.

وفي اثناء وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي وخلفه في الدعوة ابنه ابراهيم الامام، وصار الدعاة يدعون له، وأقام في الكوفة نائباً عنه ابو سلمة الخلال بعد موت بكير بن ماهان، وأقام في خراسان أبو مسلم الخراساني. ولد ابو مسلم بأصفهان ونشأ في الكوفة، واختلف في نسبه فبعضهم يجعله عربياً من اليمن وآخرون يجعلونه مولى اشتراه بكير بن ماهان، وعنه تلقى اصول التشيع، ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ هـ ثم بابنه إبراهيم الامام، الذي لقبه بأبي مسلم وسيره لخراسان لنشر الدعوة. وكان ابو مسلم من ابطال الحرب والسياسة، شديد الاخلاص للعباسيين، مسرفاً في

خدمتهم ، كثير الدهاء واسع الحيلة ، خبيراً بما يقتضي عمله من الحزم والقسوة ، ولا تعرف الرحمة لقلبه سبيلا ، سئل مرة بأي شيء أدركت هذا الامر ؟ فقال : « ارتديت بالكتمان ، واتزرت بالحزم ، وحالفت الصبر ، وساعدت المقادير ، فأدركت ظني وحزت حدّ بغيتي » ، وأنشد :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهموا بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم احد
ومن رعى غنماً في ارض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الاسد

ومما اوصاه به ابراهيم الامام قبل ذهابه الى خراسان قوله : « يا عبد الرحمن إنك رجل منا أهل البيت فاحتفظ وصيتي . وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الحي من ربيعة فاتهمهم في امرهم . وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو القريب الدار فاقتل من شككت فيه ومن كان في امره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ، وان استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » .

وقد حرص ابو مسلم على تنفيذ هذه الوصية ، فكان يفرق بين العرب ، ويسرع الى قتل كل من يتهمه منهم حتى بلغت ضحاياه ستمائة الف نفس .

ذهب ابو مسلم الى خراسان سنة ١٢٨ هـ ، فأسسها بحزم ودهاء وقوة ، وأقام بقرية من قرى مرو تدعى سفيذنج ، وقد كثر انصاره وأتاه الناس من كل حدب وصوب ، وفي رمضان سنة ١٢٩هـ عقد اللواء الذي بعث به ابراهيم الامام ، وكان يدعى الظل على رمح ، وأعلن بأصحابه لبس السواد ، واتخذه شعاراً للعباسيين ، وكاتب نصر بن سيار الوالي الأموي يقول له : أما بعد فان الله تباركت أسماؤه وتعالى ذكره عيّر اقواماً في القرآن فقال : (واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً) . وأرسل نصر له مولاه بخيل عظيمة إلا أنها هزمت فأرسل يستنجد الخليفة مروان الثاني بقوله :

أرى بين الرماد وميضَ نار ... ويوشك ان يكون لها ضرامُ
فان النار بالعودين تُذكى ... وإن الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان يك قومنا اضحوا نياماً ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام

إلا أن مروان كان مشغولا باطفاء الفتن والثورات في الشام فلم يستطع ان يمده ، وكتب له : «إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم انت هذا الداء الذي قد ظهر عندك» إلا أن الخطب تفاقم لزيادة انصار العباسيين وكثرت الوفود على ابي مسلم حتى ضاقت سفيذنج فرحل الى الماخوان ، وهي قرية كبيرة من قرى مرو ، وكانت عدة من كان معه سبعة آلاف رجل واحتال ابو مسلم في التفرقة بين نصر ورجاله حتى تخلى عنه انصاره واحداً بعد واحد ، فقام من الماخوان في جمادى الاولى سنة ١٣٠ هـ قاصداً مرو ، وفتحها وهرب نصر فأرسل خلفه قحطبة بن شبيب من اهل الحجاز مع فرقة من اشياعه لاحقت نصراً حتى مرض ببلاد الري ومات في (ساوة) وعمره (٨٥) سنة وتقدم قحطبة ومعه ابنه الحسن بفتحان البلاد الشرقية . ثم توغلا في بلاد العراق ، والتحما في معركة مع يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراق من قبل الامويين ، فجرت معركة بقرب الكوفة قتل فيها قحطبة فخلفه ابنه الحسن في امرة الجيش ، فهزم ابن هبيرة الى واسط وسار بجيشه الى الكوفة ، واستولى عليها في المحرم سنة ١٣٢ هـ وسلم الامر لأبي سلمة الخلال حسب وصية ابيه .

في هذا الوقت وقع في يد مروان بن محمد كتاب لابراهيم الامام مرسلة الى ابي مسلم الخراساني فعرف عندها مروان مصدر الفتنة ورئيس الحركة، فأرسل الى والي دمشق يأمره بالقبض على ابراهيم وان يوجهه اليه ، ففعل العامل ما امر به . ولما أحس ابراهيم بأنه مقتول لا محالة ، نعى نفسه الى أهل بيته ، وأوصى الى اخيه أبي العباس بالأمر ، وامر اهله بالسير الى الكوفة ، وحضهم على السمع والطاعة لأبي العباس . وقد حُبس ابراهيم في سجن حرّان مع جماعة من خصوم مروان من بني امية وظل في سجنه حتى مات ، وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : انه سقي سماً ، ومنهم من قال : هدم عليه بيت فمات . ومما قيل في رثائه :

قد كنت أحسبني جلداً فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الامام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والاحجار والطين
فيه الامام الذي عمت مصيبته ... وعيّلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمن قال أمين

أما اهل بيته فتجهزوا يريدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ هـ ورئيس القوم وقائدهم أبو سلمة الخلال المعروف « بوزير آل محمد » الذي خانهم في آخر الامر ، وكاتب ثلاثة من اعيان العلويين يعرض عليهم الخلافة وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر ، وعبد الله المحض بن حسن ، وعمر الأشرف بن زين العابدين . ولكنه فشل في مؤامرته لعدم قبول هؤلاء الثلاثة ، وكانت خاتمة حياته القتل .

مميزات ادوار الخلافة العباسية

اعتاد المؤرخون ان يقسموا الخلافة العباسية الى اربعة أدوار يتميز بعضها عن بعض حسب العناصر الاجنبية التي كانت تؤثر في الحكم . واذا اتبعنا هذا التقسيم فذلك لتسهيل بحث ودرس هذه الخلافة مع الاعتراف بأنه تقسيم صنعي ، وان هذه الادوار الاربعة متصلة ومرتبطة بعضها ببعض ، وتشكل وحدة تامة وهي : النفوذ الفارسي

اولا : دور النفوذ الفارسي – او دور القوة : وهو يمتد مئة سنة من ١٣٢ – ٢٣٢هـ او ٧٤٩ – ٨٤٧ م وكانت الخلافة في هذا الدور قوية ، والخلفاء هم القابضون على زمام الحكم ، وكانت سلطة الخلافة تمتد على القسم الاكبر من الامبراطورية ما عدا الاندلس وقسم من شمالي افريقية ، وكانت أحوال الدولة الداخلية والخارجية منتظمة على العموم ، إلا من بعض الفتن قام بها العلويون والعباسيون من اجل المطالبة بالخلافة ، وبعض حركات من قبل الفرس . وتمكن الخلفاء من بسط رعايتهم على العلماء والادباء ورجال الدين ، وبذلك ازدهرت الحياة العلمية والاجتماعية والعمرانية . وإنما سمي هذا الدور – بالفارسي – لان اكثر رجال الدولة لا سيما الوزراء كانوا من العنصر الفارسي .

ثانياً : دور النفوذ التركي – او دور بدء الانحطاط : وهو يمتد مئة وسنتين من ٢٣٢ – ٣٣٤هـ او ٨٤٧ – ٩٤٥ م . وبدأت الخلافة تنحط في هذا الدور ، واصبح الخلفاء العرب بيد قواد الاتراك المتغلبين على الحكم . وكان هؤلاء الاتراك يخلعون وينصبون الخلفاء كما يشاؤون ، وقد يقتلونهم ويمثلون بهم ايضاً . وقد انفصل عن الخلافة المركزية في بغداد مناطق واسعة ، وشكل بعضها دويلات مستقلة . واهم هذه الدويلات في الشرق هي : الدولة الطاهرية في خراسان ، والصفاوية في سجستان والسامانية في بلاد ما وراء نهر سيحون ، والبويهية في بلاد الديلم . والزيدية في طبرستان ، والزيارية في جرجان ، والساجية في أذربيجان وأرمينية . أما في الغرب فنشأت الدولة الحمدانية في حلب ، واليعفورية في اليمن ، والطولونية والاخشيدية في مصر والشام . والفاطمية في شمالي افريقيه ومصر والشام ، والأغالبه في المغرب الاوسط ، والأدارسة في المغرب الاقصى . وكانت المنازعات الداخلية شديدة ، ويرجع سببها الى منازعات الاسرة العباسية على الحكم . ومنازعة الخلفاء مع القواد ومنازعة القواد فيما بينهم ، وقيام الحركات الدينية لا سيما حركة العلويين ، وظهور القرامطة والخوارج والزنج ، وغيرها من الحركات . وكانت اكثر العلاقات الخارجية في هذا الدور مع البزنطيين ، وكان الحرب سجالاً بين الطرفين . أما الحياة العقلية فكانت قد قطعت شوطاً لا بأس به في مضمار التدوين

والاختصاص لاسيما في العلوم الشرعية واللغوية . الا ان الحياة الاجتماعية كانت مضطربة ، صاخبة نظراً لنفوذ العناصر الاجنبية في الخلافة . وانما سمي هذا الدور - بالتركي - لأن العناصر التركية كان لها اكبر تأثير فيه لاسيما في قيادة الجيوش .

ثالثاً: دور النفوذ البويهي - أو دور امير الأمراء : وهو يمتد مئة وثلاثة عشرة سنة من ٣٣٤ - ٤٤٧ ﻫ أو ٩٤٥ - ١٠٥٥ م بقي للخلفاء في هذا الدور المركز الديني في الدولة فقط ، يكتفون برواتب معينة ويتركون السلطة بيد امير الامراء . وكان يتعاقب على هذا المنصب أسرة البويهيين من الديلم . وقد ظهرت الخلافة الفاطمية في شمالي افريقية ومصر في هذا الدور وكذلك دولة آل مرداس التي حلت محل الحمدانيين في حلب ، وسلالة بني عقيل في الموصل ، والدولة المزيدية في قلب العراق في الحلة الواقعة بقرب الكوفة ، وظهر البريدي في البصرة ، والقرامطة في البحرين وبقي كثير من الدويلات المستقلة التي مر ذكرها في الدور التركي تحكم في هذا الدور منفصلة عن سلطة العباسيين اما الحالة الداخلية فلم تكن حسنة بسبب منازعة البويهيين فيما بينهم على الحكم ، ومنازعاتهم مع قواد الأتراك لسلب السلطة منهم ، وتأجج نار الفتنه بين السنة والشيعة . اما من الناحية الخارجية فقد تأخرت جبهة العرب في جهة بلاد الروم ، وانتقل الدفاع عن البلاد الاسلامية من العباسيين الى الحمدانيين وغيرهم من الدويلات المستقلة ، وكانت كفة البزنطيين راجحة على العموم على كفة العرب بسبب الفوضى الداخلية ، وانقسام العرب على انفسهم . وهذا الدور هو العصر الذهبي للحياة العقلية في العلوم والفلسفة واللغة والآداب . وتعددت مراكز العلم في جميع نواحي المملكة الاسلامية في بغداد وبخارى وجرجان وغزنة وحلب والقاهرة وقرطبة . ولم تكن الحياة الاجتماعية موحدة في هذا الدور بل كانت تختلف من منطقة الى اخرى حسب قوة الدولة المستقلة وضعفها ، وحسب المؤثرات الخارجية التي تطرأ عليها . وانما سمي هذا الدور - بالبويهي - لتغلب البويهيين فيه ، واستيلائهم على أعلى منصب في الدولة وهو منصب امير الامراء .

رابعاً: دور النفوذ السلجوقي والمغولي - او دور الانقراض : وهو يمتد على ماينوف على مئتي سنة من ٤٤٧ - ٦٥٦ ﻫ أو ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م . وكان النفوذ في المئة والخمسين سنة الاولى منه للسلاجقة ، والخمسين سنة الباقية كان التأثير الفعال فيه بيد المغول . والسلاجقة والمغول من العرق الاصفر . وكان الخلفاء أقوياء في هذا الدور ، حاولوا اخذ السلطة الفعلية لأنفسهم ، ولكنهم فشلوا لتغلب السلاجقة عليهم . وقد نشر السلاجقة سلطانهم على اكثر المناطق فكان لهم دولة في بغداد والعراق والشام وكرمان وبلاد الروم . كما ظهرت دولة شاهات خوارزم في جنوبي بحر خوارزم (بحر آرال) أما الحالة الداخلية

فكانت سيئة بسبب المنازعات التي حصلت بين الخلفاء والسلاجقة ، وبين السلاجقة انفسهم، ولضعف أعوان السلاجقة ، واستبداد اتابكتهم واستقلالهم في الحكم ، ومنافسة بعض الدويلات المستقلة للخلفاء العباسيين . ولنشاط الحركة الاسماعيلية في فارس والشام . وكانت الحالة الخارجية مضطربة للغاية في هذا الدور لمجيء الصليبيين لبلاد الشام ومصر من ناحية الغرب ومجيء قبائل الغز ، والغور والتتر (وهي قبائل تركية) من ناحيه الشرق وقضائها على الخلافة العباسية ، وفي هذا الدور جمدت العقلية العربية من الناحية العلمية ، وانحطت عما كانت عليه في الادوار السابقة ، فلم يعد هنالك ابتكار ، وانتاج في العلوم والآداب ، وكل مافي الأمر هو تقليد وجمع ما أنتجه المتقدمون .
أما الحياة الاجتماعية : فكانت متدهورة في هذا الدور لاختلاط المسلمين بالصليبيين والتتر ، وما أحدثه هؤلاء من اضطراب في الحياة ، وتخريب للبلاد ، وما سببوه من فقر وأمراض ، كل ذلك كان له أسوء الأثر في المجتمع العباسي . وإنما سمي هذا الدور ـ بالسلجوقي المغولي ـ لتغلب السلجوقيين على السلطة الحقيقية في الدولة ، ولاجتياح المغول للخلافة العباسية .

الفصل الاول

١ - دور النفوذ الفارسي

١٣٢ — ٢٣٢ ﻫ أو ٧٤٩ — ٨٤٧ م

حكم في هذا الدور تسعة خلفاء وهم : أبو العباس السفاح، وابو جعفر المنصور، والمهدي، والهادي وهارون الرشيد، والأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق . ولأهمية هؤلاء الخلفاء نذكر كل خليفة منهم على حدة .

أبو العباس السفاح

١٣٢ — ١٣٦ ﻫ او ٧٥٠ — ٧٥٤ م

ولد السفاح سنة ١٠٤ ﻫ في الحميمة ، أبوه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وأمه ريطة عربية النسب لذلك تقدم على اخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة مع ان المنصور أكبر منه سناً . وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لأخيه ابراهيم الامام ، ولما احس ابراهيم اقتراب اجله عهد لاخيه ابي العباس بأمر الدعوة ، وامره ان يسير باهل بيته الى الكوفة فذهب اليها ، وكان الدعاة قد هيؤا له الخلافة في الكوفة، وفي يوم الجمعة في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢ ﻫ بويع السفاح بالخلافة في مسجد الكوفة ، فخطب بالناس ومما قاله في خطابه « الحمد لله الذي اصطفى الاسلام لنفسه تكرمة ، وشرفه وعظمه واختاره لنا ، وايده بنا ، وجعلنا اهله وكهفه وحصنه ، والقوّام به والذابين عنه والناصرين له وألزمنا كلمة التقوى وجعلنا احق بها واهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرابته ... وانزل بذلك على اهل الاسلام كتاباً يتلى عليهم ، فقال عز من قائل فيما انزل من محكم القرآن : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويطهركم تطهيرا) وقال : (وانذر عشيرتك الاقربين) وقال (ما أفاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى) ، فاعلمهم جل ثناؤه فضلنا . وواجب عليهم حقنا ومودتنا ... وزعمت السبئية الضلال ان غيرنا احق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهت وجوههم ... وأني لأرجو ان لا يأتيكم الجور من حيث اتاكم الخير، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ... يا أهل الكوفة ، أنتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عن ذلك تحامل اهل الجور عليكم . حتى ادركتم زماننا ، واتاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس

بنا واكرمهم علينا ، وقد زدتكم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح المبيح والثائر المنيح »
وبهذه الجملة الاخيرة لقب « بالسفاح » ويقال ايضاً لكثرة ما قتل من الامويين ، وكان السفاح موعوكا فاشتد به الوعك فجلس على المنبر ، وصعد داود بن علي عمه وكان من افصح بني العباس ، فخطب خطبة قال فيها « الحمد لله شكراً شكراً شكراً الذي اهلك عدونا ، واصار الينا ميراثنا من نبينا محمد (ص) . أيها الناس والله ما خرجنا في طلب هذا الامر لنكثر لجينا ولا عقياناً ولا نحفر نهراً ، ولا نبني قصراً ، وانما اخرجنا الانفة من ابتزاز حقنا ، والغضب لبني عمنا ... ولقد كانت اموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بني امية فيكم وخرقهم بكم ، واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم ، وصدقاتكم ومغانمكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى ... أن نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله (ص) . تباً تباً لبني حرب بن امية وبني مروان ، آثروا في مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام وانتهكوا المحارم ... يا أهل الكوفة إنا والله مازلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا اهل خراسان ، فأحيا بهم حقنا ، وافلج بهم حجتنا واظهر بهم دولتنا واراكم الله ما كنتم به تنتظرون ، واليه تتشوقون فاظهر فيكم الخليفة من هاشم وبيض وجوهكم ، وأدالكم على اهل الشام ونقل اليكم السلطان وعز الاسلام ومن عليكم بامام منحه العدالة واعطاه حسن الايالة ، فخذوا ما اتاكم الله بشكر والزموا طاعتنا ، ولا تخدعوا عن انفسكم فان الامر امركم فان لكل أهل بيت مصراً وانكم مصرنا ... » وبعد ان تمت الخطبتان والصلاة خرج السفاح الى القصر ، واجلس اخاه ابا جعفر ليأخذ البيعة على الناس في المسجد ، فلم يزل يأخذها عليهم حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجنهم الليل فدخل . وهكذا تمت البيعة للسفاح .

سياسة السفاح الداخلية

١ - مروان بن محمد
٢ - يزيد بن عمر بن هبيرة

معركة الزاب

بعد ان بويع السفاح بالخلافة بدأ بمحاربة مروان بن محمد الاموي الذي كان لا يزال خليفة ومعه جيش كبير ، فاختار السفاح عمه عبد الله بن علي ان يكون قائداً الجنود التي ذهبت لحرب مروان وكانوا متشحين بالسواد من قمة الرأس حتى اخمص القدمين ، وكانت خيولهم وجمالهم متشحة بالسواد ايضاً وكانت المناوشات قائمة بين ابي العون أحد قواد قحطبة الذي ارسله لفتح الجزيرة الفراتية ، وبين عبد الله بن الخليفة مروان الاموي فجاء عبد الله بن علي مدداً لابي العون وتولى القيادة العامة وجاء

الخليفة مروان بنفسه بجيش كبير مؤلف من مختلف القبائل ليساعد ابنه واجتمع الجيشان على نهر الزاب الأعلى(١) . وكان الجيش الاموي على الضفة اليمنى من الزاب ، والجيش العباسي على الضفة اليسرى ، فارسل عبد الله بن علي خمسة آلاف من جنده ليعبروا النهر ، وليناوشوا جيش مروان ففعلوا ذلك وانسحبوا قبل حلول الظلام وفي اليوم الثاني عقد مروان جسراً وتقدم ابنه للقتال فهزم جند العباسيين في اول الامر فقام عبد الله بن علي يشجع رجاله ويدعوهم الى محاربة الامويين ويقول: « يارب ! حتى متى نقتل فيك ؟ ياأهل خراسان ! ياثارات ابراهيم ! يامحمد يامنصور ! » واشتد القتال وتضعضع جيش مروان فذهب الى قضاعة وقال لهم : انزلوا فقالوا : قل لبني سليم فلينزلوا . وكان مروان كلما طلب من قبيلة ان تحارب قالت له ان يطلب من غيرها . وظهرت النزعة القبلية بين القبائل وتفرق جيش مروان فاراد ان يشجعهم فوعدهم بالمال واخرجه لهم وقال : « اصبروا وقاتلوا فهذه الاموال لكم » فلما رآها الجند تحولوا عن القتال اليها، فارسل ابنه ليردهم. فلما ذهب للمحافظة على المال ظن القوم انه انهزم، فانهزموا معه فاراد مروان الحيلولة دون انهزامهم فامر بقطع الجسر فقتل كثيرون منهم وغرق كثيرون ونجا مروان إلا انه قتل في مصر كما مر معنا .

التفت السفاح بعد ان تخلص من مروان لقتال يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق الذي تحصن «بواسط» بعد ان هزمه الحسن بن قحطبة ، فارسل السفاح اخاه أبا جعفر بجيش لمحاربته فاحتدم القتال بين الطرفين أحد عشر شهراً ، ولما بلغ ابن هبيرة مقتل مروان طلب الصلح وجرت المفاوضات بينه وبين المنصور فامنه وكتب بذلك كتاباً بقي ابن هبيرة يشاور العلماء فيه اربعين ليلة حتى رضيه ثم ارسله الى ابي جعفر فانفذه هذا بدوره الى السفاح فامر بامضائه ، وبذلك تم الامان لابن هبيرة إلا ان السفاح استشار ابا مسلم بالامر فاجابه « ان الطريق السهل إذا القيت فيه الحجارة فسد، لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة » فغدر السفاح به وأمر بقتله !!

تقتيل الامويين وانصارهم

بعد ان غدر السفاح بيزيد بن عمر بن هبيرة قام هو واهله العباسيون بمجزرة رهيبة في الامويين واعوانهم ، وكانت مدة خلافة السفاح ملأى بحوادث القتل والغدر والذبح ، قيل ان ابا العباس كان جالساً في بعض ايامه في مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد اكرمه وتبسط معه فدخل عليه خادمه سديف فانشده:

(١) نهر الزاب : احدى روافد نهر الدجلة ، يصب فيه من جهة الشرق .

لايغرنّك ما ترى من رجال — ان تحت الضلوع داءً دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى — لا ترى فوق ظهرها امويا

فامر السفاح بسليمان فقتل . ومما قاله سديف هذا يهيج السفاح على الامويين قوله :

كيف بالعفو عنهم وقديما — قتلوكم وهتكوا الحرمات
أين زيد واين يحى بن زيد ؟ — يالها من مصيبة وترات
والامام الذي أصيب بحرا — ن إمام الهدى ورأس الثقات
قتلوا آل أحمد لا عفا الذ — ب لمروان غافر السيئات

وما فعله السفاح اصبح سنة عباسية يقتدي بها اهله وولاته لاسيما اذا وُجد من يهيج العباسيين ويذكرهم بقتلاهم فقد فعل عبد الله بن علي واخوته بالأمويين ما يندى له الجبين ، قيل ان شبل بن عبد الله مولى بني هاشم دخل على عبد الله بن علي وعنده من بني امية نحو تسعين رجلا على الطعام فانشده :

اصبح الملك ثابت الاساس — بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وتر هاشم فشفوها — بعد ميل من الزمان وياس
لا تقيلن عبد شمس عثاراً — واقطعن كلّ رقلة وغراس
خوفهم اظهر التودد منهم — وبهم منكم كحز المواسي
ولقد ساءني وساء قبيلي — قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث انزلها الا — ه بدار الهوان والاتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد — وقتيلا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحران امسى — رهن رمس في غربه وتناسي

فامر بهم عبد الله فضربوا بالعُمُد حتى قتلوا ، وبسط النطوع عليهم فاكل الطعام عليها وهو يسمع انين بعضهم حتى ماتوا جميعاً .

لم ينته عبد الله بهذه الوليمة التي اقامها على جثث الامويين ، بل تعداها الى نبش قبور بني امية ومحو اثرهم فنبش قبر معاوية بن ابي سفيان فوجد فيه عظاما كانها الرماد . ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جمجمته ، وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد الملك ، فقد وجد صحيحاً فضربه بالسياط وصلبه وحرقه وذرّاه في الريح ثم تعقب اولاد الخلفاء من بني امية فلم يفلت منهم الا من كان في المهد وادرك بعض الهاربين الى الاندلس فقتلهم بنهر ابي

فطرس (١) واخذ اموالهم ولما انتهى من عمله انشد :

بني امية قد افنيت جمعكو — فكيف لي منكو بالاول الماضي
يطيب النفس ان النار تجمعكم — وعوضتموا من لظاها شر معتاضي
منيتموا ـ لا اقال الله عثرتكم ـ — بليث غاب الى الاعداء نهاض
ان كان غيظي لفوت منكو فلقد — منيت منكم بما ربي به راضي

واكمل عمل السفاح وعبدالله بن علي إخوته سليمان بن علي وداود بن علي فقتل الاول بالبصرة جماعة منهم احضرهم وعليهم الثياب الموشاة وقتل الثاني بمكة والمدينة عدداً وافراً منهم ، ولم تمكن من الهرب والنجاة من هذه المجزرة التي اقامها العباسيون في كل مكان الا عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الاموي الذي هرب الى الاندلس وأسس دولة اموية فيها كما سيأتي معنا .

لما أمن العباسيون شر الامويين ، وهدأت نفوسهم وتوطد ملكهم ، تنبهوا الى مافعلوه في ابناء عمهم من تقتيل وتشنيع وعرفوا ان هذا امر اقتضته السياسة فحاول بعضهم ان ينقذ من تبقى من الامويين فكتب سليمان بن علي يطلب الامان من السفاح في بعضهم قائلا له : « يأمير المؤمنين إنه قد وفد وافد من بني امية علينا ، وانا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على ارحامهم فاننا يجمعنا واياهم عبد مناف ، والرحم تبل ولا تقطع ، وترفع ولا توضع فان رأى امير المؤمنين ان يهبهم لي فليفعل ، وان فعل فيجعل كتابا عاماً الى البلدان ان نشكر الله على نعمه عندنا وإحسانه الينا » فاجابه السفاح إلى ما سأل فكان هذا اول امان اعطي لبني امية .

بعد ان قضى السفاح وأهله العباسيون على اكثر بني امية التفتوا الى انصارهم ودعاتهم ، الذين قامت دولتهم على ايديهم يسعون ان يتخلصوا ممن يشكون في امره ، ويستعملون كل وسيلة في الوصول الى غايتهم ، فسلطوا ابا مسلم الخراساني على ابي سلمة الخلال فقتله ، وقتل عماله وانصاره الذين كانوا بلاد فارس بحجة انه حاول نقل الخلافة منهم الى العلويين ، وكذلك فعل ابو مسلم بسليمان بن كثير شيخ الدعوة العباسية فقتله لانه شك بامره .

إلا ان السفاح شك بامر ابي مسلم الخراساني واراد قتله ، بتحريض من اخيه المنصور الا انه خاف من شيعته الخراسانيين ان يثوروا عليه . وعند ما كتب اليه ابو مسلم يستأذنه في الحج ارسل الى اخيه ابي جعفر المنصور يامره بالحج ويؤمره على موسم الحج في تلك السنة حتى لا يؤمر ابي مسلم

---

(١) نهر ابي فطرس : بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة . موضع قرب الرملة من ارض فلسطين .

فغضب هذا وقال : « أما وجد أبو جعفر عاماً يحج فيه غير هذا ! » وكان يزاحم المنصور في الطريق ويظهر قوته وكرمه ، مما ملأ قلب ابي جعفر المنصور حقداً عليه وانتقم منه ايام خلافته كما سنرى.

وكان السفاح يراقب العلويين مراقبة شديدة خوفا منهم ان يخرجوا عليه فكان يأمر عيونه وبعض ثقاته بما يلي « قم بإنزالهم ولا تأل في إلطافهم ، وكلما خلوت معهم فاظهر الميل اليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا ، وانهم احق بالامر منا ، واحصي لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم »

بهذه السياسة الشديدة تمكن السفاح من تهدئة الحالة في زمنه ، وتثبيت دعائم حكمه ، وجعل الخلافة في اسرته والتخلص من اعدائه ومن كل من شك في امره فنجح خير نجاح ، وان كانت بعض الطرق التي سلكها ملتوية لا تتلائم والاخلاق العربية الا انها تتلائم ومصلحته هو ومصلحة اسرته .

سياسة السفاح الخارجية

انشغل السفاح بتهدئة الحالة الداخلية ، فلم يتمكن له القيام بأي عمل خارجي بل كانت بلاده معرضة لغزوا الروم الذين اكتسبوا فرصة انشغال المسلمين ببعضهم فهاجموا حدود الدولة الشمالية ، فخربوا المدن والثغور ونهبوها وقتلوا من وجدوا من سكانها . واستولوا على ملطية بعد حصار طويل ولم يتمكن المسلمون من ايقاف الروم وردهم على اعقابهم الا في خلافة المنصور .

تنظيم الدولة

قام السفاح بعد تهدئة الحالة الداخلية بتنظيم الدولة ، فعين اقاربه على الولايات لانه يركن اليهم ويطمئن لهم ، كما انه يرضيهم بذلك ويكافئهم على مناصرتهم له ومساعدتهم اياه في قيام الدعوة والخلافة العباسية . فعين ابا جعفر المنصور على الجزيرة الفراتية وأرمينية ، وعبد الله بن علي على الشام ، وصالح بن علي على فلسطين ، وابا العون على مصر وداود بن علي على الحجاز واليمن واليمامة وسليمان بن علي على البصرة والبحرين والاحساء والأهواز ، وابا مسلم الخراساني على ولاية المشرق وخراسان .

كما انه قام بجملة أعمال عمرانية : فبنى الابراج وجعل المنارات على طريق الحج من الكوفة الى مكة ، حتى يأمن الحجاج من الضلال والضياع ، كما انه رقم هذا الطريق فجعل رقماً عند نهاية كل ميل ليعلم الساري ما بقي عليه من الطريق وأسس مدينة الهاشمية لكنه توفي قبل ان يتم بناءها . وكانت

عاصمته اولا في الكوفة . ثم انتقل منها الى الحيرة ، ثم الى الانبار ونقل اليها دواوينه وجعل مالية الدولة بيد خالد بن برمك .

صفات السفاح وأخلاقه وولاية العهد ووفاته

كان السفاح وسيماً جميلاً مجعد الشعر طويلا ابيض أقنى الانف ، حسن اللحية . وكان حليماً وقوراً عاقلاً كاملاً ، واشتهر بالكرم حتى قيل عنه « كان السفاح اسخى الناس ماوعد عدة فأخرها عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » ومما يؤثر عنه قوله : « إن من ادنياء الناس ووضعائهم من عدّ البخل حزماً والحلم ذلاً » وقد قرب اليه الأدباء والشعراء والمغنين ، وكان يطرب من وراء الستر ، وكان يحب مسامرة الرجال وأهل العلم ، ولا يرغب في مجالسة النساء . تزوج قبل ولايته الخلافة من — أم سلمة — ولم يتزوج بغيرها بعد خلافته ، وكان له ولد منها اسمه « احمد » وبنت اسمها « ريطة » عهد السفاح لاخيه أبي جعفر بالخلافة ، وجعلها من بعده لعيسى بن موسى بن محمد ، وكتب عهداً بذلك ، وصيره في ثوب وختم عليه بخاتمه وخواتيم اهل بيته ، ودفعه الى عيسى بن موسى ومات بالجدري في الانبار في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٦ ﻫ بعد حكم دام اربع سنين وتسعة اشهر ودفن في قصره وكان يعاصره في مملكة البيزنطيين قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥) م وفي فرنسا كان يحكم في عهده — بيبن القصير — من العائلة الكارولنجية .

ابو جعفر المنصور

١٣٦ — ١٥٨ ﻫ او ٧٥٤ — ٧٧٥ م

ولد ابو جعفر سنة ١٠١ ﻫ بالحميمة ، أبوه محمد بن علي العباسي ، وامه سلامة البربرية ، وكان عضد اخيه السفاح في التآمر على الثائرين والقضاء عليهم ، وكان امير الحج سنة وفاة اخيه فاخذ له البيعة بالانبار عيسى بن موسى وكتب اليه يعلمه بوفاة السفاح وولايته للعهد ، فلقيه الرسول بمكان يقال له زكية ، فدعا الناس فبايعوه وبايعه ابو مسلم الخراساني وقال ابو جعفر : « اين موضعنا هذا ؟ » ، قالوا زكية . فقال « امر يزكى لنا ان شاء الله تعالى » ، وتمت له البيعه .

سياسة المنصور الداخلية

قامت في زمن المنصور ثلاثة احداث خطيرة ، تمكن من القضاء عليها بدهائه وحزمه وهي : (١) ثورة عمه عبد الله بن علي (٢) مقتل ابي مسلم الخراساني (٣) ثورة العلويين برآسة محمد النفس الزكية

الثلاثة معاً :
١- ثورة زعيم من زعماء الدعوة العباسية عمل جهده لإنجاح هذا الأمر على مطالب محمد في معركة الزاب وتحصنه في بلاد الشام .
٢- انشقاق في صفوف البيت العباسي حول مشكلة ولاية العهد .
٣- ثورة أهل الشام على العباسيين لأن أهل الشام في الحقيقة قد استغلوا عبد الله العباسي ليعيدوا عهد

واخيه ابراهيم . وساذكر هذه الاحداث الثلاثة بالتفصيل . سنخطوم ضمن الدولة الجديدة .

ص
اولا ثورة عبد الله بن علي : ص ٨٧ من الكتاب الثاني

١٤٦ ادعى عبد الله انه احق بالخلافة من المنصور وان السفاح وعده بها لما انفذه لمحاربة مروان .
من العباسيين الأوائل
وشجعه العرب من اهل الشام على القيام ضد المنصور ، فجمع عبد الله جيشاً كبيراً من اهل الشام
عيسى بن موسى
والجزيرة واهل خراسان . وسار بهم الى شمالي الجزيرة وعسكر عند مدينة نصيبين . ولما علم بذلك ابو جعفر المنصور سير اليه ابو مسلم الخراساني بجيش من الفرس . وارتكب عبد الله اخطاء عديدة اخسرته المعركة منها :(١) انه كان في جيشه نحو سبعة عشر الف فارسي أمر صاحب شرطته فقتلهم خوفا من ان يستميلهم ابو مسلم اليه (٢) خاف من حميد بن قحطبة احد كبار القواد في جيشه فاراد ان يتخلص منه ، فكتب له كتابا ووجهه الى والي حلب ، وكتب اليه في الكتاب « إذا قدم عليك حميد فاضرب عنقه » ولكن حميد شك بامر الكتاب وفتحه في الطريق وعرف ما فيه ، ودعا اصحابه لحرب عبد الله (٣) تمكن ابو مسلم بدهائه الحربي ان يحتل مكان عبد الله الحصين ، وذلك بان كتب اليه انه ذاهب لتولي الشام وانه لا يريد حربه ، ولم تكن هذه الحيلة لتنطلي على عبد الله لانه كان يعرف مكايد خصمه ، لكنها اثرت في جند الشام الذين خافوا على عيالهم واموالهم من ابي مسلم والحوا على عبد الله ان يسير بهم الى ديارهم . ولما خرجوا من مكانهم اسرع ابو مسلم واحتله وتحصن به واصبح في مكان منيع . ثم اقتتل الفريقان وبقيت الحرب ستة اشهر ، وانتهى بظفر ابي مسلم في جمادي الاخرة سنة ١٣٧ هـ وهزيمة عبد الله بن علي الذي اشار عليه احد قواده ان يصبر ويقاتل حتى يموت لان الفرار قبيح بمثله ، وقبل عاب على مروان فراره وقال : « قبح الله مروان جزع من الموت ففر » ، فلم يصغ عبد الله الى هذا الرأي ، وفر هاربا الى اخيه سليمان بن علي امير البصرة تاركا امواله وجيشه لابي مسلم فآواه اخوه وحماه وتوسط الى المنصور به فاعطاه الامان ، ويقال انه سجنه في دار اساسها من ملح ، فلما هطلت المطر سقطت الدار عليه وعلى من معه فقتلوا ، وتخلص المنصور منه سنة ١٤٧ هـ .

ثانياً مقتل ابي مسلم الخراساني :

خشي المنصور ان يثور أبو مسلم الخراساني وان يشكل حكومة فارسية منفصلة عن الخلافة العباسية ، وقد قام ابو مسلم باعمال كثيرة أوقعت الريبة في قلب المنصور منها (١) عدم تعزيته بموت السفاح وتهنئته بالخلافة (٢) سخره برسائل ابي جعفر وضحكه على مرأى من الناس عليها عند قراءتها (٣) غضبه على رسول ابي جعفر الذي جاء ليحصي الغنائم التي تركها عبد الله بعد هزيمته ، ومحاولته قتل الرسول لولا ان قيل له . ما ذنبه ؟ إنما هو رسول . فخلى سبيله ، ولم يمكنه من احصاء

الغنائم، وقال: لا اكون اميناً على الدماء، غير امين على الاموال (٤) كتب اليه المنصور كتابا يقول فيه «اني قد وليتك مصر والشام فهي خير لك من خراسان، فوجّه الى مصر من احببت واقم بالشام حتى تكون بقرب امير المؤمنين فان احب لقائك اتيته من قريب»، وكانت غاية المنصور ان يبعد ابا مسلم عن خراسان لان حزبه فيها، فغضب ابو مسلم وقال: «هو يوليني الشام ومصر وخراسان لي» وصمم على المضي الى خراسان وسار حتى وصل حلوان. وهنا جاءه كتاب الخليفة يأمره بالمثول اليه الى المدائن. فابى: فأرسل اليه كتابا مع عيسى بن موسى ولي عهده، ومعه ابو حميد المروزي وامره ان يكلم ابا مسلم بألين مايكلم به احد وان يمنيه، فان ابى يهدده بغضب الخليفة عليه وتوطين نفسه على قتاله حتى لو خاض البحر لخاضه خلفه، ولو اقتحم النار لاقتحمها وراءه حتى يقتله. ففعل الرسول ما امره به الخليفة وبلغ ابا مسلم ذلك فخالف اولا ثم خضع لا سيما عند ما علم ان المنصور عين على خراسان وثبس الجند هناك طيلة حياته، وكتب هذا الى ابي مسلم يقول له: «إنا لم نخرج لمعصية خلفاء الله وأهل بيت نبيه (ص) فلا تخالفن إمامك ولا ترجعن الا باذنه» فاستسلم عندها ابو مسلم وقطع الامل من خراسان وقبل دعوة الخليفة.

كان المنصور مصمما على قتل ابي مسلم ولكنه اجتهد ان يكون الرجل آمناً لا يحس بشيء من الجفاء، فلما قارب ابو مسلم المدائن امر المنصور بني هاشم ان يرحبوا به ويتلقوه احسن لقاء وهكذا فعلوا حتى دخل على المنصور فسلم عليه المنصور الا ملا يشعره بشيء مخيف، وامره ان ينصرف ويزيل وعثاء السفر ويستريح ليلته، ولما جاء الغد امر صاحب شرطته ان يجعل خمسة رجال اقوياء خلف الرواق، فاذا سمعوا التصفيق خرجوا الى ابي مسلم وقتلوه، ثم دعا ابا مسلم فدخل عليه وجرت بينهما المحاورة التالية:

المنصور: أخبرني عن نصلين اصبتها في متاع عبد الله بن علي؟

ابو مسلم: هذا احدهما الذي علي.

المنصور: ارنيه!

ابو مسلم: انتضاه وناوله اليه (فاخذه ابو جعفر وهزه، ثم وضعه تحت فراشه) وانما فعل ذلك ليأمن على نفسه حتى لا يفتك به أبو مسلم إذا احس بالشر واقبل عليه يعاتبه:

المنصور: اخبرني عن تقدمك اياي في طريق الحج؟

ابو مسلم: كرهت اجتماعنا على الماء فيضر ذلك بالناس.

المنصور: فمراوغتك وخروجك إلى خراسان؟

ابو مسلم: خفت ان يكون قد دخلك مني شيء.

- انتسابه إلى سليط بن عبد الله بن العباس
- تدخله في شؤون أبي العباس

المنصور: الست الكاتب الي" تبدأ بنفسك ؟ ! والكاتب الي تخطب امينة بنت علي ؟ ما دعاك الى قتل سليمان بن كثير الخزاعي مع اثره في دعوتنا وهو أحد (أهم شيوخ الدعوة) نقبائنا قبل ان ندخلك في شيء من هذا الامر ؟ . . . انما عملت في دولتنا وبريحنا ، ولو كان ذلك اليك ما قطعت فتيلا . لقد ارتقيت — لا ام لك — مرتقى صعباً

فاخذ ابو مسلم بيد الخليفة يقبلها ويعتذر ، وصفق المنصور فخرج خمسة رجال من وراء الستار وقتلوا ابا مسلم ، فقال قبل وفاته : « استبقني لعدوك » فأجابه المنصور : وأي عدو أعدى لي منك !

مات ابو مسلم ، وبموته قضي على آمال الفرس الذين كانوا يطمحون إلى اعادة ملكهم الغابر ، وإرجاع مجدهم التليد ، وتخلص ابو جعفر من عدو شديد المراس، قوي يخشى بأسه . ومقتل ابو مسلم يدلنا على قوة خلفاء هذا الدور : وتمكنهم من القضاء على اعدائهم بشتى الاساليب والطرق . ويدلنا على حيوية الخلافة وان الخلفاء هم القابضون على ناصية الحكم ، وان الامر لا يزال بيدهم ولم يخرج منهم . ومن جهة اخرى نجد ان مقتل ابي مسلم قد اثار حماس كثير من الخراسانيين، الذين يعتبرون ان ابامسلم بطلهم القومي . فقال بعضهم انه لم يمت ، وانه سيعود ويملأ الارض عدلا بعد ان تكون قد امتلأت جوراً . وقال آخرون بامامة ابنته فاطمة وهم المسلمية اوالفاطمية وقام الفرس بعد ذلك بحركات ثورية عنيفة . حدث بعضها في زمن المنصور : كثورة سنباذ الفارسي الذي قام في خراسان مطالباً بدم ابي مسلم ، وكحركة الراوندية : التي حدثت بعد عودة المنصور من الحج سنة ١٤٠ هـ فقد التف حوله جماعة من الفرس في مدينة الهاشمية يقولون بتناسخ الارواح ، وان ابا جعفر ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم فاتوا الى قصره ، وطافوا حوله ، فأمر المنصور بحبس مئتين منهم ، فغضبوا ودخلوا السجن وأخرجوا اصحابهم منه . وتوجهوا إلى قصر المنصور ، يريدون قتله ولولا دفاع معن بن زائدة (١) عنه لقضي على الخليفة في ذلك اليوم . وقد قام الفرس بمثل هذه الحركات فيما بعد سنذكرها في حينها .

---

(١) — معن بن زائدة الشيباني :هو قائد شجاع كان في ايام بني امية متنقلا في الولايات ومنقطعاً إلى يزيد بن عمر بن هبيرة امير العراقين . فلما جاءت الدولة العباسية وحوصر يزيد بن عمر بواسط ابلى معه يومئذ بلاء حسناً . فلما سلم يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور، فاستتر مدةطويلة حصلت له فيها غرائب من اظرفها : انه تنكر وركب جملا قاصداً البادية . فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد اسود متقلد سيفاً ، فقبض على خطام جمله فاناخه ، وقبض على يدي معن ، وقال : انت طلبة امير المؤمنين ، انت معن بن زائدة . فلما رأى الجد منه اخرج عقد جوهر ثمنه اضعاف —

ثالثاً ثورة العلويين :

كان عبد الله بن الحسن يشاع عن ابنه محمد انه المهدي الذي بشر به

اضطهد العباسيون ابناء عمهم العلويين بالرغم ان الدعوة كانت لهم في بادىء الامر . ويتجلى لنا ذلك في قول محمد بن عبد الله الملقب « بالنفس الزكية » الى عمه الحسن بن الحسين بن علي قال : « والله ياعم ! لقد كنا نقمنا على بني امية ما نقمنا ، فما بنو العباس إلا اقل خوفاً لله منهم ، وان الحجة على بني العباس لاوجب منها عليهم ، ولقد كانت للقوم اخلاق ومكارم ليست لابي جعفر » وكان المنصور قد بايع محمد النفس الزكية بالامامة في آخر العهد الاموي ، كما بايعه أهل بيته بذلك لكفايته ومقدرته العجيبة ، حتى أنه سمي بالنفس الزكية ـ لسمو فكره وزهده ونسكه ـ ولما صارت الخلافة للعباسيين لم يبايع محمد النفس الزكية السفاح ، ولا المنصور بالخلافة : كما انه لم يحضر هو ولا اخوه الى المدينة مع بنى هاشم عند ما حج المنصور في زمن اخيه مما اوقع الريبة في نفس ابي جعفر ، فصار يحتال ليعرف اخباره واخبار اخيه ، وولى عدة ولاة في المدينة بغية الحصول عليها وانفق كثيراً من المال في هذا السبيل واخيراً ولى المدينة احد صعاليك العرب وهو رياح بن عثمان بن حيان المري فاتى المدينة سنة ١٤٤ هـ واضطهد الاعراب الذين يستخفي محمد عندهم ، كما انه ارهق بني الحسن ـ اسرة محمد النفس الزكية ـ وحبسهم في المدينة ، ولما علم بذلك محمد جاء الى امه هند وقال لها « اني قد حملت ابي وعمومتي ما لا طاقة لهم به . ولقد هممت ان اضع يدي في ايديهم فعسى ان يخلي عنهم » فتنكرت هند ولبست اطماراً ثم جاءت السجن كهيئة الرسول فاذن لها ، فلما رآها عبد الله ابو محمد النفس الزكية نهض اليها فاخبرته بما قال محمد فقال : « كلا ! بل نصبر فوالله اني لارجوا

ـما جعله المنصور لمن يأتي به ، فقال الاسود خذه ، ولا تكن سبباً لسفك دمي ، فتأمله الاسود وقال : لست اقبله حتى اسألك عن شيء فان صدقتني اطلقتك . ان الناس وصفوك بالجود ، فهل وهبت مالك كله ؟ قال : لا ! قال فنصفه ؟ قال : لا ! ولم يزل حتى بلغ العشر ، فقال معن : نعم . فقال له الاسود انا رزقي من المنصور كل شهر عشرون درهما وهذا الجوهر قيمته الوف دنانير ، وقد وهبته لك ، ووهبتك لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ، ولتعلم ان في الدنيا من هو اجود منك فلا تعجبك نفسك ، ولتحقر بعد هذا كل جود فعلته ولا تتوقف عن مكرمة ، ثم رمى العقد في حجره وترك خطام الجمل وولى منصرفا . فقال له معن : والله قد فضحتني ولسفك دمي اهون علي مما فعلت ، فخذ ما دفعته لك فاني في غنى عنه ، فضحك وقال : أردت ان تكذبني في مقالي والله لا اخذته ولا اخذت لمعروفي ثمناً ومضى لسبيله . . . وبعد حادثة الهاشمية سماه المنصور : أسد الرجال واعطاه الامان وولاه اليمن ثم سجستان . وقد قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ

ان يفتح الله به خيراً ، قولي له فليدع الى امره وليجدُّ فيه فان فرجنا بيد الله » فانصرفت وبقي محمد على اختفائه . ولما حج المنصور سأل عبد الله عن ابنيه ، فانكر ان يكون عنده علم بهما ، فتيقن المنصور كذبه ، وأمر بتكبيله مع المحبوسين من بني الحسن الى العراق فحُملوا مقيدين بالاغلال على اسوء حال الى قصر بن هبيرة (١) وعذبهم فمات اكثرهم ولم يصبر محمد النفس الزكية على عذاب اهله فخرج في المدينة سنة ١٤٥ هـ وطرد عاملها وخطب في الناس ومما قاله : « ايها الناس ، انه كان من أمرنا وامر الطاغية عدو الله ، ابي جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التي بناها معانداً الله في ملكه ، وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما اخذ الله فرعون حين قال : انا ربكم الاعلى... أيها الناس ، والله ما خرجت بين اظهركم وأنتم عندي اهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم لنفسي ، والله ماجئت هذه ، وفي الارض مصر يُعبدالله فيه ، إلا وقداخذتلي فيه البيعة ». ومن هذا الخطاب يتبين أن محمداً كان يعتمد على اهل الامصار الاسلامية في قيام حركته ، والذي اوقعه في هذا الخطأ وجعله يفهم ان دعوته قد انتشرت في جميع البلاد ، هو ان المنصور كان يكتب لمحمد على السن قواده يدعونه الى العصيان وانهم معه . فكان محمد يقول « لو التقينا مال الي القواد كلهم » ومما سبب فشل حركته تأخر خروج اخيه ابراهيم الذي كان يدعوا له في البصرة ، وكان متفقاً معه على يوم يثوران معا فيه . ولكن صادف ان ابراهيم كان مريضاً بالجدري فتأخر في ثورته. ولقداخطأ محمد النفس الزكية باعتماده على المدينة في حركته إذ انها ليست بمركز حربي ولا تصلح للدفاع لان حياتها من خارجها فلا تحتمل الحصار الا قليلا . كما ان اهلها ضعفاء لايقوون على مقاومة جيش العباسيين . وقد سأل بعضهم الامام مالك في خروجهم مع محمد ، وفي رقبتهم بيعة المنصور فافتاهم بالخروج ، لانهم بايعوا مكرهين ، وليس على مكره يمين .

كان المنصور حين بلوغه عصيان محمد ، مشتغلا ببناء بغداد وقد حمل اليه الخبر اوس العامري الذي قطع المسافة من المدينة الى الهاشمية في تسعة ايام فلعطاه النابغة تسعة آلاف درهم ، واسرع المنصور الى الكوفة واقفل ابوابها حتى لا يخرج منها احد ، ولا يدخلها احد لأنهم شيعة لآل علي واحب المنصور ان يراسل محمداً قبل محاربته فكتب اليه كتابا يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله امير المؤمنين ، الى محمد بن عبد الله . اما بعد فانما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الارض فساداً أن يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم وارجلهم من خلاف اوينفوا من الارض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا ان الله غفور رحيم . ذلك عهد الله وميثاقه وحق نبيه محمداً (ص) ان تبت

(١) قصر بن هبيرة : بلدة في شرقي الكوفة على نهر الفرات بقرب بغداد .

من قبل ان اقدر عليك ان أؤمنك على نفسك وولدك واخوتك ومن بايعك وتابعك وجميع شيعتك ، وان اعطيك الف الف درهم وان انزلك من البلاد حيث شئت ، واقضي لك ما شئت من الحاجات ، وان اطلق من في سجني من اهل بيتك وشيعتك ، وانصارك ، ثم لا اتبع احداً منكم بمكروه ، فان شئت ان تتوثق لنفسك فوجه اليّ من يأخذ لك من الميثاق والعهد والامان ما احببت والسلام ».

فلم يقبل النفس الزكية بما عرض عليه المنصور وأجابه بكتاب جاء فيه « طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون ، إن فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ، ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ، ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وأنا اعرض عليك من الامان مثل الذي اعطيتني ، وقد تعلم ان الحق حقنا ، وانكم انما طلبتموه بنا ، ونهضتم به بشيعتنا وخطبتموه بفضلنا وان ابانا علياً عليه السلام كان الوصي والامام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن احياء ... » فرد عليه المنصور بكتاب آخر بين فيه افضلية نسبه وقرابته وجهز جيشاً مؤلفاً من اربعة آلاف فارس وخمسة الاف راجل بقيادة ولي العهد عيسى بن موسى وكان المنصور لا يهمه أيهما قتل الآخر . فاذا قتل عيسى بن موسى تخلص منه لانه كان يريد نقل الخلافة لابنه المهدي من بعده . وارسل المنصور جيشاً آخر بقيادة محمد بن قحطبة اتبعه بجيش عيسى ، وقطع المنصور الاخبار عن اهل خراسان خوفاً من ان يبلغهم خبر عصيان محمد فتفسد قلوبهم ، وكان يخوف منهم كثيراً . لما بلغ محمد النفس الزكية مجيء جيش عيسى بن موسى أمر بحفر خندق حول المدينة ، تشبهاً بعمل النبي (ص) يوم الاحزاب ، وتقلد بسيف النبي ذو الفقار ، الا ان اكثر اهل المدينة هربوا كما ان بعضهم انضم الى جيش عيسى بن موسى ، الذي ارسل فصيلة من جنوده تحرس طريق مكة ، حتى تقبض على محمد النفس الزكية اذا حاول الهرب اليها ، وطلب اليه قبل بدء الحرب الخضوع والتسليم فابى ، فحاصر عيسى المدينة وقطع اشجار النخيل التي حولها ، وفتحها عنوة في رمضان سنة ١٤٥ هـ وقتل محمد النفس الزكية . وارسل رأسه الى ابي جعفر . وأمن اهل المدينة ، واخذ أموال بني الحسن كلها وسار متجها نحو مكة .

خسر اهل المدينة من جراء ثورتهم هذه ، لأن الخليفة المنصور حرمهم من الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها ، فمنع عنهم الحبوب التي كانت تأتيهم من مصر منذ ايام الخليفة عمر ، كما حبس الامام ابا حنيفة وجلد الامام مالك ، ووقعت المدينة بعد ذلك في فقر وضيق .

ويشير اليعقوبي إلى مكيدة دبرتها خمار ابنة عبد الله بن العباس بالمدينة إذ وجهت مولى لها فيه خمار أسود جعلته على قصبة فنصبه على مأذنة المسجد ووجهت مولى آخر إلى العسكر العلوي فصاح الهزيمة فانهزم الناس عن محمد وبقي هو يقاتل حتى قتل في اليوم ١٤ من رمضان .

ثورة ابراهيم

إبراهيم اخو محمد النفس الزكية ، جاء البصرة ودعا اهلها الى مبايعة اخيه ، فبايعه كثيرون من اهلها ، وأجابه فتيان العرب ، ثم اعلن عصيانه واستولى على البصرة ، والاهواز ، وواسط ، وكان لفشل اخيه تأثير عظيم في شل حركته . قام في ثورته متأخراً فتمكن المنصور من القضاء على كل واحد منها على حده ، ولما سمع المنصور بثورة ابراهيم أرسل يستحث عيسى بن موسى في القدوم لمحاربته ، كما انه انتظر قدوم ابنه المهدي مع جيشه من خراسان ، وظل المنصور سبعة اسابيع في الكوفة على اسوء حال ينام على بساط ولا يبدل ثيابه السوداء ، خائفاً من قيام اهل الكوفة عليه ، وليس عنده جند يحميه ، حتى وصل ابنه وعاد جيش الحجاز وتحارب مع جيش ابراهيم عند باخمري — بجوار الكوفة — وانتصر عليه وقتله ، وبذلك تخلص المنصور من حركة العلويين هذه التي كانت خطراً على دولته . وعلى اثر ذلك خطب المنصور في وفد من اهل خراسان خطبة رائعة ولأهميتها نذكرها قال : « يا اهل خراسان أنتم شيعتنا وانصارنا واهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا ، وان اهل بيتي هؤلاء من ولد علي بن ابي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة فلم نعرض لهم فيها بقليل ولا كثير ، فقام علي بن ابي طالب فتلطخ وحكم عليه الحكمين فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وانصاره واصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده ابنه الحسن ، فوالله ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال فقبلها ، فدس اليه معاوية أني اجعلك ولي عهدي من بعدي فخدعه ، فانسلخ له مما كان فيه وسلمه اليه ، فاقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلقها غدا ، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه. ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه اهل العراق واهل الكوفة واهل الشقاق والنفاق والاغراق والفتن ، أهل هذه المدرة السوداء (واشار الى الكوفة بيده) فوالله ماهي بحرب فاحاربها ، ولاسلم فاسالمها فرق الله بيني وبينها ، فخذلوه واسلموه ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه اهل الكوفة وغروه فلما اخرجوه اظهروه واسلموه وقد كان ابي محمد بن علي ناشده في الخروج ، وسأله ان لا يقبل أقاويل اهل الكوفة وقال : انا نجد في بعض علمنا ان بعض اهل بيتنا يصلب بالكوفة ، وانا اخاف ان تكون ذلك المصلوب ، وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر اهل الكوفة فلم يقبل ، واتم على خروجه ، فقتل وصلب ، بالكناسة . ثم وثب علينا بنوا امية فاماتوا شرفنا واذهبوا عزنا والله ما كانت لهم عندنا ترة يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا فيهم وبسبب خروجهم عليهم فنفونا من البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ، ومرة بالشراة حتى ابعثكم الله لنا شيعة وانصاراً ، فاحيا شرفنا وعزنا بكم اهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل ، واظهر حقنا واصار الينا ميراثنا عن نبينا ...

فقر الحق مقره . . . فلما استقرت الامور فينا على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا علينا ظلماً وحسداً منهم لنا وبغياً لما فضلنا الله به عليهم ، واكرمنا به من خلافته وميراث نبيه (ص)

جهلا عليّ وجبناً عن عدوهم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

وشرّد المنصور بني الحسن ، وحبس وقتل كثيرين منهم ، ومن اشراف البصرة الذين ساعدوا الدعوة العلوية وهدم بيوتهم وخرب بساتينهم . وارسل رأس ابراهيم الى ابيه عبد الله في السجن ، فزاد الم وحزنه وقال للرسول : «قل لصاحبك . قد مضى من بومنا ايام والملتقى القيامه» فاعتبر المنصور من هذا القول واتعظ.

حالة شمالي افريقية ،

لم تكن شمالي افريقية هادئة في زمن المنصور ،نظراً لبعدها عن مركز الخلافة ، ولقيام الخوارج بثورات متعددة فيها ، وقتلهم العمال الذي يرسلهم الخليفة اليها وقد وفق الخليفة الى والي قدير وهو يزيد المهلبي الذي تمكن من تهدئة الحالة في شمالي افريقية ، وقمع ثورات الخوارج وتعقب فلولهم ، واسترد منهم مدينة القيروان ، ونشر الامن في ربوع البلاد وبقي والياً فيها مدة خمسة عشر سنة الى ان توفي سنة ١٧٠ هـ

سياسة المنصور الخارجية

اولا بلاد الاندلس :

هرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي الى بلاد الاندلس ، في زمن أبي جعفر المنصور وأسس بها دولة أموية منفصلة عن الخلافة العباسية في بغداد . وكانت هي أول دولة انفصلت عن ملك العباسيين ، وتسمى عبد الرحمن بالامير فقط ، وقطع صلته مع الخليفة في المشرق ، وكان المنصور معجب من عبد الرحمن لمقدرته وكفايته ، لتمكنه من الهرب من وجه العباسيين ، وتأسيسه دولة في الغرب ضاهت ملك العباسيين في الشرق ، ولقبه المنصور «صقر قريش» ، ولم تكن العلاقة حسنة بين الدولتين ، فان المنصور أرسل عامله على افريقية ابن مغيث اليحصبي ليغزو بلاد الاندلس، ففشلت حملته فشلاً مريعاً ، وأنزل بها عبدالرحمن هزيمة منكرة ، وبعث برأس قائد هذه الحملة الى مكة، وألقي سراً أمام المنصور ، الذي كان حاجاً في تلك السنة ، فارتاع ، وحمد الله الذي جعل بينه وبين صقر قريش بحراً .

ثانياً بلاد الروم :

غزت جيوش قسطنطين الخامس امبراطور الروم حدود المملكة الاسلامية الشمالية. سنة ١٣٨هـ واستولت على ثغر(١) ملطية وهدمت سورها ، فأرسل المنصور عمه صالح بن علي ، ومعه اخو المنصور العباس بن محمد بن علي في غزو الصائفة ، فطرد الروم ، وأعادوا بناء ماهدمه الروم من ملطية ، وفي السنة الثانية سنة ١٣٩هـ قاما بغزو أرض الروم من درب الحدث ، ومعهما اختا صالح : ام عيسى ، ولبابة ابنتا علي ، وكانتا نذرتا ان زال ملك بني أمية أن تجاهدا في سبيل الله . وقام في هذه السنة فداء(٢) بين المنصور وملك الروم ، افتدى به المنصور اسراء المسلمين . وكانت الصوائف تتوالى في غزو بلاد الروم الى سنة ١٥٥هـ ، وفيها طلب امبراطور الروم الصلح من المسلمين على أن يؤدي لهم « الجزية » ، فقبل بذلك المنصور ، وعقد بينهما صلح لمدة سبع سنين . وكانت هذه الحروب التي تجري بين المسلمين والبيزنطيين عبارة عن غارات يقوم بها أحد الطرفين على الآخر إذا أنس منه ضعفاً ، فيغير على البلاد ، وينهب ماتصل يده اليه ، ويخرب الحصون والثغور ، التي يصادفها في طريقه ويعود الى بلاده ، ولم يكن يُقصد من هذه الغارات فتحاً واستيلاء دائماً وانما هي عبارة عن مناورات حربية يقوم بها من يشعر بقوته وكفاءته ، وهي تدل على حيوية الدولة ونشاطها . وكانت الاراضي الواقعة على حدود المملكتين تتراوح بين الطرفين ، فمن كانت أحوال دولته الداخلية مستتبة والنظام والامن سائدين في بلاده ، توغلت جيوشه في تلك الاراضي واستولت عليها ، فاذا مااختلت الحالة الداخلية ، بقيام ثورات وفتن ، وضعف الجيش المرابط على الحدود ، لانقطاع الارزاق عنه ، تراجع الى الوراء ، واحتل الطرف الثاني مراكزه . وكانت الجنود المرابطة على الحدود نوعين ، المرتزقة وهم الجند المفروض لهم عطاء في الديوان ، والمطوعة : وهم المقاتلون الذين يتطوعون من أنفسهم للجهاد في سبيل الله ، ولا يأخذون أجراً على ذلك ، ويكتفي الخليفة بتعيين قائد لهم .

ثالثاً بلاد طبرستان والخزر :

كان أهل طبرستان القاطنين في الجنوب الغربي من بحر قزوين ، لايزالون على دينهم القديم ، ويحكمهم رؤساء من بينهم ، بالرغم من أنهم خاضعون لحكم المسلمين ، وعندما عرفوا انقلاب الخلافة

---

(١) تطلق كلمة ثغر على المدن والحصون الواقعة على حدود المملكة الاسلامية ، زيادة على معناها الاصلي ، وهو ميناء على البحر .

(٢) كان الخلفاء ـ يفدون ـ أسراء المسلمين من وقت الى آخر ، فيتبادلون مع الروم كل أسير بمثله ، واذا بقي من المسلمين من هو في الأسر ، دفعوا ديته وفكوه من الاسر .

الاموية ، وانتقالها لبني العباس ، ثاروا على العرب المتوطنين في ديارهم ، وفتكوا بعدد غير قليل منهم فأرسل الخليفة جيشاً كثيفاً هزمهم ونكّل برؤسائهم ، والحق طبرستان نهائياً بالدولة العباسية . وقام أهل الديلم بثورة على الخليفة ، فأرسل لهم المنصور جيشاً اخضعهم ، وبنى الحصون والمعاقل على حدود بلادهم . وكذلك شق أهل الخزر في كورجيا عصا الطاعة على الخليفة فقمع المنصور حركتهم وأدب زعماءهم . وحاول الاكراد في الجزيرة الفراتية الثورة على الخليفة العباسي فأرسل لهم المنصور وزيره خالد بن برمك عاملا على بلادهم ، فاستطاع بصلابته وحزمه أن يقمع حركتهم ، ونشر الامن والسلام في تلك البلاد .

كان سبب هذه الحوادث التي وقعت في أطراف المملكة أن الخلافة الاسلامية مرت في دور انتقال من بني أمية الى بني العباس . فكان من الطبيعي أن يثور أهل تلك البلاد عندما وجدوا أن العرب يتنازعون فيما بينهم على الخلافة ، وأن أحوالهم الداخلية في بلادهم غير مستتبة ، ولكن المنصور بسياسته الحازمة عرف كيف يخضع هذه الشعوب ، ويوطد نفوذه في بلادها .

اعمال المنصور العمرانية

بناء بغداد

أراد المنصور بناء عاصمة لملكه ، وكانت المدينة في زمن النبي (ص) عاصمة المسلمين والخلفاء الراشدين الثلاثة الاولين ، أما الامام علي فقد اتخذ الكوفة مقر حكمه لأن بها شيعته . ولما قامت الدولة الاموية جعل معاوية دمشق عاصمة الخلافة الاسلامية ، الا ان دمشق لا تصلح عاصمة للخلفاء العباسيين ، لأن اهلها من حزب الامويين ، ولأنها بعيدة عن بلاد العجم ، التي نصر أهلها العباسيين وقاموا بدولتهم . فبنى السفاح قصراً بجوار الأنبار على الضفة الشرقية من الفرات ، عند مخرج نهر عيسى دعاه الهاشمية . ثم جاء المنصور واتخذ له قصراً آخر بين الكوفة والحيرة دعاه الهاشمية أيضاً ، ولكن هذا المكان لا يصلح أن يكون عاصمة للخلافة ، لذلك فكر المنصور في البحث عن مكان آخر يكون موافقاً لغرضه ، فبعث رواداً يرتادون له مكاناً مناسباً ، فاختاروا له مكان بغداد ، فاستشار أهل ذلك الموضع من الرهبان ، فحسنوه له ومما قالوه : « تنزل في بغداد ، فانك تصير بين أربعة طساسيج (نواحي) ... فان تأخر عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً . وانت يا امير المؤمنين على الصراة ودجلة ، تجيئك بالميرة من الغرب . وفي الفرات من الشام ومصر ، وتلك البلدان . وتحمل اليك طرايف الهند والسند والصين والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك ميرة أرمينية وأذربيجان

والموصل وديار بكر وربيعة . وأنت بين انهار لايصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة فاذاقطعت الجسر لم يصل اليك عدوك . وانت قريب من البر والبحر والجبل » . فوافق الخليفة على هذا الموقع وكان يسمى بغداد بالنسبة الى قرية قديمة كانت قائمة فيه . وأمر بانشاء مدينة السلام في سنة ١٤٥ﻫ فأمر بجمع الصناع والعمال من جميع الجهات والنواحي فأحضروا وكان عددهم نحو مئة الف عامل ، وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة . والمعرفة بالهندسة ، ليتولوا مراقبة العمال ، وعدّ اللبن ، ثم رسمت خطوط المدينة وتقسمت محلاتها . فأراد المنصور ان ينظر اليها ، فامر أن يذر الرماد على خطوطها واقسامها كي تظهر ، ثم اقبل واخذ يدخل من كل باب ويمر في فصلانها وطاقاتها ورحابها ، وهي مخطوطة بالرماد . ثم امر ان يجعل على تلك الخطوط حب القطن ، ويصب عليه النفط ، فنظر اليها والنار تشتعل ، ففهمها وعرف رسمها وأمر ان يحفر أساس ذلك الرسم . ثم ابتدئ في عملها . ووضع المنصور اول لبنة بيده وقال : « بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ثم قال : « ابنوا على بركة الله » واحتاج الخليفة الى آجر فقال لخالد البرمكي : « ماترى في نقض ايوان كسرى بالمدائن وحمل نقضه الى مدينتي هـذه ؟ » فقال خالد : « لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين ! » قال : ولم ؟ قال : « لأنه علم من أعلام الاسلام ، يستدل به الناظر اليه على أنه لم يكن ليزال مثل اصحابه عنه بأمر الدنيا ، وانما هو على أمر دين ، ومع هذا يا امير المؤمنين فان فيه مصلى علي بن ابي طالب صلوات الله عليه » فأجابه المنصور : « هيهات يا خالد ! أبيت الا الميل الى اصحابك العجم » ثم امر المنصور ان ينقض القصر الابيض ، فنقضت ناحية منه ، وحمل نقضه ، ولكن الخليفة وجد أن هدمه يكلف اكثر من نفقات عمل آجر جديد فتركه .

كانت بغداد في اول امرها مدينة مدورة ، يحيطها سوران عظيمان ، وخارجها خندق عظيم فيه ماء . وفي داخلها سور صغير يحيط بالساحة الوسطى وفي الاسوار اربعة ابواب متساوية الابعاد وهي باب الكوفة . وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . ومحيطها عشرون الف ذراع ، وفي وسطها ساحة مستديرة فيها قصور وجامع وفي مركز هذه الساحة « قصر الذهب » وهو قصر الخليفة المنصور ، وكان فوق ايوان هذا القصر قبة خضراء على رأسها تمثال فارسي في يده رمح . وكان مقراً للخلفاء العباسيين ، وكان بجوار هذا القصر « جامع المنصور » وكان في المدينة المدورة ايضاً قصور اولاد الخليفة وبيوت الخدم ، وثكنة لحرس الخليفة ، ودور لدواوينه المتعددة وفتحت الاسواق والمحلات خارج المدينة المدورة ، وتم بناء بغداد سنة ١٥٠ ﻫ .

وفي سنة ١٥١ﻫ بنى المنصور الرصافة لابنه المهدي وهي عبارة عن قصر وجامع في الجانب الشرقي

من بغداد . وتوسعت بغداد بعد ذلك كثيراً .

انفق المنصور على مدينة بغداد ثمانية عشر الف الف دينار ، وحشر اليها العلماء من كل بلد واقليم ، فأمها الناس افواجا ولم تزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت ام الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية في عهد الدولة العباسية ، واربى سكانها على مليونين.

سقطت هذه المدينة العظيمة سنة ٦٥٦ هـ بعد حصار هولاكو التتري لها ، ولم يبق من اثارها القديمة اليوم الا بعض الاطلال البالية ، ويعود سبب اندثارها وعدم بقاء آثار ظاهرة فيها إلى ان مادة البناء فيها كانت على الاغلب من اللبن والآجر ، اللذان لا يقويان على البقاء مدة طويلة .

وقام المنصور ايضاً بجملة أعمال عمرانية منها انه بنى سنة ١٥٥ هـ مدينة الرفيقة، كما شيد الاسوار وحفر الخنادق حول مدينتي الكوفة والبصرة .ولما اراد بناءسور الكوفة وحفرخندقها ؛ امر باعطاء خمسة دراهم لكل رجل من اهل الكوفة حتى يعلم عددهم ،وأمر بعد ذلك بجمع اربعين من كل واحد منهم ، فجمعوا هذه المبالغ وأنفقوها في بناء السور وحفر الخندق . فقال احد الشعراء يذكر هذه الحادثة :

يا لقومي ما لقينا   من أمير المؤمنين

قسم الخمسة فينا   وجبانا الاربعين

وبنى المنصور كذلك قصراً عظيما في المدينة بالحجاز انفق عليه أموالا كثيرة ، وامر بترميم الحصون ، واقامة المدن على حدود الدولة العباسية ، لا سيما الواقعة بينه وبين البيزنطيين ، وكان يزور تلك المواقع بنفسه ، ويرمم ما تخرب منها ، ويضع الحاميات فيها ، ويبني حصوناً جديدة غيرها .

ادارة المنصور وصفاته

كان المنصور من اعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، ويقظة وحزماً وصلاحاً ، واهتماماً بمصالح الرعية وجداً في بلاطه ، وهو موطد الحكم العباسي ، ويعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية ،كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة الى الدولة الاموية . وكان ميالا بطبيعته الى النظام ، يقسم نهاره كما يلي : ينظر في صدر النهار في امور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فاذا صلى العصر جلس مع اهل بيته ، فاذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والثغور ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك ، فاذا مضى ثلث الليل انصرف سماره ،وقام الى فراشه فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه فيتوضأ ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في ايوانه ، ويبدأ عمله كعادته في كل يوم .

والمنصور هو الذي وضع أساس العقيدة القائلة بوجوب تقديس مقام الخلافة وإعلاء شأنها، وكان يعتبر نفسه ممثل الله على الارض، فيجب على المسلمين الخضوع له وعدم مخالفته، فهو الذي جعل للخليفة هيبة دينية، وصار الخلفاء من بعده يعتمدون على هذه الفكرة ويحافظون عليها، حتى انهم عندما خسروا سلطتهم في اواخر حكمهم بقيت لهم السلطة الدينية. وقد عبر المنصور عن هذه الفكرة بقوله: « ايها الناس، إنما أنا سلطان الله في ارضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه، اعمل بمشيئته، واقسمه بارادته، واعطيه باذنه. قد جعلني الله عليه قفلا، ان شاء ان يفتحني لأعطياتكم وقسم فيئكم وأرزاقكم فتحني، واذا شاء ان يقفلني أقفلني.». وجعل المنصور الخلافة تخذ لنفسها مظهراً رائعاً وكياناً ثابتاً. وجعل حوله طبقة من العلماء يشدون إزره ويدعمون سلطانه، فجاء بأهل العلم والادب من كل جهة الى مدينته بغداد، وتُرجمت كتب الطب والتنجيم والعلوم والفلسفة من اليونانية والهندية والفارسية الى اللغة العربية، وبدأ العرب يدونون العلوم الدينية ويضعون اصول الفقه، وعمل المنصور على اغناء شعبه فشجع التجارة، ووطد الأمن في البلاد، فكان يطلب من صاحب شرطته « ان ينصف الضعيف من القوي » ومن القاضي ان « لا تأخذه في الله لومة لائم » ومن صاحب الخراج « ان يستقصي ولا يظلم » ومن صاحب البريد « ان يكتب بخبر هؤلاء على الصحة »، فكان ولاة البريد يكتبون الى المنصور كل يوم بسعر القمح والحبوب والأدم، وبكل حدث، وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا صلوا المغرب، ويكتبون اليه بما كان في كل ليلة اذا صلو الغداة، فاذا وردت كتبهم نظر فيها فاذا رأى الاسعار على حالها امسك، وان تغير شيء عن حاله كتب الى الوالي والعامل هناك وسأله عن العلة التي نقلت ذلك عن سعره، فاذا ورد الجواب بالعلة تلطف لذلك برفقة حتى يعود سعره ذلك الى حاله، وإن انكر شيئاً كتب اليه يوبخه ويلومه. وكتب والي البريد يوماً الى المنصور يخبره ان واليه في حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد ببزاة وكلاب، قد اعدها فكتب اليه: « ثكلتك امك، وعدمتك عشيرتك، ما هذه العدة التي اعددتها للنكاية في الوحش؟ إنا إنما استكفيناك امور المسلمين، ولم نستكفك امور الوحش، سلم ما كنت تلي من عملنا الى فلان بن فلان، والحق بأهلك ملوماً مدحوراً ».

واشتهر المنصور بغدره باعدائه، وفتكه بمخالفيه دون رحمة ولا شفقة، دون ان يتقيد بوعود وعدها او عهود قطعها، بل كان مذهبه « الغاية تبرر الواسطة » مهما كان نوع تلك الواسطة!!

وعرف المنصور بالثبات عند الشدائد، ولا شك ان هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي

كفلت له النجاح فقد تغلب على من خرج عليه من اهل بيته من العباسيين والعلويين ، وقضى على ابي مسلم الخراساني وقمع ثورة الفرس ، ووطد دعائم ملكه بعد ان اصبح قاب قوسين أو أدنى من الوهن والانحلال .

وعرف المنصور بالفصاحة في القول ، والابانة عن مقصده ، وفي خطبه ورسائله التي ألقاها وكتبها في مختلف المناسبات اكبر دليل على ذلك .

واشتهر المنصور بالجد في بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل الى لهو ، ولا شرب خمر ، وروى عنه حماد التركي ما يلي : سمع المنصور يوماً في داره جلبة فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر ، فذهبت ، فاذا خادم له قد جلس بين الجواري وهو يضرب لهن بالطنبور وهن يضحكن ، فجئت فأخبرته فقال : وأي شيء الطنبور ؟ فوصفه له ، ثم قام حتى أشرف عليهم ، فلما بصروا به تفرقوا ، فأخذ الخادم الضارب وكسر الطنبور على رأسه وأخرجه من قصره .

وكان المنصور حريصاً على جمع المال ، كما كان أحرص منه على إنفاقه . وكان يغلب عليه الشح حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمي «أبا الدوانيق» لتشدده في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق - وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم - فانه لما بنى مدينة بغداد كان ينظر في العمارة بنفسه فيحاسب الصناع والاجراء فيقول لهذا : أنت نمت القائلة ، ولهذا : انت لم تبكر الى عملك ، ولغيره انت انصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه ، فلا يكاد يعطي اجرة يوم واحد !! ولم يكن يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد الاسراف ، وإنما كانت اعطياته الى القلة أميل ، وكان يراقب اولاده حتى لا يدعهم يميلون الى البذخ والترف .

وبالجملة كان المنصور حازماً سديد الرأي ، حسن السياسة ، من عظماء الملوك وعقلائهم ، شديد الوقار ، وكانت القوة الاسلامية في يده وطوع امره ، إلا أنها لم تكن عربية خالصة ، حتى ان العرب في العراق تقلدوا بالفرس ، وأخذوا عنهم العادات والآداب والازياء ، فلبسوا القلنسوة برأي الخليفة فقال الشاعر أبو دلامة في ذلك :

وكنا نرجي من امام زيادة ... فزاد الامام المصطفى في القلانس
تراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس

ولاية العهد ووفاة المنصور

بعد ان هدأت احوال الدولة الداخلية واستقر الامر للمنصور ، فكر في نقل الخلافة لابنه المهدي ، فحمل ابن اخيه عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد ، واستعمل ضروب الحيلة في

الوصول الى غايته وتقديم محمد المهدي عليه ، وأخيراً تمكن من ذلك وأوصى ابنه وصية قيمة جاء فيها « ... وأرغب الى الله عز وجل في الجهاد والمحاماة عن دينه ، وإهلاك عدوه بما يفتح الله على المسلمين، ويُمكن لهم في الدين ، وابذل في ذلك مهجتك ونجدتك ومالك ، وتفقد جيوشك ليلك ونهارك ، واعرف مراكز خيلك ومواطن رحلك . وبالله فليكن عصمتك وحولك وقوتك ... »

وفي سنة ١٥٨ هـ حج المنصور ، وفي أثناء الطريق عرض له وجعه واشتدت علته ، وكان يسأل عن دخول الحرم ويوصي صاحبه الربيع بن يونس بما يُريد ، وتوفى عند طلوع الفجر في بئر ميمون — وهي بئر على ستة اميال من مكة — ليلة السبت في ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ، ولم يحضر عند وفاته إلا حاجبه الربيع فكتم موته ، ومنع النساء وغيرهن من البكاء عليه ،ولما أصبح الصباح ، وحضر اهل بيته وجلسوا بمجالسهم خرج الربيع اليهم ، وقرأ عليهم عهد المنصور الى ابنه ، ووصيته لهم بطاعته والقيام بدولته ، والوفاء له . وأخذ البيعة منهم ومن القواد فبايعوا . ثم ارسل من اخذ البيعة للمهدي من اهل مكة والمدينة . ودفن المنصور مكشوف الرأس لانه مات محرماً ، ودامت خلافته ٢٢ سنة . وكان يعاصره في الاندلس : (عبد الرحمن الداخل) وفي فرنسا : (بيبن القصير ، ثم شارلمان) وفي القسطنطينية : (قسطنطين الخامس) .

المهدي

١٥٨ - ١٦٩ هـ أو ٧٧٥ - ٨٧٥ م

هو محمد ولقبه أبوه المنصور بالمهدي ، وامه أرْوى بنت منصور الحميري، وكانت تكنى أم موسى. ولد سنة ١٢٦ هـ بالحميمة ، ونشأ في بيت الخلافة ، وعني أبوه بتثقيفه وعهد به الى المفضل الضبي ، نعلمه تعليما عربياً ،وجمع له امثال العرب ومختار شعرهم ، فنشأ فصيحاً يقول الشعر ويجيده ، ويحفظ كثيراً منه ، ومن امثال العرب . ساعد أباه في قمع الفتن التي قامت في خراسان ، وتولى أمارة الحج سنة ١٥٣ هـ ، ولما توفي المنصور ارسل الربيع بن يونس رسولا يخبره بوفاة ابيه،وبعث معه بقضيب النبي (ص) وبردته التي يتوارثها الخلفاء وبخاتم الخلافة ، فجاء الناس يعزونه بوفاة ابيه ، ويهنئونه بالخلافة ، وكان اول من دخل عليه الشاعر أبو دلامة الذي انشده :

عيناي واحدة تُرى مسرورةً	بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوءها	ما انكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موتُ الخليفة مُحرماً	ويسرها ان قام هذا يخلف
ما ان رأيتُ كما رأيت ولا أرى	شعراً اسرحه وآخر انتف

هلك الخليفة يال أمة أحمد　　وأتاكم من بعده من يخلف
هذا حباه الله فضل خلافة　　ولذاك جنات النعيم تزخرف

وخطب المهدي خطاب العرش في الجامع وبايعه المسلمون في بغداد .

سياسة المهدي الداخلية

كان المنصور قد مهد لابنه أحوال البلاد ، وأخضع شوكة الثائرين من علويين وعباسيين وفرس ، وترك له بيت مال عامر يكفيه عشرة سنين كاملة . لذلك كانت حالة الدولة في ايامه سعيدة ، تشبه في في كثير من الوجوه أيام الوليد بن عبد الملك ، بدأ المهدي أعماله بأن أطلق سراح المسجونين السياسيين وأبقى المسجونين المجرمين الذين في رقبتهم دم او قتل او من كان معروفاً بالفساد والظلم . وفي زمنه خرج عبد الله بن مروان بن محمد الاموي ببلاد الشام سنة ١٦١ هـ فحاربه المهدي وهزمه وقبض عليه وحبسه ثم عفا عنه ووسع عليه الرزق . وخرج عليه في السنة التالية عبد السلام بن هشام اليشكري في الجزيرة ، واشتدت شوكته وكثر اتباعه ، وعاث في الارض فساداً ، ولكنه هزم وقتل في قنسرين . وقامت عليه ثورة في الموصل ومصر فأخمدها . وأهم الاحداث التي جرت في زمنه ثورة هاشم بن حكيم الملقب « بالمقنع » لقب بذلك لانه كان يضع على وجهه قناع من ذهب ليستر قبح وجهه ، وهو من اصل عربي ثار في خراسان ثم انتقل الى ما وراء النهر ، وكانت خراسان مرتعاً خصباً لشتى الطوائف والمذاهب . وكان يقول بتناسخ الارواح ، وان روح الله تحل من وقت الى آخر في احد عباده المصطفين ، وانها حلت في شخصه كما حلت من قبل في آدم ونوح وأبي مسلم الخراساني . وهو يذهب الى ان الديانة هي الايمان فحسب ، وكانت تعاليمه اباحية تدعو الى التحرر من القيود الاخلاقية ، فاستهوى جماعة كبيرة دافعوا عنه ، وحاربوا جيوش المهدي التي بقيت أربع سنوات تحاربه ، وكان اصحابه يلبسون ثياباً بيضاء ولذلك سموا « بالمبيضة » وقد حاصرتهم جيوش الخليفة في قلعة ، ولما اشتد على المقنع الحصار وقطع الامل من النجاة ، أوقد النار في القلعة وحرق نفسه وأهله واصحابه .

وقامت في زمن المهدي فرقة الزنادقة في خراسان وبلاد الفرس والعراق ، وكان هؤلاء الزنادقة من الفرس الذين لم يتمكن الاسلام في قلوبهم ، اعتنقوا مذهب ـ مزدك ـ فعبدوا النار ، وأباحوا تزوج الاخوات والبنات ، وتحللوا من كل قيد اخلاقي ، كما انهم صاروا يخطفون الاولاد من الشوارع ، فحاربهم المهدي واضطهدهم وأسس دائرة خاصة للنظر في شؤونهم ومطاردتهم ، برئاسة ـ صاحب

الزنادقة ـ وكان ظهور هذه الفرقة وغيرها دليلا على ان عقائد الفرس القديمة كانت لا تزال تؤثر في جسم الدولة الاسلامية ، ولا شك ان الفرس الذين نشلوا في الناحية السياسية ، رأوا ان خير وسيلة في إرجاع نفوذهم السابق الدس في العقيدة الاسلامية وتفريق المسلمين الى مذاهب وشيع ، وهكذا فعلوا فقسموا الامة الاسلامية على نفسها وفتوا في عضدها ، وفرقوا بين صفوفها ولم يخلصوا لها في اكثر الاوقات .

سياسة المهدي الخارجية

لم تكن العلاقة حسنة بين أمير الاندلس عبد الرحمن الداخل والخليفة المهدي ، إلا ان بعد المسافة بين الطرفين حالت دون محاربة احدهما الآخر .

جبهة الروم :

كانت الحرب بين البيزنطيين والمسلمين دائمة في زمن المهدي ، وكانت الصوائف والشواتي لا تبطل من قبل المسلمين ، كما كانت الغارات مستمرة من قبل الروم . وكانت الحروب بين الطرفين في البر والبحر ، وكانت كفة العرب هي الراجحة في هذه المرة ، ففي سنة ١٦٣ هـ أغار الجيش البيزنطي على البلاد الاسلامية فعاث في المدن المجاورة فساداً وتخريباً ، كما استولى على مدينة مرعش ، وأشعل النار فيها ، وفتك بأهلها ، وما ان اقترب جيش المسلمين بقيادة الحسن بن قحطبة من البيزنطيين حتى تقهقروا من المواقع التي احتلوها ، وانتقم القائد العربي من الروم أشد انتقام ، فخرب بعض مدنهم ونكل بالجيش شر تنكيل . وكذلك قام هرون الرشيد بن الخليفة المهدي بجيش كبير من حلب ـ وكانت مركز حركاتهم ضد البيزنطيين ـ ومعه كبار رجال الدولة وقوادها مثل عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح وحسن بن قحطبة ويحيى بن خالد ، واستولى من مدينة سمالا بعد ان حاصرها ٣٨ ليلة وضربها بالمنجنيق ، وتولى الرشيد بعد ذلك ولاية بلاد المغرب كلها ، ونظمها وأحسن إدارتها ، وعندما هاجمه الروم جهز عليهم جيشاً عدده (٩٥٧٩٣) رجلا فحاربهم وهزمهم وأنزل بهم خسائر فادحة . وواصل الرشيد زحفه حتى وصل القسطنطينية ، وكانت ايريني ـ زوجة ليون الرابع ـ تحكم بلاد الروم بالنيابة عن ابنها قسطنطين السادس . وما ان رأت جنود العرب على ضفاف البوسفور حتى طلبت الصلح ، فأجابها الرشيد على طلبها على ان تدفع له جزية سنوية كبيرة ، وتقيم الأدلاء والحرس والاسواق في طريقه ، وسلمت اسارى المسلمين ، وعقدت معه هدنة الى ثلاثة سنوات ، إلا ان الروم غدروا ونقضوا عهدهم قبل تمام المدة فحاربهم المسلمون وظفروا عليهم .

غزو الهند :

أراد المهدي ان يوسع حدود بلاده الشرقية فأرسل حملة كبيرة سنة ١٥٩ ﻫ في البحر لغزو بلاد الهند ، فحاصر الجيش بلدة باربد سنة ١٦٠ ﻫ وأقاموا عليها يومين ، وضربوها بالمنجنيق ، وفتحوها عنوة ، واشعلوا النيران فيها ، إلا ان الامراض فتكت فيهم ، فاضطروا الى الرجوع ، وفي أثناء عودتهم عصفت عليهم رياح شديدة كسرت مراكبهم ، فغرق كثير منهم ، وكانت تجربة فاشلة لم ينجح المهدي فيها .

صفات المهدي واعماله

كان المهدي محسناً كريماً ، شهماً فطناً ، سارع بعد اعتلائه منصب الخلافة الى اصلاح اعمال الشدة والارهاق التي وقعت في عهد ابيه ، فأعاد المدن المقدسة الامتيازات التي كان ابوه قد عطلها ، وسمح بارسال الاعانات التي كانت ترسلها مصر الى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد الى العلويين املاكهم وأحسن اليهم ، وأعاد اموال المظالم ، التي صودرت في زمن ابيه الى اصحابها ، وكان المنصور قد وضع المال المصادر في اكياس ختمها وأودعها بيت المال ، وكتب على كل منها اسم صاحبها ، وأوصى ابنه المهدي ان يرد هذه الاموال الى اصحابها ، ليكتسب بهذا العمل قلوب الرعية . وبنى المهدي الابنية في طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه ابوه في الجهات الاخرى ، وكان السفاح قد شيد عدة منازل في طريق مكة من القادسية حتى زبالة ، فأمر المهدي بتعبيد ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد في عدد المنازل وأثثها ، وسنّ المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام ، بعد ان كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض . كما بنى الاحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل والحجاج ، وأقام الحرس لحماية الحجاج والمسافرين . وأجرى على اهل السجون والمجذومين ، حتى يمتنعوا عن السؤال ، ويحول دون انتشار الامراض . وأعاد بناء المسجد الحرام وجمله ، إلا انه محى اسم الوليد ابن عبد الملك من حائط الحرم . ووسع المدارس والجوامع في جميع المدن المشهورة كما شيد جوامع جديدة في كثير من المدن . وجدد الأميال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليه ضرباً من التحسين ، وعين الامناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة ، وفساد العدل ، حتى عم الرخاء جميع أرجاء الدولة .

كان المهدي يميل الى السنة فنزع المقاصير من المساجد ، وصير المنابر على القدر الذي كان عليه

منبر الرسول (ص) . وكان يجلس للمظالم وتدخل القصص (الاستدعاءات) اليه ، فارتشى بعض اصحابه بتقديم بعضها، فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تطرح فيه القصص ؛ وكان يدخله وحده ، فيأخذ ما يقع بيده من القصص اولا فأولا فينظر فيها ، فلا يقدم بعضها على بعض . وقد بلغ حبه للعدل ، وميله الى رد المظالم لاصحابها انه كان يقول : « أدخلوا علي القضاة فلو لم يكن ردي المظالم إلا للحياء منهم لكفى » . وكان المهدي لا يشرب النبيذ ، وان كان سماره يشربونه في مجلسه، وكان يسمع الغناء وصارت بغداد في عهده مركزاً تجارياً عظيما ، وكان محباً للادب ، ومشجعاً عليه حتى اصبح الادب والموسيقى من مميزات هذا العصر ، وكان المهدي محباً الى الخاصة والعامة .

ومن خلقه الحياء والعفو والحلم ، أراد ان يعتمد على العرب ويقربهم فجعل في العاصمة (٥٠٠) فارس عربي لحراسته ، واكرمهم واقطعهم ارضاً بجوار بغداد إلا ان الفرس ظلوا متغلبين على الدولة.

وكان المهدي موفقاً في اختياره وزراءه ، وان كانت السعاية احلت ببعضهم العذاب وسوء المصير. وكان جاداً في طلب الزنادقة ، والبحث عنهم في الآفاق والفتك بهم ، حتى قتل كثير من الابرياء بهذه التهمة ، لان هذه التهمة كانت وسيلة الى تشفي من يحب ان يتشفى من عدوه وخصمه . وكان المهدي شديد الغيرة على النساء بالرغم من أن الخيزران زوجته كان لها نفوذ واسع عليه ، وكان قصرها مزدحماً دائماً بطلاب الوظائف ، واصحاب الحوائج. جاءت اليها ـ مزينة ـ امرأة مروان آخر خلفاء بني امية ، تشكو رقة حالها ، فأفردت لها الخيزران جناحاً خاصاً في قصرها تنعم فيه بالقرب منها . ويمكننا ان نقول ان المهدي في إدارته لشؤون رعيته كان يعمل بوجه عام على رفاهية الامة واسعادها وكان عصره ممهداً للعصر الذهبي الذي اتى بعده .

ولاية العهد ووفاة المهدي

اقصى المهدي عيسى بن موسى عن ولاية العهد ، وجعلها لولديه من زوجته الخيزران من بعده ، فتولى اولا موسى الهادي وعقبه بعده اخوه هارون الرشيد . وفي محرم من سنة ١٦٩ هـ بينما كان المهدي يصيد الظباء على جواده ، دخل ظبي الى باب خربة ، فدخل فرس المهدي خلفه ، فدقه باب الخربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته .

كان يعاصر المهدي في بلاد الاندلس (عبدالرحمن الداخل) وفي فرنسا (شارلمان) وفي بلاد الروم (ليون الرابع ثم قسطنطين السادس، ولصغرسنه كانت امه إريني تنوب عنه في إدارة المملكة) .

الهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ أو ٧٨٥ - ٧٨٦ م

هو موسى الهادي، ابوه محمد المهدي بن ابي جعفر المنصور، وامه ام ولد اسمها الخيزران، ولد الهادي سنة ١٤٤ هـ وولاه ابوه العهد وعمره ستة عشر سنة، وولي قيادة الجنود في المشرق. وفي اليوم الذي توفي فيه ابوه كان مقيما بجرجان، فأخذ له اخوه هارون البيعة على الجند، وأرسل اليه بخاتم الخلافة، وبالقضيب والبردة والتعزية والتهنئة، وتمت له البيعة.

سياسة الهادي الداخلية

اضطهاد الزنادقة:

ورث الهادي عن ابيه كراهيته للزنادقة، وعمل على استئصال شأفتهم، وقد قام بوصية ابيه التي اوصاه بها خير قيام وهذه الوصية هي: «يا بني، ان صار لك هذا الامر، فتجرد لهذه العصابة (الزنادقة) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجا، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين احدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات، والاغتسال بالبول، وسرقة الاطفال من الطرق تنقذهم من ضلالة الظلمة الى هداية النور، فارفع فيها الخشب وجرد فيها السيف وتقرب بامرها الى الله لا شريك له».

ثورة العلويين:

خرج الحسين بن علي[1] في المدينة سنة ١٦٩ هـ وسبب خروجه ان والي المدينة عمر بن عبد العزيز[2] أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم، فأمر بضربهم جميعاً، وطيف بهم في المدينة والحبال في اعناقهم، فجاء الحسين بن علي الى الوالي وكلمه فيهم، وكفل الحسن هو ويحي بن عبد الله بن الحسن، فاختفى الحسن بن محمد النفس الزكية، فطالبه الوالي من كفيليه وسألها عنه، فحلفا انهما لا يدريان موضعه، فكلمهما بكلام اغلظ لهما فيه، فوعده يحي أن لا ينام حتى يأتيه به، وخرجا من عنده واعلنا الثورة، وبايع اكثر اهل المدينة الى الحسين، وأنتهب جماعته ما في بيت المال وذهب بهم الى مكة. فامر الهادي محمد بن سليمان بن علي - وكان عائداً من الحج - محاربة الحسين،

(١) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.

حاربه وقتله هو ومن كان معه ، وأفلت من الموت رجلان احدهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، اخو محمد النفس الزكية ، ذهب الى المغرب الاقصى ، وأسس في تلمسان بمساعدة البربر دولة الأدارسة التي سيأتي الكلام عنها ، والآخر يحيى بن عبد الله الذي ذهب الى بلاد الديلم وثار في زمن الرشيد .

صفات الهادي

كان موسى الهادي قاسي القلب ، شرس الاخلاق ، صعب المرام ، كثير الادب محباً له ، طيب المسامرة ، كثير النادرة . وكان شجاعاً جواداً سخياً ظاهر الشهامة . وكان شديد الغيرة على حرمه ، ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بني امية ، وقد نهى امه الخيزران ان يدخل عليها احد من القواد او رؤساء حكومته ، بعد ان كان لها من نفوذ الامر في عهد زوجها المهدي ما لم يكن لامرأة غيرها . وكانت الخيزران في اول خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الحوائج ، فكان يجيبها الى كل ما تسأله حتى مضى لذلك اربعة اشهر من خلافته ، وانثال الناس عليها وطمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو الى بابها . فكلمته يوماً في امر لم يجد الى اجابتها اليه سبيلا فاعتل بعلة ، فقالت : لا بد من اجابتي ، قال لا افعل ! قالت : فاني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك . فغضب موسى وقال : ويلي على ابن الفاعلة ! قد علمت انه صاحبها ، والله لا قضيتها لك ! قالت : إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً . قال : اذاً والله لا ابالي ، وحمي غضبه ، فقامت مغضبة . فقال : ما كنت تستوعي كلامي ، والله وإلا فانا نفي من قرابتي من رسول الله (ص) لئن بلغني انه وقف ببابك احد من قوادي ، او احد من خاصتي او خدمي لأضربن عنقه ، ولأقبضن ماله ، فمن شاء فليلزم ذلك ! ما هذه المواكب التي تغدو وتروح الى بابك كل يوم ! أما لك مغزل يشغلك او مصحف يذكرك ، او بيت يصونك ، إياك ثم إياك ، ما فتحت بابك الى مسلم او ذمي ! فانصرفت ما تعقل ما تطأ ، فلم تنطق عنده بحلوة او مرة بعدها . وكلم قواده بالامر ومنعهم من التحدث معها ، وانقطعوا عنها البته ، فشق ذلك عليها ، فاعتزلته وحلفت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقد قالوا : ان الهادي حاول سمها فلم يفلح . على ان الخيزران افلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا انها دست اليه من جواريها من قتله بالجلوس على وجهه فمات خنقاً .

كان الهادي يجلس للمظالم ، ويفصل في دعاوي الناس ، ويرد الحقوق الى اهلها ، وكان يرى الناس لا يصلحون اذا حجب خليفتهم عنهم ، حتى انه قال لحاجبه الفضل بن الربيع « لا تحجب عني الناس فان ذلك يزيل عني البركة ، ولا تلق الى امراً اذا كشفته اصبته باطلا فان ذلك يوقع الملك

ويبصر بالرعية ، وكان موفقاً في اختيار وزرائه ، وكان يشرب النبيذ، ويسمع الغناء وهو اول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس . وكان شجاعاً قوياً روي عنه انه كان يثب على الدابة وعليه درعان !

ولاية العهد

عزم الهادي على خلع اخيه هارون الرشيد، والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه وكان يحيى بن خالد البرمكي يقوم بخدمة الرشيد وينصحه بان لا يستطحقه من الخلافة بعد ان طاب الرشيد نفساً بالخلع ، فبلغ ذلك الهادي فاستدعى يحيى وكلمه في ذلك فقال يحيى : « يا امير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكث الايمان ، ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت لجعفر من بعده كان ذلك اوكد في بيعته » . فأثرت هذه النصيحة في الهادي مدة من الزمن ، ثم غلب عليه حبه لولده ، وايثاره على اخيه ، فأحضر يحيى وفاوضه في خلع الرشيد، فقال له : « يا امير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى كانت خلافته تصح ؟ وكان مشايخ بني هاشم يرضون ذلك ، ويسلمون الخلافة اليه ، قل : لا ! فقال يحيى : فدع هذا الامر حتى تأتيه عفواً ، ولو لم يكن المهدي بايع لهارون لوجب ان تبايع انت له لئلا تخرج الخلافة من بني ابيك » . ولكن الوشاة ما زالوا يوشون بيحيى ويحرضون الخليفة على خلع الرشيد ، ويضيقون على الرشيد ويضطهدونه ، ويحطون من شأنه حتى أشار عليه يحيى ان يستأذن الخليفة الهادي بالخروج الى الصيد ، فأذن له ، فلما غاب اكثر مما استأذن وطال غيابه ، كتب اليه يلح عليه في العودة ، ويبالغ في تحقيره وإهانته، والرشيد يتنحل الاعذار حتى اتاه نعيه . وكان للخيزران يد في موته ، لانها كانت غاضبة على ابنها الهادي لابعادها عن المداخلة في أمر الملك ، ومحبتها لابنها الرشيد الذي كان براً بها ، حتى انها أرسلت الى يحيى تأمره بالاستعداد للأمر ، فهيأ يحيى الكتب للعمال باسم الرشيد يقرهم على ولاياتهم ، ويبلغهم وفاة الهادي ، ولما مات الهادي بعثت الكتب على البريد ، وكانت وفاته في ١٤ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ بعد حكم دام سنة وشهراً ، واثنين وعشرين يوماً . وكان يعاصره في الممالك الثلاث من كانوا يعاصرون أباه .

هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ أو ٧٨٦ - ٨٠٩ م

ولد هارون الرشيد بالري سنة ١٤٥ هـ ، ابوه محمد المهدي ، وامه الخيزران ، ولاه ابوه المهدي

اعمالا كثيرة لما عرف فيه من الكفاءة والمقدرة ، وفي سنة ١٦٤ هـ ولاه المغرب كله من الانبار الى اطراف افريقية . وفي سنة ١٦٦ هـ جعله المهدي ولي العهد بعد اخيه الهادي . وفكر المهدي قبل وفاته في العدول عن عهده السابق ، وأراد ان يرشحه للخلافة بعده مباشرة وساعدته على ذلك الخيزران ، لانها كانت تحبه وتؤثره على اخيه الهادي ، إلا ان منية المهدي حالت دون ذلك .

تولى الرشيد الخلافة في الليلة التي توفي فيها اخوه الهادي ، وهي ليلة مات فيها خليفة وهو الهادي وجلس فيها خليفة وهو الرشيد ، وولد فيها خليفة وهو المأمون .

كانت خلافة الرشيد أزهى زمن مرّ على المسلمين ، وأضخم عهد عرفه التاريخ العربي ، فدوى اسم الرشيد في مشارق الارض ومغاربها ، وتحدث الركبان عن ازدهار العلوم والآداب والفنون ، فكان عصر الرشيد عصر سحري ، خلب عقول اهل الغرب ،وزها بنفوس اهل الشرق ، فهو عصر الف ليلة وليلة ، الذي يوحي صوراً مختلفة دارت كلها حول شخص الرشيد . فكان الرشيد صورة عصره ، ومرآة زمنه ، انعكست عليها حياة جميع الناس على اختلاف طبقاتهم . وسنرى اثر هذه الصور عند الكلام عن اخلاق الرشيد .

سياسة الرشيد الداخلية

ثورة العلويين :

لم يفتر العلويون عن المطالبة بالخلافة في زمن من الأزمان ، وبالرغم من تسامح الرشيد معهم في بدء ولايته ، واطلاق سراح من كان مسجوناً منهم في بغداد وتسييرهم الى المدينة ، فقد ثار عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن في بلاد الديلم ، واشتدت شوكته فيها ، فأرسل الرشيد الى قتاله الفضل ابن يحيى البرمكي ، ومعه خمسون الف مقاتل ، فاحتال الفضل عليه ، وكاتبه واستماله اليه ، وما زال به حتى قبل بتقديم الطاعة الى الخليفة على ان يعطيه الامان ، فأعطاه الرشيد ما طلب ،وجاء الى بغداد فأحسن اليه الخليفة وأمر له بمال كثير ، وأقامه بمنزل فخم ووضعه تحت إشراف الفضل الذي أطلقه دون علم الخليفة مما سبب غضب الرشيد عليه وعلى اسرته ونكبته لهم .

سبب من أسباب نكبة البرامكة

وحاول الرشيد القضاء على دولة الأدارسة العلوية التي نشأت في بلاد المغرب (مراكش) ، فأراد ان يرسل جيشاً للقضاء عليها ، ولكن لبعد المسافة عدل عن ذلك ، وارسل سليمان بن جرير الملقب ـ بالشماخ ـ وطلب منه ان يحتال في قتل إدريس بن عبد الله بن الحسين ، اخي يحيى المتقدم الذكر ، وزوده مالا ليستعين به ، فذهب الرجل ودس السم لادريس وفر هارباً . ومات ادريس

سنة ١٧٧ ﻫ ولم يكن له ولد ، وكانت له جارية حاملاً ، فانتظروا وضعها فولدت غلاماً سموه ادريس باسم والده ، وربوه حتى كبر ، وبايعوه بالخلافة . واستمرت دولة الادارسة في المغرب كما سنفصل ذلك فيما بعد .

تأسيس دولة الأغالبة :

كان ابو جعفر المنصور قد عين يزيد المهلبي على افريقيه (تونس) وخلفه من بعده داوود واخوه « روح » الذي عينه الرشيد حاكما هناك سنة ١٧١ ﻫ . فحكم البلاد سبع سنين بحزم وقوة . وبعد موته قامت قبائل البربر بثورات على ابنه سنة ١٧٨ ﻫ فاضطر الخليفة الى اخضاعها ، خوفاً ان تخرج شمالي افريقية من يده . فأرسل هرثمة بن أعين على جيش كثيف استطاع ان يقضي على الثورات ويقمع الفتن ، وبعد ثلاث سنوات اعتزل هرثمة عن حكم افريقية بعد ان عرف صعوبة اخضاع البربر ، فعين الخليفة مكانه عاملا ظهر عجزه في ادارة تلك البلاد ، فعرض ابراهيم بن الاغلب على الرشيد استعداده لدفع اربعين الف دينارسنوياً ، على ان يجعل حكم إفريقية وراثياً في اسرته ، فقبل الخليفة ذلك ، لان تلك البلاد كانت تكلف بيت مال المسلمين مئة الف دينار تؤخذ من خراج مصر في سبيل تسديد نفقات حكومة إفريقية . وتقف هذه الدولة في وجه دولة الأدارسة التي نشأت في المغرب . وبذلك تم تأسيس دولة الأغالبة التي كانت خاضعة اسمياً للحكومة المركزية في بغداد ، واصبح مركزها القيروان .

ثورة الخوارج :

خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني على الرشيد سنة ١٧٨ ﻫ وعبر نهر دجلة حتى وصل الى حلوان ، وكثر فيها اتباعه ، فبعث الرشيد اليه يزيد بن مزيد الشيباني وهو ابن اخي معين بن زائدة الشيباني ، فجرت بين الطرفين معارك شديدة تبارز فيها القائدان فقتل الوليد وانهزم الخوارج وقضي على ثورتهم ، وبعث يزيد برأس الوليد الى الخليفة يعلمه بظفره ، ومن جميل ما قيل في رثاء الوليد قول اخته الفارعة :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ... ولا المال إلا من قنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم ... معاودة للكر بين صفوف
حليف الندى ماعاش يرضى به الندى ... فان مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف

وما زال حتى أزهق الموت نفسه		شجاً لعده و نجباً لضعيف
عليـــه سلام الله وقفاً فانني		أرى الموت وقاعاً بكل شريف

ثورة أهل الشام :

هدأت بلاد الشام مدة من الزمن لما اصابها من سقوط الدولة الاموية وتحول الحياة السياسية منها الى العراق . ولم يكن العباسيون يهتمون بشؤونها ، بل تركوا الحبل على غاربه ، فقامت المنازعات بين القيسيين واليمانيين ، وظلت دمشق مسرحاً للانقسامات والحروب الداخلية ، فقال أحد الشعراء :

قد هاجت الشام هيجاً		يشيب رأس وليـــده

فولى الرشيد موسى بن يحيى البرمكي والياً عليها فأصلح بين اهلها، وسكنت الفتن وهدأت البلاد.

ثورة أهل خراسان :

كانت بلاد خراسان في زمن الرشيد مصدر الفتن والقلاقل ، وظلت كذلك حتى بعد موته . فاستشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي في تولية علي بن عيسى بن ماهان بلاد خراسان، فأشار عليه ألا يفعل ، فخالفه الرشيد وولاه إياها . فسار هذا الوالي في ادارته لخراسان سياسة الظلم والعسف ، واغتصاب الاموال من الأهالي . وكان يرسل الى الخليفة من الهدايا مالم ير مثلها من الخيل والرقيق والثياب والاموال . فقال ليحيى بن خالد : « هذا الذي أشرت ألا نوليه هذا الثغر ، فقد خالفناك فيه فكان في خلافك بركة » فقال يحيى : « يا امير المؤمنين جعلني الله فداك أنا وإن كنت احب ان أصيب في رأيي ، واوفق في مشورتي ، فانا أحب إلي من ذلك ان يكون امير المؤمنين أعلى ، وفراسته أثقب ، وعلمه اكثر من علمي ، ومعرفته فوق معرفتي ، وما احسن هذا واكثره ان لم يكن فيه ما يكره أمير المؤمنين ، وأسأل الله ان يعيذه ويعفيه من سوء عاقبته ونتائج مكروهه ، وبيّن له ان هذه الاموال قد اختلسها الوالي من الاهالي ظلماً وعدواناً . إلا ان الرشيد لم يصغ له وأبقى علي بن عيسى على ولايته ، فكتب اهل خراسان الى الرشيد يشكون سوء سيرة الوالي ونهبه أموالهم وشدته في معاملتهم ، فعزم الرشيد على الخروج لمحاربته ، وعسكر في الري ، فقدم عليه علي بن عيسى من خراسان بالاموال والهدايا والطرف اكثر من الهدايا الاولى ، ووزع على اولاد الخليفة ورجال بلاطه وكتابه وخدمه وقواده كل على قدر مرتبته وطبقته ، فرضي الرشيد عنه ورده الى خراسان وخرج مشيعاً له . فرجع الوالي الى خراسان وعاد سيرته الاولى ، وانتقم ممن كتبوا الى الخليفة أشد انتقام .

وحدث في ذلك الوقت ان رجلا من اهالي سمرقند يُدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار أغوى

امرأة من ذوي اليسار الى الكفر ، تخلصاً من زوجها يحيى بن الاشعث الطائي الذي ذهب الى بغداد، وأقام بها وطالت غيبته . وتزوج رافع بالمرأة ، فاشتكى يحيى بن الاشعث الى الخليفة ، فارسل الى عامله علي بن عيسى يأمره ان يفرق بين رافع والمرأة ، وان يعاقبه على فعلته ، فنفذ الوالي امر الخليفة ، وحبس رافع ففرّ هذا من سجنه ، واستغاث بابن الوالي عيسى بن علي . فأغاثه وكلم أباه فعفا عنه ، وأذن له في الانصراف الى سمرقند ، حيث قام بثورة وقتل عامل الخليفة فيها ، وبايعه كثير من الناس في سمرقند وما وراء النهر ، فأرسل اليه علي بن عيسى ابنه عيسى فقتله رافع في بلخ . وكان عيسى قد دفن في بستان داره ببلخ أموالاً عظيمة . فعلم الناس بها ، فدخلوا البستان ونهبوا الاموال ، فبلغ الرشيد الخبر فقرر عزله وتبينت له خيانته وجبنه . وسوء سياسته ، فأحضر هرثمة بن اعين وولاه ثغر خراسان ، و كتب لعلي بن عيسى كتاباً بخطه يوبخه فيه ، ويعلمه بعزله ويقول فيه : « ... وقد وليت هرثمة بن أعين مولاي ثغر خراسان، وأمرته ان يشد وطأته عليك وعلى ولدك و كتابك وعمالك ولا يترك وراء ظهوركم درهماً ولا حقاً لمسلم ولا معاهد ، إلا اخذكم به حتى ترده الى اهله ، فان أبيت ذلك واباه ولدك وعمالك ، فله ان يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ... » فقبض هرثمة على علي بن عيسى وأتباعه وصادر اموالهم ، وارسلها بصحبتهم الى الرشيد محملة على ١٥٠٠ بعير، وذهب هرثمة الى الجامع فخطب في الناس ، وقرأ عليهم كتاب تعيينه . ففرح الناس وسروا لخلاصهم من الوالي القديم وعلت اصواتهم بالتهليل والتكبير وكثرة الدعاء لأمير المؤمنين . واهتم هرثمة بمحاربة رافع بن ليث . ولكن استفحال امره دعا الرشيد الى الذهاب بنفسه لحربه ، إلا ان المنية ادركته وهو في طوس في طريقه لحرب رافع ، وبقي ثائراً لزمن المأمون ، عندما جاء مسالماً من غير قتال .

اسرة البرامكة

تنسب هذه الاسرة الى جدها برمك ، وكان يخدم « النوبهار » ، وهو معبد المجوس في بلخ ، توقد فيه النيران ، وكان برمك وبنوه سدنة لهذا المعبد ، وادعى البرامكة ان ملوك الفرس القدماء هم الذين أسسوا هذا الهيكل ، وقالوا انهم من سلالة وزراء الملوك الساسانيين ، وكان برمك خبيراً بالفلك والطب ، شفي على يده مسلمة بن عبد الملك ، ويشك المؤرخون باسلامه ، وظهر من اولاده في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك .

كان خالد من اكبر دعاة العباسيين ، وكان ذا صفات عالية ، أهلته للسيادة ورفعة القدر حتى استوزره ابو العباس السفاح بعد هلاك ابي سلمة الخلال ، فكان مدبر امره ، غير انه لم يكن

يسمى وزيراً تشاؤماً من الوزارة ، إلا انه كان يعمل عمل الوزراء ، وفي خلافة المنصور بقي خالد في منصبه مدة من الزمن ثم ولاه فارس ، وانكسرت عليه جملة من المـال ، فحمل الى بغداد ، وطولب بالمـال ، ونذر المنصور دمه ان لم يحضر المال بعد ثلاثة ايام ، فلستدان بامدقائه فأعانوه ووفى ماعليه ، فولاه المنصور الموصل ، فأحسن إدارتها حتى قال بعض اهلها « ما صحبنا قط اميراً هيبتنـا خالد بن برمك ، من غير ان تشتد عقوبته ولا نرى منه جبرته ، ولكن هيبة كانت له في صدورنا » واستمر والياً على الموصل حتى وفاة المنصور . وتوفي خالد في اوائل خلافة المهدي سنة ١٦٣ هـ .

يحيى بن خالد :

كان يحيى واحد الدنيا علماً وأدباً وفضلا ونبلا وجوداً . رباه ابوه فأحسن تربيته . وتربى يحيى في كنف الدولة العباسية ، وكان عند ابيه في ملماته وشدائده ، وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ هـ وقال له عند توليته « قد أردتك لأمر مهم من الامور ، واخترتك لثغر من الثغور » ، وكانوا لا يولون ثغورهم إلا من كانت تتهم به عظيمة . وكان محمود السيرة في ولايته وبقي والياً حتى وفاة المنصور . وفي سنة ١٦٢ هـ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان معه يدبر أمره ، وهارون لا يناديه الا يا أبي ، وذلك لان زوجة يحيى ارضعت هارون بلبان ابنهـا الفضل ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان ابنها هارون . وفي سنة ١٦٣ هـ خرج هـارون لغزو الصـائفة ، وكان يحيى على امر العسكر ونفقاته وكتابته والقيام بأمره . ولمـا ندب المهدي يحيى لذلك الأمر قال له : « اني قد تصفحت ابناء شيعتي ، واهل دولتي ، واخترت منهم رجالا لهارون ابني أضمه اليه ليقوم بأمر عسكره ، ويتولى كتابته ، فوقعت عليك خيرتي له ، ورأيتك أولى به ، إذ كنت مربيه وخاصته ، وقد وليتك كتابته وأمر عسكره » . وفي سنة ١٦٤ هـ لمـا ولى المهدي ابنه هارون المغرب كله أمر يحيى بن خالد ان يساعده في ذلك ، فكانت اليه اعماله ودواوينه يقوم بها ، واستمر على تلك الحالة الى ان مات المهدي ، ولمـا تولى الهادي ابقاه على حاله مع هارون ، حتى اذا خطر ببال الهادي ان يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محنة يحيى ، فانه هو الذي جرأه على الاستمساك بحقه الذي منحه إياه ابوه المهدي . وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحيى : لا تفعل . فقـال الرشيد : أليس يترك لي الهنيء والمريء وأعيش مع ابنة عمي — وكان هارون يجد بأم جعفر وجداً شديداً — فقال له يحيى : واين هذا من الخلافة ؟ وبارشاد يحيى تمكن الرشيد من المحافظة على حقه في ولاية العهد ، وحفظ هذا الجميل له ، فولاه وزارة التفويض عند استلامه الخلافة وقال له : « قلدتك امر الرعية واخرجته من عنقي اليك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ،

واعزل من رأيت، وامض الامور على ما ترى، ودفع اليه خاتمه، فأصبح الحل والعقد بيد يحيى وصارت جميع الاموال اليه، فعلا شأنه وبعد صيته واصبح هو وأولاده كعبة الآمال، وغدت تشد اليهم الرحال. وفي سنة ١٧١ هـ ضم الرشيد اليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارتان، وفيه يقول ابن الطقطقي «نهض يحيى باعباء الدولة أتم نهوض، وسد الثغور وتدارك الخلل، وجبى الأموال، وعمر الاطراف. وأظهر رونق الخلافة، وتصدى لمهمات المملكة، وكان كاتباً بليغاً لبيباً اديباً سديداً، صائب الآراء حسن التدبير، ضابطاً لما تحت يده، قوياً على الامور، جواداً يباري الريح كرماً وجوداً، ممدّحاً بكل لسان، حليماً عفيفاً وقوراً مهيباً، وله يقول القائل:

لا تراني مصافحاً كفّ يحيى ... إنني إن فعلت ضيعت مالي
لو يمسّ البخيل راحة يحيى ... لسخت نفسه ببذل النوال..»

وكان ليحيى اربعة اولاد وهم: الفضل، وجعفر، وموسى، ومحمد، وسنتكلم عن كل واحد منهم بإيجاز.

الفضل بن يحيى:

هو اكبر اولاد يحيى، وكان عضد ابيه ينوب عنه في جلائل اعماله، وقد رضع مع الرشيد وبذلك يقول مروان بن ابي حفصة:

كفى لك فخراً ان اكرم حرة ... غذتك بثدي والخليفة واحد

ولما ولد الامين جعله الرشيد في حجر الفضل وعهد اليه بتربيته، فكان له أباً. وفي سنة ١٧٦هـ ندبه الرشيد لحرب يحيى بن عبد الله الذي ثار ببلاد الديلم، وولاه تلك البلاد، فخرج اليه ولم يزل يحتال في امر يحيى حتى استنزله من معقله بأمان من غير ان يريق قطرة دم، إلا بحسن السياسة. وفي سنة ١٧٨ هـ ولاه الرشيد خراسان وثغورها، فأحسن السيرة فيها، وبنى بها الرباطات والمساجد، وغزا ما وراء النهر واخضع الثائرين واتخذ في خراسان جنداً من الفرس دعاهم «العباسية»، وجعل ولاءهم له، وبلغ عددهم خمسمائة الف رجل، جاء بعشرين الفاً منهم الى بغداد، وخلف الباقي في خراسان على رواتبهم، وقد خرج الرشيد مع بني هاشم لاستقباله عند عودته، وعرف الفضل بكرمه وكفاءته، وسمي بالوزير الصغير لانه كان يخلف اباه في اعماله.

جعفر بن يحيى:

اشتهر جعفر بالفصاحة والفطنة، والحلم والكرم وطلاقة الوجه وسماحة الاخلاق. وكان الرشيد يأنس به، ويؤثره على اخيه الفضل لشراسة اخلاق الفضل. قال الرشيد يوماً ليحيى: قد أحببت

ان انقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استحييت من مكاتبته في هذا المعنى ، فاكتب انت اليه . فكتب يحيى الى الفضل : « قد امر امير المؤمنين أعلى الله امره ان تحول الخاتم من يمينك الى شمالك » فأجاب الفضل الى ذلك واعطى اخاه الخاتم .

وفي سنة ١٧٦ هـ ولاه الرشيد مصر ، وفي سنة ١٨٠ هـ ارسله لحرب اهل الشام على اثر فتنة اشتعلت فيها ، فأصلح بين الناس ، وضرب على ايدي المشاغبين منهم ، ولم يدع بها رمحاً ولا فرساً ، وعاد الى بغداد يستشفع الخليفة في اهل الشام ويستعطف قلبه عليهم ، فعفا عنهم . وفي ثاني السنة ولاه خراسان ثم عزله عنها ليوليه امر الحرس الملكي . وفي سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد لابنه المأمون بولاية العهد بعد اخيه الأمين ، وضمه الى جعفر بن يحيى ليكون المدبر لأمره ، كما كان الأمين مع الفضل بن يحيى . وبلغ نفوذ جعفر في الدولة وتأثيره على شخص الخليفة الى حد يُشك في تصديقه. فيقال ان عبد الملك بن صالح (١) من قرابة الخليفة ، جاء الى جعفر يلتمس منه ان يخاطب الرشيد في ثلاثة حوائج فسأله جعفر عنها فقال : « اولها ان علي ديناً مبلغه الف الف درهم اريد قضاءه ، وثانيها اريد ولاية لابني يشرف بها قدره ، وثالثها اريد ان تزوج ولدي بابنة الخليفة ، فانها بنت عمه ، وهو كفء لها » فقال له جعفر : « قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث !! اما المال ففي هذه الساعة يحمل الى منزلك، واما الولاية فقد وليت ابنك مصر، واما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة أمير المؤمنين، على صداق مبلغه كذا وكذا ، فانصرف في امان الله !! » وعندما عاد عبد الملك بن صالح الى منزله وجد ان المال قد سبقه ، ولما كان من الغد حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى فأقره على تصرفه . ولم يخرج جعفر حتى كُتب لابن عبد الملك تقليد ولاية مصر، وعقد عقده على ابنة الرشيد . فان صحت هذه الرواية فيكون جعفر قد بلغ من النفوذ ما تطاول به على شخص الخليفة ، وتحكم في اموره الخاصة .

موسى بن يحيى :

كان أشجع إخوته واشدهم بأساً ، وكان قائداً محنكاً ولاه الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ عندما هاجت بها الفتن ، فأصلح امورها واسكن الثورة بها . واتهمه علي بن عيسى امير خراسان بإثارة الاضطراب فيها ، ومحبة اهلها له ، وانه يعمل معهم على الخروج على الرشيد . فعلم الخليفة بذلك فغضب عليه ، واتفق ان اختفى موسى بسبب دين عليه ، فتأكد الرشيد من صحة الوشايات عليه ، وأمر به فحُبس في الكوفة سنة ، ولم يطلق سراحه إلا بوساطة — ام الفضل — وضمانة ابيه يحيى . فعفا الخليفة عنه وخلع عليه .

---

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس

محمد بن يحيى :

كان محمد شجاعاً بعيد الهمة ، ولم يكن له من الشهرة ما كان لاخوته .

وكانت هذه الاسرة في عهد الرشيد غرة في جبين الدولة العباسية جمع افرادها من الصفات المحمودة ما استحقوا به ثناء معاصريهم من الكتاب والشعراء، وكانوا فرسان البلاغة وملوك الكلام، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسخاء ، تهزهم الاريحية عند سماع المدح ، فيجودون بما ضن به الكرام ، حتى أنسوا الناس ذكر الاقدمين .

وظل البرامكة في خدمة الدولة العباسية الى سنة ١٨٧ هـ عندما نكبهم الرشيد .

نكبة البرامكة

١٨٧ هـ ١٩٠ هـ

تعود نكبة البرامكة الى الاسباب الآتية :

اولا : ازدياد نفوذهم ، وكثرة بذخهم وعطائهم ، حتى مدحهم الشعراء وصارت قصورهم تضاهي قصور الخلفاء . فكان يحيى اذا ركب أعدّ صررا في كل منها مائتا درهم يدفعها الى الذين يقفون في طريقه ، ويلتمسون معونته . وعمر جعفر داراً كلفته عشرين الف الف درهم فقال له بعض اصحابه « وهو شيء لا آمنه عليك غداً بين يدي امير المؤمنين » .(1)

---

١ — قال ابن خلدون في نكبة البرامكة ما يلي : « انما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم اموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه . فغلبوه على امره ، وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في امور ملكه ، فعظمت آثارهم ، وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها عمن سواهم : من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . يقال : انه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف ، وصاحب قلم ، زاحموا فيها اهل الدولة والمناكب ، ودفعوهم عنها بالراح لمكان ابيهم يحيى ، فتوجه الايثار من السلطان اليهم ، وعظمت الدالة منهم ، وانبسط الجاه عندهم ... وتخطت اليهم من اقصى التخوم هدايا الملوك ، وتحف الامراء وتسربت الى خزائنهم في سبيل التزلف والاستمالة اموال الجباية ، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوقوهم المنن ، وكسوا من بيوتات الاشراف المعدم ، وفكوا العاني ، ومُدحوا بما لم يُمدح به خليفتهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك . . . فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ...»

ثانياً : الى استبدادهم بالامر دون الخليفة ، وتغلبهم على الحكم والسلطة والاموال وتسيير شؤون الدولة دون مراجعة الخليفة ، فكانت الخيل تزدحم ببابهم والمراجعون يتوجهون اليهم ، ويلتمسون منهم حاجاتهم ويطلبون معونتهم . .

ثالثاً : الى عدم اخلاصهم للاسلام، حتى ان الهادي اتهم يحيى بالكفر. ويروى انهم كانوا لا ينصتون عند تلاوة القرآن ، ولا يظهرون احترامهم له .

رابعاً : الى اعتمادهم على العنصر الفارسي وتقريبهم رجال الفرس اليهم . وكانت الخيزران — التي عادت اليها امتيازاتها التي حرمها اياها ابنها الهادي — تدعم نفوذهم ، وتقوي شكيمتهم ، ولكن البرامكة خسروا معونتها بسبب وفاتها .

خامساً : الى تخوف الرشيد من اخذ الحكم لانفسهم ، وانشاء دولة فارسية تقاوم الدولة العباسية .

سادساً : ميلهم الى الحزب العلوي ، واطلاق جعفر البرمكي : يحيى بن عبد الله العلوي من سجنه دون علم الرشيد . ولما بلغ الفضل بن الربيع — عدوهم ومناوئهم — الخبر الى الخليفة ، سأل الرشيد جعفر البرمكي : « ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ قال : بحاله يا امير المؤمنين في الحبس الضيق ، والاكبال ! قال : بحياتي ؟ فاحجم جعفر — وكان من ادق الخلق ذهناً واصحهم فكراً — فهجس في نفسه انه قد علم بشيء من امره ، فقال : لا وحياتك ياسيدي ، ولكن اطلقته وعلمت انه لا حياة به ، ولا مكروه عنده . قال : نعم ما فعلت ! ما عدوت ما كان في نفسي ، فلما خرج اتبعه بصره ، حتى كاد ان يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم اقتلك » .

سابعاً : قيام الحزب العربي وعلى رأسه « زبيدة » يساعدها بذلك الفضل بن الربيع في الكيد لهم والوشاية عليهم ، وحض الرشيد على تقييد سلطتهم ، فأثر ذلك في نفس الخليفة حتى منع يحيى من الدخول عليه دون اذنه ، وكان سابقاً يدخل عليه وهو في فراشه ، وامر الخدم والغلمان ألا يقوموا له اذا دخل عليه ، وكان يحيى يستسقي الشربة من الماء في مجلس الخليفة فلا يسقونه ، وان سقوه يكون ذلك بعد ان يدعو بها مراراً .

ثامناً : قصة العباسة المشكوك في صحتها ، وهي تزوج جعفر بالعباسة اخت الرشيد ، وايلادها غلاماً . . .

كل هذه الاسباب جعلت الرشيد يتأكد من عدم اخلاصهم له ولدولته وللبيت العباسي فعمل على نكبتهم سنة ١٨٧ هـ . امر مولاه مسروراً الخادم بقتل جعفر ، وصلبت جثته على جسر بغداد ، وسجن يحيى واولاده الباقون — ما عدا محمد — بسجن الرقة ، وصودرت اموالهم ، وارسلت كتب الى الولاة في جميع انحاء الدولة بمصادرة املاكهم والقبض على مناصريهم . وانتهت حياة هذه الاسرة بهذه النتيجة السيئة بعد ان خدمت الدولة العباسية نحو ١٧ سنة . وتوفي يحيى في السجن

سنة ١٩٠ ولحق به ابنه الفضل بعد ثلاثة سنوات ، ولم يفرج على الباقين الا في خلافة المأمون عندما أعاد اليهم اموالهم وامتيازاتهم .

سياسة الرشيد الخارجية

عظمت هيبة الدولة في زمن الرشيد في الداخل والخارج ، وازداد نفوذ الخليفة في البر والبحر ولما كان عنده من الجيوش والاساطيل . وحارب اعداءه البزنطيين وكان متغلباً عليهم . كما ان شارلمان — ملك فرنسا — تقرب منه ، وطلب مودته وفيما يلي سأذكر ما جرى من الحوادث في هاتين الناحيتين .

اولا: حروبه مع البزنطيين :

بدأ الرشيد حروبه مع البزنطيين منذ عهد ابيه المهدي ، ولما صارت الخلافة اليه تابع عمله في غزو الروم ، فكان يغزو عاماً ويحج عاماً ، وترك عاصمة آبائه — بغداد — وانتقل الى الرقة ليكون قريباً من البزنطيين . ومنذ السنة الاولى من حكمه نظم حدود مملكته الواقعة بقرب البزنطيين وكانت بلاد الشام قبل زمنه تقسم الى اربعة اجناد وهي : جند دمشق ، وجند فلسطين ، وجند الاردن ، وجند قنسرين . فزاد ولاية جديدة دعاها جند العواصم وهي الاقسام الشمالية من بلاد الشام الواقعة على حدود البزنطيين ، فصلها عن الجزيرة وجعلها مستقلة عن غيرها ، وانما سميت بالعواصم لان المسلمين كانوا يعتصمون بها من العدو اذا انصرفوا من غزوهم . وكانت الثغور الاسلامية الواقعة على حدود بلاد الروم تقسم الى قسمين: ثغور الجزيرة: في الشمال الشرقي وثغور الشام: في الشمال الغربي . وهذه الثغور تحمي الجزيرة والشام من غزوات البزنطيين .

وأهم الثغور الجزرية هي : مرعش ، عين زَرْبة ، الهارونية ، ملطية والحدث .

وأهم الثغور الشامية هي : طرطوس ، المصيصة وطوانه .

وحصن الرشيد هذه الثغور ، ووضع فيها حاميات قوية للدفاع عن حدود المملكة . وأمدها بما تحتاج اليه من زاد وذخيرة .

وأشهر القواد المرابطين في هذه الثغور هم : عبد الملك بن صالح . وكان مركزه في منبج ، خلفه بعد عزله القاسم بن الرشيد في هذا المركز . وكان في طرطوس فرج التركي . وكانت الحروب متواصلة تقريباً بين العرب والبزنطيين في البر والبحر ، فاستعاد العرب جزيرة قبرص ، وغزوا جزيرة كريت وغيرها من جزر البحر وشواطئه ، وأسروا أمير البحر البزنطي ، وكانت كفة العرب هي

الراجحة على الروم . وكان يحكم الروم امرأة تدعى « ايريني » باسم ابنها الصغير قسطنطين السادس، فطمعت في الملك ، فسملت عيني ابنها سنة ١٨٢ هـ وأعلنت نفسها ملكة ، وتلقبت باسم « اوغستا » وساعدها في ادارة الدولة عشيقها الخصي « أوتيوس Aetius » فثار عليها الروم . فاكتسب العرب هذه الاضطرابات القائمة في بلاد الروم ، وغزوا بلادهم ، فطلبت ايريني الصلح من الرشيد ، مقابل جزية تدفعها له سنوياً فقبل الرشيد بذلك . وكانت ايريني مشغولة باخماد الثورات الداخلية القائمة عليها ، والدفاع عن بلادها من هجمات جيوش شارلمان ، الذي كان يعمل على القضاء عليها من ناحية الغرب ، ومالبثت ايريني بعد خمس سنوات قضتها في إخماد الثورات الداخلية ، ومحاربة اعدائها الخارجيين ان سقطت وقام بدلا منها « نقفور » ، فعقد معاهدة مع شارلمان، عين بها تخوم المملكتين والتفت بعد ذلك الى العرب ، وكتب كتاباً الى الرشيد يقول فيه : « من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب ، اما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ،وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت اليك من اموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله اليها ، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من اموالها ، وافتد نفسك . . . وإلا فالسيف بيننا وبينك » فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب ، ودعا بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب: « بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون ان تسمعه » وقام الرشيد من يومه وسار حتى وصل هرقلة ، وانتصر على الروم واضطر نقفور الى الخضوع ، ودفع جزية سنوية ، فلما رجع الرشيد الى الرقة نقض نقفور العهد وخان الميثاق ، وكان البرد شديداً ، فيئس الروم من رجعة العرب ، وتهيب رجال الدولة أخبار الرشيد بالخبر إشفاقاً عليه وعلى انفسهم من الكرة في مثل تلك الايام ولكنهم دسوا له شاعراً أنشده قوله :

نقض الذي اعطيته نقفور	وعليه دائرة البوار تدور
أبشر امير المؤمنين فانه	نتح أتاك به الاله كبير
نقفور انك حين تغدر ان نأى	عنك الامام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت	هبلتك امك ما ظننت غرور
ان الامام على اقتسارك قادر	قربت ديارك أم نأت بك دور

فعرف الرشيد نقض نقفور ، فسار اليه في الشتاء وعبر جبال طوروس ، وحاربه حتى غلبه واصابه ببعض جراح ، واضطر لدفع الجزية ورجع . ولما عرف الروم سنة ١٨٩ هـ انشغال الرشيد فيما وراء النهر ، نقض نقفور العهد ، وأغار على حدود الدولة العباسية ، فتصدى له القاسم بن الرشيد واوقع به وهزمه . إلا ان نقفور أعاد الكرة مرة اخرى ، فتصدى له الرشيد بجيش كبير مؤلف من

(١٢٥) الذا اجتاح به آسيا الصغرى ، واستولى على مدن كثيرة . ووصل الى البحر الاسود ، فطلب نقفور الصلح ، فأجابه الرشيد اليه وقبل منه بدفع الجزية . ومن الغريب ان يقبل الرشيد طاعة نقفور بعد تقلبه المتكرر ، ويجيبه الى طلبه بدفع الجزية بعد ان ثبت له خيانته ونقضه للعهد ، والاغرب من ذلك عدم القضاء عليه ، وعلى دولته بعد ان اجتاحت الجيوش الاسلامية بلاد الروم ، واصبحت على مقربة من القسطنطينية عاصمة بلاد الروم ، ولكن الروايات تظهر تسامح الرشيد . وحسن معاملته لاعدائه ، فقد طلب اليه نقفور خطيبة ابنه التي وقعت اسيرة بيد المسلمين ، كما طلب طيباً وسرادقاً ، فأجاب الرشيد طلبه ، وارسل الفتاة معززة مكرمة وبعث معها هدية فاخرة ومعها ايضاً ماطلبه نقفور .

وفي زمن الرشيد حصل فداء بين المسلمين والروم ، فلم يبق مسلم في ارض الروم الا فودي به ، وهكذا نجد ان المسلمين في زمن الرشيد كانوا متفوقين على اعدائهم البيزنطيين .

ثانياً : علاقة الرشيد بشارلمان :

تذكر المصادر اللاتينية لاسيما المؤرخ ايجنهارد Einhard ، مؤرخ الاسرة الكارولنجية ، وصديق شارلمان ومعاصره ، تبادل وفود وهدايا بين الخلفاء العباسيين وبعض ملوك الاسرة الكارولنجية . قامت هذه العلاقة بين أبي جعفر المنصور وبيبان القصير . فقد ارسل بيبان سنة ٧٦٥ م وفداً الى المنصور بقي ثلاث سنوات في الشرق ، وعاد عن طريق البحر الى مرسيليا مصطحباً معه وفداً من قبل ابي جعفر المنصور ، حاملا هدايا الى بيبان القصير ، فاستقبل ملك الفرنك هذا الوفد احسن استقبال ، وقضى عنده فصل الشتاء وعاد معززاً مكرماً ، ومعه الهدايا الى الشرق .

وفي زمن هارون الرشيد تولى عرش بلاد الفرنك شارلمان بن بيبان القصير ، فاستؤنفت تلك العلاقات من جديد بين الطرفين . فأرسل شارلمان سنة ٧٩٧ م وفداً مؤلفاً من رجلين من اللاتين ، ومعهما مترجم يهودي يدعى « اسحق » ، وظل هذا الوفد ثلاث سنوات في بلاد العباسيين مات خلالها الرجلان اللاتينيان وعاد اسحق الى شارلمان حاملا هدية ثمينة من قبل الرشيد وفيها فيل كبير يدعى ـ أبا العباس ـ وساعة وبعض اقمشة جميلة . ويقال ان رجال شارلمان لما رأوا الساعة تعجبوا منها ، وظنوها من الامور السحرية ، وهموا بكسرها فمنعهم الامبراطور عن ذلك . وأرسل الرشيد رجلا فارسياً من قبله وآخر من قبل عامله « ابراهيم بن الاغلب » في افريقية الى شارلمان ، ووصلا اليه قبل اسحق ، فاستقبلهما شارلمان بحفاوة عظيمة ثم ردهما الى المشرق مع هدية ثمينة الى الرشيد .

وفي سنة ٨٠٢ أرسل شارلمان وفداً آخر للرشيد وبقي عنده أربع سنوات ، ثم عاد الى بلاده معززاً مكرما . فرد الرشيد على هذه الزيارة بوفد أرسله سنة ٨٠٧م الى شارلمان كان احد افراده يدعى « عبد الله » ومعهم هدية فيها حيوان ملون بألوان متنوعة ، ومنسوجات حريرية ، وكتانية ،

وروائح عطرية وأواني نحاسية ، فاستقبلهم شارلمان بترحاب ثم رجعوا الى بلادهم .

وتذكر الروايات اللاتينية ايضاً وجود علاقات بين بطريارك أورشليم وشارلمان بين سنة ٧٩٩ و ٨٠٢ م وان البطريارك أرسل مفاتيح القبر المقدس ، ومفاتيح القدس مع راية خاصة الى شارلمان!! تسلمها هذا في مدينة رومة ، ويستنتج بعض المؤرخين الافرنسيين المحدثين من هذه العلاقات المختلفة حماية الافرنسيين في الوقت الحاضر للاراضي المقدسة والحجاج المسيحيين الآتيين لهذه البلاد ! !

وقد بحث هذه المسألة كتاب عديدون نفوا :

اولا : إمكان وجود علاقات ووفود بين هارون الرشيد وشارلمان .

ثانياً : اذا فرض وجود مثل تلك العلاقات ، فتكون علاقات قام بها تجار من قبل الفريقين ، وليست وفود رسمية مرسلة من قبل الدولتين . ويقولون ـ بحق ـ ان ما ذكرته الروايات اللاتينية، ما هي الا اسطورة ملفقة ، وخرافة لا صحة لها . دليلهم على ذلك :

ان المصادر العربية لم تذكر مطلقاً حدوث مثل هذه العلاقات بين العرب والافرنج . وان المصادر اللاتينية وحدها هي التي انفردت بهذه الاخبار .

واذا درسنا ما كانت عليه حالة الدولة الاسلامية من القوة والسيطرة ، والعلم والمدنية في زمن الرشيد ، وما كانت عليه اوربا من الهمجية والاضطراب حكمنا بأنه من المستحيل ان يوافق الرشيد على ترك قسم من بلاده تحت حماية ملك اجنبي أقل منه شأناً واضعف قوة،ونستبعد ان يجرأ بطريارك اورشليم بالعمل بمثل ما ذكرته الرواية اللاتينية دون امر الخليفة وعلمه.ولهذا اذا صح وجود علاقة بالفرض بين الطرفين فتكون بمثابة علاقة « السيد هارون الرشيد بمولاه شارلمان » . وذلك لأن شارلمان كان بحاجة لمعارف العرب وعلومهم،ومساعدتهم على اعدائه واعداء العرب بنفس الوقت وهم البيزنطيون ، لما كان قائماً بين هؤلاء وشارلمان من نزاع على لقب الامبراطورية ، وعلى السلطة على العالم المسيحي . ولذلك لعله حدثت مثل هذه الصداقة بين هارون الرشيد وشارلمان ، لان الرشيد كان يطمع في القضاء على البيزنطيين وعلى الاندلسيين المجاورين لبلاد شارلمان والذي كان في نزاع شديد معهم . فتكون المصلحة عندئذ جمعت بين الطرفين . إلا أن هذا الامر يظل بمثابة فرضية لا يمكن اثباتها إلا اذا وجد في المستقبل نصوص عربية تؤيد ما ذكرته المصادر اللاتينية . وإلا فيبقى الأمر عبارة عن خرافة من خرافات اللاتين .

اخلاق الرشيد

كان الرشيد ديناً محافظاً على التكاليف الشرعية، فكان يصلي في كل يوم مئة ركعة الى ان فارق

الدنيا الا اذا عرضت له علة . وكان يتصدق من ماله الخاص في كل يوم بألف درهم سوى العطايا التي كان يعطيها للناس . ولم يكن يتخلف عن الحج الا اذا كان غازياً ، وقد اقام للناس حجهم تسع مرات في سني حكمه . وكان اذا حج اخذ معه مائة من الفقهاء وابنائهم ، واذا لم يحج بعث بدلا منه ثلثمائة رجل بالنفقة والكسوة . وكان ورعاً يسمع وعظ الواعظين ، وتؤثر فيه الموعظة ! فكان رقيق القلب سريع الدمعة . وكان شجاعاً لا يترك الجهاد مع جنده بل كان غالباً في مقدمتهم ، فكان يغزو سنة ويحج اخرى . وكان يقتفي آثار المنصور ويعمل بها إلا في بذل المال ، فلم ير خليفة قبله كان اعطى للمال منه. وكان لا يضيع عنده احسان محسن ، وكان يحب الشعر والشعراء ، ويميل الى اهل الأدب والفقه ويكره المراء في الدين ، وكان يحب المدح سيما من شاعر فصيح ، ويشتريه بالثمن الغالي . وكان يشرب النبيذ الذي رخص اهل العراق في شربه. وكان يسمع الغناء ويثيب عليه اعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمنه اعظم الموسيقيين والمغنين ببغداد . وكان كثير الجواسيس .كما كان يتخفى بنفسه في الليل ، ويجول في شوارع بغداد وأزقتها ، ليتفقد احوال الرعية ويقيم العدل ، ويغيث الملهوف وينصف المظلوم .

وقد بلغت بغداد في عهده درجة عالية من الحضارة والعمران ، فبني فيها الجوامع الكبيرة ، والقصور الشاهقة ، والحمامات الفخمة ، والاسواق الواسعة ، وامتد البناء فيها امتداداً عظيماً ، حتى صارت كأنها مدن متلاصقة على جانبي دجلة،وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة ،وازدادت مواردثروتها، فكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحراً ، من خراسان وما وراء النهر والهند والصين ، ومن الشام والجزيرة . حتى ان الرشيد فكر في وصل بحر الاحمر بالنيل ، واصلاح القناة القديمة التي بناها الفراعنة ، وجددها عمرو بن العاص إلا أن يحيى البرمكي حذره من ذلك ، حتى لا يصل الروم الى الحجاز ، ويدخلوا المسجد الحرام ، فعدل عن رأيه . وكانت الطرق التجارية آمنة مطمئنة في زمنه ، والعالم الاسلامي هادئاً ساكناً في ايامه ، فازدهرت التجارة وتوسعت في جميع البلاد ، فغني الناس ، وازدادت ثروة الدولة وماليتها حتى بلغ ما يأتيها من الضرائب والخراج في السنة ٤٠٠ مليون درهم . فكان الرشيد يستلقي على ظهره وينظر الى السحابة المارة من فوقه ويقول : « اذهبي حيث شئت يأتني خراجك » . ساعد على ذلك وجود رجال اكفاء في بلاط الخليفة يذكرهم الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد فيقول : « اجتمع للرشيد ما لم يجتمع لاحد من جد وهزل ، وزراؤه البرامكة ، لم ير مثلهم سخاء وسروراً ، وقاضيه ابو يوسف ، وشاعره مروان بن ابي حفصة ، ونديمه عمّ العباس ابن محمد ، وحاجبه الفضل بن الربيع ، ومغنيه ابراهيم الموصلي ، واحد عصره في صناعته ، وضاربه زلزل ،

وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر (زبيدة) أرغب الناس في خير وأسرعهم الى كل بر، وهي اسرع الناس في معروف، أدخلت الماء: الحرم ... »

انتشر المذهب الحنفي في بغداد، نشره قاضي القضاة أبو يوسف، وكان مذهب الدولة الرسمي.

كما توسعت دائرة الترجمة والنقل من اللغات المختلفة الى اللغة العربية، فازدهرت علوم الطب والحكمة والصناعات المختلفة، وأصبحت بغداد قبلة العالم الاسلامي يؤمها الطلاب من جميع البلاد الاسلامية ليتعلموا بها، وساعد على ذلك ما كان يغدقه الرشيد ووزراؤه ورجال دولته على العلماء والادباء من الاموال والهدايا حتى اصبحت « دولة الرشيد من احسن الدول واكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً، وأوسعها رقعة، جبى الرشيد معظم الدنيا ... ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين، ما اجتمع على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه الى أعلى درجة، وكان فاضلا شاعراً راوية للأخبار والآثار والاشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيباً عند الخاصة والعامة ».

وقد بلغت الدولة الاسلامية في زمنه أوج مجدها وذروة عزها، وكانت ايامه كلها خير ورفاهية على بلاده وشعبه.

ولاية العهد   175 Hijra.

ارتكب الرشيد خطأ عظيماً في حياته، كان له اسوأ الاثر بعد مماته، وهو ولاية العهد ثلاثة من ابنائه وهم: الأمين، والمأمون، والقاسم. وكان على الرشيد ان يعتبر مما اصابه من اخيه الهادي في سبيل البيعة بالخلافة، وان يكون درساً قاسياً له، ولكن الرشيد كان مدفوعاً بعامله هذا بعاملين كان لهما الاثر الشديد في سياسة الدولة وهما:

أولاً: الاحزاب المختلفة التي تتطاحن في سبيل دعم سلطانها.

ثانياً: نساء الخليفة ومن حولهن من جواري وإماء وحاشية.

في سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد الأمين بولاية العهد، وكان عمره خمس سنين وقدمه على ابنه الاكبر عبد الله المأمون. بتأثير زوجته زبيدة وحزبها العربي وعلى رأسه الفضل بن الربيع، وأخوها عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور.

وفي سنة ١٨٢ هـ بينما كان الرشيد في الرقة أعلن بولاية العهد لابنه المأمون بعد اخيه الأمين، وكان ذلك بتأثير امه (مراجل) الفارسية وحزبها من الفرس وعلى رأسهم البرامكة والفضل بن سهل الفارسي مربي المأمون.

وفي سنة ١٨٩ هـ بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون، ولقبه بالمؤتمن على ان يكون ولي العهد الثالث اذا قبل المأمون بذلك، وكان ذلك بتأثير مربيه عبد الملك بن صالح العباسي، الذي التمس الى الرشيد تعيينه، طمعاً بان يعظم نفوذه ويحظى بالتقدم عنده فيما بعد.

وقسم الخليفة مملكته الواسعة بين اولاده الثلاثة على ان يتولى كل منهم قسما منها يحكمه كما يشاء طول حياته. فولى الأمين المغرب من الفرات الى تونس، وولى المأمون المشرق من (خراسان) الى ما وراء النهر، وولى القاسم الجزيرة والعواصم، وظن الرشيد انه بعمله هذا قد وطد الملك، وأصلح بين الاخوة. وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد ومعه الأمين والمأمون، وفي حاشيته الوزراء والقواد والقضاة، وبعد ان قضى مناسك الحج امر الفقهاء ان يكتبوا للمأمون كتابين يذكرون في الاول تعهد الأمين لاخيه بولاية العهد، وفي الثاني تعهد الامة ان تفي له بذلك. وحمل الكتابين في البيت الحرام بعد اخذه البيعة على محمد الامين وإشهاده عليه بها: الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من ولده واهل بيته، ووزرائه وكتابه، وقواده ومواليه، وأمر ان يعلق الكتابان في الكعبة، فلما رفعا ليعلقا وقعا، فتشاءم الناس وقال بعضهم لبعض: «ان هذا الامر سريع انتقاله منه قبل تمامه».

وفاة الرشيد

خرج الرشيد لقمع الفتنة في خراسان، واستخلف ابنه محمد الامين في بغداد واصطحب معه ابنه عبد الله المأمون. ولما وصل مدينة طوس قرب مدينة (مشهد) في ايران شعر بمرضه الاخير. فدعا من كان بعسكره من بني هاشم، وأوصاهم بثلاث: «الحفظ لأمانتكم، والنصيحة لأئمتكم، واجتماع كلمتكم، وانظروا محمداً، وعبد الله، فمن بغى منهما على صاحبه فردوه عن بغيه، وقبحوا له بغيه ونكثه». وامر ان يكون الجيش الذي كان معه للمأمون. وتوفي ليلة السبت في ثلاثة من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ودفن في طوس، وكانت مدة خلافته ٢٣ سنة وستة اشهر.

وكان يعاصره في الاندلس الامير عبد الرحمن الداخل، ثم ابنه هشام ثم الحكم بن هشام. وفي فرنسا شارلمان، وفي بلاد الروم قسطنطين السادس. وكانت امه ايريني تدبر أمره، إلا أنها استبدت بالملك فخلعها قومها وتولى مكانها نقفور.

محمد الأمين

١٩٣ - ١٩٨ هـ أو ٨٠٩ - ٨١٣ م

ولد محمد الامين سنة ١٧٠ هـ، وذلك بعد مولد اخيه عبد الله المأمون بستة اشهر، وأمه

الحزب العربي

أم جعفر — زبيدة — ابنة جعفر بن المنصور ، وليس في خلفاء بني العباس من أبواه هاشميان سواه.

ولما توفي الرشيد بطوس ، أرسل صالح بن الرشيد الى اخيه الامين الذي كان قائماً مقام ابيه في بغداد ، خاتم الخلافة ، وقضيب النبي (ص) والبردة ، وهي شارات الخلافة ، فنهض الى المسجد فصلى بالناس وألقى خطاب العرش ، وأخذ البيعة من قواد الجيش والاشراف والعامة فقال ابو نواس يرثي الرشيد ويهنئ الامين بالخلافة :

جرت جوار بالسعد والنحس فنحن في مأتم وفي عرس
القلب يبكي والعين ضاحكة فنحن في وحشة وفي انس
يضحكنا القائم الأمين ويبـ كينا وفاة الامام بالامس
بدران : بدر أضحى ببغداد في الـ خلد ، وبدر بطوس في الرمس

سياسة الأمين الداخلية

النزاع بين الأمين والمأمون

أسباب النزاع :

1 السبب الاول . — كان الرشيد قبل وفاته قد جدد البيعة لابنه المأمون وأوصى بأن يصير ما معه من قواد وجند وسلاح ومال الى المأمون ، وأخذ المواثيق على ذلك ممن كان معه. وبعث الأمين لما بلغه مرض الرشيد ، وتوقع وفاته برسول يوافيه بأخبار الرشيد كل يوم. وانفذ معه كتباً أمره بتسليمها الى اصحابها بعد وفاة الرشيد . ومن جملة هذه الكتب : كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه ، ويأمره ان يأخذ البيعة على من قبله للأمين بالخلافة ، وللمأمون بولاية العهد ، وللقاسم المؤتمن بعده . ومنها كتاب لصالح بن الرشيد يأمره فيه بالمسير اليه مع جميع الجنود والذخائر والسلاح ، وينصحه ان يعتمد في تنفيذ ذلك على الفضل بن الربيع ، الذي كان وزيراً للرشيد . وأصبح بعد ذلك وزير الامين ومسيره في نزاعه مع اخيه المأمون . الفضل بن الربيع

وقد قال الفضل بن الربيع لقواد الجند وأولاد الرشيد عندما كانوا يتشاورون في اللحاق بالامين: « لا أدع ملكاً حاضراً لآخر لا يُدرى ما يكون في امره » ، وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك، محبة منهم للحوق باهلهم ومنازلهم في بغداد ، وتركوا العهود التي كانت اخذت عليهم للمأمون » .

كان المأمون — بمرو — عندما وصل اليه خبر عودة الجيش ببغداد فأرسل اليهم بنصيحة الفضل ابن سهل ومشورته رسولا يذكرهم البيعة التي اخذوها على انفسهم ، والوفاء بها ، فلم يجد عمله شيئاً. وأصبح الفضل بن سهل وزير المأمون ، ومسير أعماله . وأشار عليه ان يقعد على الجنود ، ويبعث الى

الفقهاء، ويدعوهم الى الحق والعمل به، والى أحياء السنة، ورد المظالم، وان يكرم القواد وابناء الملوك، ويستميل الفرس اليه. فلما فعل ذلك أحبه القوم لاسيما الخراسانيين، وقالوا: «ابن اختنا وابن عم نبينا (ص)»، والتفوا حوله، وبذلك انتقل النزاع من الاخوة الامين والمأمون، الى الفضلين: الفضل بن الربيع والفضل بن سهل. او بكلمة اخرى اصبح النزاع بين العرب والفرس. فالعرب اخذوا بناصر الأمين، والفرس اتخذوا جانب المأمون. وكان الظفر اخيراً بطرفهم.

السبب الثاني. — أخذ الفضل بن الربيع يلح على الخليفة الامين بعزله اخويه المأمون والقاسم، وتولية ابنه موسى من بعده. وذلك خوفاً على نفسه فيما اذا افضت الخلافة الى المأمون يوماً ان ينتقم منه. إلا ان الامين لم يصغ اليه في بادئ الامر، لانه كان عازماً على الوفاء لاخويه، واخيراً قبل بتأثير الفضل بن الربيع ان يكتب الى الولاة في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالأمرة بعد الدعاء له والمأمون والقاسم. فما كان من المأمون عندما بلغه هذا الامر وعرف بعزل اخيه القاسم عن ولاية الجزيرة وارمينيا الاتين كان ابوه قد ولاه إياهما، إلا ان قطع البريد عن اخيه الأمين. واسقط اسمه من الطراز. على أثر ذاك طلب الامين من اخيه المأمون ان يعطيه بعض اقسام خراسان ليولي عليها عمالا من قبله يوافوه بأخبار تلك الجهات، فرفض المأمون ذلك، بعد استشارة اهل الرأي عنده وبتأثير الفضل بن سهل.

أرسل الأمين وفداً من كبار رجال دولته الى اخيه المأمون يطلبون اليه تقديم موسى بن الأمين الذي لقبه «الناطق بالحق» على نفسه بولاية العهد، فرفض المأمون ذلك. عندها ألح الفضل بن الربيع على الأمين في خلع اخيه فأجاب الى ذلك. وأرسل الفضل الى العمال في جميع البلدان ينهاهم عن ذكر المأمون والقاسم على المنابر، ويحظر عليهم الدعاء لهما بعد الخليفة والاكتفاء بالدعاء للأمين وابنه موسى. ووجه الى الأمين كتاباً مع احد حجبة البيت ليأتيه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما للمأمون وجعلهما بالكعبة، فلما احضرا الى بغداد مزقهما وأبطلهما.

وضع الفضل بن سهل بأمر المأمون، حرساً على حدود خراسان لكي لا يترك الفرصة لاحد من شيعة الأمين من الاتصال برجال خراسان وإفسادهم على المأمون. ونشر العيون والجواسيس في كل مكان ليوافوه بالأخبار ويدعوا للمأمون بالخلافة.

جرت مكاتبات بين الاخوين طلب فيها الامين ما فضل من مال الخراج عند المأمون وبين حقه في هذه الاموال، واقترح على اخيه ان يقبل تعيين شخص من قبله ليراقب ماليته ويوافيه بخبرها. فكان جواب المأمون بأنه هو يقوم بابلاغه عما يريد، ويطلب اليه ان لا يحرجه في الخروج عليه

وكان للجاسوسية في هذه الخصومة اثر كبير في ايصال الاخبار ، وما يجري من المؤامرات والأحاديث عند الطرفين ، ولعل من اسباب نجاح المأمون في هذا النزاع يعود لتفوق فن الجاسوسية عنده ، وتحفظه في إبعاد دعاة الأمين وأعوانه عن إفساد شيعته وحزبه .

وبعد ان فشلت الطرق السياسية والمكاتبات في التوفيق بين الأخوين اصبح من المحتم وقوع النزاع الدموي بينهما .

وقوع الحرب :

جهز الأمين جيشاً كبيراً مؤلفاً من أربعين الف محارب ، مجهزين بأحسن سلاح ، مزودين بالارزاق الكثيرة ، وعين عليهم قائداً علي بن عيسى بن ماهان الذي كان والياً على خراسان في زمن الرشيد ، والذي أساء معاملة اهالي تلك البلاد . فكان تعيينه قائداً لهذا الجيش فاتحة شر على الأمين ، لانه أثار حمية اهل خراسان لكرههم ومقتهم لعلي بن عيسى . وبذلك اشتد حزب المأمون وقوي لالتفاف اكثر اهل خراسان حوله ونصرتهم له . وزاد الامر شراً غرور علي بن عيسى بنفسه ، وعدم اكتراثه بعدوه . وقد اختار المأمون خير قواده لمحاربة جيش اخيه ، نعين طاهر بن الحسين على جيش مؤلف من (٣٨٠٠) مقاتل من خيرة المحاربين . فلما عرف علي بن عيسى بخبر هذا الجيش اخذ يضحك منه ويسخر من قائده قائلاً : « وما طاهر فوالله ما هو إلا شوكة من اغصاني ، او شرارة من ناري ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش ، ويلاقي الحروب . ثم التفت الى اصحابه فقال : « والله ما بينكم وبين ان ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصف الا ان يبلغه عبورنا عقبة همدان ، فان السخال لا تقوى على النطاح » والثعالب لا صبر لها على لقاء الاسد » وعندما بلغ جيش الأمين اول بلاد الري جاء قائد المقدمة الى امير الجيش وقال له : « لو كنت – أبقى الله الامير – إذ كيت العيون وبعثت الطلائع وارتدت موضعاً تعسكر فيه ، وتخذ خندقاً لأصحابك يأمنون به كان ذلك أبلغ في الرأي وآنس للجند » . فكان جواب علي بن عيسى : « ليس مثل طاهر يستعد له بالمكايد والتحفظ ، إن حال طاهر تؤول الى احد امرين : إما ان يتحصن بالري فيبيته اهلها ، فيكفونا مؤونته او يخليها ويدبر راجعاً لو قربت خيولنا وعسكرنا منه » وبينما كان علي بن عيسى يسير في خيلائه ، وتيه عقدرته ، ويستصغر امر عدوه ، كان طاهر بن الحسين يدبر أمره مع قواده ، وينظم عسكره ، ويحشد جنده على مقربة من مدينة الري . وعندما التحم الطرفان كُسر جيش الأمين ، وقُتل قائده المغرور ، واصبحت أمواله نهباً ، وسلاحه مغنماً بأيدي اعدائه ، وكتب طاهر بن الحسين الى الفضل بن سهل يبشره بنتيجة المعركة قائلاً : « كتبت اليك ورأس علي بن عيسى في حجري ، وخاتمه في يدي والحمد لله رب العالمين » فبشر الفضل المأمون بالظفر ، ونادى به « أمير المؤمنين » ففرح

المأمون بذلك وأطلق على الفضل بن سهل « ذا الجيشين وصاحب جبل الدين » .

وصل خبر الهزيمة الى بغداد ، فقامت الفوضى بين الناس ، وتنكر الجند على الامين وطلبوا منه الزيادة في أرزاقهم وعطائهم ، فلان لهم واعطاهم ما شاؤوا وجهزهم بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الانباري لقتال طاهر ومن معه . وعندما التقى الجمعان عند مدينة همذان ، اقتتل الفريقان قتالاً شديداً ، وتراجع جيش الامين إلى همذان وحاصر فيها . وعندما نفذت ذخيرته طلب الأمان واستسلم إلى طاهر بن الحسين . ولما وصل الخبر الى الامين ارتاع وزيره الفضل بن الربيع ، وشعر بزوال الدولة وافول نجمه ، ودعا أسد بن يزيد بن مزيد ، وهو من كبار قواد الدولة لمحاربة طاهر بن الحسين . فطلب مطالب كثيرة ، جعلت الامين يغضب عليه ويحبسه . والتجأ الامين الى أهله يفتش عن قائد قدير يأمن له ويركن اليه . فأشاروا عليه بأحمد بن مزيد فاستدعاه الخليفة ، وسيره على رأس جيش كبير عدته عشرون الفاً وأتبعه بعشرين الف أخرى بقيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وامرهما ان ينزلا حلوان ، ويدفعا طاهراً عنها ، ولما بلغ طاهر بن الحسين الخبر ، خندق حول همذان ، وأخذ يفرق بين جيشي الامين ، ويحتال في ايقاع الخلاف بين قائديه حتى تم له الأمر ، فاختلف القائدان وتحاربا ، ورجعا دون أن يلقيا طاهراً . فتقدم طاهر الى حلوان واحتلها وجاءه المدد من قبل المأمون بقيادة هرثمة بن أعين ومعه كتاب من المأمون يأمره في المسير نحو بغداد من جهة الاهواز ، ليكون الهجوم على عاصمة الخلافة من جهتين .

وقد حاول الامين أن يرمي آخر سهم في كنانته ، فاستعان بأهل الشام والجزيرة ، وولى عليهم عبد الملك بن صالح الذي استنجد أمراء العرب ورؤساء الجند ، فجاؤوا اليه من كل فج وصوب ، واجتمعوا عنده . ولسوء حظ الامين اختلف جندي عربي مع آخر خراساني ، فاقتتل الطرفان وتفرق العرب راجعين إلى ديارهم ، ذاكرين ما فعله بنو العباس فيهم ، وإيثار أهل خراسان عليهم وخطب بعض زعماء كلب في قبيلته قائلا لهم : « يامعشر كلب : إنها الراية السوداء ، والله ماولت ولا عدلت ، ولا ذل نصيرها ، ولا ضعف وليها ، وإنكم لتعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وآثار أسنتهم في صدوركم اعتزلوا الشر قبل ان يعظم ، وتخطوه قبل ان يضطرم ، شأمكم داركم داركم ! الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري ! ألا واني راجع فمن اراد الانصراف فلينصرف معي . » فلحقه جميع أهل الشام . أما جند خراسان فساروا إلى بغداد بقيادة الحسين بن علي بن عيسى وخلعوا الامين ، وقيدوه وسجنوه في سنة ١٩٦ هـ . إلا ان ذوي الرأي في بغداد خلصوا الامين من قيوده وسجنه ، وثاروا على الحسين بن علي وأسروه ، وجاؤوا به الى الخليفة . فلامه الامين على فعلته ، وعاتبه بقوله : « ألم اقدم أباك على الناس وأوله اعنة الخيل ، وأملأ يده من

الأموال ، واشرّف أقداركم في أهل خراسان وأرفع منازلكم على غيركم من القواد ؟ فقال له بلى ! قال : « فما الذي استحققت به منك أن تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس علي ، وتندبهم الى قتالي. قال الثقة بعفو امير المؤمنين وحسن الظن بصفحه وتفضله . قال : « فان أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك ، وولاك الطلب بثأرك ومن قتل من أهل بيتك ! » ثم دعا له بخلعة فخلعها عليه ، وحمله على مراكب ، وأمره بالمسير الى حلوان ، وولاه تلك الجهات ، إلا انه لم يكن اهلاً لهذا الانعام ، فقد حاول ان يثور مرة أخرى على الأمين فقتل .

هذه الحادثة تدلنا على مبلغ الاضطرابات في بغداد ، وضعف الخليفة الأمين عن قمعها ، وإلى أي درجة قلت هيبة الخليفة عند الناس حتى تجرؤوا على خلعه وسجنه . ولا شك ان المأمون والفضل ابن سهل يدا في إثارة هذه الاضطرابات بواسطة اعوانهم من الفرس . ولعله كان لهذه الدسائس والمؤآمرات الاثر الكبير في أنتصار المأمون على اخيه وتفوقه عليه .

حصار بغداد ومقتل الامين :

فتح طاهر بن الحسين الاهواز وفارس ، وسقطت معظم المدن الرئيسية في العراق بيده . وكان عمال الأمين يقدمون خضوعهم للقائد المظفر دون قتال ، او يتركون ولايتهم ويهربون من وجهه كما فعل عامل مدينة واسط الذي قال : « انه طاهر ولا عار في الهرب منه ! » ، وتمت البيعه للمأمون في الحجاز والبحرين واليمامة وعُمان ومعظم مدن العراق ، وتقدم طاهر بجيشه نحو بغداد ، كما أتى هرثمة بن اعين ، والمسيب بن زهير وطوقوا بغداد من جهاتها الثلاث . ونصب المسيب بن زهير المجانيق والعرادات وضرب بهم بغداد . واستمر الحصار عدة اشهر أنفق الأمين جميع اموال الدولة في سبيل الدفاع ، حتى انه باع ماعنده من الامتعة ، وضرب آنية الذهب والفضة نقوداً وزعها على الجند . وقاست بغداد من هذا الحصار مصائب جسيمة ، من تهديم القصور ، وحرق الدور ، وتخريب المنازل ونهب الحوانيت ، حتى حل الخراب بنصف المدينة تقريباً . ومات كثير من السكان فاخذ الاشراف ينفضون من حول الامين ، إلا ان العامة ثاروا في كفاحهم ، واستعان الأمين بالعيارين والشطار واهل السجون في الدفاع عن المدينة . وعندما استنفد جهوده في الدفاع ، وايقن بالهلاك ، طلب الأمان من هرثمة بن اعين ، فاجابه اليه ، إلا ان طاهراً ابى إلا ان يسلم الامين نفسه اليه ، ولم يكن الأمين يثق به ، واخيراً تم الاتفاق على ان يسلم الأمين نفسه الى هرثمة بن اعين ويسلم شارات الخلافة : من خاتم وقضيب ، وبردة إلى طاهر بن الحسين . وجاء هرثمة بحراقته ليتسلم الخليفة ، فركب الأمين معه ، وسارت بها الحراقة حتى انتصفت النهر ، وعندما رأوها جنود طاهر رموها بالحجارة والسهام ، حتى اغرقوها ، فسبح الامين الى الشاطىء ، فقبض عليه جنود طاهر

وأسروه فأمرهم هذا بقتله فقتلوه في ٢٣ محرم سنة ١٩٨ هـ . اما هرثمة بن اعين فتدارکه أصحابه وانقذوه من الغرق . وتمت بذلك هذه الفاجعة المؤلمة . وبموت الامين قوي النفوذ الفارسي في الدولة وكان انتصاراً للفرس على العرب، وتفوق حزب الفضل بن سهل على حزب الفضل بن الربيع .

أخلاق الأمين

أسرف الرواة في ذكر سوء أخلاق الامين ، وصوروه لنا بصورة رجل مستهتر ، مسرف ، عديم الاخلاق ، قليل التبصر في عواقب الامور .... وذلك أمر طبيعي لان الأمين قد خانه حظه وعثرت قدمه ، وفشل في نزاعه مع اخيه ، فتسابق الناس إلى ذمه وسلطوا عليه ألسنتهم بكل سوء ، ووصفوه لنا بابشع الصفات كما هي حالة كل فاشل في معترك هذه الحياة ...

لذلك سنحترز كثيراً في ذكر ما قيل عن الأمين ، ولا نقبل كل ماروي عن أخلاقه . نشأ الأمين في حجر الفضل بن يحي البرمكي ، واعتنى الرشيد كثيراً بتربيته ، فعين له كبار علماء عصره ليثقفوه ويعلموه ،حتى جمع من الثقافة ما لا يتيسر لقليل من ابناء عصره مثلها ، فكان اديباً شاعراً ، سريع البديهة ظريف النكتة ، حلو التندر رقيق الدعابة والفكاهة . وقد اجمع الرواة على سخاء الأمين إلى درجة الاسراف ، ورووا لنا قصصاً كثيرة عن عطائه للشعراء والمغنين الشيء الكثير . كما اتفقوا ايضاً على كثرة لهوه ولعبه وتقريبه للخصيان وقد قال عنه ابن جرير الطبري : «ولما ملك محمد، وجه الى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم اليه ، وأجرى لهم الارزاق ،وتنافس في ابتياعه فره الدواب ، واخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك .واحتجب عن اخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الاموال ، وما بحضرته من الجواهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه وحمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه ، ... وأمر بعمل خمس حراقات في دجلة ،على خلقة الاسد والفيل والعقاب والخنزير والفرس وانفق في عملها مالاً عظيماً » .

كان الأمين طيب القلب سليم الطوية ، طاهر السجية ، نبيل الاصل إلا انه ضعيف الارادة ، استكان الى مشيريه لا سيما الفضل بن الربيع فغشه ، وحاد به عن الصواب ، وقاده إلى الهلاك وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر . كان يعاصره في الاندلس الحكم بن هشام ، وفي فرانسا شارلمان . وفي بلاد الروم نقفور الذي قتل في حروبه مع البلغار فخلفه ابنه استبرق . ثم تولى من بعده ميخائيل بن جرجس الذي تزوج من أخت استبرق ، وتنازل عن العرش إلى القائد ليون الارمني .

عبد الله المأمون

١٩٨ – ٢١٨ هـ أو ٨١٣ – ٨٣٣ م

ولد عبد الله المأمون سنة ١٧٠ هـ في اليوم الذي ولي فيه ابوه الخلافة ، وأمه أم ولد فارسية تسمى مراجل . ولي الخلافة بعد مقتل اخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ وبقي في خرسان إلى سنة ٢٠٤هـ ثم انتقل منها الى بغداد ، وبقي في الخلافة ما يزيد على العشرين سنة .

سياسة المأمون الداخلية

كانت مقاليد الحكم في أول خلافة المأمون بيد الفضل بن سهل وحزبه ، حتى أن المأمون آثر البقاء في مرو في بادئ الامر عن الذهاب الى بغداد ليكون قريباً من الفرس الذين توصل الى الحكم بمساعدتهم . وقد علا شأن الفرس كثيراً في زمن المأمون ، وازداد نفوذ الفضل بن سهل الذي اراد أن يبعد كل منافس له حتى يستأثر بالحكم . فأصدر امرين على لسان المأمون : أولهما تولية أخيه الحسن بن سهل على جميع البلاد التي فتحها طاهر بن الحسين وهرثمة بن اعين . والثاني استدعى فيه هرثمة بن اعين الى خراسان وأنفذ طاهر بن الحسين الى الرقة لمحاربة نصر بن شبث الذي ثار مع العرب على المأمون في شمالي حلب انتصاراً للامين وحزبه العربي ، وانتقاماً من المأمون لخضوعه لتأثير الفرس . وكان لخلو العراق من القائدين العظيمين الذي تم فتحه بواسطتهما ، وما شاع بالعراق من أن الفضل بن سهل استأثر بالحكم في خراسان وأنزل المأمون في قصر ، وحجبه فيه عن أهل بيته ووجوه قواده ، وأن المأمون اصبح آلة بيد الفرس يحركونه كما يشاؤون ، وما اصاب اهل بغداد من الضرر بانتقال مركز الخلافة الى مرو ، أن ثاروا على المأمون . واول هذه الثورات هي :

ثورة العلويين :

خرج محمد بن ابراهيم (١) والمعروف « بابن طباطبا » وهو من ابناء الامام علي من الفرع الحسني بالكوفة ، وساعده في ثورته هذه ابو السرايا وهو أحد رجال هرثمة بن اعين ، فارسل والي العراق الحسن بن سهل عدة جيوش ردها ابو السرايا خاسرة على أعقابها ، وعظم أمر الشيعة في البلاد حتى ان ابا السرايا ضرب نقوداً في الكوفة ونقش عليها : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) عند ذلك التجأ الحسن بن سهل إلى هرثمة بن اعين يلتمس منه اخضاع هذه الفتنة فبعد تردد اجابه الى ذلك ، وتمكن من الانتصار على جماعة ابي السريا وإخماد هذه الفتنة .

---

(١) محمد بن ابراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي .

وكان لهذه الفتنة أثرها السيء في قيام الفوضى في أكثر مدن العراق والحجاز، لما قام به العلويون وشيعتهم من حرق الدور في البصرة ونهب الاموال من خزانة الكعبة، ونكب شيعة بني العباس ومصادرة اموالهم في الحجاز، وتعذيبهم في « دار العذاب »، وأخذ ما على أعمدة المسجد الحرام من الذهب وقلع الحديد من شبابيك زمزم وغير ذلك من الاعمال، وعندما بلغ من في الحجاز من العلويين مقتل ابي السرايا وتشتت اصحابه بايعوا محمداً بن جعفر الصادق وسموه أمير المؤمنين، إلا ان هرثمة بن اعين ارسل من قضى على ثورتهم وشتت شملهم.

وبعد ان انتهى هرثمة بن اعين من اداء تلك المهمة عينه المأمون لولاية الشام والحجاز، إلا ان هرثمة اراد ان يطلع المأمون على حقيقة الحالة التي وصلت اليها دولته بسبب استبداد الفضل بن سهل بالامر قبل تسليمه منصبه الجديد، فحال الفضل بن سهل دون ذلك، بأن اوغر صدر المأمون عليه وأوحى اليه بانه كان متآمراً مع أبي السرايا، وان الفتن التي حصلت كانت بسببه، لذلك لم يسمع المأمون قول هرثمة عندما اجتمع به، وامر بسجنه، فدس له الفضل من قتله في السجن، وذهب هذا القائد المخلص ضحية الدسائس والمؤامرات.

ثورة أهل بغداد :

عرف أهل بغداد بموت هرثمة بن اعين وان ذلك كان بتدبير الفضل بن سهل فتحققوا من ان المأمون مسير في اعماله من قبل الفضل، فطردوا اخاه وعامله الحسن بن سهل — المجوسي ابن المجوسي — كما كانوا يلقبونه في بغداد. وقامت الفوضى والفتن في تلك المدينة، ونشط اللصوص والصعاليك في النهب والسلب، فطلب وجهاء المدينة من المنصور بن المهدي ان يبايعوه بالخلافة: فابى ذلك، إلا انه قبل ان يكون اميراً باسم الخليفة المأمون. ومع ذلك لم تهدأ الاضطرابات في بغداد. وكانت مقدرات المدينة بايدي الشطار والاشرار، فاتفق أهل كل حي على حماية منطقتهم، فعاد النظام واستتب الامن في الطرقات، إلا انه حدث حادث أعاد الفوضى الى اشد ما كانت عليه، وهو أن المأمون اختار لولاية عهده علي الرضا (١) من العلويين ولقبه « الرضا من آل محمد »، وامر جنده بطرح السواد شعار العباسيين، ولبس ثياب الخضرة الذي اختاره شعاراً للدولة الجديدة، وكتب بذلك الى جميع الآفاق. وكان هذا العمل بتحريض الفضل بن سهل المتشيع للعلويين، فقال للمأمون أن حركات العلويين لا تهدأ إلا باعطائهم حقهم في الخلافة، فوافق ذلك ما في نفس المأمون الذي كان يفضل الامام علي على غيره من الخلفاء الراشدين.

(١) علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن الامام علي

إلا ان البيت العباسي غضب من ذلك، وانضموا هذه المرة الى الثائرين من أهل بغداد وناصروهم في خلع المأمون، خوفاً أن تذهب الخلافة منهم، واتفقوا على مبايعة إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة سنة ٢٠٢ هـ وظل خليفة مدة سنتين.

عودة المأمون لبغداد:

اخبر علي الرضا المأمون بما كان يجري في الدولة، وأطلعه على حقيقة الفضل بن سهل، الذي كان يكتم الاخبار عنه ويحجز الناس عن مقابلته، وأن اهل بيته ناقمون عليه، واهل بغداد بايعوا ابراهيم بن المهدي خليفة عليهم، وخلعوه من الخلافة. ولما عرف المأمون صحة هذه الاخبار، وانجلت له الأمور، أمر جنده وحاشيته بالرحيل إلى بغداد، وفي الطريق دبر قتل الفضل بن سهل، كما أن علي الرضا مات في الطريق أيضاً، ويتهمون المأمون بتدبير موته، ويستبعد كثير من المؤرخين ذلك، وعلى كل فقد تخلص المأمون من شخصيتين كان يكرهما أهل بغداد وكان كلما اقترب من عاصمة الخلافة، اضطرب أمر ابراهيم بن المهدي، وما لبث ان قام عليه الجند وخلعوه، وأعادوا الحسن بن سهل - والي المأمون - مكانه، وأظهروا طاعتهم للمأمون. وخرج العباسيون والقواد واشراف بغداد يستقبلون الخليفة، الذي استدعى طاهر بن الحسين من الرقة، ودخل معه بغداد سنة ٢٠٤ هـ، وبذلك بدأ عصر جديد في حياة المأمون، قبض فيه على ناصية الحكم بيد قوية فيها الحزم والنشاط والتسامح، وعاد الى لبس السواد بتأثير قواده وأهل بيته، وعفا عن خصومه الذين ساعدوا اخاه الأمين. وبدأ بقمع الفتن والثورات القائمة في الدولة. وجعل طاهر بن الحسين على شرطة بغداد، ثم ارسله بطلب منه الى ولاية خراسان خوفاً على نفسه من الخليفة ان ينتقم منه لقتله الأمين. وما لبث ان عظم نفوذه بخراسان، واسس دولة مستقلة، دعيت الدولة الطاهرية نسبة الية وأسقط اسم الخليفة المأمون من خطبة الجمعة، واعلن انفصاله عن العباسيين. الا ان المأمون دس له من سمه، فقام بعد موته ابنه طلحة، فوافق الخليفة على ولايته وبقيت الدولة الطاهرية أمارة مستقلة تحكم بلاد خراسان وماوراءها نحو نصف قرن الى ان قضت عليها الدولة الصفارية سنة ٢٥٩هـ(١)

---

(١) تولى طاهر بن الحسين امارة خراسان سنة ٢٠٥ هـ وبقي والياً عليها مدة سنتين تقريباً. وتعاقب عدة حكام من اسرته في حكم تلك البلاد. وكانت عاصمتهم «نيسابور» وكانوا خاضعين اسميا للخلافة العباسية، بمعنى ان الخليفة يوافق على تعيين الحاكم منهم بعد موت من تقدمه. وقد توسعت هذه الدولة كثيراً في زمن عبد الله بن طاهر، وامتد سلطانها على خراسان، والري، وكرمان والمقاطعات الشرقية حتى حدود الهند. وكان آخر حكامها محمد بن طاهر الذي خضع الى سلطة يعقوب الصفاري مؤسس الدولة الصفارية والذي كانت نهاية الدولة الطاهرية على يده سنة ٢٥٩هـ

وعين المأمون على ولاية الرقة عبد الله بن طاهر الذي ورث اباه في محاربة نصر بن شبث، وشدد عليه حتى اضطره الى التسليم ، وارسله الى بغداد ، فعفا عنه الخليفة . وقد امر المأمون عبد الله بن طاهر بالذهاب الى مصر لقمع الفتن القائمة فيها ، فسار اليها وقمع ثورة عبد الله بن السري . كما حارب جماعة المولدين الذين جاؤوا من الاندلس بمراكبهم ونزلوا في ميناء الاسكندرية وعاثوا فيه فساداً ، فاضطرهم الى الخروج من مصر ، فرحلوا الى جزيرة اقريطش (كريت) سنة ٢١٠ هـ وأقاموا فيها وبذلك هدأت الثورات والفتن في جهة الغرب .

ثورة الزط :

ثار الزط (النور) في زمن المأمون في جهة البصرة . وهم اخلاط من الناس من هنود آسيا انتهزوا قيام الفتنة بين الامين والمأمون ، واستولوا على طريق البصرة ، وعاثوا في البلاد فساداً . ولما عاد المأمون الى بغداد ، ندب عدة قواد لمحاربتهم ، الا انهم لم يتمكنوا من اخضاعهم ، لانهم كانوا يهربون اذا تحرج موقفهم ، وشعروا بقوة خصمهم . وقد عير نصر بن شبث المأمون بهم فقال : « انه لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه » واستمرت ثورتهم قائمة الى زمن المعتصم الذي تمكن من القضاء عليهم سنة ٢١٩ هـ .

ثورة العلويين في اليمن :

قام العلويون في اليمن بثورة على المأمون ، بالرغم من حسن معاملته لهم . ومبايعة احد أئمتهم بالخلافة وتزويجه احد بناته من ابنه وهو محمد بن علي الرضا المعروف « بالجواد » لذلك ارسل الى اليمن جيشاً كثيفاً ومعه امان الى الثائرين فاستسلموا دون قتال فولى المأمون محمد بن ابراهيم الزيادي ولاية اليمن ، فذهب اليها سنة ٢٠٣ هـ وفتح تهامة وبنى مدينة زبيدة وجعلها حاضرته واستقل عن العباسيين واصبحت الدولة الزيادية دولة مستقلة خاضعة بالاسم الى الخلافة العباسية . فكان حكامها يخطبون في المساجد لبني العباس ، ويحملون لهم في كل سنة هدايا واموالا عوضاً عن الخراج ، ويتوارثون الحكم فيما بينهم بموافقة الخليفة واستمرت هذه الدولة قائمة في اليمن نحو قرنين من الزمن الى سنة ٤٠٩ هـ عندما انقسمت على نفسها وقام على انقاضها دويلات صغيرة .

ثورة بابك الخرمي :

من الفرق الفارسية التي كان لها الاثر السيء في الدين والسياسة في العصر العباسي فرقة الخرمية التي تنسب الى بابك الخرمي ، وبابك هذا من اصل وضيع ، اتصل بجاويدان بن سهرك ملك جبال البذ وخدمه ، فأحبته زوجة جاويدان ، وساعدته بعد موت زوجها في حكم جماعته . وقد جمعت اصحاب

221

جاويدان بعد موته ، وقالت لهم : ان جاويدان قال : اني اموت في ليلتي هذه ، وان روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي وقد رأيت ان املكه على اصحابي ، فاذا مت فاعلميهم ذلك وان لادين لمن خالفني فيه ، واختار لنفسه خلاف اختياري . فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابكا .

كان اتباع بابك الخرمي على دين المجوس القديم يدعون تعاليم مزدك (١) خرجوا على المأمون ، وكان لا يزال في مرو سنة ٢٠١ هـ . فلما ذهب الى بغداد ارسل عدة قواد لمحاربتهم ، ولكن لمناعة بلادهم ، ومساعدة البيزنطيين لهم ، لم تمكنوا من القضاء عليهم ، واستمر امرهم مستفحلا في بلاد أرمينية واذربجان حتى زمن المعتصم . وقد اوصاه المأمون بمحاربتهم قبل وفاته . فنفذ الوصية وارسل لهم قائده الافشين ، فحاربهم مدة طويلة حتى تمكن من القضاء عليهم سنة ٢٢١ هـ وقبض على بابك الخرمي وارسله الى المعتصم الذي صلبه في مدينة سامراء ، وبذلك انتهى امر الخرمية بعد حروب دامت نحو عشرين سنة زهقت ارواح كثيرة في سبيل القضاء عليها .

زواج المأمون

تزوج المأمون من خديجة الملقبة بـ « بوران » وهي بنت الوزير الحسن بن سهل ، خطبها من ابيها سنة ٢١٠ هـ وهو عائد في طريقه الى بغداد ، ليسترضي الحسن بعد مقتل اخيه الفضل بن سهل . وكانت بوران من جميلات عصرها ، واكثرهن ذكاء وأدبا . اقيمت حفلة عرسها في قصر ابيها « فم الصلح » (٢) حيث كان القصر مزيناً اجمل زينة وأبهاها . واشتركت السيدة زبيدة في حفلة

(١) — يقول ابن النديم في كتابه الفهرست عن الخرمي ما يلي : « الخرمية صنفان : الخرمية الاولون ، ويسمون — المحمرة — وهم بنواحي الجبال فيما بين أذربجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهمذان ودينور ، منتشرون . وفيما بين أصفهان وبلاد الاهواز ، وهؤلاء اهل مجوس في الاصل ، ثم حدث مذهبهم . وصاحبهم مزدك القديم . أمرهم بتناول اللذات ، والانعكاف على بلوغ الشهوات والاكل والشرب والمواساة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والاهل . لايمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه . ومع هذه الحال فيرون افعال الخير ، وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لاحد من الامم : إذا اضافوا الانسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائناً ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الاخير ...

واما الخرمية البابكية : فان صاحبهم بابك الخرمي . وكان يقول لمن استغواه : إنه إله ، واحدث في مذاهب الخرمية القتل ، والغصب والحروب ... ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك . »

(٢) الصلح : اسم نهير تصب في الدجلة على بضعة أميال من واسط . وقصر فم الصلح . قصر واقع عند مصب هذا النهر بدجلة .

تقدم العلوم في عهد المأمون

كان عصر المأمون ألمع عصور الحضارة العربية ، فهي بحق العصر الاسلامي الذهبي ، ولاغرو فان العشرين سنة التي قضاها المأمون في الحكم تركت كنوزاً زاخرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية معينة من العلوم او الآداب ، بل شملت جميع نواحي التفكير والثقافات ، فانتعشت في زمنه حركة النقل والترجمة ، وازدهرت العلوم الفلسفية ، وارتقت العلوم الرياضية ، والفلك والطب وغيرها من العلوم الدينية والدنيوية . وانتقل تراث هذه العلوم الى الاندلس ، والقسطنطينية ومنها تسربت الى أوربا ، وكان لها التأثير المباشر في الحضارة الاوربية الحديثة ، التي نعيش في كنفها في هذه الايام . والتي كان للعرب الفضل الاكبر في ايجادها ، وسنذكر ما قام به المأمون ومن عاش في كنفه من العلماء في هذا السبيل .

أخذت الحياة العلمية تتقدم تقدماً محسوساً عند العرب منذ العصر الاموي ، ثم استمرت في تقدمها في العصر العباسي . فقرب أبو جعفر المنصور علماء عصره على اختلاف اجناسهم ونحلهم اليه ، فترجموا له الكتب المختلفة من الهندية والفارسية واليونانية . يقول ابن صاعد : « أن اول علم اعتنى به من علوم الفلسفة : علم المنطق والنجوم . فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي ، كاتب أبي جعفر المنصور ، فانه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق ... وعبّر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة . وهو أول ما ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ... وأما علم النجوم فقد قدم على الخليفة المنصور في سنة ١٥٦ هـ رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هندي في حركات النجوم في كتاب يحتوي على اثني عشر باباً .. فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية ، وان يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري ، وعمل منه كتاباً يسميه المنجمون بالسند هند الكبير ، وتفسير السندهند باللغة الهندية : الدهر الداهر » . وترجم الطبيب جورجس بن جبرائيل عدة كتب طبية للمنصور من اللغة اليونانية الى اللغة العربية . وكذلك قام يحيى بن البطريق بترجمة كتاب المجسطي في الهندسة لبطليموس وترجمت كتب كثيرة اخرى في زمن المنصور .

وقويت الترجمة في زمن هارون الرشيد ، لما جاء به من الكتب من بلاد الروم ، ولما كان للبرامكة من عناية في الترجمة وبذل العطاء للمترجمين . فترجمت كتب كثيرة من اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والعبرانية واللاتينية والنبطية في شتى المواضيع لا سيما في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم .

ولما جاء المأمون بلغت حركة النقل والترجمة أوجها ، لانه كان من اعلم رجال عصره ، ففتح بيت الحكمة ، وانفق الاموال الطائلة في سبيل جلب الكتب وتقريب المترجمين والعلماء ، فأرسل الى حاكم صقلية المسيحي وطلب منه ان يرسل ما في مكتبة صقلية من الكتب الفلسفية والعلمية ، فبادر بعد تردد الى إرسالها ، وكذلك راسل امبراطور البيزنطيين يسأله الاذن في انفاذ ما عنده من مختار الكتب المخزونة عنده ، فاجاب الى ذلك بعد امتناع . وبعث المأمون جماعة من قبله منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، لتسلم هذه الكتب ، ثم عمل على ترجمتها ونشرها ، وحض الناس على قراءتها وتعليمها ، وقد اعد يوم الثلاثاء للمناقشات العلمية ، والمناظرات الادبية في قصره ، فكان العلماء والفلاسفة والادباء يؤمون القصر في الصباح ، ويقدم لهم الطعام ، ثم يجلسون للمناقشة والمناظرة في حضرة الخليفة الذي كثيراً ما كان يشاركهم في الحديث . ويرأس الجلسة بنفسه ، وتستمر الابحاث العلمية طول النهار وهم بضيافة الخليفة ، ورعايته . وكانت غاية المأمون من مجالس المناظرة هذه إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه ، فترك للعلماء الخوض في جميع الابحاث . وقد روي عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال : « امرني المأمون عند دخوله بغداد ان اجمع له وجوه الفقهاء ، واهل العلم من اهل بغداد ، فاخترت له من اعلامهم اربعين رجلا ، واحضرتهم ، وجلس المأمون ، فسأل عن مسائل ، أفاض في فنون الحديث والعلم . فلما انقضى ذلك المجلس الذى جعلناه للنظر في امر الدين قال المأمون : يا ابا محمد . . إني لا ارجو ان يكون مجلسنا هذا بتوفيق الله وتأييده على اتمامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو ارضى واصلح للدين . إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرها » .

وقد اشتهر كثير من المترجمين في عهد المأمون أهمهم يوحنا بن البطريق ، وحنين بن اسحق ، وثابت بن قرة ، وموسى بن شاكر وبنوه محمد واحمد والحسن من منجمي المأمون وغيرهم كثيرون.

ومن التحقيقات العلمية التي جرت في زمن المأمون قياس طول محيط الارض ، فقد اوفد المأمون بعثة علمية الى سهل سنجار ، وقد اختاره لاستواء ارضه ، فذهبت الى ذلك المكان ، وقاست ارتفاع نجم القطب الشمالي من مكان في هذا السهل بواسطة آلات كانت معهم ، وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض ، من غير انحراف الى اليمين واليسار حسب الامكان ، فلما فرغ الحبل نصبوا في الارض وتداً آخر ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى الجهة الشمالية ايضاً كفعلهم الاول ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا الى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة ، فقاسوا المسافه التي مشوها

فبلغت $66\frac{2}{3}$ ميلا ، فعلموا ان هذا هو طول درجة من سطح الارض . ثم عادوا الى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الاول ، وشدوا فيه حبلا وتوجهوا الى جهة الجنوب، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الاوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال . ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الاول درجة ، فصح حسابهم. وضربوا ٣٦٠ درجة في $66\frac{2}{3}$ فكانت الجملة ٢٤٠٠٠ ميل وهو طول محيط الارض ، وهذا ما يعادل تقريباً تحقيقات الفلكيين في الوقت الحاضر . ولكي يتأكد المأمون من صحة هذا العمل أرسل بعثة ثانية الى سهل الكوفة قامت بنفس العمل وحصلت على نفس النتيجة .

وقد عني المأمون بعلم الفلك كثيراً ، وتمت في زمنه أرصاد فلكية عظيمة : كالاعتدال الشمسي ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبة ، وقد اخترع أحد علماء ذلك العصر المنظار المعروف اليوم – بالتلسكوب – ووصفه بأنه أنبوب في طرفيه عدسات لانعكاس الضوء. وبنى المأمون مرصداً فلكياً في سهل تدمر ، وبنى مراصد اخرى في جهات متعددة .

وتمت أعمال علمية كثيرة غير ما تقدم في زمن المأمون ، وصنفت كتب في الرياضيات والهندسة ، والفلسفة ، وعلم البصريات ، والميكانيك ، ولا سيما في الطب ، الذي بلغ الى درجة عالية في زمن المأمون . ونبغ كثير من الاطباء اشهرهم : جبرائيل بن بختيشوع النسطوري .

وكانت العناية بالثقافة عامة عند أهل ذلك العصر ، فكثر العلماء والفقهاء ، والأدباء من جميع الاجناس والطبقات . حتى أصبح عصر المأمون عصر علم ونور ، وفاق العرب في هذا العصر جميع الامم والشعوب حتى قال احد المؤرخين : « بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مطالعة رسائله أترابه في مدرسة القصر ، كان المأمون يعالج الفلسفة ، ومناقشة قضاياها في بغداد » . وكان من نتيجة هذا التوسع العلمي ان انتشر مذهب المعتزلة في الدولة العباسية ، هذا المذهب الذي يمجد العقل، ويجعله حكما في كل شيء . وسنتكلم عنه .

المعتزلة :

سمي المعتزلة بذلك نسبة الى الاعتزال ، وهو الاجتناب ؛ وذلك لان واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد خالفا استاذهما الحسن البصري في بعض المسائل الدينية ، فاعتزل واصل مجلس استاذه الحسن ، وجلس عند سارية من سواري مسجد البصرة ، وانضم اليه صديقه عمرو بن عبيد ، فقال الناس يومئذ فيهما : إنهما قد اعتزلا قول الامة ، وسمي اتباعهما بالمعتزلة . ولم يكن كثير من المعتزلة راضين عن هذه التسمية ، وانما كانوا يسمون انفسهم بأهل العدل والتوحيد .

أول ما ظهرت هذه الفرقة في اواخر العصر الاموي ، وقد اضطهد الخلفاء الامويون لا سيما هشام بن عبد الملك رؤساء هذه الفرقة ، ونكل ببعضهم ، الا انهم ثابروا على نشر أفكارهم في جميع الامصار ، لا سيما بعد قيام الدولة العباسيه .

وانقسم المعتزلة الى فرق عديدة لها مبادئها الخاصة بها ، الا أنهم اشتركوا جميعاً في الامور الخمسة الآتية : (١) القول بالتوحيد ، وهو ان الله واحد لا شريك له . (٢) القول بالعدل ، وهو ان الله لا يحب الشر والفساد . (٣) القول بالوعد والوعيد ، وهو ان الله صادق في وعده ووعيده ، لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة . (٤) القول بالمنزلة بين المنزلتين ، وهو ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فاسق . (٥) القول بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو تكليف المؤمنين بالجهاد واقامة حكم الله على كل من خالف أمره او نهيه سواء أكان كافراً أم فاسقاً . وكان اختلاف المعتزلة مع الفقهاء من اهل السنة في مسألتين : الاولى مسألة القضاء والقدر ، والثانية مسألة صفات الله .

أما مسألة القضاء والقدر : فكان المعتزلة يقولون ان الانسان يخلق افعاله ، ومن اجل ذلك يستحق عليها الثواب والعقاب ، وأما عامة المسلمين فيقولون ان افعال العباد مخلوقة لله ، ليس للعباد منها إلا جريانها على ايديهم .

وأما مسألة صفات الله : فقد نزه المعتزلة قدم الصفات : من قدرة ، وإرادة ، وسمع ، وبصر ، وكلام ... وقالوا إن الله قديم فقط . اما العامة فجعلوا هذه الصفات قديمة ايضاً وانها قائمة بذاته تعالى . ونشأ عن ذلك : القول : بخلق القرآن . لان القرآن كلام الله ، فهل هو قديم ام مخلوق ؟

اخذ المأمون برأي المعتزلة ، وقال بخلق القرآن ، واراد ان يجبر الفقهاء وعلماء الامة الاسلامية على القول بذلك ، فامتنع كثيرون منهم ، واصابهم من الخليفة وعماله الشر الكثير . وكان ممن اصابته المحنة الامام احمد بن حنبل الذي ضُرب وعذب وسجن ، ومع ذلك لم يقل بخلق القرآن . وكادت تقع فتنة داخلية ، لكن الازمة انفرجت بموت الخليفة المأمون الذي اوصى اخاه المعتصم الذي خلفه من بعده ان يجبر الناس على القول بخلق القرآن ، ولكن المعتصم لم يكن له في ميدان العلم كبير جولة ، وبقيت هذه المحنة قائمة في زمنه وزمن ابنه الواثق واهملت في زمن المتوكل .

ومن رجال المعتزلة المشهورين : العلاف ، والنظّام ، والجاحظ والزمخشري ، وغيرهم ...

أخلاق المأمون

عرف المأمون بالعفو وكرهه للانتقام ، فعفا عن اشد خصومه وهو الفضل بن الربيع ، وعن ابراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة لنفسه ، ولما قدر عليه المأمون قال له : « يا ابراهيم ! لقد حبب

الى العفو ، حتى خفت ألا أؤجر عليه . اما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتقربوا الينا بالجنايات ! لا تثريب عليك ، يعفو الله عنك ». وكان المأمون اكثر خلفاء العباسيين جوداً وابسطهم يداً ، واسخاهم نفساً ، وكتب التاريخ والادب مفعمة بما كان له من حوادث غريبة في السخاء والجود؛ نذكر منها واحدة فقط : لما فتح المأمون حصن قرة من بلاد الروم وغنم ما فيه ، اشترى السبي كله بستة وخمسين الف دينار ، ثم خلا سبيلهم واعطاهم ديناراً ديناراً .

وكان المأمون عالماً أديباً تلمذ في صباه على شيوخ الادب واللغة والفقه والدين . انشده احد الشعراء قصيدة مئة بيت ، فكان الشاعر يبتدئ بصدر البيت ، فيبادر المأمون الى إتمامه ، دون ان يكون قد سمع بالقصيدة من قبل .

وكان المأمون سياسياً فذاً موفقاً في اختيار بطانته ومشيريه ، وظهر نجاحه السياسي بصورة خاصة بعد عودته الى بغداد ، فقد كان عارفاً بما يجري في دولته ، وما تنطوي عليه سيرة كل فقيه او قائد او رجل ذو مكانة وخطر في الدولة . وكان المأمون يميل الى الاقناع في الجدل والمناقشة، واحتمال آراء المتناظرين حتى اذا لم تتفق مع آرائه وميوله ، وكان يعمل على قطع دابر الرياء والنفاق في رجال قصره وقواد جنده .

وفاة المأمون

توفي المأمون عندما كان غازياً في بلاد الروم، وقد حارب الروم في عدة معارك انتصر فيها عليهم، وفتح كثير من حصونهم ، اشهرها حصن ماجدة وحصن قرة . وكان مركز حركاته العسكرية في ثغر طرسوس ، الذي توفي فيه . وكان يخرج منه للغزو والفتح ثم يعود اليه ، وذهب الى دمشق ومصر وقمع الثورة التي كانت قائمة فيها ثم عاد الى محاربة الروم ، وعندما كان بما يلي طرطوس ، أصابته حمى شديدة قضت عليه ، فأوصى الى اخيه المعتصم بالخلافة ، وطلب منه ان يتبع خطته العلمية والقول بخلق القرآن ، وحثه على احكام العدل بالناس . وكانت وفاته في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ . وحمل الى طرطوس ودفن بجامعها. وكان يعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن هشام وابنه عبدالرحمن الثاني . وفي فرنسا شارلمان ثم لويس الاول الملقب باللين . وفي القسطنطينية ليون الارمني ثم ميخائيل الثاني الملقب بالتمتام ، ثم ابنه توفيل . وفي زمنه فتح زيادة الله من بني الأغلب الذين كانوا يحكمون في افريقية جزيرة صقلية .

المعتصم

٢١٨ - ٢٢٧ هـ أو ٨٣٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المعتصم بالله سنة ١٧٧ هـ ، أبوه هارون الرشيد ، وأمه أم ولد تركية ؛

تدعى ماردة . وكان في عهد اخيه المأمون والياً على بلاد الشام ومصر ، وعهد المأمون له بولاية العهد، وآثره على ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب ، ولعله فضله عليه لانه خشي ان يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته . فرأى من شدة المعتصم ، وقوة شكيمته ، ومتانة خلقه ، ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة . إلا أن الجند رفض مبايعة المعتصم في بادىء الامر ، وأراد مبايعة العباس الذي أسرع الى مبايعة عمه بالخلافة ، محترماً بذلك وصية ابيه ، فحذا الجيش حذوه ، وبايعوا المعتصم فذهب الى بغداد ، وتمت له البيعة .

اعمال المعتصم الداخلية

تنظيم الجيش :

استعان المعتصم بجند الاتراك ، وقربهم اليه بسبب ان أمه تركية ، ولانه اراد التخلص من جند العرب والفرس ، لعظم نفوذهم في الدولة ، ورأى ما للاتراك من شـدة وبأس . فاستكثر منهم ، وكوّن منهم جيشاً استغنى به عن جيوش العرب ، وأسقط اسماء العرب من ديوان الجنـد ، واستبدلهم بجنود الاجانب الذين أتى بهم من جهات مختلفة ، فبعضهم من فرغانه ، وآخرون على أشروسنة من بلاد ما وراء النهر ، وهؤلاء جند الاتراك ؛ وقسم منهم من مصر واليمن وهؤلاء جند المغاربة . وكانوا اجميعاً عجماً جفاة قساة ، ألبسهم الخليفة افخر اللباس من ديباج ، ومناطق مذهبة ، حتى اختلف زيهم عن سائر جنود الدولة ، وأجزل لهم العطاء والهدايا دون غيرهم . وكان يقود هؤلاء الجند الشاهون منهم تحت امرة الخليفة . واشتهر من قوادهم : الافشين ، وايتاخ ، واشناس ، ووصف ، وبغا الكبير . ولم يخلصوا للدولة ولا للخليفة ، بل كانوا يطمعون في انتزاع السلطة منه وتأسيس دولة مستقلة لهم . فقد حاول الافشين وهو تركي من اشروسنه أن يقيم دوله مستقلة في بلاده . فكان يرسل الاموال والهدايا الى أشروسنة ، وشجع مازيار والي طبرستان بالخروج على الخليفة ، فحاربه عبد الله بن طاهر امير خراسان ، وأسره وأرسله الى المعتصم بسامراء ، واعترف مازيار بما كان بينه وبين الافشين من مراسلات ، فقبض المعتصم على الافشين الذي حاول الهرب ، وحاكمه ، فثبت بعد التحقيق بانه لا يزال على كفره ، وانه كان يكيد المكايد للوصول الى ملك بلاده ، وان اهل اشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة . فقتله المعتصم وصلبه ثم احرقه .

شعر الخليفة بخطئه بتقريب الاتراك اليه ، إلا أنهم غلبوا عليه ، ولم يستطع التخلص منهم . وهو الذي يحمل تبعة ما حل بالخلفاء العباسيين من بعده ، من اضطراب في حكمهم ، وضعف بسلطتهم ،

واستبداد الاتراك بدولتهم ، وخلع وتولية من أرادوا من الخلفاء ، واستئثارهم بالعامة . فجر المعتصم على اسرته وعلى الامة العربية كافة، أسوأ العواقب وأوخمها .

بناء مدينة سامرا (سر من رأى) :

كان سبب بناء سامرا ، وخروج المعتصم من بغداد : « ان المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة العساكر التي تجمعت مع المعتصم ، وذلك ان جميع عساكر المأمون وعسكر ابنه العباس ، انضافت الى المعتصم ، وكثر غلمانه الاتراك ، وكان لا يزال يوجد الواحد بعد الواحد قتيلا في الارباض والدروب ، وذلك انهم كانوا يركبون الدواب ويتراكضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويدوسون الصبيان ، فيأخذهم الشبان ، فينكسونهم عن دوابهم ، ويجرحون بعضهم ويقتلونهم سراً ، فتأذى الاتراك بالعوام ، والعوام بالاتراك ، حتى شكت الاتراك الى المعتصم . وحكي ان المعتصم ركب يوم عيد الى المصلى،فقام اليه شيخ فقال : يأباإسحق! فابتدره الجند ليضربوه ، فأشار اليهم المعتصم بالكف عنه ، وقال للشيخ ما الذي تريد ؟ فقال له الشيخ: لا جزاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وأتيت بهؤلاء العلوج فأسكنتهم بين اظهرنا ، فأيتمت صبياننا ، وأرملت بهم نساءنا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك جميعه . وحكي ايضاً انه قام الى المعتصم رجل فقال : يا ابا إسحق ! اخرج عن مدينتنا ، وإلا حاربناك بما لا طاقة لنا به ، فتقدم بحمل هذا الرجل الى داره ، فلما صار بين يديه قال : ويحك بمن تحاربني ، ومن هذا الذي لا طاقة لي به ؟ قال نحاربك بايدينا اذا هدأت الاصوات — يعني الدعاء — فقال المعتصم لا طاقة لي بهذا وخرج فبنى سر من رأى » .

وقال المعتصم لأحد كتابه : إني اتخوف ان يصيح الجند صيحة واحدة فيقتلوا غلماني ، فاذا ابتعت لي موضع سامرا ، كنت فوقهم ، فان رابني رائب اتيتهم في البر والنهر حتى آتي عليهم ، فقصد كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بـ (١٥٠) كيلو متراً ، فابتاع ديراً كان هناك بخمس مائة الف درهم ، وابتاع بستاناً كان في جانبه بخمسة آلاف درهم . وبنى المعتصم سنة ٢٢١ هـ قصراً له، وشيد الثكنات العسكرية لعسكره ، وبنى مسجداً جامعاً في طرف السوق ، واقطع بعض الاراضي الى رؤساء الاتراك ، فبنوا فيها دورهم ، وما زال البنيان يتسع فيها حتى صارت مدينة من أعظم الحواضر الاسلامية ، وبقيت عاصمة الخلافة نحو ستين سنة في ايام سبعة خلفاء آخرهم المعتمد ، واتسعت بصوره خاصة في زمن المتوكل حتى صارت تضاهي بغداد في العمران. وآثارها اليوم احسن دليل على عظمتها الماضية . وتقع آثارها في بقعة طولها نحو عشرة اميال ، وعرضها نحو خمسة اميال على شاطئ الدجلة الايسر ، وفيها جامع المتوكل ، وشيدت في حائطه الشمالي المأذنة الكبرى الحلزونية الشكل

المعروفة بالملوية ، ارتفاعها نحو (٥٥) متراً وحولها من الخارج درج منحدر لولبي . وتوجد أيضاً عدة قصور منها : قصر الجوسق الذي ابتناه المعتصم ، والقصر الهاروني الذي ابتناه الواثق ، وفيها بركة كبيرة بناها المتوكل ووصفها البحتري بقوله :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها … والآنسات اذا لاحت مغانيها
كأن جن سليمان الذين ولّوا … ابداعها فأدقوا في مبانيها
تنصب فيها وفود الماء معجلة … كالخيل خارجة من حبل مجريها
كأنما الفضة البيضاء سائلة … من السبائك تجري من مجاريها
اذا النجوم تراءت في جوانبها … ليلا حسبت سماء ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايتها … لبعد ما بين قاصيها ودانيها
محفوفة برياض لا تزال ترى … ريش الطواويس يحكيه ويحكيها

ويخترق الاثار شارع مستقيم طويل كان يمر في المدينة ، وتتشعب منه شوارع اخرى ، وفي نهايته شمالا جامع ابي دلف وله ملوية صغيرة . وكان خراب هذه المدينة حوالي القرن العاشر ميلادي.

حالة العلويين :

توفي محمد الجواد بن علي الرضا في بغداد سنة ٢١٩ هـ وكان المأمون قد زوجه ابنته ام الفضل التي اتهمت فيما بعد بدس السم له ، وقد يكون ذلك بايعاز من الخليفة المعتصم الذي كان يخشى محمد الجواد ان يطالب بالخلافة ، وذلك لان زوجته بنت المأمون ، وهو ابن علي الرضا الذي كان المأمون بايعه بولاية العهد ، وقد اتى المعتصم بابنة اخيه الى قصره بعد وفاة زوجها .

وخرج محمد بن القاسم (١) من اولاد الامام علي في الكوفة، ثم ارتحل منها الى خراسان خوفاً من بطش الخليفة به ، وانضم اليه كثير من اهل خراسان ، وحارب جيوش الخليفة العباسي وردها مراراً ، إلا أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان قبض عليه وأرسله الى المعتصم ، فحبسه في سامرا سنة ٢١٩ هـ وقد اختلف الناس في وفاته ، فمنهم من قال : إنه مات مسموماً ، ومنهم من قال : أن بعض شيعته اخرجوه من مكانه وذهبوا به الى مكان ما، ومنهم من زعم انه حي لم يمت ، وانه المهدي المنتظر ، واكثر هؤلاء بناحية الكوفة ، وبلاد طبرستان ، وبلاد الديلم .

إخضاع الزط (النور) :

قمعت ثورة الزط في زمن المعتصم ، وكانوا — كما قلنا سابقاً — قد استولوا على طريق البصرة

(١) محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي .

وفرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ومنعوا وصول الاقوات والمؤونة الى بغداد ، فأرسل المعتصم عُجيف بن عنبسة القائد العربي اليهم ، فأحاط بهم من كل جانب ، وسد الانهار عليهم ، وقاتلهم تسعة اشهر ، حتى أرغمهم على طلب الامان . وكان عددهم سبعة عشر الفاً بين رجال ونساء واطفال، وحملهم في السفن ، ومر بهم على بغـــداد سنة ٢٢٠ هـ فخرج الخليفة ورجال دولته واهل المدينة ليشاهدوا هؤلاء الزط بملابسهم المزركشة ، وهيأتهم الغريبة ، وبعد ان عرضوا على المعتصم أمر بنفيهم الى آسيا الصغرى ، فأسرهم البيزنطيون وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وتفرق الباقون في البلاد ، ويعرفون في اوروبا باسم Gypsies .

ثورة اهل الشام :

كان لاعتماد المعتصم على الاتراك اثر سيئ في نفوس العرب ، فثاروا في بلاد الشام تحت زعامة أبي حرب المبرقع اليماني الذي اشعل نار الفتنة في فلسطين بسبب دخول احد الجند الى داره ، وهو غائب عنه وضربه احد حريمه بسوط على ذراعها ، فلما عاد وعلم بالخبر قتل هذا الجندي ، ولبس برقعاً حتى لا يعرف ، وهرب الى بلاد الاردن ، وثار بها وانضم اليه بعض الحراثين من اهل تلك النواحي والقرى ، ثم التف حوله رؤساء اليمانية الناقمون على الخليفة ،فكثر اصحابه حتى بلغ عددهم زهاء مئة الف من الحراثين واصحاب الاراضي ، فأرسل اليه المعتصم رجاء بن ايوب الحضاري في زهاء الف رجل من الجند ، ولما رأى كثرة ما معه تريث في منازلته ، وعسكر بحذائه ، وطاوله حتى جاء موسم حراثة واصلاح الاراضي ، ولم يبق معه الا نفر قليل فحاربه رجاء ، وقمع ثورته وجاء به اسيراً الى سامراء .

اعمال المعتصم الخارجية

فتح عمورية

كان البيزنطيون يغيرون على حدود البلاد الاسلامية من وقت الى آخر كلما وجدوا فرصة مناسبة او آنسوا ضعفاً من الخلفاء العباسيين . فكان لكلا الدولتين عيون ومراقبون ينقلون الاخبار ويبعثون بها الى دولتهم . ولما كان المعتصم يحارب بابك الخرمي كتب بابك الى توفيل ملك الروم يستعين به قائلا : « ان ملك العرب وجه معظم عساكره الي ، ولم يبق على بابه احد فان اردت الخروج اليه ، فليس في وجهك احد يمنعك » . فأراد ملك الروم ان ينتهز هـذه الفرصة ليتخلص من دفع الجزية للعرب وينتقم منهم ، فهاجم ثغر زبطرة مسقط رأس المعتصم بمئة الف مقاتل ،واعمل السيف في اهلها فقتل من فيها من الرجال ، ومثل بهم اشنع تمثيل ،وسبى النساء والأطفال ، وأحرق المدينة ،ثم توجه

الى ملطية وغيرها من حصون المسلمين وسبى أكثر من ألف امرأة .

بلغت تلك الاخبار المعتصم وهو في مدينة سامرا فاشتد غضبه واعلن النفير في جنده ، وسار نحو بلاد الروم ، وسأل أي بلاد الروم امنع واحصن ؟ فقيل له عمورية [1] وهي مسقط رأس توفيل امبراطور البيزنطيين ، فتوجه نحوها بعد أن عبأ جيشه المجهز احسن جهاز تعبئة حسنة ، واجتمع جميع جنده على مدينة عمورية فحاصرها خمسين يوماً ، وضربها بالمنجنيق وفتحها عنوة سنة ٢٢٣ ﻫ وغنم ما فيها ودمرها وقتل كثيراً من اهلها انتقاماً لقتلى المسلمين ، وأرسل من بقي منهم اسرى الى بغداد . وبينا كان المعتصم يهيء نفسه للزحف نحو القسطنطينية ليفتحها واذا بمؤامرة تحاك له في معسكره ، اكتشفها قبل ان يتفاقم امرها ؛ فقد اتفق العباس بن المأمون مع بعض قواد العرب الساخطين على الاتراك وعلى الخليفة الذي أساء معاملتهم بتقريبه للجند الغرباء . وحاولوا اغتياله وتولية ابن اخيه بدلا عنه . ولكن لحسن حظ المعتصم اكتشف المؤامرة فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات وعقد معاهدة صلح مع امبراطور الروم ، وعاد الى سامرا ، ودخلها باحتفال عظيم وصفه ابو تمام بقصيدته المشهورة التي مطلعها :

السيف اصدق انباء من الكتب   في حده الحدُّ بين الجد واللعب

صفات المعتصم ووفاته

عرف المعتصم بالشجاعة والاقدام ، وشدة البأس ، حتى انه كان يحمل الف رطل ويمشي بها خطوات . كما انه عرف بالنجدة وعمل الخير ، فمرة رأى شيخاً ضعيفاً في يوم مطير قد غاص حماره في الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك ، فنزل عن جواده واخرج الحمار من الطين وحمل الشوك بيديه ووضعه على الحمار ، فتلوث رداؤه وبداه ، وامر بعض خاصته ان يعطي هذا الشيخ اربعة آلاف درهم ؛ واستوى على دابته ولحق به حرسه بخيولهم . وكان المعتصم محباً للعمران وميالا لتحسين الزراعة ، واهتم كثيراً باستثمار موارد البلاد الزراعية ، فكان يقول لوزيره : « اذا وجدت موضعاً ، متى انفقت فيه عشرة دراهم جاءني بعد سنة احد عشر درهماً فلا تؤامرني فيه » .

اصيب المعتصم في آخر ايامه بمرض شديد قضى عليه في سامرا في شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ﻫ وأوصى بولاية العهد لابنه هارون من بعده . وكانت مدة خلافته ثماني سنين وثمانية اشهر . وكان يعاصره في الاندلس عبد الرحمن الثاني وفي فرنسا لويس الاول ثم شارل الاصلع . وفي بلاد الروم توفيل بن ميخائيل .

---

(١) عمورية تسمى اليوم سدري حصار بتركيا .

الواثق

٢٢٧ - ٢٣٢ هـ او ٨٤٢ - ٨٤٧ م

ولد ابو جعفر هارون الملقب بالواثق بالله سنة ١٨٦ هـ ابوه المعتصم وامه ام ولد رومية يقال لها قراطيس . تولى الخلافة مباشرة بعد وفاة ابيه ، ونهج نهجه في تقريب الاتراك ، واعتماده عليهم في الخدمة العسكرية حتى كثر عددهم وشغلوا المناصب العالية في الدولة لا سيما اشناس التركي الذي جعله سلطاناً وتوجه بتاج مرصع بالجواهر وقدمه على سائر قواد جنده .

سياسة الواثق الداخلية

ثار عرب الحجاز من بني سليم ، وهلال ، وبني مرة ، وفزارة وغيرهم من القبائل على الواثق ، وعاثوا في بلاد الحجاز فساداً . ونهبوا الاسواق ، وامتد اذاهم الى كثير من الناس ، وقطعوا الطرق ، واوقعوا بجند والي المدينة المنورة فأرسل اليهم الواثق سنة ٢٣٠ هـ جيشاً بقيادة بغا الكبير احد قواد الاتراك ، فذهب مع جيش الى الحجاز ، واخضع تلك القبائل الثائرة وقتل كثيراً من العصاة ، ثم وجه امر الواثق سنة ٢٣٢ هـ لمحاربة بني نمير في اليمامة فأخضعهم ، الا انه وجد صعوبة كبيرة في اخضاع بني تميم الذين ثاروا لدخول الاتراك الاعاجم لبلادهم ، ورأوا ذلك اهانة عظيمة لهم وللجزيرة العربية التي عصت على كل فاتح. وكانت خطيئة كبيرة من الواثق ان يستخدم علوج الترك في إخضاع قبائل العرب ، وأدت تلك الخطيئة الى ضياع سطوة الخلافة فيما بعد لاستهتار الاتراك بالخلفاء وعدم احترامهم لهم .

تشدد الواثق أيضاً في فرض آراء المعتزلة على الناس، مما اثار اهل بغداد عليه، وتآمروا على خلعه إلا ان المؤامرة كشفت قبل ان يستفحل امرها ،وقتل الواثق بيده احمد بن نصر لانه لم يقل بخلق القرآن ، وصلب رأسه في بغداد ليعتبر بذلك اهلها .

ونكب الواثق كتاب دولته تقليداً لما فعله الرشيد بالبرامكة ، واخذ منهم ما ينوف عن المليون ونصف دينار تأديباً لهم على ما يتقاضونه من الرشوة في معاملاتهم .

وكان المتغلب على الواثق في ادارة دولته قاضيه احمد بن ابي دؤاد المعتزلي ووزيره محمد بن عبد الملك الزيات ، فكان لا يصدر امراً الا عن رأيهما ، وقلدهما الامر وفوض اليهما الحكم .

سياسة الواثق الخارجية

جرى فداء في زمن الواثق بين العرب والروم سنة ٢٣١ هـ فقد أرسل ملك الروم رسلا يسألون

الواثق أن يفادي عن في يده من أسارى المسلمين ، فأجاب الواثق إلى ذلك ، وانتدب للفداء خاقان الخادم . وتقابل الفريقان على نهر اللامس ، فوقع الفداء كل نفس عن نفس صغيراً أم كبيراً ، وقد عقد المسلمون جسراً على النهر ، وعقد الروم جسراً آخر فكان المسلمون يرسلون الرومي على جسرهم ، ويرسل الروم المسلم على جسرهم ، وكان لا يفدى من المسلمين الا من قال بخلق القرآن ، وذلك بأمر من القاضي احمد بن أبي دؤاد .

صفات الواثق

كان الواثق واسع العلم والادب حتى سمي « المأمون الاصغر » وقد قرب اليه العلماء والفقهاء والشعراء ، واجزل لهم العطاء . وجعل لهم مجالس للمناظرة في قصره مقتفياً في ذلك اثر المأمون . وكان يميل الى الاطلاع على علوم وآراء من تقدمه من العلماء والفلاسفة والمتطببين . وكان يميل الى الموسيقى ويقال : انه وضع بعض الالحان الجديدة . وكان لا يرى في البلاد الاسلامية متسول لكثرة إحسانه وعطائه .

توفي الواثق بعد مرض شديد في سامرا في شهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ ولم يعهد بالخلافة لاحد من بعده . وعندما سئل ان يوصي لابنه بالخلافة لم يقبل وقال : « لا أتحمل امركم حياً وميتاً » . دامت خلافته خمس سنين وتسعة اشهر . وكان يعاصره في القسطنطينية ميخائيل الثالث الملقب بالسكير ، وكان طفلا ، لذلك قامت امه مقامه في ادارة المملكة . اما في بقية البلاد فكان يعاصره من كان يعاصر اباه .

بموت الواثق ينتهي الدور الاول من العصر العباسي وهو العصر الذهبي للخلفاء العباسيين ، لان الخلفاء كانوا بوجه عام القابضين على ناصية الحكم والسلطة . وستصبح الدولة من بعدهم نهباً للأقوى من القواد والسلاطين الأعاجم .



الفصل الثاني

٢ – دور النفوذ التركي

٢٣٢ – ٣٣٤ ﻫ او ٨٤٧–٩٤٥ م

حكم في هذا الدور ثلاث عشرة خليفة وهم: المتوكل، والمنتصر، والمستعين، والمعتز، والمهدي، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفي، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي، وهذه الاسماء هي القاب الخلفاء يتلقبون بها عند تولي منصب الخلافة. وكلها ترجع الى – الله – اي: المتوكل على الله، والمنتصر بالله... وأول من تسمى بذلك من الخلفاء هو المعتصم بالله ثم اقتدى به بقية الخلفاء.

صفات هذا الدور العامة

ضعف مركز الخلفاء في هذا الدور وأصبحت سلطتهم اسمية فقط، وكان الحكم الحقيقي بيد قواد الترك (١)، الذين غلبوا على أمور الدولة، وصاروا يولّون الخلفاء ويعزلونهم او يقتلونهم كما يشاؤون. وكثيراً ما كانوا يحجرون على بعضهم قبل تولّيهم الخلافة، ويحبسوهم في القصور ليزيدوهم ضعفاً، وكان الخلفاء من جهة اخرى يميلون الى حبس أولادهم واقاربهم خوفاً من تواطئهم مع بعض الأتراك على خلعهم أو قتلهم. فكان المحجور منهم يعاشر الخدم والخصيان، حتى ألفوا اخلاقهم، وتحققوا بالاختبار ان حياتهم تتوقف بالاكثر على امانة اولئك الخدم لما أنسوه من غيرتهم عليهم، وخصوصاً الخصيان، اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التفاني في خدمة اسيادهم لعدم وجود أولاد لهم.

---

(١) الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل وبطون وأفخاذ تعيش عيشة قبلية اتخذت موطنها في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبريا. وقد استولى المسلمون على بلادهم في زمن الامويين ونشروا الاسلام فيها. وقد نصر الأتراك السنة في جميع ادوار حياتهم كما كان الفرس ينصرون الشيعة على الأغلب. وكان الأتراك قليلي العناية بالعلوم والفلسفة ويكرهون الجدل والمناقشة وانما اشتهروا بالشجاعة وقوة البدن والصبر على الاسفار لذلك اتخذهم الخلفاء العباسيون جنداً محارباً وخدماً في قصورهم وقد ازداد عددهم عندما علا شأنهم في الدولة العباسية فاخذوا يتقاطرون بالمئات والألوف من بلاد ما وراء النهر يطلبون الارتزاق بالجندية حتى أصبح الجيش والنفوذ بايديهم

فأصبح ولاة العهد اذا افضت الخلافة إليهم بالغوا في تقريب الخدم بالعطايا والاكرام التماساً لحمايتهم إذا اراد الاتراك الفتك بهم ، فعمدوا إلى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم ويستشيرونهم في امورهم . فازداد الخدم نفوذاً وسطوة ، حتى أصبح الاتراك يخافونهم . وقد ارتقى كثيرون منهم من الخدمة في المنازل الى قيادة الجند أو الامارة على الاقاليم ، مما دعى بعض المؤرخين ان يسمي هذا الدور « بدور نفوذ الترك والخدم » . وقد جعلهم الخلفاء طبقات وفرقاً تعرف باسماء خاصة كفرق الغلمان الاصاغر ، والغلمان الحجرية ، والرجال المصافية ، والركابية . . وكانوا من اجناس مختلفة : فيهم الرومي ، والتركي والحبشي ، والارمني والسندي ، والبربري والصقلبي . وكان الخلفاء يدفعون اليهم أجورهم ، وينفقون عليهم من اموالهم الخاصة لانهم جندهم وحرسهم .

وفي هذا الدور قوي نفوذ النساء لا سيما في زمن المقتدر ، وقد اشتهر منهن أم المقتدر ، وأم موسى الهاشمية القهرمانة ، وكن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب ويسيرن الأمور كما يرون ويريد هؤلاء . وهذا ما ادى الى تقلص نفوذ الخلفاء عن معظم أراضي الدولة الاسلامية وقيام الامراء في المقاطعات وتشكيلهم دويلات مستقلة ، وتلقبهم بالملوك والسلاطين ، وتنازعهم على منصب امير الامراء الذي احدثه الخليفة الراضي ، حتى اصبحوا اشبه بأصحاب الاقطاع الذين ظهروا في اوربا في القرون الوسطى منهم بالعمال الذين يأتمرون بأوامر الخليفة . وفي هذا الدور تدهورت سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بغير الاسم .

وسأتكلم باختصار عن اهم الحوادث التي جرت في عهد كل خليفة من خلفاء هذا الدور .

المتوكل

٢٣٢ — ٢٤٧ ﻫ او ٨٤٧ — ٨٦١ م

ولد المتوكل على الله سنة ٢٠٦ بفم الصلح ، واسمه جعفر ، ابوه المعتصم بن الرشيد ، وأمه أم ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولم يكن بالمرضي عنه في حياة أخيه الواثق . فكان شديد المراقبة له ، كثير التقتير عليه ، حتى هان على رجال الدولة أمثال الوزير محمد بن عبد الملك الزيات مما سبب انتقام المتوكل ومصادرة جميع أمواله بعد توليته الخلافة .

لم يعهد الواثق بالخلافة لأحد من بعده ، ولما توفي اجتمع كبراء الدولة ، وتناظروا فيمن يولونه الخلافة ، فاشار محمد بن عبد الملك الزيات : بمحمد بن الواثق وكاد الامر يتم لولم يكن الواثق صغير السن فعندما جاؤا به والبسوه دراعة سوداء وقلنسوة رصافية قال لهم وصيف القائد التركي : « اما تتقون الله تولون مثل هذا الخلافة ، وهو لا تجوز معه الصلاة » واتفق رأيهم على مبايعة جعفر بن المعتصم ولقب بالمتوكل على الله وتمت له البيعة .

سياسة المتوكل الداخلية

انتقم المتوكل ممن اساؤا معاملته قبل توليه الخلافة، فسجنهم وصادر أموالهم، كما صادر أموال كثيرين من عماله وكبار موظفيه. واساء معاملة العلويين، وكان شديد الكره لهم، حتى انه أمر في سنة ٢٣٧ ﻫ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وهدم ما حوله من المنازل والدور، وامر ان يحرث ويبذر ويسقى موضع القبر. ومنع الناس من زيارة ذلك المكان، وهدد من يخالف ذلك بالسجن.

شعر المتوكل بازدياد نفوذ الاتراك في الدولة واستبدادهم باموال الخلافة، وادارتها وجيشها فأحب ان يضعف شوكتهم ويقلل من نفوذهم، فاحتال على ايتاخ الذي كان قائداً أعلى على جيش الاتراك والمغاربة والموالي، وبيده أمر البريد والحجابة، ودار الخلافة، فسجنه في بغداد مع ولديه وبعض أعوانه وأساء معاملته حتى توفي سنة ٢٣٥ ﻫ.

اراد المتوكل ان يتخلص من نفوذ الاتراك، فنقل عاصمته من سامرا إلى دمشق سنة ٢٤٣ ﻫ ليستعين بالعرب عليهم، الا أن الاتراك شغبوا عليه واضطروه الى الرجوع بعد ان أقام بدمشق اياماً ، فأظهر انه استوبأ البلد لأن الهواء بارد ندي، والماء ثقيل. والريح فيها تهب مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل، وغلت فيها الاسعار، وحال الثلج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً الى سامراء. ولو نجح المتوكل بفكرته لانقذ نفسه ومن أتى بعده من الخلفاء من استبداد الاتراك وظلمهم، ولخلّص الخلافة من اولئك العلوج الذين اساؤا للدولة وسعوا لخرابها.

وفي سنة ٢٤٥ ﻫ امر المتوكل ببناء مدينته المتوكلية بقرب سامرا وجر إليها الماء، وأنفق مبالغ كبيرة من أجلها، وما لبثت ان خربت بعد مقتلة. وفي آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليعفورية بصنعاء اليمن (١)

سياسة المتوكل الخارجية

كانت الحروب في زمن المتوكل قائمة بين المسلمين والبيزنطيين براً وبحراً، وفي سنة ٢٣٨ ﻫ انتهز الروم غياب حامية دمياط — وقد استدعاهم امير مصر الى الفسطاط ليتجمل بهم — فاغاروا على البلد، فنهبوا الأموال، وأحرقوا الدور والمسجد، وعاثوا في الأرض فساداً وعادوا سالمين.

---

(١) الدولة اليعفورية (٢٤٧—٣٨٧ ﻫ) مؤسس هذه الدولة يعفر بن عبد الرحيم الحوالي، استقل عن الدولة الزيادية في زبيد باليمن وظل يدفع لها خراجاً في كل سنة. واستمر ملك صنعاء في أعقابه حتى سنة ٣٨٧ وكان آخر من حكم من سلالته عبد الله بن قحطان.

وكذلك غزا الروم كليكيا وأسروا منها عشرين الف وذبحوا منهم نحو اثنى عشر الف بعد أن مثلوا بهم وكان المسلمون يغزون الصائفة والشاتية ، ويتوغلون في ارض الروم، ويدافعون عن البلاد الاسلامية وقد حصل فدائيين في زمن المتوكل ، افتدى فيهما عدد كبير من المسلمين .

صفات المتوكل

لم يكن المتوكل يحب النظر والجدل ، بل كان ميالاً الى التقليد والرجوع إلى السنة ولذلك أمر الشيوخ والمحدثين باحياء السنة . ومنع المناقشات التي كانت تدور في زمن أسلافه حول تعاليم المعتزلة . وأقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة . وكان ينفر من استعمال اهل الذمة في الدواوين ويكره ان يظهروا في الطرق بمظهر المسلمين . لذلك أصدر أمره سنة ٢٣٥ هـ ان يلبسوا زياً خاصاً بهم وهو الطيالسة العسلية والزنانير ، وان تكون لهم سروج خاصة بهم لركوبهم ، ونهى ان يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين ، ولا يعلمهم مسلم . وكتب بذلك منشوراً ارسله الى عماله في جميع انحاء المملكة .

كان المتوكل كثير اللهو والمجون يحب الشراب والطرب . أدخل إلى مجلسه اللعب والمضاحك والهزل ، ولم يكن من سبقه من بني العباس يجيز ذلك . وقد سماه السيد امير علي « نيرون العرب » لظلمه وخلاعته .

مقتل المتوكل

عهد المتوكل لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ومحمد المعتز ، وابراهيم المؤيد ، لولاية العهد وقسم البلاد بينهم ، على ان يحكم كل منهم قسمه منفرداً عن أخيه دون ان يتدخل بعضهم ببعض وجعل لاكبرهم المنتصر التقدم بولاية العهد وعينه على بلاد افريقية والمغرب كله . ويأتي بعده المعتز وعينه على خراسان وما حولها . وجعل لابنه الثالث جند دمشق ، وحمص ، والاردن وفلسطين وكتب بينهم كتاباً نسخ منه أربع نسخ حفظ إحداها في خزانته ، واعطى كل من أولياء العهد نسخة احتفظ بها لنفسه . وفي آخر عهده اختصم المتوكل مع ابنه المنتصر وهمّ بعزله عن ولاية العهد بتحريض من وزيره عبيد الله بن خاقان . واتفق مع الفتح على الفتك بالمنتصر ووصيف وبغا وغيرهما من قواد الاتراك ، فلما علم هؤلاء بذلك تآمروا مع ابنه المنتصر على قتله ، ونفذوا المكيدة قبل ان يتمكن منهم الخليفة ، فقتلوه ونديمه وهو على طاولة الشراب ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ هـ. ودام حكمه نحو خمس عشرة سنة . وكان قتله فاتحة جرأتهم على الخلفاء العباسيين .

ساقوا الخلافة من بعده الى المنتصر (٢٤٧ – ٢٤٨ هـ) وأنشب الترك أظفارهم في جسم الدولة ، ولم يكن المنتصر حيلة للتخلص منهم ، لما دب في قلبه من الهيبة لهم ورعاية جانبهم ، ولم تطل مدته

اكثر من بضعة أشهر ، مات وضميره يوبخه لاشتراكه في قتل أبيه ، وكان كثيراً ما يقول إذاسئل عن حاله : « ذهبت — والله — مني الدنيا والآخرة » .

ولى الاتراك بعده المستعين (٢٤٨—٢٥٢) واستأثروا بالحكم وضايقوا الخليفة في سامرا حتى هرب الى بغداد ، فالتمسوا اليه الرجوع ، فابى فبايعوا المعتز بالخلافة وأصبح في بغداد خليفة، وفي سامرا آخر . وحاصر الاتراك بغداد وضيقوا عليها نحو سنة حتى اضطروالخليفةالمستعين بالتنازل عن الخلافة ، على شرط ان يضمنوا له العيش باطمئنان في المدينة المنورة . غير أن أحد رجال الخليفة المعتز اغتاله في واسط وهو في طريقه الى الحجاز . وقد مثل أحد الشعراء ضعف الخليفة المستعين بقوله :

خليفة في قفص	بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول الببغا

وفي زمنه ظهرت الدولة الزيدية بطبرستان . (١)

وفي زمن المعتز (٢٥٢—٢٥٥ هـ) استفحل أمر الاتراك استفحالاً عظيماً . ومما يحكى عن استبدادهم فيه أنه لما تولى الخلافة جلس قواده واحضروا المنجمين وقالوا لهم : « انظروا كم يعيش الخليفة وكم يبقى في الخلافة ؟ » وكان في المجلس بعض الظرفاء فقال : « انا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره

(١) الدولة الزيدية (٢٥٠—٣٥٥ هـ) وهي دولة علوية أسسها الحسن بن زيد في طبرستان. وقد استدعاه جماعة من الديلم عندما كان يقيم في الري ، وثاروا على عمال الدولة الطاهرية التي كانت تحكم في خراسان . فزحف الحسن ومن معه على مدينة آمل حاضرة طبرستان ، واستولى عليها وعلى جميع بلاد بلاد طبرستان ، وظل يحكم تلك المنطقة نحو عشرين سنة . خلفه بعد موته أخوه محمد بن زيد سنة ٢٧٠ هـ وفي أواخر عهده وقعت تلك المنطقة تحت حكم السامانيين سنة ٢٧٩ هـ وظلت اثنى وعشرين سنة تحكم تلك المنطقة حتى سنة ٣٠١ هـ إلى ان قام علوي آخر من غير سلالة الحسن بن زيد يدعى الحسن الاطروش واسترد طبرستان من آل سامان وظل يحكم ثلاث سنوات، وقتل في حروبه مع السامانيين سنة ٣٠٤ هـ فقام من بعده علوي آخر يدعى الحسن بن القاسم ونازع اولاد الاطروش الملك الى سنة ٣٥٥ عندما انتهى امر هذه الدولة . ولم يحكم هذه الدولة أسرة واحدة ، وانما كان يحكمها أئمة علويون من أسر مختلفة تجمعهم رابطة واحدة وهي : انتماؤهم الى الامام علي بن ابي طالب .

وخلافته ، فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش ويملك ؟ » قال : « مهما أراد الأتراك ! » فلم يبق في المجلس الا من ضحك . وعندما تأخر المعتز عن تقديم المال والعطاء للأتراك قتلوه شر قتلة . تجمعوا عند باب منزله ، وطلبوا اليه ان يخرج اليهم فاعتذر بسبب مرضه فدخل اليه القوم فجروا برجله الى باب الحجرة ، وضربوه بالدبابيس ، فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه ، فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ويضع الأخرى من حرارة الموضع ، وبعضهم يلطمه بيده . ثم بعثوا الى قاضي القضاة فحضر ، وأمر المعتز أن يشهد على كتاب خلعه ، فامضى وشهد عليه الحاضرون . ويقال أنه بعد الخلع دُفع الى من يعذبه ومنع عنه الطعام والشراب مدة ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه حتى مات .

وهكذا كانت خاتمة من يستعين بالأجنبي ليساعده في ادارة الدولة ، وينصره على اهلها . وتاريخ العباسيين اكبر عبرة وموعظة في إظهار خطر الأجانب على الدولة ، لان الخلفاء كما استعانوا على شعبهم بقوة خارجية ، كانت هذه القوة الخارجية تتغلب عليهم وتحكم فيهم وتسلبهم سلطانهم .

وقد عرضت الخلافة على **المهتدي** (٢٥٥—٢٥٦ هـ) فلم يقبلها ، حتى يرى المعتز ويسمع كلامه بانه خلع نفسه ، فجيء به — وكان لا يزال حياً — وعليه قميص مدنس ، وعلى رأسه منديل . فلما رآه المهتدي وثب اليه فعانقه ، وجلس معه على السرير ، وسأله عن أمره واراد أن يتوسط له مع الأتراك ويرجعه للخلافة . فقال المعتز : « لا حاجة لي فيها ولا يرضوني لها ! » فقبل المهتدي بالخلافة ، وحاول أن يصلح حالة الدولة ، ويرفع الظلم عن الخاصة والعامة ، وبنى قبة لها أربعة ابواب وسماها « قبة المظالم » وجلس فيها يسمع شكايات الناس ويعيد الحق لأهله ، ويأمر بالمعروف وينهي عن المنكر . وقد حرم الشراب ونهى عن القيان . وكان يحضر الجمعة إلى المسجد ويؤم الناس بنفسه . وفي زمنه انقلب الجند على رؤسائهم ، وطلبوا اليه أن ترد الأمور مباشرة اليه ، وأن تصير الاموال إليه ويوزعها عليهم كما يريد . وأن يكون أحد اخوته رئيس الجيش ، ولا يكون احد الموالي ، وان يحاسب الرؤساء على ما عندهم من الأموال . فوافقهم على ذلك . وقد حاول التخلص من زعماء الأتراك فاتفقوا عليه وقاتلوه ، واضطروه الى التنازل عن الخلافة ، وأودعوه السجن حيث توفي فيه بعد أمد قصير .

تولى الخلافة بعد ذلك **المعتمد** (٢٥٦—٢٧٩ هـ) دام حكمه ٢٣ سنة ، كان أخوه أبو أحمد الموفق الخليفة الحقيق ، وليس للمعتمد شيء من السلطان ، سوى الخطبة والسكة والاسم ، وماعدا ذلك فهو لأخيه . فكان الموفق قائد الجند ، ومدبر شؤون الدولة ، يولي ويعزل الوزراء والكتاب

والموظفين حسب ارادته . وقد أخضع كثير من الثورات والفتن التي قامت في زمن المعتمد وأهم هذه الثورات :

ثورة الزنج (٢٥٥ – ٢٧٠ ﻫ)

وهي من أعظم الحوادث وأغربها في ذلك الزمن ، قام بها جماعة كثيروا العدد من زنوج افريقية. جاء بهم سكان البصره من شرق افريقية ، وأستخدموهم في كسح الاراضي الواقعة في القسم الادنى من نهر الفرات ، وهي أراضي صعبة تخللها سباخ واقنية متعددة ، صعبة المسالك وعسيرة العمل .

وكان زعيم هذه الحركة يدعى « بالخبيث صاحب الزنج » ادعى انه علي بن محمد ، من نسل الامام علي بن ابي طالب ، وأنه من أصل عربي من عبد القيس بن ربيعة . دعى لنفسه في البحرين، وبين قبائل العرب في البادية ، حتى عظم أمره عند اهل البحرين وأحلوه من انفسهم محل النبي، وجبوا له الخراج ، فانتقل بعد ذلك إلى البصرة ، فقاومه عاملها وقمع حركته . فاستعان علي بن محمد بالعبيد ، ووعدهم باسترداد حريتهم من اسيادهم إن ساعدوه فانضم اليه عدد كبير منهم، وأعلن عصيانه على الدولة سنة ٢٥٥ ﻫ وصار يعيث في تلك الجهات فساداً ، فاحرق الأبلة (على خليج فارس)واستولى على عبادان ، واوقع باهل الأهواز ، وقتل عدد كبير من سكان البصرة ،وخرب كثيراً من مبانيها (١) وكان يقطع على المراكب الماخرة في دجلة طريقها ويأخذ مافيها ، ومما ساعد

---

(١) وصف ابن الرومي ما فعله الزنوج بالبصرة وحض الناس على قتالهم بقوله :

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام   شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ماحل بالبصر   ة ، ما حل من هنات عظام
بينما اهلها باحسن حال   إذ رماهم عبيدهم باصطلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها   أين أسواقها ذوات الزحام ؟
أين فلك فيها وفلك اليها   منشآت في البحر كالأعلام
أين تلك القصور والدور فيها   أين ذاك البنيان ذو الأحكام ؟
بدلت تلكم القصور تلالاً   من رماد ومن تراب ركام
وخلت من حلولها فهي قفر   لا ترى العين بين تلك الأكام
غير أيد وأرجل بائنات   نبذت بينهن أفلاق هام
ووجوه قد رملتها دماء   بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسراً   بعد طول التبجيل والاعظام
خاشعات كأنها باكيات   باديات الثغور لا لابتسام
انفروا ايها الكرام خفافاً   وثقالاً إلى العبيد الطغام

على نجاح حركته انشغال الخليفة وأخيه الموفق بمحاربة الدولة الصفارية (١) وتفاني الزنوج بالدفاع عن حريتهم وصعوبة أراضيهم الكثيرة المستنقعات والاقنية، ومعرفتهم لها جيداً. وقد هزموا عدة جيوش ارسلها الخليفة لقمع حركتهم. وقد أخذوا بمذهب الشراة من الخوارج، فكانوا يقتلون كل من لا يحارب معهم، أو من يقع اسيراً في يدهم، فاضطر الموفق الى ان يحاربهم بنفسه فجمع جيشاً كبيراً قسمه الى فرق صغيرة، وحاربهم بمثل طريقتهم. وبنى مدينة تقابل مدينتهم «المختارة» وسماها «الموفقية» نسبة اليه. ومنع عنهم الميرة والذخيرة حتى تمكن من اخضاعهم والاستيلاء على مدينتهم والقبض على زعيمهم وحاشيته، فقتلهم جميعاً وارسل رؤوسهم الى بغداد وبذلك قضى الموفق على ثورة قامت في قلب الدولة ودامت نحو ١٤ سنة كانت خطراً على الدولة العباسية.

---

(٢) الدولة الصفارية (٢٥٣—٢٨٩ هـ) قامت في سجستان أسسها يعقوب بن الليث الصفار وازدهرت في عهد أخيه عمرو بن الليث الصفار. كان هذان الرجلان يعملان في حداثتهما بعمل الصفر (النحاس) وترك يعقوب صنعته والتحق ببعض العصابات القائمة في سجستان. واستفاد من الاضطرابات القائمة هناك، وتغلب على سجستان سنة ٢٥٣ هـ. واشتدت شوكته حتى استولى على جميع بلاد فارس وكرمان وخراسان من آل طاهر، وراسل الخليفة يطلب منه ان يوليه على ما بيده من البلاد. ليستعين بذلك على تأييد مركزه، وبعث اليه بهدايا ثمينة، فأقره الخليفة على ذلك، ومنذ ذلك الوقت أخذت املاك يعقوب تتوسع من ناحية الشرق، فاستولى على السند، وناحية كابول في افغانستان. وكان له فضل عظيم في توطيد الاسلام هناك. وكان للانتصارات الباهرة التي حصل عليها يعقوب اثراً بالغ في نفسه زادته طمعاً وجرأة. فاستأذن الخليفة المعتمد بطلب أن يمثل بين يديه، وجاء بجيش كبير للاستيلاء على بغداد، فعلم الخليفة بنواياه، فخرج لمحاربته بنفسه، وتغلب عليه وتوفي يعقوب سنة ٢٥٦ هـ بالاهواز. وخلفه أخوه عمرو بن الليث بالحكم. وكان سياسياً مدبراً فعرف ان مناوأة الخليفة لا تجديه نفعاً، لذلك بعث إلى الخليفة وبطانته بالهدايا والتحف، فجعله والياً على ما كان بيد أخيه من البلاد.

تعرض عمرو بن الليث في اواخر أيامه إلى املاك السامانيين في بلاد ماوراء النهر، وطلب من الخليفة المعتضد أن يوليه اياها، فوافقه الخليفة على ذلك، وكان خراب الدولة الصفارية على يد اسماعيل بن محمد الساماني، الذي حارب عمرو بن الليث وأسره، وبعث به الى الخليفة المعتضد في بغداد فقتله سنة ٢٧٧ هـ وانتهى امر هذه الدولة.

وفي زمن المعتمد ظهرت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر (١) والدولة الطولونية بمصر والشام وسيأتي الكلام عنها .

تولى الخلافة بعد ذلك **المعتضد** (٢٧٩ – ٢٨٩ هـ) وكان شجاعاً جريئاً حازماً . الا أنه كان سفاكاً للدماء قليل الرحمة حتى لقب « بالسفاح الثاني » كسلفه الخليفة العباسي الأول . نشط المعتضد لقمع الاضطرابات ، حتى أرهب الناس ، وأطفأ نار الفتن ، وضرب على أيدي اللصوص وقطاع الطرق واسترد عدة مدن وقلاع من البيزنطيين في حروبه الخارجية . كما استرجع مصر سلماً الى احضان

---

(١) الدولة السامانية (٢٦١ – ٣٨٩ هـ) وهي دولة فارسية حكمتها أسرة تنسب إلى سامان خدا من اشراف الفرس . وقد لعب ابنه اسد بن سامان مع أولاده دوراً هاماً في الولايات الشرقية في زمن الرشيد والمأمون . واشتهر منهم أحمد ابن أسد الذى انحدرت منه السلالة السامانية . كان السامانيون في زمنه خاضعين للدولة الطاهرية وقد استقلوا عنها وتبعوا الخليفة مباشرة في زمن ابنه نصر بن احمد سنة ٢٦١ هـ الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة . اتخذ نصر مركزه في نيسابور ، ووسع هو واولاده من بعده ملكهم في سجستان وكرمان ، وجرجان ، والرى ، وطبرستان ، بالاضافة الى بلادهم الأصلية فيما وراء النهر . وكان اسماعيل ابن احمد يخدم أخاه نصراً فولاه بخاري سنة ٢٦١ وقام بين الاخوين فيما بعد منازعات شديدة بسبب سعاية السوء بينهما ، واشتبكا في حروب كثيرة . وفي سنة ٢٧٥ هـ انتصر اسماعيل على اخيه : ولم يقتله او يسيء اليه بل ترجل عندما رآه وقبل يديه ورده إلى سمرقند وظل فيها حتى توفي سنة ٢٧٩ هـ فقام اسماعيل من بعده على الحكم واتخذ مركزه بخارى ، واستولى على خراسان . وصار له دولة عظيمة أورثها أولاده واستمرت فيهم نحو ١٧٠ سنة . وانتهت هذه الدولة على أيدي الغزنويين الذين هاجموها من ناحية الجنوب وعلى ايدي قبائل الترك الذين هاجموها من جهة الشمال . وكان لأمراء هذه الدولة فضل كبير في خدمة الثقافة . فقد نشطت العلوم والفلسفة في زمانهم وبسطوا نفوذهم على الادباء ، سواء منهم الفرس أو العرب . فقد اشتهر من رجال هذه الدولة « الرازي » الذي قدم كتابه ـ المنصوري ـ في الطب إلى أبي صالح منصور بن اسحاق أحد أمراء هذه الدولة . وظهر « ابن سينا » الذي بدأت شهرته بعد ما درس في مكتبة نوح بن منصور الساماني . ويقال ان ابن سينا أحرق هذه المكتبة حتى لا يضاهيه احد بعلمه . ونبغ « البلعمي » وزير المنصور بن نوح ، وقد ترجم تاريخ الطبري الى اللغة الفارسية . وقد كتب « الفردوسي » الشاعر الفارسي اول اشعاره في مدح السامانيين . وكانت سمرقند وبخارى تنافسان بغداد في الحضارة والعمران في زمن هذه الدولة .

الخلافة بزواجه من « قطر الندى » ابنة خمارويه بن احمد بن طولون، وجعل حكم مصر له ولاسرته من بعده . وقد رجع المعتضد الى بغداد وترك سامرا بعدان بقيت نحو نصف قرن عاصمة الخلافة العباسية . فخربت بعد ذلك ونقلت انقاضها الى بغداد وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قد اقفرت سامرا وما لشيء دوام
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيل تسل منه العظام

تولى الخلافة بعد ذلك **المكتفي** (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) وفي زمنه تأخرت حالة البلاد بعد ان ابتدأت تنتعش في زمن الموفق وابنه المعتضد . ويعود سبب التأخر الى ظهور المنافسات بين ذوي النفوذ من وزراء وقواد الدولة . واشتداد أمر القرامطة . الا ان المكتفي حاول ان يتقرب الى قلوب الشعب بهدم السجون التي شيدت في عهد ابيه ، وبناء مساجد مكانها . كما انه رد الاراضي والبساتين التي كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره . فاكتسب محبة الناس ومساعدتهم وفي عهده انقرضت الدولة الطولونية ، واصبحت مصر تابعة مباشرة بالخلافة العباسية ، كما انتهى حكم الاغالبة في افريقية على يد ابي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين .

كانت علاقة المكتفي في بادئ الامر حسنة مع البيزنطيين، وتبودلت الهدايا والرسل بين الطرفين وحصل فدائين في زمنه ، ثم توترت العلاقات بين الطرفين واستولى المسلمون على انطاكية بالقوة وغنموا من البيزنطيين مغانم عظيمة .

تولى الخلافة بعد ذلك **المقتدر** (٢٩٥ — ٣٢٠هـ) وعمره ثلاث عشرة سنة ، فلم يرق ذلك للناس لصغر سنه ، فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن واتفقوا على خلع المقتدر ، وتولية عبد الله بن المعتز ، فاجابهم الوزير الى ذلك على أن لا يكون فيه سفك دماء ولا حرب ، الا ان الوزير اتصل عنهم لحسن حاله مع المقتدر ، وبايعو لابن المعتز ، وكتبت الكتب بذلك إلى العمال ، وطلب الى المقتدر بالارتحال من دار الخلافة ، فأجاب بالسمع والطاعة . وسأل الامهال الى الليل ، الا أن مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن وحاشية الخليفة صعب عليهم الأمر واتفقوا على ان يصعدوا في المساء الى دار ابن المعتز ويقاتلوه وساعدهم المقتدر بالسلاح وكان عددهم كبيراً . فلما رآهم من عند ابن المعتز . تفرقوا عنه وهرب ابن المعتز الى الصحراء ، وانتشرت الفوضى في بغداد فخرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من له يد في خلعه ، وعثر على ابن المعتز فسجنه وعذبه حتى مات . فذهب هذا الشاعر ضحية السياسة ، ولم تطل خلافته اكثر من يوم واحد . وفي مدة

الخمس وعشرين سنة التي حكم فيها المقتدر توالى على منصب الوزارة (١٢) وزيراً ، ومنهم من تقلد الوزارة مرتين وثلاثة . وكانت الوزارة تنال بالرشوة ، ويتدخل في تعيين الوزراء النساء والقواد والخدم والحاشية ، ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى في العمل كثيراً لأن حاشية الخليفة ونساءه لا يرضون به الا اذا أغدق عليهم المال ، وأفرغ بيت مال الدولة . لذلك كثيراً ما كان ينكب الوزراء ويسجنون ويستبدل بهم غيرهم . واشتهرت بعض الأسر في الوزارة في هذا الدور كما كانت اسرة البرامكة ، وبنو سهل في الدور السابق وهذه الاسرة هي : بنو الفرات ، وبنو خاقان ، وبنو وهب ، كان اكثر افرادها من أجل الناس فضلا وكرماً وحذقاً في الكتابة . واشتهر من الوزراء في زمنه .

ابو الحسن علي بن الفرات : وكان وزيراً كريماً ذا رياسة وكفاية في عمله ، حسن السؤآل والجواب هدأ الأحوال بعد فتنة ابن المعتز .

علي بن عيسى : وكان رجلاً عاقلاً متديناً ، متعففاً عارفاً بالاعمال حافظاً للاموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبذل والهزل ، على شح غالب في طباعه ، وجفاء ظاهر في اخلاقه . فكثرت السعاية عليه والوقيعة فيه حتى عزله المقتدر وأرجعه بعد ذلك للوزارة .

وابو القاسم عبيد الله بن خاقان وكان مهملا للامور ، ترك الاعمال وتلون في الافعال . وكان اذا قلد عامل أتبعه بمن يعزله قبل وصوله الى عمله ، حتى اجتمع مرة سبعة أنفس لمنصب واحد ، كان ابن خاقان قد أخذ من كل منهم مالاً مقابل تعينه . وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيده ، وقال : نعم وكرامة ! حتى لقب : دق صدره .

« وعلى الجملة كانت خلافة المقتدر في جميع ايامها شر أيام على الدولة العباسية ، لانه حكم فيها النساء والخدم والجند ، وبذر في الاموال تبذيراً ، وكان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاء له ، ولأمه ولقهرمانته ام موسى الهاشمية ، ولخادمه مؤنس ، ولقائده مؤنس المظفر حتى قلت هيبة الخلافة ولم يعد لها ادنى سلطان ولا احترام »

وفي زمنه اعلن عبيد الله المهدي نفسه خليفة في شمالي افريقية كما ان عبد الرحمن الناصر لقب نفسه هـذا اللقب في الاندلس . فصار للدولة الاسلامية ثلاثة خلفاء في وقت واحد ينازع بعضهم بعضاً .

وقد استبد مؤنس المظفر قائد الجند العام بالخليفة المقتدر اشد استبداد وسير الامور حسب رغباته ، وأخيراً عمل على قتله عندما تأخر عن تقديم الاموال له ونهب الجند ثيابه ؛ وتركوا جثته مكشوفة الى ان مر به رجل من الأكرة ؛ فستره بحشيش ؛ ثم حفر له قبراً ودفنه فيه . وانتهت

بذلك حياة هذا الخليفة التعس ، وكانت مدة حكمه ذات تخليط كثير لاستيلاء امه ، وصغر سنه ، واستبداد الخدم فيه وهو متلهي بملذاته عن شؤون رعيته حتى خربت الدولة في زمنه .

وفي عهده ظهرت دولة آل حمدان في الموصل وعظم أمر القرامطة .

القرامطة :

هي حركة دينية سياسية قامت بها فرقة الاسماعيلية من فرق الشيعة (١) قام بهذه الحركة عبد الله بن ميمون القداح ، وهو من أصل فارسي على الاكثر . كان ابوه ميمون يشتغل كحالاً (طبيب عيون) في الأهواز ، وتسلم ابنه عبد الله الحركة الاسماعيليه ونظمها تنظيماً هائلاً .

---

١ — علي

٢ — الحسن ٣ — الحسين

٤ — علي زين العابدين

٥ — محمد الباقر زيد (ومنه خرجت الفرقة الزيدية)

٦ — جعفر الصادق يحيى

٧ — موسى الكاظم اسماعيل (ومنه خرجت الفرقة الاسماعيلية)

٨ — علي الرضا

٩ — محمد الجواد

١٠ — علي الهادي

١١ — الحسن العسكري

١٢ — محمد المهدي المنتظر (ومنه خرجت الفرقة الاثنى عشرية)

(١) انقسمت الشيعة الى عدة فرق منها الزيدية المنتسبة الى زيد ، والاسماعيلية وتسمى أيضاً والسبعية ، لاعترافها بسبعة أئمة فقط أولهم الامام علي وآخرهم اسماعيل . وهي والامامية تقول بانه لا بد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله (ص) لان الشريعة لا تؤخذ بالرأي –

ومزجها بالعلوم القديمة والفلسفة اليونانية ، وجعل منها حركة فكرية دينية سياسية ، خرج منها قرامطة البحرين والعراق والشام ، والدولة الفاطمية في شمالي افريقية ومصر ، والحشاشون في فارس والشام . ويقال ان جمعية اخوان الصفا تنتسب الى تلك الحركة .

ادعى عبد الله انه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضي اينما أحب في أقرب وقت . وكان يخبر بالأحداث في البلدان المختلفة بواسطة مساعديه واعوانه ، الذين يرسلون اليه الأخبار بواسطة طيور ، يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه ويخبر من حضره بما يكون فيموه ذلك عليهم ، وكان مركزه اولاً في البصرة فعرف والها امره وأراد الفتك به فانتقل إلى السلمية في سورية . وقد استفاد عبد الله من النزاع القائم بين العرب والفرس ، ومن الفوضى السائدة في جميع اقسام المملكة الاسلامية ليهدم الخلافة العباسية ويقيم دولة جديدة على أنقاضها يكون هو وأولاده من بعده على رأسها . وقد نجح في نشر دعايته وأحكم نظامها واحسن ارتباط الدعاة بعضهم ببعض حتى أصبحت حركته في دقة نظامها وسرعة انتشارها من أعظم الحركات التي عرفت في التاريخ .

وقبيل وفاة عبد الله تسلم الحركة تلميذه حمدان الملقب « بقرمط » واليه نسب القرامطة وهو من فلاحي العراق ، اعتنق « المذهب الباطني » وجماعة هذا المذهب يفسرون القرآن الكريم تفسيراً يختلف عن معانيه الظاهرة . اي ان لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويل .

وكان حمدان يظهر الزهد والتقشف ، ويكثر من الصلاة حتى عظم في أعين الناس وأعلمهم أنه يدعو إلى إمام من اهل البيت ، فكثر أشياعه في الكوفة . واتخذ مركزاً في شرقي الكوفة دعاه « دار الهجرة » ونظم أموره على أحسن وجه . وعرض على من أحب من اصحابه ضريبة سماها « البلغة » لهذه الدار وهي خمس مايملكون أو يكتسبون ، فكانت المرأة تقدم للداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرته ، فكانت هذه الضريبة قسطاً يدفعه الشخص إلى « صندوق الأخوية » كعضو فيها ، وهذا ما يشبه النقابات في زمننا الحاضر .

ـ وقد أخذت الاسماعيلية « بالمذهب الباطني » . والامامية وتسمى ايضاً « الاثني عشرية » لاعترافها باثنى عشر اماماً مذكورين في الاعلى آخرهم محمد الملقب بالمهدي المنتظر . دخل مرة سرداباً في مدينة سامرا ليبحث عن ابيه ولم يخرج منه فكان اصحابه يقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب ، ويهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج حتى ساعة متأخرة من الليل . وعند ما ييأسون من خروجه يرجئون الأمر الى الليلة الآتية . ويعتقدون انه سيرجع الى الحياة الدنيا مرة ثانية ويملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً .

ولم يكتف حمدان بذلك بل طلب من أشياعه أن يشتركوا فيا يملكون.
وأن تكون اموالهم مشاعاً فيا بينهم يودعونها في « بيت الجماعة» ويوزعها عليهم رجل ذو ثقة عندهم ، حتى لم يعد أحد يملك لنفسه الا سيفه وسلاحه . وكانوا يحترمون المرأة ويبيحون لها حضور مجتمعاتهم ، واختصروا الصلاة وجعلوها فرضين في اليوم ، وأباحوا الافطار للبدو في شهر رمضان . وحللوا شرب الخمر ، ويقولون ان الامامة ليست وراثية خاصة في أسرة معينة بل تكون في اي شخص يتصف بالصفات الحسنة فهي إلهام رباني .
وقد توسعت حركة القرامطة في سواد الكوفة بسبب انشغال الخليفة المعتمد واخيه الموفق عنهم بثورة الزنج ، وقد انتبه الخليفة المعتضد لخطرهم وأرسل جيوشاً عديدة للقضاء عليهم ، الا ان حركتهم توسعت وانتشرت في اكثر البلاد الاسلامية :
فقد استطاع احد دعاة القرامطة وهو زكرويه بن مهرويه في استغواء بعض قبائل العرب من كلب وخرج بهم الى بلاد الشام وعاثوا فيها فساداً مابين سنة ٢٨٩ — ٢٩٤ هـ فقابلهم الطولونيون مرات عديدة وانهزموا امامهم . فكتب اهل الشام الى الخليفة المكتفي يشكون اليه أمر القرامطة وما فعلوه بهم من قتل وسبي وتخريب . فجاء بنفسه بجيش كبير لمحاربتهم وقضى عليهم ، وقد اشتد أمر القرامطة في البحرين على الخليج الفارسي فقد قام أبو سعيد الحسن الجنابي في زمن المقتدر بتأسيس دولة جعل عاصمتها الحسا واستولى على جميع بلاد البحرين. ثم قام ابنه أبو طاهر سليمان الجنابي من بعده ، وغزا البصرة سنة ٣١١ هـ ودخلها وقتل حاميتها ، ووضع السيف في أهلها ، وأقام بها سبعة عشر يوماً يحمل منها ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان ، ثم عاد إلى بلده وأخذ يهاجم قوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة وينهب ما معها من الأموال والجمال والأزواد ويحمل ما يريد من النساء والأولاد . وكان كلما أرسل المقتدر اليهم جيشاً هزموه حتى انهم هددوا بغداد نفسها ، وصار الناس اذا أرادوا ان يخيفوا بعضهم بعضاً كانوا يقولون : « القرمطي على الأبواب» حتى هم بعض الخاصة إلى ترك بغداد والهرب إلى همذان وغيرها من المدن النائية .
وفي سنة ٣١٧ هـ سار أبو طاهر بجنده إلى مكة ، فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم وطرحوا أجسام بعضهم في بئر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام ، وقلع الحجر الأسود وأرسله الى البحرين ، وكذلك قلع باب البيت الحرام . وأخذ كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة . وبقي الحجر الأسود نحو عشرين سنة في البحرين ، ولم يرجعه القرامطة الا بوساطة الخليفة المنصور الفاطمي. واستمر أمرهم مستفحلاً إلى زمن الخليفة الراضي . ثم انقسموا على أنفسهم وأخذت قوتهم بالتلاشي بعد أن جروا على أهل البلاد الخراب والعذاب .

ثم جاء الخليفة **القاهر** (٣٢٠ – ٣٢٢ هـ) وكان شريرا ، خبيث النية ، أشتغل في اول خلافته بالبحث عمن استتر من أولاد المقتدر وحرمه ، لا سيما أم المقتدر وكانت مريضة وزاد مرضها بقتل ابنها ، ولما سمعت انه بقي مكشوفاً جزعت جزعاً شديداً ، وأمتنعت من الاكل والشرب ، حتى كادت تهلك فوعظها النساء حتى اكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح ، احضرها القاهر عنده وسألها عن مالها فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترف بشيء من المال والجوهر ، فضربها اشد مايكون من الضرب ، وعلقها برجلها ، فحلفت انها لا تملك غير ما اطلعته عليه ، وقالت : لو كان عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل . فباع املاكها وصادر جميع اولاد المقتدر وحاشيته وفي عمله هذا قلل من هيبة العباسيين عند الناس وزال احترامهم لهم .

وفي زمن القاهر اختلف رجال الدولة من قواد ووزراء وحجاب وكتاب فيما بينهم ، فاستفاد القاهر من اختلافهم ودبر قتلهم بالحيلة والمكيدة ، فقتل القائد مؤنس وأحمد بن زيرك صاحب الشرطة وغيرهم كثيرون ، فخاف من بقي على حياتهم بعدما رأوا من شدة القاهر وغدره ، لا سيما الوزير بن مقلة ، الذي كان يجتمع بالقواد ليلا تارة في زي أعمى وتارة في زي امرأة ، ويغريهم به حتى ملأ صدورهم ، فاتفقوا على خلعه ، وزحفوا الى الدار وهجموا عليها من سائر الابواب ، فلما سمع القاهر الأصوات والجلبة ، استيقظ مخموراً ، وطلب باباً يهرب منه فلم يجده ، فقبضوا عليه وحبسوه ثم سملوا عينيه ، وبذلك انتهت مدته ، وكانت جامعة للمعايب والقبائح ، وقد شوهد في آخر حياته يطلب الصدقة في شوارع بغداد .

تولى الخلافة بعده **الراضي** (٣٢٢ – ٣٢٩ هـ) وفي زمنه اضمحلت عظمة الخلافة العباسية وافل نجمها وقضي على نفوذها الذي كانت تتمتع به إلى ذلك الحين ، فكان رجال الدولة يقتتلون ويتنافسون على النفوذ في الدولة ، وأستقل محمد بن رائق في البصرة وواسط ، ووقطع البريدي والي الأهواز (وتسمى اليوم خوزستان) ما كان يحمله من الأموال إلى بغداد . وتغلب ابن بويه على فارس وأعمالها ، ولم يعد للخليفة من سلطان إلا على بغداد وضواحيها . فراسل الخليفة الراضي محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه الولاية ببغداد ، فحضر مسرعاً ، فلقبه الراضي لقب « أمير الامراء » ووضع تحت تصرفه خراج البلاد ، وأعمال الدواوين ، ، وأمر بان يخطب له على جميع المنابر ، وأنفذ اليه الخلع ، وأصبح هو صاحب السلطان ، فكانت الاموال تحمل الى خزائنه فيتصرف فيها كما يريد ويعطي الخليفة مايريد ، وبطلت الدواوين والوزارة ، ولم يبق للخليفة ولا لأحد من رجاله أي سلطة .

وقد استغوى منصب أمير الأمراء رجال الدولة وأصحاب الولايات ، فاخذوا يتنافسون للوصول

اليه ، ويزاحمون ابن رائق عليه ، وقد تصدى لهذا المنصب البريدي صاحب الأهواز ولم يظفر به وبجكم الديلمي قائد جيوش العباسيين الذي خلع ابن رائق وتولى مكانه ، وناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل وغيرهم من القواد والمتنفذين .

وهكذا انقضت مدة الراضي بالمنازعات السياسية بين هؤلاء المتغلبين على الدولة ، وكل منهم يود أن تكون له إمارة الأمراء ببغداد ، مما قلل هيبة الدولة في أعين العامة ، فقام الحنابلة بمنازعات دينية مع أصحاب المذاهب الأخرى ، واشتد امرهم على الناس ، فكانوا يكبسون بيوت القواد والعامة ، فمن وجدوا عنده نبيذاً أراقوه ، ومن وجدوا عنده مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء التي تعزف عليها ، وتدخلوا في كل كبيرة وصغيرة ، حتى أصدر الراضي بياناً قرىء عليهم وأنكر فعلهم ومنعهم من التدخل وهدد المخالف بالعقاب الشديد .

وفي عهد الراضي ظهرت الدولة الأخشيدية بمصر وسيأتي الكلام عنها .

وانتهى بوفاة الراضي أمور كثيرة كانت عند الخلفاء العباسيين منها : أنه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة انفرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه وحجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين . وفي زمنه حدث منصب أمير الأمراء في بغداد الذي يشبه منصب «حاجب القصر» عند ملوك الدولة الميروفنجية .

تولى الخلافة بعده **المتقي** (٣٢٩ — ٣٣٣ هـ) وليس في زمنه ما يستحق الذكر سوى تخاصم المتنفذين في الحكم على منصب أمير الأمراء . فبعد ان قتل بجكم الديلمي دخل البريدي بغداد سنة ٣٢٩ هـ وحاول الاستيلاء على منصب أمير الأمراء الا ان الجند ثاروا عليه وولى الخليفة كورتكين الديلمي هذا المنصب فتأذى العامة من الديلم فخلع المتقي كورتكين والتجأ الى ناصر الدولة الحمداني ليحميه من البريدي الذي استولى على بغداد وفعل هو واصحابه فيها افعالا قبيحة وقتلوا من وجدوا في دار الخلافة من الحاشية ، ونهبوا دور حرم الخليفة ، وساد الاضطراب والنهب في المدينة ، وغلت الأسعار ، ومرّ على أهالي بغداد فترة لم يروا مثلها من قبل . فتمكن ناصر الدولة بمساعدة أخيه سيف الدولة الحمداني من طرد البريدي عن بغداد ولاحقه سيف الدولة الى واسط فاستولى عليها إلا انه لم يتمكن من القضاء على البريدي لقلة المال عنده ولثورة جند الترك عليه فعاد الى بغداد واعتزل ناصر الدولة منصب أمير الأمراء ، وعاد الى الموصل ، فاختار المتقي اكبر قواد الديلم توزون لهذا المنصب فاستبد بالأمر وخلع المتقي من الخلافة وسمل عينيه وولى مكانه المستكفي . وفي خلافة المستكفي بدأ الدور الثالث وهو سلطة آل بويه .

الفصل الثالث

٣ – دور النفوذ البويهي

٣٣٤ – ٤٤٧ ﻫ او ٩٤٥ – ١٠٥٥ م

حكم في هذا الدور أربعة خلفاء عباسيين وهم : المطيع ، والطائع ، والقادر ، والقائم . واستمرت الخلافة في انحطاطها كما في الدور السابق ، ولم يبق للخلفاء سوى السلطة الروحية ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى البويهيين . واكتفى الخلفاء بكتاب يديرون أمور أملاكهم وأراضيهم ، وبمعاش مقداره خمسة آلاف درهم في اليوم . وانتقلت إدارة الدولة وماليتها الى البويهيين الذين خلعوا المستكفي وسملوا عينيه ، وأجبروا الخليفة المطيع على التنازل عن الخلافة بعد أن حكم أربعة سنوات . ولاقى الخليفة الطائع نفس المصير عندما ضعف واصابه الشلل .

وبالرغم من ان الخليفتين القادر والقائم حكما مايئوف عن الثمانين سنة ، واستعادا شيئاً من رونق الخلافة إلا أن سلطة الخلفاء العباسيين قد ذهبت من أيديهم وانتقلت نهائياً إلى المتغلبين على الدولة .

لم يحصل في هذا الدور منازعات شديدة بين الخلفاء والبويهيين كما حدث في الدور السابق بينهم وبين الاتراك ، وإنما النزاع كان قائماً بين البويهيين أنفسهم على السلطة ، وبين البويهيين والاتراك الذين سلبت منهم السلطة وقيادة الجند . وسأتكلم فيما يلي عن الدور الذي لعبه البويهيون .

البويهيون

البويهيون جنس من الديالمة ، سكنوا في الجنوب الغربي من بحر الخزر ينتسبون الى ابي شجاع بويه ، وعندما أصبح لهؤلاء البويهيين المراكز الرفيعة ودارت السلطة بأيديهم انتحلوا انساباً تربطهم بملوك الفرس الساسانيين . وكان أبو شجاع بويه رقيق الحال فانتظم أولاده علي ، والحسن ، وأحمد في الجندية لانها كانت باباً من ابواب الرزق ، وقدموا على مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية (١)

(١) الدولة الزيارية (٣١٦ – ٤٣٤ ﻫ) قامت في جرجان وطبرستان مؤسسها مرداويج بن زيار قام في زمن الخليفة المقتدر واستولى على همذان واصبهان حتى وصل إلى الاهواز فكاتب الخليفة يطلب منه ان يوليه على ما بيده من البلاد ، وأرسل إليه الهدايا والاموال فاقره على ذلك

فخلع عليهم وولى علي بن بويه إقليم الكرج الواقع غربي بحر الخزر فأحسن إلى اهله واغدق عليهم الأموال وساس البلاد بادارة حازمة فشاع ذكره وقصده الناس واحبوه ، وافتتح اصبهان وشيراز فبلغ ذلك مرداويج فخاف على نفسه وما بيده من البلاد ، واغتم لذلك غماً شديداً ووقعت الوحشة بين الطرفين ، ولحسن حظ ابن بويه قتل مرداويج من قبل جنده ، فازداد نفوذ علي بن بويه وأرسل إلى الخليفة الراضي يعلمه انه على طاعته ، ويطلب منه أن يوليه على ما بيده من البلاد بمال يحمله إلى دار الخلافة فاجيب الى ذلك ، وبعث اليه بالخلعة واللواء .

اتخذ علي بن بويه عاصمته في شيراز ، وسير أخاه الحسن يفتح بلاد العجم ، فاستولى على الجبل وهمذان والري وقزوين وغيرها ، وسيّر أخاه الصغير احمد إلى الأهواز ، فافتتحها واستولى على واسط ، وكان النزاع قائماً في بغداد على منصب أمير الأمراء . فاستدعاه الخليفة المستكفي اليه فدخل بغداد سنة ٣٣٤ هـ وهذه السنة تعتبر بدء النفوذ البويهي في بغداد واحتفى الخليفة به وبايعه أحمد وحلف كل منهم لصاحبه هذا بالخلافة وذاك بالسلطنة .

وشرّف الخليفة بني بويه بالألقاب : فلقب علياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة ، وهو أكبرهم ولقب الحسن صاحب الري والجبل ، ركن الدولة . ولقب أحمد صاحب العراق ، معز الدولة . وأمر ان تضرب ألقابهم وكناهم على النقود ، وان يذكر اسم معز الدولة في خطبة الجمعة بعد اسم الخليفة . ولما اشتد نفوذ معز الدولة في بغداد حاول ان يزيل اسم الخلافة عن بني العباس ويوليها علوياً ، لأن البويهيين كانوا شيعة زيدية ، وصل اليهم الدين الحنيف عن طريق الدولة الزيدية العلوية وبمجهود الحسن بن الأطروش أحد أمراء هذه الدولة ، الذي بقي بينهم ثلاث عشرة سنة يدعوهم فيها الى الاسلام ويدفع عنهم عدوهم ويبني المساجد في بلادهم . وكان البويهيون يعتقدون ان بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها ولكن بعض خواص معز الدولة أشار عليه الا يفعل وقال له : « أنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو امرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد

ـ وخلفه أخوه وشمكير حكم طويلاً من سنة (٣٢٣ – ٣٥٦ هـ) وازدهرت الدولة في أيامه ، وكان في نزاع مستمر مع السامانيين ، والبويهيين ، خلفه بعد موته قابوس بن وشمكير الملقب بشمس المعالي وكان أديباً له أشعار باللغة الفارسية والعربية ، بسط رعايته على الشعراء والأدباء ، ونبغ في بلاطه « البيروني » وقدم له كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية . واتصل به ايضاً الشيخ الطبيب الرئيس « ابن سيناء » : وكان لهذه الدولة فضل كبير في رعاية الأدب والعلم وانتهى أمرها في زمن أنوشروان بن قابوس سنة ٤٣٤ هـ على يد الدولة الغزنوية .

أنت واصحابك دحة خلافته ولو امرتم بقتلك لفعلوا ، فاعرض عما كان قد عزم عليه واتّقى اسم الخلافة لبني العباس » . ولا نريد التوسع في الكلام عن البويهيين الذين حكموا في بغداد أو في غيرها من المناطق ، ونكتفي بوصف حالة الدولة العباسية في زمنهم بصورة عامة (١) .

الحالة الداخلية

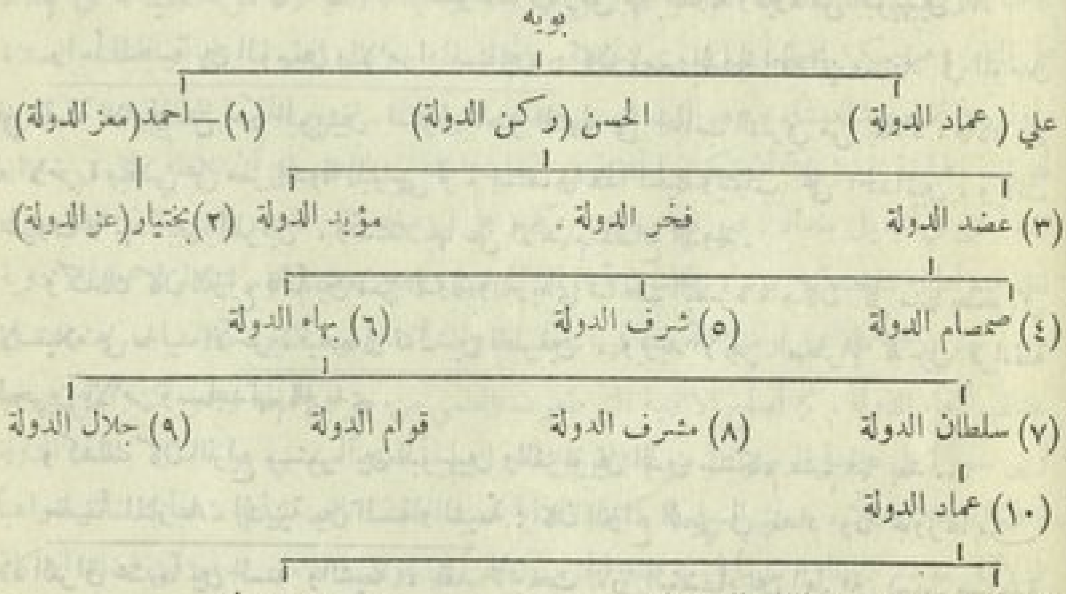
انحطت الدولة من الناحية السياسية بصورة عامة في زمن البويهيين ، وتأخر حال العراق لاسيما بغداد بسبب الغلاء والفوضى والنهب الذي ساد فيه ولم تزدهر الدولة وتتسع إلا في زمن عضد الدولة البويهي ويرجع ذلك الاضطراب الى الاسباب الآتية :

اولاً النزاع بين جند الاتراك والديلم : طمع جند الديلم الذين دخلوا بغداد باميرهم معز الدولة البويهي ، وشغبوا عليه ، فقرب معز الدولة جند الترك ، وأقطعهم القرى والاراضي ليحموه من قومه ، فقام النزاع والتحاسد بين الجندين .

ثانياً تأخر الحياة الاقتصادية : انحطت الزراعة في اراضي الدولة العباسية بسبب نظام اقطاع الاراضي للجند ، فأهملهؤلاءشؤونهاوتدوبهاوقناوهالاحاقنية الري فيها ، مما أضعف همة الفلاحين

---

(١) تظهر التقاسيم السلالة البوهية ، والارقام تدل على اسماء البويهيين الذين حكموا في بغداد .



الذين يقومون بزرعها واصلاحها وبطل كثير منها . وتوقفت التجارة في البلاد لخوف الناس على ما بيدهم من الأموال بسبب اضطراب الأحوال ، وكذلك تأخرت الصناعة ، حتى اشتد الغلاء في البلاد وأكل الناس الميتة والقطط والكلاب وخروب الشوك ، وكانوا يسلقون حبه ويأكلونه ، فلحق بهم امراض وأورام في أحشائهم ، وكثر فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانت الكلاب تأكل لحومهم ،وانحدر كثير من اهل بغداد الى البصرة ، فمات اكثرهم في الطريق ،وبيعت الدور والعقارات بالخبز . »

ثالثاً النزاع بين أمراء الديلم أنفسهم : قام النزاع بين امراء الديلم على السلطة فقد كان عز الدولة بختيار حاكماً في بغداد ، وكان ضعيف السلطة فيها ، فشغب عليه جند الترك بزعامة قائدهم سبكتكين فاستنجد ابن عمه عضد الدولة الذي كان يطمع في ان يحل محله ويستولي على منصبه فاسرع بجنده الى بغداد ودخلها سنة ٣٦٤ هـ وتغلب على عساكر الأتراك ، ثم اخذ يدس الدسائس على بختيار ووسوس الى جنده ان يثوروا عليه ، ويطالبوه بالأموال ، حتى تمكن من خلعه وقبض عليه وجمع الناس واعلمهم استعفاءه من الامارة وعجزه عنها ، الا ان ركن الدولة استاء من عمل ابنه عضد الدولة وساعد بختيار للرجوع الى ملكه ، ولما توفي ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ ورثه ابنه عضد الدولة في الملك وتجهز الى بغداد وارسل الى بختيار يطلب منه الطاعة فاجاب الى ذلك . وقد حدث مثل هذه الخصومات بين البويهيين فيما بعد فقد قام شرف الدولة صاحب فارس على اخيه صمصام الدولة واستولى على الأهواز والبصرة وواسط ودخل بغداد سنة ٣٧٦ هـ واستولى على الحكم مكان أخيه . وحصل مثل هذه الخصومات في زمن بهاء الدولة وغيره من البويهيين ...

رابعاً المنافسة بين البويهيين والأمراء المستقلين : كان ناصر الدولة الحمداني مستقلاً في الموصل في السنة الأولى من حكم البويهيين استولى ناصر الدولة على الجانب الشرقي من بغداد ، وكاد يتم له الامر ، ويقضي على معز الدولة البويهي لو لم يستعمل هذا الحيلة ويتغلب على الحمدانيين ، وكانت الحروب لا تهدأ بين الطرفين ، واشتغلا بها عن الاهتمام بمصالح الدولة .

وكذلك كان النزاع قائماً بين معز الدولة والبريدي صاحب البصرة ، وكان كل منهما يطمع في الاستيلاء على ما بيد الآخر ، فيحصل قتال بين الطرفين ، ويزيد الأمر اضطرابا تدخل قرامطة البحرين بالأمر ومساعدتهم للبريدي .

وكذلك كان النزاع مستمراً بين البويهيين والغزنويين الذين سنتكلم عنهم فيما بعد ...

خامساً المنازعات الدينية بين السنة والشيعة : كان النزاع الديني في بغداد وما جاورها من بلاد العراق محتدماً بين السنة والشيعة ، فقد تأججت نار البغضاء بين الطرفين بسبب مساعدة

البويهيين للشيعة ، فقد أمر معز الدولة الناس سنة ٣٥٢ ﻫ في العاشر من محرم « يوم عاشوراء » أن يغلقوا دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء ، وأن يظهروا النياحة ، وأن يخرج النساء منشورات الشعور مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يدرن في البلد بالنوائح ، ويلطمن وجوههن على الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ففعل الناس ذلك ، ولم يكن لأهل السنة قدرة على المنع لكثرة الشيعة ولأن السلطان معهم .

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معز الدولة بإظهار الزينة في بغداد واشتعلت النيران بمجلس الشرطة ، وأظهر الفرح ، وفتحت الأسواق بالليل كما يفعل ليالي الأعياد ، فُعل ذلك احتفالا بعيد الغدير يعني « غدير خُم » ، وهو الموضع الذي يروى ان رسول الله (ص) قال فيه عن علي : من كنت مولاه فعلي مولاه اللهم والِ من والاه ، وعادِ من عاداه . وضربت الدبادب والبوقات وكان يوماً مشهوداً .

وما كانت هذه المواسم تتم دائماً بهدوء وسكينة فكثيراً ما كان السنة والشيعة يلتحمون بمعارك دامية ويقتتلون في شوارع المدن لا سيما في بغداد حيث كان السنة يهاجمون الكرخ (حي الشيعة) ويحرقونه وكانت هذه المنازعات الدينية تجر أوخم العواقب على الدولة العباسية .

ازدهار الدولة في زمن عضد الدولة

بلغت الدولة أوج عظمتها في زمن عضد الدولة (٣٦٦ — ٣٧٢ ﻫ) فقد توحدت العراق والجزيرة والأهواز ، وفارس ، والجبال والري ، وجرجان تحت سلطة واحدة وأصبحت البلاد التي يحكمها تقارب في حجمها الدولة العباسية في زمن هارون الرشيد . وهو أول من خطب له في بغداد على المنابر ، ولم يكن يخطب فيها لسوى الخليفة . وأول من ضربت الطبول على أبوابه عند الصلاة وأول من لقب « شاهنشاه » ، وهو لقب فارسي معناه ملك الملوك . تزوج الخليفة الطائع ابنته كما تزوج هو ابنة الخليفة ، مؤملاً أن تكون الخلافة في اعقاب ابنته . وبالرغم من أن بلاطه ظل في شيراز فقد أعتنى في تجميل بغداد . فبنى فيها مستشفى كبير على نهر الدجلة سماه « البيمارستان العضدي » نظم فيه أطباء تتفقده كل يوم ، يطالعون أحوال المرضى ، ويعين بعضهم قوم يتناولون عمل الأدوية وعمر ضريح الإمام علي رضي الله عنه في النجف ، وانشأ مدارس كثيرة ، ومساجد متعددة في مختلف أنحاء الدولة . كما أصلح الأقنية التي طمرت بالطمي من جراء إهمالها وعمر كثيراً من غيرها وبنى سوراً على مدينة الرسول (ص) ولا نجد اميرا صالحاً معمراً من بني بويه مثل عضد الدولة « فكان عاقلا فاضلا ، حسن السياسة كثير الاصابة شديد الهمة ، ثاقب الرأي ، محباً للفضائل ، واهباً باذلاً في موضع العطاء ، مانعاً في مواضع الحزم ، ناظراً في عواقب الأمور ... ومن فضله انه كان لا يعول في اموره الا على الكفاة ، ولا يجعل للشفاعات سبيلاً اليه » . وكان يخرج في ابتداء كل سنة شيئاً

كثيراً من الاموال للصدقة والبر في سائر بلاده. وقد ازدهر عصره بالعلم والثقافة، وكان هو وبعض أفراد عائلته من المشجعين على احياء العلم، وبلغت الحياة العقلية في زمنه أزهى ما وصلت اليه في جميع العصور فاشتهر المتنبي في زمنه ومدحه بقصائد خالدة، وكذلك اشتهر أبو علي الفارسي النحوي الذي قدم له «كتاب الايضاح» والطبيب علي بن عباس صاحب كتاب «الكامل في الصناعة الطبية» ونهج بعض البويهيين نهج عضد الدولة في خدمتهم للعلم، وتشجيعهم للعلماء منهم شرف الدولة بن عضد الدولة فقد عمر مرصداً فلكياً متبعاً في ذلك خطة الخليفة المأمون. وعمر شابور بن اردشير وزير بهاء الدولة «داراً للعلم» في بغداد فيها مكتبة تحوي عشرة آلاف مجلد، استفادمنها الشاعر الفيلسوف ابو العلاء المعري عندما كان تلميذاً في بغداد. وهذا العصر زها بادباء أمثال الوزير ابن العميد، والصاحب بن عباد، وبديع الزمان الهمذاني وغيرهم كثيرون، وبلغويين أمثال أبو الفرج الأصفهاني صاحب «كتاب الأغاني» وبالثعالبي صاحب «يتيمة الدهر»، وبمؤرخين اشهرهم المسعودي صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، وبجغرافيين أشهرهم الاصطخري صاحب كتاب «مسالك الممالك»، واشتهر في هذا العصر شيخ الأطباء الرئيس ابن سينا وكتابه «القانون» في الطب أشهر من أن يعرف.

وبعد الفترة اللامعة التي حكم فيها عضد الدولة قامت المنازعات بين أولاده على الحكم، فحاول اخوة بهاء الدولة اختلاس السلطة من أخيهم إلا أنهم أخفقوا مما شجع جند الديلم والأتراك الثورة على السلاطين الذين حكموا من بعد بهاء الدولة طالبين مرتباتهم التي لم تكن تؤدى لهم في أوقاتها لقلة الواردات. ولم تجيء سنة ٤٢٦ هـ الا واضمحل أمر الخلافة والسلطنة معاً في بغداد. وعظم أمر اللصوص والعيارين، وصاروا يأخذون الاموال ليلاً ونهاراً، ولا مانع لهم، وانتشر العرب في البلاد ينهبون النواحي والقرى ويقطعون الطرق حتى بلغوا أطراف بغداد. وقد حاول البويهيون في آخر أيامهم أن يعوضوا بالألقاب الفخمة ماخسروه من سلطة. فطلب جلال الدولة البويهي من الخليفة القائم سنة ٤٣٢ هـ أن يلقبه «ملك الملوك» فامتنع الخليفة اولاً ثم قبل بعد ذلك، وكذلك طلب آخر البويهيين خسرو فيروز من الخليفة القائم ان يلقبه «بالملك الرحيم» فكان له ما أراد. وفي زمن هذا السلطان دخل طغرلبك السلجوقي بغداد وازاله عن ملكه سنة ٤٤٧ هـ وانتهى بذلك حكم البويهيين.

الحالة الخارجية

كانت علاقة المسلمين مع البيزنطيين في هذا الدور سيئة، وكانت كفة البيزنطيين هي الراجحة على الأغلب، وذلك لانقسام المسلمين على أنفسهم، وانتقال الدفاع عن حدود الدولة الاسلامية

إلى الدويلات المستقلة ، لا سيما الحمدانيين . فقد أخذ سيف الدولة أمير الحمدانيين على نفسه حماية ثغور المسلمين من الروم ، إلا انه لم يكن موفقاً كل التوفيق ، لانه عندما كان المسلمون جبهة واحدة وجدوا صعوبة في اخضاع الروم والقضاء عليهم ؛ فكيف وقد تجزأت قواهم ، وأخذ بعضهم يقاتل بعضا ، حتى ويستعين بالروم على إخوانه المسلمين ؟ ومن جهة أخرى كان يحكم بلاد الروم أباطرة أقوياء من الاسرة المقدونية اشتهر منهم نقفور فوكاس ، وباسيل الثاني وغيرهما ، الذين توغلوا في بلاد المسلمين حتى وصلوا الى شيراز بقرب حماه من ناحية الداخل ، وبلغوا طرابلس من جهة الساحل الا انهم لم يتمكنوا من فتحها ، واستولوا على طرطوس وانطاكية وهما من أهم ثغور المسلمين . وظلت الحالة كذلك الى ان جاء السلاجقة ، فطردوا البيزنطيين من بلاد المسلمين ، واستولوا على جزء كبير من بلاد الروم ، وأسسوا دولة فيها دعيت « دولة سلاجقة الروم » كانت سبباً في قيام الحروب الصليبية .

الفصل الرابع

٤ – دور النفوذ السلجوقي المغولي

٤٤٧ – ٦٥٦ هـ او ١٠٥٥ – ١٢٥٨ م

حكم في هذا الدور إحدى عشر خليفة وهم : المقتدي ، والمستظهر ، والمسترشد ، والراشد ، والمقتفي ، والمستنجد ، والمستضيء ، والناصر ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعصم . ثمانية منهم تولوا الخلافة في الدور السلجوقي والثلاثة والآخرون في الزمن المغولي .

كان بعض هؤلاء الخلفاء امثال المسترشد والمقتفي أقوياء ، حاولوا أخذ الحكم من السلاجقة وإدارة شؤون البلاد الاسلامية بأنفسهم ، وأن يتعدوا السلطة الروحية التي كانت لهم إلى السلطة الحقيقية. فنازعوا السلاجقة في بغداد وخارجها ، وفي القصور ، وفي ميادين الحرب ، وكانت الغلبة في النهاية للسلاجقة . وقد تمكن المقتفي بعد أن حارب دولة بني مزيد القائمة في الحلة في قلب العراق وأخضعها أن يمد سلطانه لا على بغداد فحسب ، بل على العراق بكامله . إلا أن قوة هؤلاء الخلفاء الذين أظهروا بعض النشاط لم تكن مستمدة من الداخل أي من مساعدة شعبهم لهم ونصرته أياهم. وانما كانت مستمدة من الخارج أي من الاستعانة بقوى أجنبية هذه القوى كان قضاء الدولة العباسية على يدها . فعندما حاول الخليفة الناصر مثلاً التخلص من السلاجقة ، وأخذ السلطة منهم ، استعان بالمغول فلبوا دعوته كالسيل الجارف ، وجاؤا بثلاثة موجات جرفت الدولة العباسية وقضت عليها . وفي هذا الدور كانت دفة الحكم والعمل الحقيقي بين السلاجقة لذلك نتكلم عنهم .

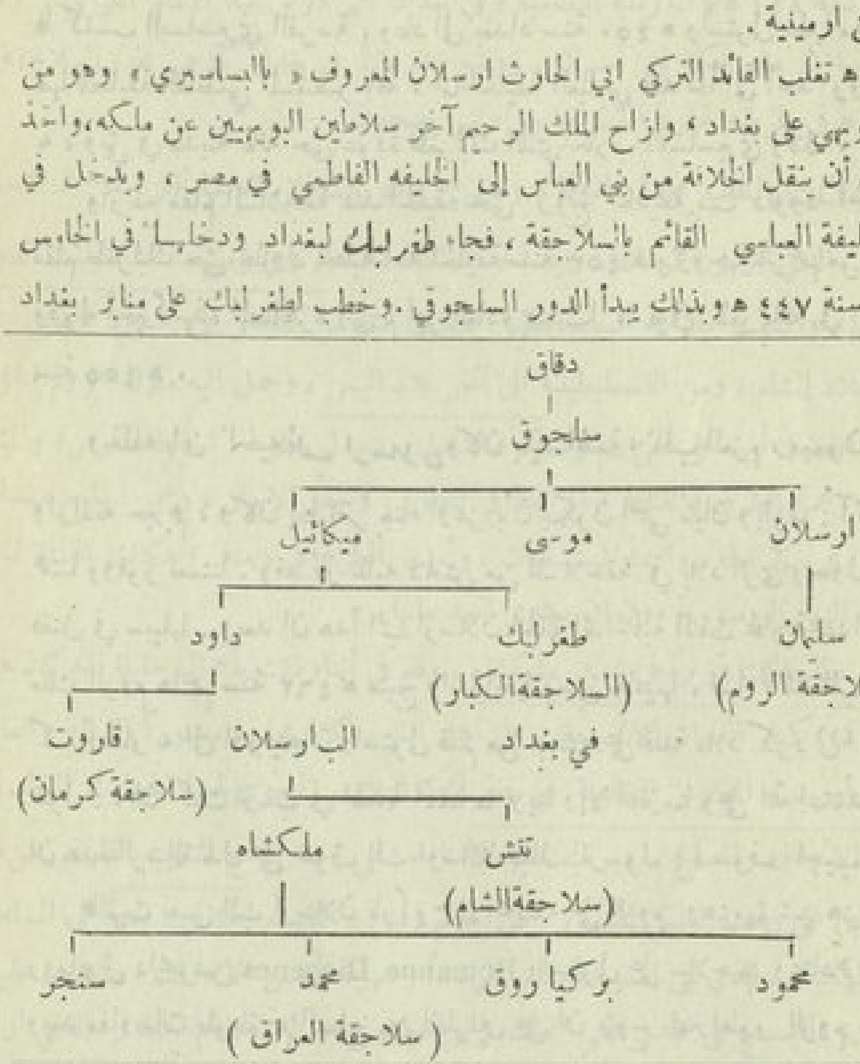
السلاجقة

السلاجقة جماعة من عشائر الغز إحدى القبائل التركية ، تنسب الى مقدمها سلجوق بن

دقاق (١) الذي كان مقيما مع قبيلته في بلاد تركستان في خدمة ملك الترك ، ولما كثر انصاره نزح مع قبيلته الى بخارى ، واعتنق الدين الحنيف ، ودخل في خدمة السامانيين واستفاد أولاده: أرسلان وميكائيل ، وموسى من المنازعات القائمة في البلاد الشرقية بين القوى المختلفة من بويهيين، وسامانيين وغزنويين وغيرهما ، وزادوا في الاضطراب والفوضى بما قاموا به من النهب والسلب وتقتيل الانفس، حتى تمكن ابناء ميكائيل : طغرلبك ، وداوود بعد حروب طويلة مع السلطان مسعود الغزنوي ان يستوليا على مرو ، وبلخ، ونيسابور ، وبلاد الري ويؤلفا دولة واسعة . وذاع اسم طغرلبك في البلاد، واخذ امراء البلاد المجاورة يبذلون الطاعة والخطبة اليه ، وانضمت اليه ديار بكر ، واصبهان ، واذربجان ، وقسم من ارمينية .

وفي سنة ٤٦٦ هـ تغلب القائد التركي ابي الحارث ارسلان المعروف « بالبساسيري » وهو من مماليك بهاء الدولة البويهي على بغداد ، وازاح الملك الرحيم آخر سلاطين البويهيين عن ملكه، واخذ السلطة منه ، وحاول أن ينقل الخلافة من بني العباس إلى الخليفه الفاطمي في مصر ، ويدخل في طاعته . فاستنجد الخليفة العباسي القائم بالسلاجقة ، فجاء طغرلبك لبغداد ودخلها في الخامس والعشرين من محرم سنة ٤٤٧ هـ وبذلك يبدأ الدور السلجوقي .وخطب لطغرلبك على منابر بغداد

(١)



تظهر هذه التقاسيم الفروع التي انقسم اليها السلاجقة ، والدول التي شكلوها في بغداد ، وكرمان ، والعراق ، والشام ، وبلاد الروم .

وقبض على الملك الرحيم وقضى على دولة البويهيين ، وهرب البساسيري الى الموصل . واقام الخليفة العباسي سنة ٤٤٩ هـ حفلة رائعة في بغداد لطغرلبك جلس فيها على كرسي مرتفع وعليه البردة النبوية ، ودخل عليه طغرلبك مع بعض جماعته ، وكان أعيان بغداد حاضرين ، فقبل طغرلبك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسي نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزيق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطي سيفاً بغلاف من ذهب ، وتوجه بتاجين يرمزان إلى سلطانه على العرب والعجم ، وخاطبه بملك المشرق والمغرب .

واضطر طغرلبك ان يغادر بغداد ليقمع الثورة التي قام بها إبراهيم ينال احد أقربائه من السلاجقة ، فاكتسب البساسيري الفرصة ، وعاد الى بغداد سنة ٤٥٠ هـ واستولى عليها مدة سنة واحدة خطب فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله . أما الخليفة العباسي فقد لجأ الى أحد رؤساء العرب واحتمى به ، وبقي في مدينة عانة حتى عودة طغرلبك الذي حارب البساسيري وقتله .

وارتفع مقام السلاجقة عند الخليفة حتى تزوج بخديجة بنت داوود اخي طغرلبك كما زهى مقام طغرلبك حتى تطاول لخطبة ابنة الخليفة سنة ٤٥٣ هـ وتزوجها بالرغم من ممانعة الخليفه في البدء وقبوله أخيراً بهذه المصاهرة التي لم تجر العادة بمثلها . توفي طغرلبك في دار ملكه في الري سنة ٤٥٥ هـ .

وخلفه ابن اخيه **ألب ارسلان** وكان بعيد الهمة ، ثاقب العزم ، ميمون النقيبة إلى بره بالرعية وارادته خيرهم ، وكان إذا امر ببناء اوعز بأن يكون اسمى بنيان ويقول : آثارهذه تدل على علو همتنا ووفور نعمتنا . وقد ثار عليه قتلمش من السلاجقة في بلاد الرى وحاول اخذ السلطة لنفسه فقتل في سبيلها . وبعد ان هدأ الب ارسلان الحالة الداخلية التفت لمحاربة اعدائه الخارجيين ، وكان ملك الروم هاجم سنة ٤٦٢ هـ منبج واستباحها وسبى حاميتها ، فساء ذلك الب ارسلان فجهز جيشاً كبيراً سار به الى اذربيجان واستولى قسم من جيشه على قلعة ملاذ كرد (١) وارسل الى ملك الروم يقول : « ان كنت ترغب في الهدنة اتممنا ما تريد وإلا اعتزمنا وعلى الله اعتمدنا » فظن ملك الروم ان هذه الرسالة تدل على خوف الب ارسلان فقال للرسول : « سوف اجيب عن هذا بالرى »

فالتهبت نفس الب ارسلان ناراً وحمل بجيشه على الروم وهزمهم شر هزيمة واسر ملكهم رومانوس دايجونس Romanue Diogenes واستولى على سلاحهم وعتادهم وغنم مغانم عظيمة . وبعد مفاوضات طويلة تم الصلح بين الطرفين على ان يزوج امبراطور الروم بناته من اولاد الب

---

(١) ملاذ كرد حصن مهم واقع في منتصف الطريق بين مدينتي ارضروم وبحيرة وان في ارمينية .

ارسلان ، ويفتدي نفسه وجميع الاسرى بمليون دينار ويدفع جزية سنوية قدرها ٣٦٠ الف دينار . ولما رجع رومانوس الى القسطنطينية خلعه شعبه وسملوا عينيه وقتلوه . وولى الب ارسلان ابن عمه سليمان بن قطلمش ولاية آسيا الصغرى وكان جندياً شجاعاً وحكيما مدبراً، الف دولة في بلاد الروم دعيت « سلاجقة الروم » جعل عاصمتها مدينة قونية ، وفرض على ملوك الروم الجزية ، وضايقهم حتى استنجدوا باهل الغرب لحمايتهم ونشأت على أثر ذلك الحروب الصليبية .

وقد اتخذ الب ارسلان **نظام الملك** وزيراً له واسند اليه تدبير المملكة ، فقام بهذه المهمة أحسن قيام وبنى سنة ٤٥٨ هـ « المدرسة النظامية » في بغداد التي درس بها الامام الغزالي . وقد جعل الب ارسلان مقر حكمه في أصبهان ، ووضع عنه نائباً في بغداد كما هي عادة السلاجقة ، وتوفي سنة ٤٦٥ هـ في طريقه لمحاربة الترك فيما وراء نهر جيحون .

وخلفه ابنه **ملكشاه** الملقب بجلال الدولة ، وقضى على الثورات التي قام بها أقاربه من السلاجقة لا سيما عمه قاورت الذي ثار في كرمان ، يريد أخذ السلطة لنفسه . وفي زمن ملكشاه بلغت الدولة السلجوقية أوجها ، واتسعت أملاكه أتساعا عظيما ، فكانت تمتد من كاشغر على حدود الصين الى بيت المقدس في بلاد الشام ، ومن القسطنطينية الى آخر بلاد اليمن ، وحمل اليه ملوك الروم الجزية ولم يفته مطلب وانقضت ايامه على أمن عام وسكون شامل ، وعدل مطرد ، اسقط المكوس ، والمؤن في جميع البلاد ، وعمر الطرق والقناطر والمرابط في المفاوز ، وحفر الانهار ، وعمر الجامع ببغداد ، وبنى المصانع بطريق مكة للماء ، وانشأ المستشفيات ، وأمنت الطرق في زمنه ، فكانت القافلة تسير من بلاد ما وراء النهر إلى سورية دون ان يعتدي احد عليها .

وقد استمر نظام الملك وزيراً في زمن ملكشاه ، وقام في أثناء ذلك بأعمال جليلة فقد كان هذا الوزير الفارسي من كبار العلماء وكان يعطف على أهل العلم ، فكان مجلسه معموراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين . أمر ببناء المدارس النظامية في سائر أنحاء البلاد ، وأجرى لها الجرايات العظيمة . وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ، ويرتب عليها الامناء ، وفي زمنه اصلح التقويم الفارسي من قبل هيئة من الفلكيين على رأسها الفلكي المشهور عمر الخيام ودعي « التقويم الجلالي » نسبة الى السلطان جلال الدولة ملكشاه ، الذي بنى لعمر الخيام مرصداً وجهزه بأحسن الأدوات ، وأجرى عليه الأموال الكثيرة مما شجع على تقدم علمي الفلك والرياضيات. وقد كتب نظام الملك رسالة في ادارة الدولة اسمها « سياسة نامة » تعتبر من أعظم ما كتب في هذا الموضوع . وفي آخر أيام نظام الملك وشى به أعداؤه الى السلطان ، وما زالوا في سعاياتهم حتى كتب اليه السلطان رسالة يعاتبه فيها ويقول

وانك استوليت على ملكي وقسمت ممالكي على أولادك وأصهارك ، اتريد أن آمر برفع دواة الوزارة من بين يدك ، وأخلص الناس من استطالتك ؟ » فكان جواب نظام الملك « قولوا للسلطان ان دواتي مقترنة بتاجك ، فمتى رفعتها رفع ، ومتى سلبتها سلب . » ويقال إن السلطان أو بعض أعوانه دبروا قتله ، فقضى نحبه بطعنة خنجر من بعض الفدائيين الاسماعيلية ، فخسرت الدولة بقتله مصلحاً عظيماً ومدبراً حكيماً .

وقد تزوج الخليفة المقتدى ابنة السلطان ملكشاه ، فحاول هذا أن يولي ابن الخليفة مكانه في الخلافة ويضم اليه السلطنة ، ليجعل الخلافة والسلطنة في نسل ابنته ، وحاول خنق الخليفة ، ثم طلب اليه أن يخرج من بغداد ، فاستمهله بضعة أيام ، مات في خلالها ملك شاه سنة ٤٨٥ هـ فأفرج عن الخليفة ، وذهبت أحلام ملكشاه أدراج الرياح .

وبموت ملكشاه انتهى دور السلطة والنفوذ عند السلاجقة ، وبدأ دور الانحطاط بسبب المنازعات التي قامت بين السلاجقة أنفسهم ، فقد طلبت « توكان خاتون » أرملة ملكشاه من الخليفة المقتدي أن يولي طفلها الصغير محمود على السلطنة ، فلبى طلبها ، ولقبه « ناصر الدنيا والدين » فقام أخوه الأكبر بركياروق ينازعه السلطنة ، وسلبها منه . فقام تتش عم بركياروق في دمشق مطالباً بالسلطنة لنفسه ، وفشل في مسعاه ، وكذلك قام أخوه محمد ونازعه السلطنة ، وكانت بين الاخوين مواقع هائلة .

وبينما كان السلاجقة يتنازع بعضهم بعضاً على السلطنة كان الصليبيون يغزون بلاد الشام ، وهؤلاء عنهم لاهون . وانقسموا الى دول تفرقت في أماكن مختلفة ، وليس من برنامجنا دراسة كل فرع من هؤلاء السلاجقة على حدة ، لذلك اكتفينا بذكر اهم السلاجقة العظام في بغداد وحسبنا ان نعدد أسماء بقية دول السلاجقة ومكان حكمهم وزمنه .

السلاجقة العظام : حكموا في بغداد . وملكوا خراسان والري والجبال والعراق والجزيرة وفارس والاهواز وامتد حكمهم ٩٣ سنة . من ٤٢٩ — ٥٢٢ هـ او ١٠٣٩ — ١١٢٧ م .

سلاجقة العراق : حكموا في العراق وكردستان وامتد حكمهم ٧٩ سنة من ٥١١ — ٥٩٠ هـ او ١١١٧ — ١١٩٤ م .

سلاجقة كرمان : حكموا في كرمان وامتد حكمهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ — ٥٨٣ هـ او ١٠٤١ — ١١٨٨ م .

سلاجقة الشام : حكموا في سورية وامتد حكمهم ٢٤ سنه . من سنة ٤٨٧ — ٥١١ هـ او ١٠٩٤ — ١١١٧ م

سلاجقة الروم : حكموا في آسيا الصغرى وامتد حكمهم ٢٣٠ سنة من ٤٧٠ — ٧٠٠ هـ او ١٠٧٧ — ١٣٠٠ م .

كان السلاجقة في ايام سلاطينهم يولون الاعمال والولايات قواداً من مماليكهم يسمونهم «الأتابكة» واحدهم «اتابك» وهو لفظ تركي معناه: «أمير أب» والمراد به ابو الامراء استعملوه اولا بمعنى الوزير ثم صار بمعنى الملك. وأخذ الأتابكة يستقلون شيئاً فشيئاً حتى اقتسموا المملكة السلجوقية فيما بينهم، الا الفرع الرومي في آسية الصغرى، فانه ظل في حوزة السلاجقة حتى أتى العثمانيون في أواخر القرن السابع هجري اي حوالي سنة (١٣٠٠) ميلادية وهم فرع آخر من قبائل الغز التي تفرع منها السلاجقة واستولوا على آسية الصغرى وشكلوا دولة عظيمة. وأشهر دول الأتابكة:

الدولة البورية حكمت في دمشق من سنة ٤٩٧ - ٥٤٩ هـ

الدولة الزنكية حكمت في الجزيرة والشام من سنة ٥٢١ - ٦٦٠ هـ

الدولة الأرتقية حكمت في ديار بكر وماردين من سنة ٤٩٥ - ٨١١ هـ

الدولة الخوارزمية حكمت في خوارزم من سنة ٤٧٠ - ٦٢٨ هـ

وغيرها كثير من الدول التي ظلت قائمة الى ان جاء المغول، فاكتسحوها كلها واستولوا عليها.

وفي هذا الدور ظهرت حركة الاسماعيلية او الباطنية.

الاسماعيلية:

الاسماعيلية وتعرف ايضاً بالباطنية وبالحشاشين (١) مؤسس هذه الحركة:

الحسن بن الصباح، ولعله من اصل فارسي من مدينة طوس، وقد ادعى ان نسبه يرجع الى ملوك الحميريين القدماء الذين كانوا يحكمون في جنوب الجزيرة العربية، وقد كان صديق نظام الملك في المدرسة، وعندما قعدت به الهمة عن الوصول الى مرتبة عالية في الدولة السلجوقية آلى على نفسه أن يعمل على تقويض دعائم الدولة العباسية، فالتحق بالخليفة الفاطمي المستنصر، واعتنق المذهب الباطني وتلقى بمصر اصول الدعوة الباطنية، وذهب الى بلاد المشرق رسولا من الفاطميين لنشر الدعوة الاسماعيلية، وكان اول ما فعله ان استولى على قلعة الموت Alamût، وتحصن بها وهي واقعه في شمالي غربي بحر قزوين على جبل البورز Alburz في موقع مرتفع حصين دعي «عش النسر» ومنه أخذ يبث دعوته وينشر دعاته الذين كانوا على مراتب ودرجات:

اعلاها مرتبة «شيخ الجبل» وهو الرئيس الاعلى وكانت كلمته مطاعة ونافذة وكانت اشارة منه تكفي لقتل من يريد وكان معظم اتباعه من الفدائيين. ويليه «داعي الدعاة» وهم ثلاثة يرأسون فروع الجمعية في بلاد الجبل، وكوهستان، والشام. ويليهم «الداعي» لقب يمنح لمن سبق ان تدرج في مراتب الجمعية السرية، وكان عمله بث الدعوة وقبول المدعوين. ويليه «الرفيق» وهو الذي

(١) سموا بالحشاشين لاستعمالهم الحشيش المخدر.

يتلقن : رويداً مبادىء الدعوة السرية ، ومن هذا القسم يتألف اكثر اعضاء الجمعية. واخيراً الفدائية، الذين يربون تربية خاصة لينفذوا اوامر شيخ الجبل ، ويقتلون بخناجرهم من يريد ، وقد قتل من قبل هؤلاء الفدائيين كثير من السلاجقة وانصارهم . وكانت التعاليم تصدر بالتدريج وتتبع ادق المراسيم ، والجميع ملزمون بالطاعة العمياء الى من فوقهم .

وقد حاول السلاجقة منذ زمن ملكشاه القضاء على هذه الحركة الخطرة وحاربوهم في قلاعهم إلا انهم لم يتمكنوا من استئصال شأفتهم ؛ وظلوا يعيثون في الارض فساداً إلى ان قضى عليهم هلاكو فاجتاح قلاعهم وقتل اكثرهم ومن بقي منهم تفرق في سورية ،وعُمان ، وزنجبار، والهند . ولايزال عددهم في الهند عظيما ، ويخضعون لزعيمهم « آغا خان »الذي يدعي انه من سلالة الحسن بن الصباح ويدفعون اليه ضريبة من اموالهم ينفقها على حياته الخاصة في اوربا.

اغارة التتر وسقوط بغداد

التتر والمغول

ينتسب التتر والمغول الى أصل واحد وهو الشعب التركي ، وكانوا يسكنون اصقاع منغوليا الشاسعة القاحلة ، في وسط آسيا ، ويعيشون حياة قبلية قوامها الشجاعة وحب الغزو والفروسية والصيد ، وبالرغم من جهلهم القراءة والكتابة فقد حفظوا انسابهم ، وتوارثوا عاداتهم ، وتناقلوا اخبار أبطالهم وسيرة كبار رجالهم ، وتناقلوها جيلا بعد جيل . واشتهر من قبائلهم نيرون Niroun التي انحدر منها جنكيز خان ، وكانت هذه القبائل بالنسبة الى المغول كاللؤلؤة بالنسبة لصدفتها ، وكالثمرة بالنسبة الى الشجرة . وتزايد عدد هذه القبائل ، وتكاثر أفرادها حتى ملأت السهول والبطاح ، وتفوقت على غيرها من القبائل التترية . واشتهر منهم ابطال اشداء منهم كوبلاي خان Coubilaï عم جنكيز خان وتبالغ الروايات عن شجاعته وقوة بدنه ، وبهادور خان Bahadour والد جنكيز خان وكان ذا مكانة كبيرة في قومه ، ورئيس قبيلة من اشهر القبائل المغولية ، وبينا كان عائداً من احدى غزواته في سنة ٥٤٩ ﻫ يجر خلفه الغنائم والاموال اذا بالبشير يزف اليه ولادة غلام مملوءة يده اليمنى بالدم ، وفسر ذلك المفسرون بان هذه علامة الظفر والمجد ، وانه سيكون من اعظم القواد ، فسماه « تموجين » باسم رئيس القبيلة التي انتصر عليها ، واشتهر فيما بعد « بجنكيز خان »

جنكيز خان (تيموجين) :

تعلم تيموجين في حداثته أمور السياسية والحرب على امهر المعلمين ، الا انه فجع بوفاة والده وهو لا يزال يافعاً في سن الثالثة عشرة ، فلم تطعه قبائل أبيه ، وخرجت عن طاعته وانضمت الى

قبيلة مغولية أخرى تدعى « تايدجوت » ، ولحسن حظ تموجين مات رئيس تلك القبيلة من غير وارث فتمكنت والدة تموجين « أم الغيوم Oulon Eké » بما لها من نفوذ شديد أن تستميل بعض هذه القبائل ، وتزعم ولدها عليهم ، وتمكن تموجين بما له من العقل الراجح والارادة القوية أن يستفيد من خصومات القبائل بعضها مع بعض ، وأن يجمع كثيراً منها تحت سلطته .

وقد وصف احمد بن عربشاه تموجين بقوله : «وكان جنكيز خان ممتازاً على اقرانه بوفور عقله ، وحسن بيانه ، فكر مصيب ، ورأي صائب ، وحزم مجيب ، وعزم ثاقب ، وهمة تباري الأفلاك ، وثبات يجاري السماك ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أعجمياً اعجزياً لايحسب ولاينسب ،لاطالع الاخبار ولا اقتفى في سياسة الممالك الآثار بل فرع ما فرعه من القواعد من صحيفة تفكيره ، وأخترع ما ابتدعه في تدبير الممالك من مطالعة هواجس ضميره ، فاسس قواعد وشيد مباني ، وركب تجهيز السرايا والجنود، وربط عقود الجيوش والبنود ... »

وانتقم تموجين من قبيلة تايدجوت التي أسرته في صغره وأذاقته صنوف العذاب ، فحاربها وتغلب عليها ورمى سبعين من رجالها في الماء الغالي وهم أحياء ، حتى هابته بقية القبائل المغولية وخشيه زعماءها . وأخذ اسمه ينتشر في مشارق الارض ومغاربها ، ولقب اثر انتصاره على احدى قبائل التتر بجنكيز خان « اي الملك الأعظم ».

فتوحاته الشرقية

انضم الى جنكيز خان حوالي سنة ٥٩٦ هـ قبائل مغولية متعددة ، بعضها بالسلم وأخرى بالحرب وكثر أتباعه فخرج بهم لفتح العالم فسار أولاً جهة الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبرطورها جزية على المغول يؤدونها في كل سنة ، فقطعها عنه جنكيز خان ، وزحف اليه بجيش بعدد الرمال وتغلب عليه سنة ٦٠١ هـ ودخل باكين عاصمة ملكه ، واستولى على الأقسام الشمالية ودمر ماينوف على ستة وتسعين مدينة بعد ان نهبها وأخذ كل ما يمكن حمله وأحرق القصبات والقرى التي مرّ بها وسبى النساء وقتل الرجال ، واستخلف ابنه في باكين وقفل راجعاً نحو الغرب ، بعد ان وطد حكمه في تلك البلاد وخضع له سائر امرائها وملوكها .

تنظيمه الدولة :

اتخذ جنكيز خان عاصمة ملكه مدينة « قراقروم » وبدأ في تنظيم ملكه وفي نشر الأمن والسلام في البلاد ، فقضى على اللصوص وقطاع الطرق ، ومنع النهب والغارات ، وأمر رؤساء الولايات والممالك بالحكم بالعدل بين أفراد الرعية والقضاء على المعتدين ، ووضع المنارات والعلائم والاشارات في الطرق فاصبح الأمن والسكون يخيم على مملكته ، فامه العلماء والكتاب والادباء ، وأصبح له حاشية من

أكابر الرجال وأذكياء رؤساء القبائل وعقلاء المملكة . ولم يكن للمغول خط ، ولم يكونوا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، فأمر علمـــاء مملكته أن يضعوا خطاً سماه « والخط المغولي » نسبة الى قبيلته ، وسن لهم قانوناً في كتاب سماه « السياسة الكبيرة » وكتب موادة واحكامه بالخط المغولي ، وجعل احكامه مؤسسة على الاعتقاد بالله واحد وسلطة خان واحد تنتخبه الأمة من العائلة الحاكمة ، وكان قومه سابقاً على المجوسية ، فتركهم على ماهم عليه ، ولم يتعصب لدين من الأديان ولا لملة من الملل وترك حرية الاعتقاد للجميع . وجعل للأمراء والأشراف امتيازات عظيمة ،وأمر بقتل من زنى ومن تعمد الكذب أو سحر أو تجسس ، وألزمهم ان لا يتميز احد بالشبع على اصحابه وان مر بقوم وهم يأكلون فله ان ينزل ويأكل معهم من غير إذنهم ، وليس لأحدمنهم منعه . ومنعهم من تفخيم الألفاظ ووضع الألقاب ، وانما يخاطب السلطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط . وألزم القائم بعده بعرض العساكر واسلحتها اذا اراد الخروج الى القتال . وحث قومه على الزواج وامرهم بالاعتناء بتربية الاولاد ، وتعليمهم ركوب الخيل ورمي النشاب ، وضرب السيف والسباحة وغيرها من مقومات الحرب ... ومنذ ذلك الزمن بدأ المغول يدخلون في طور الحضارة ، ويبتعدون عن حالة البداوة التي كانوا عليها .

خروج المغول إلى البلاد الاسلامية

إن الاسباب التي دعت جنكيز خان وقومه للخروج الى البلاد الاسلامية كثيرة منها : أن السلطان علاء الدين محمد شاه خوارزم اتسع ملكه كثيراً بعد ان قضى على السلاجقة ، وأصبح يحكم على البلاد الممتده من ما وراء النهر شرقاً الى الري غربا ، وسقطت في قبضة يده بلاد سجستان وكرمان ، وطبرستان ، وجرجان ، وبلاد الجبل ، وخراسان وفارس وما وراء النهر ، وقسم من افغانستان وبعض الهند وبعض العراق . « وطمع خوارزمشاه » وهو لقب السلطان علاء الدين في أن يتشرف بذكر اسمه على منابر بغداد ، فيخطب له بدل السلاجقة عليها،فابى الخليفة الناصر ذلك الناصر ذلك ، وكانت العلاقات متوترة بين الرجلين لطمع الخليفة في بعض بلاد « خوارزمشاه » ورده هذا عنها . فما كان من السلطان علاء الدين إلا ان قطع خطبة الخليفة الناصر في بلاده ، وبايع مكانهاحد افراد البيت العلوي ، وسار بجيوشه نحو بغداد ليعزل الناصر ويولي مكانه هذا العلوي عندئذ بدأ الناصر يسترضي خوارزمشاه ويستعطفه ، فلم يجده ذلك نفعاً ، ولولارداءة الجو وكثرة الثلوج التي اضطرته للوقوف لدخل بغداد .

شعر الخليفة بالخطر الداهم فاستنجد بالمغول ، كما هي عادة الخلفاء العباسيين بالاستعانة بالقوى الاجنبية عندما يضعف سلطانهم في بلادهم ، فاسرع جنكيز خان بجيوشه ملبياً طلب الخليفة،واجتاح

ويقال ان السبب الذي دعى جنكيز خان للخروج من بلاده هو انه أمر جماعة من اكابر رجاله وامرائه في سنة ٦١٥ هـ أن يجهزوا قافلة تجارية الى بلاد المسلمين ، ليرتبط القطران بعلاقات تجارية، ولكي تفتح المسالك والسبل وتتبادل البضائع بين الطرفين ، وتكثر المعاملات والاعمال بين الولايات فامتثلوا اوامره ، وجهزوا قافلة مؤلفة من ٤٥٠ نفس ومعهم الكثير من الأموال والنفائس والأمتعة وكتب لهم جنكيز مراسيم وجوازات باكرام نزلهم في الدروب ، وان تهيأ لهم ولدوابهم المطاعم والعلوفات وأن تسهل مهمتهم . سارت القافلة مجتازة بلاد ما وراء النهر وسمرقند وبخارى حتى وصلت إلى مدينة من بلاد الترك تدعى « أترار » وهي منتهى حدود خوارزمشاه ، وكان له نائبا فيها يدعى « غاير خان » فحبسهم عنده ، وارسل الى خوارزمشاه يعلمه بخبرهم وما معهم من الأموال الكثيرة والمتاجر الجثيمة . فامره ان يقتلهم ويأخذ مامعهم من الاموال والبضائع وينفذها اليه . فعمل ما أمره به ، فوزع علاء الدين محمد البضائع على تجار بخارى وسمرقند وأخذ منهم ثمنها .

بلغ الخبر جنكيز خان فغضب غضباً شديداً ، وثارت ثورته ، واستشار قواده واعوانه فقر رأيهم على ان يرسل رسالة الى السلطان خوارزمشاه يتهدده فيها ويعاتبه على عمله ، ويتوعده بالحرب اذا لم يرسل له حاكم اترار . فما كان من خوارزمشاه الا ان قتل الرسول وحلق لحا الجماعة الذين كانوا معه، وطليت وجوههم بالسواد ، واعادهم الى جنكيز خان ليخبروه بما فعل برسوله وليعلموه انه سائر اليه ولو كان في آخر الدنيا لينتقم منه وليقاتله . وكان هذا العمل مثيراً لجنكيز خان وداعياً لخروجه لمحاربة خوارزمشاه .

كان من الطبيعي لجنكيز خان وقومه ان يخرجوا من صحراء منغوليا القاحلة ويدخلوا ارض الاسلام الخصبة العامرة بعد ان تكاثر عددهم لدرجة ان ضاقت اراضيهم بهم وعجزت عن اطعامهم وسد حاجاتهم لا سيما وقد دعاه خليفة بغداد واثاره خوارزمشاه . فخرج بقوم يصفهم ابن الأثير في كتابه الكامل بانهم « لا يحتاجون الى ميرة ومدد يأتيهم ، فانهم معهم الاغنام والبقر وغير ذلك من الدواب يأكلون لحومها لا غير . واما دوابهم التي يركبونها فانها تحفر الارض بحوافرها وتأكل عروق النبات ولا تعرف الشعير » .

وكان جيش جنكيز خان بعدد الرمال كثرة وجنده من اشجع الناس واصبرهم على القتال ولا يعرفون هزيمة ، ويعملون ما يحتاجون اليه من السلاح بايديهم .

استعد خوارزمشاه للامر وجهز جيشاً غزا به اطراف تركستان ونهب بعض بيوت التتر ، وحمل ما فيها من النساء والصبيان ، فلحقه جموع التتر وجرت موقعة شديدة بين الطرفين كان جنكيز خان غائباً عنها استمرت ثلاثة ايام بلياليها خسر فيها الطرفان خسائر فادحة وانسحب

الطرفان بعد هذه المعركة ورجع خوارزمشاه مشعراً بقوة خصمه إلى بخارى وشرع بتقوية حدود بلاده وزاد في تحصينها ، فوزع على اهالي بخاري وسمرقند السلاح والاعتدة وعاد الى خوارزم وعسكر بجنده بقرب بلخ .

علم جنكيز خان بتعدي خوارزمشاه على ارضه فسار نحو الغرب واخذ يفتح المدن والامصار ويفتح القلاع ويقتل الرجال ويسبي النساء والأولاد وينهب ما يصادفه في طريقه من الاموال والامتعة استولى على بخارى سنة ٦١٦ هـ وهدم قلعتها ونهب مافيها واخذ الرجال اسرى بعد ما وعدهم الامان وسبى النساء وترك المدينة طعمة للنيران . وساق من معه من الاسرى امامه على اقبح حال وتوجه نحو سمرقند . وكانت قصبة ما وراء النهر وفيها من الجند خمسون الفاً محاصرون في القلعة . فخرج اليه من اهالي سمرقند ذوو الجلد والقوة والدين وحاربوا عسكر جنكيز فانبع هؤلاء الحيلة بان تقهقروا أمامهم حتى ابعدوهم عن معقلهم وكان المغول قد اعدوا كميناً يأتيهم من ، خلفهم ، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد وكر عليهم الباقون من الامام واعملوا السيف في رقابهم من كل جانب وقتل معظمهم ولما رأى ذلك الباقون بالبلد من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وايقنوا بالهلاك . فقال الجند نحن من جنس هؤلاء ولا يقتلوننا لاننا اتراك مثلهم ، فطلبوا الأمان فامنوهم وفتحت البلد ، فخرجوا الى المغول باهلهم وأموالهم فطلبوا منهم نزع سلاحهم فنزعوها ، فوضعوا السيف في رقابهم وقتلوهم عن آخرهم . واستولى جنكيز خان على سمرقند سنة ٦١٧ هـ وفعل جنده مثلما فعلوه ببخارى فدوى اسم المغول في البلاد فخاف منهم الناس وملئت قلوبهم رعباً وحذراً ولم يعد احد يستطيع مقابلتهم .

تمركز جنكيزخان في سمرقند وقسم جنده بين اولاده ، وأنفذهم لفتح البلاد وسير جنداً سميت « التتر المغربة » لملاحقة السلطان خوارزمشاه الذي انهزم امامهم لا يلوي على شيء تاركاً بلاده طعمة للمغول ، والتجأ الى جزيرة في بحر قزوين وتوفي فيها سنة ٦١٧ هـ .

كانت البلاد تسقط بيد المغول دون حرب ولا قتال فاستولوا على خراسان والري واذربيجان وبلاد الكرج وخضع لهم الروس والقفجاق ، وحاربوا البلغار كما ان فئة أخرى من التتر استولت على بلخ سلماً سنة ٦١٧ هـ كما استولوا على طوس ومرو ونيسابور وهراة . وكانوا يستخدمون اهالي البلاد في حروبهم ، ومن امتنع قتلوه ، وحاربهم جلال الدين بن خوارزمشاه ودافع عن غزنه وانتصر عليهم . عندها تنفس المسلمون الصعداء وقويت قلوبهم وعلموا ان التتر يمكن ان يغلبوا . الا أن خلافاً نشب بين جلال الدين وبعض قواده من أجل الغنائم انقسم بها جيشه وضعف عن صد المغول عن بلاده وانهزم الى الهند فاراً من وجه جنكيزخان .

وتم لجنكيز خان تأليف مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تمتد شرقاً من بلاد الصين وتنتهي غرباً الى بلاد العراق وتمتد شمالا الى بحر قزوين وبلاد الروس وتدنى جنوباً بلاد الهند.

ولما شعر جنكيز خان بقرب أجله قسم ممالكه بين ابنائه الأربعة وهم: جوجي، وجغطاي، وتولي، واوكداي. واشتد عليه المرض وتوفي سنة ٦٢٤ ﻫ ١٢٢٧ م.

هولاكو وسقوط بغداد

هولاكو حفيد جنكيزخان تولى بلاد خراسان وما وراءها من البلاد بعد وفاة ابيه — تولي خان — سنة ٦٥٤ ﻫ، وكان يحكم الدولة العباسية في ذلك الزمن الخليفة المستعصم (٦٤٠-٦٥٦ﻫ) الذي كان ضعيف الرأي، لين الجانب سهل الاخلاق، قليل الخبرة بامور المملكة، مطموعاً فيه غير مهيب في النفوس، ولا مطّلع على حقائق الامور، وكان يقضي اوقاته بسماع الاغاني، والتفرج على المساخرة، وعرف عهده بنشوب الفتن والاضطرابات لاسيما بين السنة والشيعة. وقد حدث في أواخر عهده أن أغار أهل السنة على الكرخ (وهو حي الشيعة في بغداد) فاهانوا أهله واسرفوا في قتلهم ونهب دورهم. وكان ذلك بأمر ابي بكر احد اولاد الخليفة المستعصم، فاستاء وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي — وكان من الشيعة — من هذه المعاملة، وكاتب هولاكو يحرضه على الشخوص الى بغداد وطمّعه فيها، فسار بجيوش جرارة قاصداً بغداد، وفي طريقه قضى على الاسماعيلية وهدم قلاعهم. وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ ﻫ نزل على بغداد ونصب آلات الحصار حولها، وامطرها بوابل من الحجارة والنفط المشتعل، حتى احدث فجوة في اسوارها، فطلب الخليفة المستعصم الصلح على شرط أن يُبقي على حياته، وحياة سكان المدينة، واستأذنه بتحريض من وزيره ابن العلقمي في الخروج الى معسكره، فاذن له بصحبة أخوه وولداه وحاشيته المؤلفة من كبار القضاة والاشراف ودخلت جيوش هولاكو بغداد، وعملت فيها النهب والقتل، وظلت شوارع المدينة تنساب فيها الدماء طوال ثلاثة ايام، حتى اصطبغ ماء دجلة لمدة أميال باللون الاحمر، وظلت ريح التخريب والهدم تعصف بالمدينة ستة اسابيع حتى انهارت القصور المنيفة وتقوّضت الجوامع المقدسة، والضرائح الفخمة اما بالنار او بالمعاول من أجل قبابها الذهبية. والتهمت النيران نتاج قرائح العلماء والأدباء، والقيت الكتب التي فيها لتلتهمها الدن النار او تبتلعها مياه دجلة وهكذا فقدت الانسانية كنوز خمسة قرون، وفنيت زهرة الامة فناء تاماً، وقد عبر الكاتب الانكليزي براون عن هذا الحادث بقوله: « ان استيلاء المغول على بغداد كان ضربة قاضية على الثقافة العربية: فان نهر دجلة الذي يمر في بغداد ظل بضعة ايام اسود اللون من حبر المخطوطات التي القيت فيه! » ويقول ابن الاثير في ذكر هذا الحادث: « ان اغارة المغول هي الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي

عفت الايام والليالي عن مثلها ، عمت الخلائق ، وخصت المسلمين ، فلو قال قائل ان العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى بني آدم الى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها » ويقول ابن خلدون : إن ١،٦٠٠،٠٠٠ هلكوا في تلك المذبحة خلال ستة أسابيع .

وقتل هولاكو الخليفة المستعصم واولاده وكثير من افراد أسرته وبعض حاشيته ، وقضى على الدولة العباسية التي ظلت قائمة نحو ٥٢٤ سنة .

زحف هولاكو بجيشه نحو بلاد الشام ، وخرب المدن التي مر بها لاسيما حلب التي قتل (٥٠) الفاً من اهلها . واضطر هولاكو أن يعود الى بلاد فارس عندما علم بوفاة أخيه ، وبترك قسماً من جيشه ليتم فتح سورية ، الا أن هذا الجيش هزم بقرب قرية « عين جالوت » على مقربة من الناصرة بفلسطين من قبل السلطان « بيبرس » من سلاطين المماليك في مصر ولاحق بيبرس المغول وطردهم خارج بلاد الشام ، وانقذ البلاد من شرهم .

استدعى بيبرس أحد أفراد البيت العباسي . الذي كان قد نجا من مذبحة المغول الى مصر ، واستقبله استقبالاً عظيماً ، وبعد أن أجريت المراسيم الرسمية بأثبات نسبه أمام قاضي القضاة ، بويع بالخلافة ولقب « بالمستنصر بالله » واول من بايعه بيبرس ثم قاضي القضاة ومن بعدها كبار العلماء والاشراف حسب درجاتهم وكان ذلك في ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ ، ونقش اسم الخليفة على العملة ودعي له في الخطبة ، وازدهرت الخلافة العباسية من جديد في ظل مماليك مصر ، وأصبح مركزها القاهرة وقد بقيت الخلافة منصباً دينياً محضاً ، وتركت السلطة الفعلية لسلاطين المماليك ، وبقي الأمر كذلك حتى دخول السلطان سليم العثماني الى مصر وقضائه على دولة المماليك ، ونقل الخلافة الى الاتراك العثمانيين ، وقد زالت الخلافة نهائياً من العثمانيين بعد انكسارهم في الحرب العامة واعلانهم النظام الجمهوري سنة ١٩٢٣م .

اسباب سقوط الخلافة العباسية :

يرجع اسباب سقوط الخلافة العباسية الى عدة امور منها :

١ – ضعف العصبية العربية وتقريب العناصر الاعجمية من فرس ، وترك ، وديلم ، ومغول .

٢ – اختلاف رجال الدولة على السلطة والزعامة السياسية لاسيما الوزراء ، والحجاب ، والقادة مما سبب انفراط حبل الأمن وقيام الفوضى في جميع أنحاء المملكة .

٣ – اختلاف البيت العباسي واضطهاد بعض الخلفاء لأهله كالقاهر مثلا ، مما قلل هيبة العباسيين في أعين الناس ، وسبب عدم احترامهم لهم .

٤ – كثرة المنازعات الدينية بين السنة والشيعة ، وبين الحنابلة وغيرهم من اصحاب المذاهب الاخرى ،

وبين المسلمين وأهل الذمة كل ذلك مما أوجد هوة سحيقة بين أفراد الدولة العباسية .

٥ ــ قيام الحركات الدينية من قبل الخوارج ، والمعتزلة ،والراوندية ، والقرامطة والاسماعيلية، والشيعة الذين كانوا يطالبون بالخلافة مما فت في عضد الدولة وجعلها في وضع تعجز فيه عن المقاومة .

٦ ــ استمرار الحروب الخارجية مع البيزنطيين والصليبين والتتر ، مما انهك قوى الدولة وانفذ كثير من ماليتها .

٧ ــ اختلال الادارة بسبب فساد نظام ولاية العهد ، وتوليته لأكثر من شخص واحد ، وتدخل الخدم في شؤون الدولة ، ومصادرة العمال والوزراء ، وسعة المملكة العباسية .

٨ ــ قيام الدويلات المستقلة في مختلف نواحي الدوله ، وانفصالها عن الخلافة المركزية في بغداد ، ومنازعتها مع السلطة المركزية وفيما بينها .

٩ ــ تأخر الحياة الاقتصادية بسبب النظام الاقطاعي الذي انتشر في الدولة ، وكثرة الضرائب، وتعطيل أقنيـة الماء ، وانقطاع سبل التجارة بسبب الاضطراب وعدم الأمن في البلاد . وانتشار الأوبئة والأمراض في كثير من السنين .

١٠ ــ تفاقم المفاسد الاجتماعية من تسري ؛واقتناء جواري وخصيان ، وتدخل الخدم في شؤون العائلة ، واستهتار كثير من الخلفاء وانغماسهم في اللهو والمجون . . .

خلاصة الدولة العباسية :

تولى العباسيون الخلافة الاسلامية سنة ١٣٢ ه حيث بويع لأولهم ابي العباس عبد الله السفاح بالكوفة ، واستمرت خلافتهم الى سنة ٦٥٦ه حيث سقط عبد الله المستعصم قتيلا بين يدي هولاكو المغولي من اعقاب جينكيز خان. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني امية ، وجاءت رايات التتر من المشرق فثلت عروشهم من بغداد زهرة المشرق وزينة الدنيا . فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم ، استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استخلف فيها منهم ٣٧ خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو ١٤ سنة واكبر مدة كانت خلافة الناصر كانت خلافته ٤٦ سنة واقلها خلافة ابن المعتز وكانت يوماً واحداً . وكان من اعظم اسباب انحلال دولتهم ضعف العصبية العربية وتحكم الاعاجم فيهم وفساد الاخلاق .

الباب الخامس

الدويلات المستقلة

لا يمكننا أن نذكر جميع الدويلات التي استقلت عن العباسيين لان ذلك خارج عن نطاق برنامجنا، وقد ألمحنا سابقاً بصورة موجزة الى بعض هذه الدويلات وتبين لنا متين علاقتها بالخلافة العباسية. وسنذكر فيما يلي بعض الدويلات المستقلة مبتدئين من شرقي الدولة العباسية ومتجهين نحو الغرب بحسب الترتيب الجغرافي.

١ — الدولة الغزنوية

٣٥١ — ٥٨٢ ﻫ او ٩٦٢ — ١١٨٦ م

الدولة الغزنوية: من أصل تركي مركزها مدينة غزنة الواقعة ما بين خراسان والهند مؤسسها جندي تركي كان يخدم عند السامانيين يدعى البتكين. بدأ حياته العسكرية في الجيش كبقية غلمان الاتراك، ثم ارتقت رتبته الى قيادة فرقة الحرس. وعين سنة ٣٥٠ حاكماً على خراسان، وما لبث ان خرج على الدولة السامانية وانتقل الى المناطق الشرقية، واستولى على غزنة في افغانستان وجعلها مركزاً لحركته، واعتصم بها من جيوش السامانيين. وتوفي سنة ٣٥٢ ﻫ.

خلفه ابنه اسحاق ولم يكن كأبيه قوة واقتداراً، فاستولى على السلطة: «سبكتكين» احد غلمان البتكين وصهره. وهو المؤسس الحقيقي للدولة الغزنوية. كان ذا عقل، وعفة، ودين، وجوده رأي، وحزم، اكتسب محبة الناس وجعل نفسه كأحدهم في الحال والمال. وكان يدخر من إقطاعه مايعمل منه طعاماً لهم في كل اسبوع مرتين، وكان جنده يطيعونه طاعة تامة، فغزا بهم ماجاوره من بلاد الهند حتى وصل الى البنجاب، وخافه ملوك تلك البلاد ودفعوا له الجزية.

وفي سنة ٣٨٤ استنجده الأمير نوح بن منصور الساماني ليخضع الفتن في بلاد خراسان، فجاء اليه بجيش كبير وقمع الفتنة واستولى على خراسان فكافأه الأمير نوح بأن لقبه «بناصر الدولة» واعطى ابنه محمود ولاية خراسان وسماه «سيف الدولة»، واعترف الخليفة العباسي القادر بسبكتكين وبدولته وأرسل له الخلع والراية. توفي سبكتكين سنة ٣٨٧ وعهد لابنه الصغير اسماعيل بالملك، فنازعه اخوه محمود على السلطة وكتب اليه من نيسابور يقول: ان أباك إنما عهد اليك لبعدي عنه، وذكره ما يتعين من تقديم الكبير على الصغير، وطلب منه الوفاق وانفاذ ما يخصه من تركة ابيه.

فلم يفعل ذلك اسماعيل ، فنشب القتال بين الأخوين ، انتصر فيه محمود واستولى على غزنه ، وعامل أخاه معاملة حسنة ، ولما تم له الأمر عاد الى بلخ ، وأزال الخطبة في خراسان عن السامانيين، وخطب للخليفة القادر سنة ٣٨٩ فخلع عليه الخليفة لقب « يمين الدولة وامين الملة » وخضع له امراء البلاد المجاورة ، ودخلوا في طاعته .

اعمال محمود الغزنوي الحربية

توجه محمود نحو الشرق ، وغزا بلاد الهند ، وقام بما ينوف عن (١٧) حملة الى تلك البلاد ، وصل في أثنائها الى نهر الغانج واستولى على البنجاب ، ولاهور ، والملتان ، وقسم من بلاد السند وكان لهذه الفتوحات أثر عظيم في نشر الاسلام في تلك الجهات ودعم مذهب السنة فيها . وخرب محمود كثير من معابد الهنود وحطم الاصنام التي فيها فلقبه الهنود « بمحطم الاصنام » اي (الباتشكان) ولقبوه ايضاً « بالغازي » ، وهو أول من لقب من المسلمين بهذا اللقب وغنم من تلك المعابد والبلاد غنائم عظيمة . انفقها في سبيل تحسين بلاده ونشر الثقافة فيها . وبعد أن وطد محمود ملكه من ناحية الشرق التفت لجهة الغرب ، فاستولى على الري والجبال ، واصبهان من البويهيين ، وخضع له ملوك طبرستان، وجرجان، وأصبح يملك مملكة واسعة.

اعمال محمود الثقافية

اهتم محمود في اصلاح مملكته وتعميرها لا سيما غزنة التي كانت تنافس بغداد وقرطبة والقاهرة بجمال مبانيها وقيام الحركة الثقافية فيها فجاب اليها العلماء والادباء من عرب وفرس وهنود ، وفتح بلاطه لرجال العلم والادب فقصده الشعراء امثال الشاعر الفارسي « الفردوسي » صاحب « الشاهنامه » وهي ملحمة مؤلفة من ستين الف بيت شعر قدمها مؤلفها للسلطان محمود ، فكافأه عليها بستين الف درهم فاستقل الشاعر المبلغ وخرج من عنده غاضباً ، هاجياً اياه بقصيدة شديدة . واشتهر ايضاً في بلاطه المؤرخ « ابو الريحان البيروني » صاحب كتاب « الآثار الباقية في القرون الخالية » و« تاريخ الهند » واشتهر ايضاً المؤرخ « العتبي » الذي كتب تاريخ السلطان محمود وعنونه بلقبه « اليميني » واشتهر غير هؤلاء كثيرون من شعراء وأدباء زها بهم بلاط السلطان محمود الغزنوي .

انقراض الدولة الغزنوية

توفي السلطان محمود سنة ٤٢١ وعهد بالملك من بعده لابنه محمد ، وكان أصغر من أخيه مسعود فتنازع الاخوان على الملك ، وانتصر مسعود في هذا النزاع وأخذ الحكم من أخيه . كان مسعود شجاعاً قوياً حاول أن يتبع خطوات ابيه في فتح بلاد الهند ، وفيما وراء النهر ، الا انه اصطدم بالسلاجقة ، وجرت معركة بين الطرفين بقرب مدينة هراة سنة ٤٣١ دارت الدائرة فيها على

الغزنويين ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الضعف يتسرب الى قلب الدولة الغزنوية ، وأخذ أفراد البيت الغزنوي يتنازعون على السلطة ، فانفصلت عنهم بعض المناطق الهندية ، وتشكلت فيها امارات مستقلة . وكان لقيام الدولة السلجوقية في الشمال والدولة الغورية من الجنوب الضربة القاضية على الدولة الغزنوية ، فاخذت أملاكها تتقاص وتنضم لهاتين الدولتين حتى لم يبق لها الا بعض المراكز في الهند التي خسرتها نهائياً في زمن تاج الدولة « خسرو ملك » سنة ٥٨٢ على يد الدولة الغورية .

ان أهمية هذه الدولة ترجع الى ثلاث نواحي :

اولاً الى الفتوحات التي قامت بها في بلاد الهند

ثانياً الى نشرها الاسلام والثقافة الاسلامية في تلك البلاد ، وأصبح يوجد اكثر من ثمانين مليون مسلم في بلاد الهند والسند في الوقت الحاضر

ثالثاً الى الحركة الثقافية التي ازدهرت في غزنة وتركت لنا ثروة أدبية وعلمية قيمة .

٢ – الدولة الحمدانية

٣١٧–٣٩٤ هـ – او ٩٢٩ – ١٠٠٣ م

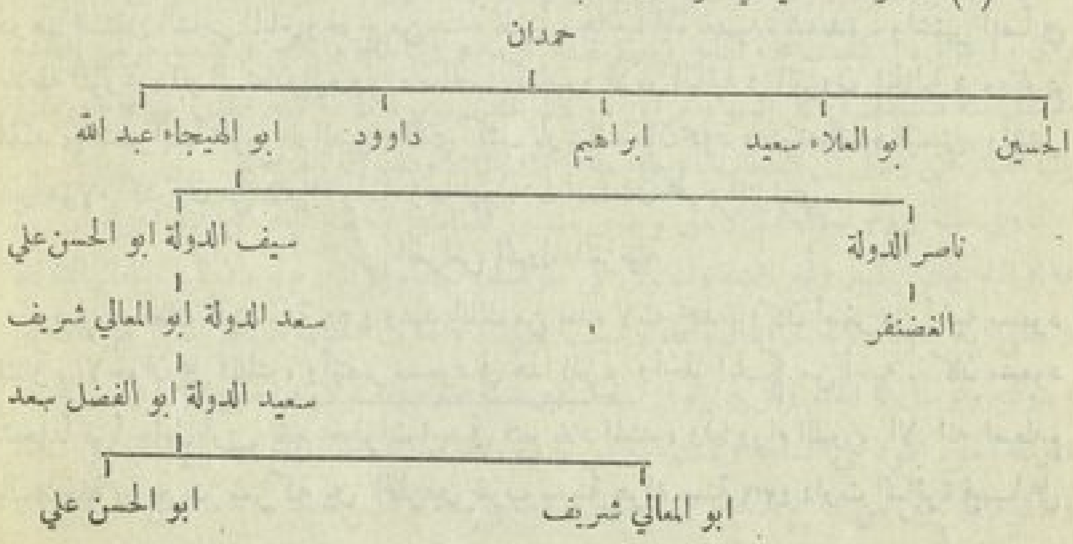
الدولة الحمدانية من اصل عربي ، قامت في الموصل وحلب (١) وستتكلم اولاً عن حكم الحمدانيين في الموصل ، ثانياً عن قيام دولتهم في حلب .

الحمدانيين في الموصل

تنسب هذه الدولة الى زعيم عربي ، من قبيلة تغلب اسمه حمدان بن حمدون استقل في سنة

---

(١) الاسرة الحمدانية في الموصل وحلب :



في سنة ٢٨١ هـ في قلعة ماردين على حدود ارمينية ، وتحصن بهـا ، وكان ذلك في خلافة المعتضد فلما علم الخليفة العباسي بخبره جهز جيشاً كبيراً سار به الى ماردين ، واتصل الخبر بحمدان فانهزم في جوف الليل وترك القلعة لابنه الحسين ، الذي دافع عنها دفاع الأبطال . فلم يستطع الخليفة أن يستولي عليها ، ورجع بجيشه الى الموصل ، وكتب إلى حمدان يطلب اليه الخضوع فابى ،عندئذ جهز جيشه للمرة الثانية ، واناط امره بنفير واحد من كبار قواد الترك ، وسار هو على رأس الجيش الى ماردين ، وأخضع ابن حمدان واضطره لأن يفتح باب القلعة للخليفة الذي لم تكد تطأ خيوله أرضها حتى أمر بهدمها ، بعد ان نقل كل مافيها من ذخائر ونفائس الى بغداد . وأرسل من يتعقب حمدان . وقبض عليه ، وزجه في السجن .

وفي هذه الفترة ظهر في الجزيرة الفراتية خارجي يدعي هارون الشاري ، كان رجلاً مغامراً ولديه قوة كبيرة ، ورجال أشداء ، وكان كلما أرسل اليه الخليفة جيشاً هزمه . فرأى المعتضد أن يستعين بالحمدانيين ، وان يضرب الحديد بالحديد. فندب الحسين بن حمدان لهذه المهمة ، فقال له الحسين إن أنا جئت به فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداها اطلاق أبي ، وحاجتان اذكرهما بعد مجيئي . فأجابه المعتضد الى ذلك . فمضى مع جند اختاره حتى لقيه ، فحاربه وهزمه ، ثم مازال يتبعه حتى ظفر به ، فأخذه اسيراً وأحضره للمعتضد ، فخلع الخليفة عليه وطوقه وخلع على إخوته، وأمر بفك ابيه والتوسعة عليه والاحسان اليه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتألق نجم الحمدانيين ويزداد نفوذهم.

توفي المعتضد سنة ٢٨٩ هـ وخلفه ابنه المكتفي ، وسار على خطة أبيه من الثقة بآل حمدان ، فولى أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان ولاية الموصل واعمالها ويعتبر أبو الهيجاء المؤسس الحقيقي للدولة الحمدانية . استعان الخليفة به لاخضاع الأكراد ، فقام بالمهمة أحسن قيام ، وأجبرهم على الخضوع والاستسلام . وكان افراد البيت الحمداني تارة يثورون على الخلفاء واحياناً يتفقون معهم لاسيما الحسين بن حمدان الذي كان يطمح دائماً في ولاية من العباسيين ولما فشل في مسعاه أخذ يدس الدسائس ضدهم ويتآمر عليهم ، حتى علم المقتدر بأمره فقتله . اما أبو الهيجاء فقد عزل مرات عديدة عن ولاية الموصل ثم اعيد اليها الى ان توفي سنة ٣١٩ هـ وتولى مكانه ابنه ناصر الدولة؛ وكان شديد الهيبة ، صلب الفؤاد ، أخضع ثورات كثيرة واستقل في الموصل ، وحبس عن الخليفة الراضي الأموال وانفصل عنه . فجهز الخليفة جيشاً بقيادة أبي العلاء سعيد بن حمدان ليحارب اخيه في الموصل ولما التقى الجمعان قتل أبي العلاء سعيد وتفرق جيشه . فسير الخليفة الراضي وزيره ابن مقلة بجيش كبير استولى به على الموصل وجبى خراجها ، وهرب ناصر الدولة متوغلاً في الجبال ، وما أن عاد ابن مقلة الى بغداد حتى رجع ناصر الدولة الى الموصل ، وطرد عامل الخليفة وأعلن ولايته من جديد .

ساءت الحالة في هذه الفترة في بغداد، وقام العمال والوزراء يتنازعون على منصب أمير الأمراء فأدلى ناصر الدولة دلوه بين الدلاء، وتقرب من الخليفة المتقي، وزوج ابنته من ابن الخليفة، وعند ماطمع البريدي في الاستيلاء على بغداد استنجد الخليفة المتقي بناصر الدولة الحمداني، فأرسل اليه أخاه علي على رأس جيش كبير لم يكد يصل به الى تكريت، حتى التقى بالخليفة وابن رائق فعاد بهما الى الموصل، وهنا دبر ناصر الدولة قتل ابن رائق وخلع الخليفة على ناصر الدولة لقب أمير الامراء ولقب أخاه علياً بسيف الدولة. وعاد الخليفة برافقه ناصر الدولة وسيف الدولة الى بغداد، ومكنا للخليفة مقامه في عاصمة أجداده، وحاربا البريدي الذي نزح الى واسط ثم الى البصرة، وبعد حكم دام سنة في بغداد عجز فيه ناصر الدولة عن القيام بمهمة امير الامراء اعتزل هذا المنصب ورجع الى الموصل. فاختار الخليفة المتقي اكبر قواد الديلم «توزون» لهذا المنصب، ثم استوحش منه فترك بغداد ملتجأ الى ناصر الدولة، فلحق به توزون واستولى على الموصل بعد معركة دامية، وهرب الخليفة وناصر الدولة الى، نصيبين، وجرت وساطات الصلح بين الطرفين، انتهت بأن يدفع ناصر الدولة في كل سنة مبلغ ثلاثة ملايين وستمائة الف درهم الى توزون. وتوفي ناصر الدولة سنة ٣٥٨ هـ بعد حكم دام (٤٠) سنة. استولى خلالها على الموصل، وديار بكر، وديار ربيعة، وتولى منصب امير الامراء. ويعتبر زمن حكمه أزهى ماوصلت اليه الدولة الحمدانية في الموصل.

خلفه ابنه الغضنفر الذي حكم حتى سنة ٣٦٩ هـ ودخل في طاعة البويهيين الذين تغلبوا على بغداد، واصبح من جاء بعده من الحمدانيين عمالاً عند الدولة البويهية حتى سنة ٤٦٥ هـ.

الحمدانيين في حلب

إن اهمية الحمدانيين ترجع الى الدور الذي لعبوه أيام حكمهم في حلب، وليس الى زمن حكمهم في الموصل، وذلك لسببين اولاً: لما قام به سيف الدولة في الدفاع عن البلاد الاسلامية في وجه البيزنطيين. ثانياً: لشخصية سيف الدولة الفذة، وعطفه على الادباء والعلماء، ورعايته لهم واستقبالهم في بلاطه بحلب، واغداق الاموال عليهم. ولهذين السببين اشتهر سيف الدولة وخلد اسمه في سجل التاريخ.

سيف الدولة:

ولد سيف الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي سنة ٣٠٣ هـ في ميافارقين أشهر مدن ديار بكر، واستولى على حلب سنة ٣٣٣هـ ودخلها فاتحاً بعد ان انتزعها من أحد قواد الاخشيد سيد مصر، فأرسل له الاخشيد حملة كبيرة بقيادة اكبر رجاله كافور، فالتقى الجمعان بالقرب من

حمص . فانهزم كافور وتبعه سيف الدولة الى دمشق وجرت معركة انكسر فيها سيف الدولة. وجرى صلح بين الطرفين على ان تبقى دمشق وما في جنوبها بيد الاخشيديين ، ويأخذ سيف الدولة حلب وحمص وانطاكية . وبعد ان وطد سيف الدولة مركزه في الداخل التفت لقتال اعدائه البيزنطيين في الخارج .

حروبه مع البيزنطيين :

قاد سيف الدولة الجيوش بنفسه لقتال الروم ، ولم تكن تمضي سنة دون ان يجري قتال بين الطرفين . ولم يكن في جميع حروبه موفقاً ، فكثيراً ما كان ينهزم امام عدوه ناجياً بنفسه من الموت إلا انه قام بواجبه كأمير عربي حاول الدفاع عن بلاده. وكان يتبادل الثغور مع الروم ، فحيناً تسقط بيده ، واخرى ينتزعونها منه . فكانت مرعش ، وطرطوس ، وخرشنة ، وملطية ، ومصيصة ، والحدث ، وعين زربة وغيرها تعاني أشد البلاء من هذا النزاع . ولا يسعنا ان نتكلم عن كل هجوم قام به البيزنطيون ، او كل معركة خاضها الامير الحمداني ، وإنما اكتفي بذكر حادثين الاولى انتصر بها سيف الدولة على اعدائه ، والثانية اجتاح بها الروم مدينة حلب ، لتبين الاثر الذي كانت تجره تلك المعارك على كلا الطرفين . في « سنة ٣٤٣ هـ غزا سيف الدولة البلاد الرومية ، وكان له بها نصر عظيم . وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمستق ، وقد عظم مقتله على ابيه ، فجمع عساكره من الروم ، والروس ، والبلغار وغيرهم ، وقصد الثغور ، فسار اليه سيف الدولة ، فالتقوا عند الحدث في شعبان ، فاشتد القتال وصبر الفريقان ، وكانت العاقبة للمسلمين ، فانهزم الروم وقتل منهم ومن معهم خلق عظيم ، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته . والدمستق عند الروم الرئيس الاكبر للجيش ، والبطارقة قواده . » والحادث الثاني الذي يظهر غلبة الروم على سيف الدولة هو انه : « في سنة ٣٥١ هـ استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة سيف الدولة ، فخرج عنها سيف الدولة منهزماً بعد ان قتل اكثر اهل بيته ، وظفر الدمستق بأموال سيف الدولة واسلحته وكنوزه ، وخرب داره التي كانت بظاهر حلب ، وسبى من حلب وحدها بضعة عشر الف صبي وصبية ، وقتل اكثر من ذلك . ولما لم يبق مع الروم ما يحملون عليه غنائمهم أمر الدمستق باحراق الباقي ، وأحرق المساجد واقام بحلب تسعة ايام ، ثم اراد الانصراف عنها ، فانصرف عازماً على العودة وظهر بذلك غلبة الروم على المسلمين سنة . » وسبب رجحان كفة البيزنطيين على المسلمين يعود الى ان الروم كان يحكمهم أباطرة من الأسرة المقدونية كما مر معنا التي حكمت ما بين سنة (٨٦٨-١٠٥٧)م واشتهر منهم نيقفور فوكاس ، وباسيل الثاني وغيرهما من الاباطرة الذين كان لهم الاثر في توطيد الحكم في بلادهم والتوسع في خارجها ، مما جعل سيف الدولة واولاده من بعده عاجزين عن رد غارة الروم عن بلاد الشام .

مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ ه في حلب وأوصى ان يوضع تحت رأسه في قبره لبنة من تراب جمعه من الغبار الذي لحق ثيابه في ايام غزواته في ارض الروم . وبموته تلاشت الدولة الحمدانية .

انحطاط الدولة الحمدانية :

قامت المنازعات بين أبي فراس الحمداني وبين سعد الدولة بن سيف الدولة على السلطة واراد أبو فراس الذي كان والياً على حمص استخلاص حلب لنفسه من سعد الدولة وجرت معركة بين الطرفين قتل فيها أبو فراس وهزم جيشه . واستبد كارغويا القائد التركي بالامر بعد ذلك واستعان بالبيزنطيين على سيده سعد الدولة. وقام تركي آخر يدعى بكجور وحاول أخذ السلطة لنفسه واستنجد بالفاطميين . وفي زمن سعيد الدولة بن سعد الدولة استبد القائد لؤلؤ بالسلطة وحكم في زمن اولاد سعيد الدولة حكماً مستقلاً وكان يرسلهم الى القاهرة ليخلو له الجو . ثم قام ابنه منصور من بعده وحكم باسم الفاطميين مباشرة ، وما لبث ان سخط عليهم واستنجد بالأعراب من بني كلاب لقتال الفاطميين وانتصر عليهم فثار بنو كلاب عليه يطالبونه بالمال والغنيمة وحاربوه وأقاموا في حلب دولة عربية سميت الدولة المرداسية .

الحياة الثقافية في بلاط سيف الدولة

جمع سيف الدولة في « قصر الحلبة » الذي بناه بظاهر حلب خيرة رجال الثقافة في زمانه . فقد اجتمع في بلاطه الادباء والشعراء واللغويون والنحويون والموسيقيون. وكان سيف الدولة يساهم في مناقشاتهم ، ويشترك في ابحاثهم ، وينعم على المجيدين منهم أحسن انعام . وكانت هذه الاجتماعات تشبه ما كان يجري في زمن هارون الرشيد وابنه المأمون . وقد اجتمع بباب سيف الدولة مالم يجتمع قط بباب احد من الملوك بعد الخلفاء . قصده المتنبي سنة ٣٣٧ ه ومدحه بقصائد خلدت ذكراه مدى الدهر ذكر فيها حروبه مع الروم ، وشجاعته ، واخلاقه ، وكرمه . ثم هجره على اثر تدخل الوشاة بينهما وإفساد سيف الدولة عليه ، وقصد بلاط كافور الاخشيدي في مصر .

واشتهر من الشعراء ابن عم سيف الدولة أبو فراس الحمداني ، والشاعر النامي ، والسلامي ، وابن نباتة السعدي وغيرهم كثيرون . واشتهر من مؤرخي الأدب أبو الفرج الاصبهاني الذي كتب لسيف الدولة كتاب الاغاني وقدمه له فكافأه سيف الدولة عليه بألف دينار واعتذر اليه ضيق حاله. واشتهر من النحويين ابن خالويه ، وابن جني ، أكبر نحويي زمانهم . واشتهر الفارابي الفيلسوف الموسيقي الذي كان يعيش بأربع دراهم في اليوم يأخذها من خزينة سيف الدولة . وهناك كثيرون غير هؤلاء قصدوا سيف الدولة ونعموا بأعطياته ، وعاشوا في الجو العلمي والادبي الذي أوجده سيف الدولة في بلاطه .

٣ — الدولة الطولونية

٢٥٤ — ٢٩٢هـ او ٨٦٨ — ٩٠٥م

الدولة الطولونية من اصل تركي ، حكمت مصر والشام . أسسها احمد بن طولون وكان أبوه مملوكاً تركياً من نواحي فرغانة ، أهداه نوح بن أسد الساماني الى الخليفة المأمون عندما كان في مرو سنة ٢٠٠ هـ ، وولد ابنه احمد بسامرا سنة ٢٢٠ هـ ، تربى مع جند الترك وتعلم العربية و [illegible] القرآن الكريم ، وكان ذا خلق قويم . ولما بلغت سنه العشرين توفي أبوه طولون ، فانضم الى زوج امه القائد بايكباك ، وكانت ولاية مصر مضافة اليه ، وهو الذي يختار اميرها ، فاختار احمد بن طولون سنة ٢٥٤ لما رأى من كفايته وشجاعته ، وعقد له عليها .

وفي خلافة المهتدي قتل بايكباك وحل محله أماجور قائد تركي آخر ، وكان صهراً لاحمد ابن طولون ، فأقره على ولاية مصر ، وزاده الاعمال الخارجة عنها ، فعظمت لذلك منزلته واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة اولاً ثم لاماجور ثم لاحمد بن طولون الى ان مات أماجور سنة ٢٥٨ هـ فاستقل احمد بمصر ودعى لنفسه بها وحده بعد الدعاء للخليفة ، وضبط بلاد مصر واخمد شوكة الثائرين .

وفي سنة ٢٦٢ هـ حصل بين الموفق اخي الخليفة المعتمد وبين احمد بن طولون خلاف لتأخر ابن طولون عن دفع الاموال التي ترسلها مصر عادة للخلافة العباسية فتحارب الطرفان ، وكان الظفر لابن طولون . واكتسب ابن طولون فرصة انشغال الموفق بمحاربة الزنج ، واستولى على بلاد الشام والثغور وامتدت دولته الى نهر الفرات . وكان ابن طولون يعلم مابين الخليفة المعتمد وبين أخيه من الخلاف . وصادف ان كتب المعتمد اليه يشكو له مما هو فيه من استبداد اخيه بالسلطة ، وأن ليس له من الخلافة إلا الاسم ، فدعاه ليأتي الى مصر . إلا ان الموفق انتبه الى ذلك ومنع أخاه من الوصول الى مصر .

قام احمد بن طولون بأعمال اصلاحية عظيمة ، بنى مدينة القطائع بجانب الفسطاط ، واتخذها مقر ملكه وبنى فيها القصور الجميلة والمسجد المشهور باسمه « جامع ابن طولون » ، وعمر البيمارستان الذي كلفه ستين الف دينار ، وحفر بعض الاقنية وأصلح الترع المهدمة واهتم بالجيش حتى بلغ عدده مئة الف جندي فيهم التركي والرومي والزنجي والمصري ، وانفق كثيراً من الاموال في إنشاء الاسطول واتخذ ميناء عكا قاعدته البحرية .

توفي ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ وخلفه ابنه خمارويه من بعده .

خمارويه (٢٧٠ — ٢٨٢) هـ

كان خمارويه صغير السن عند وفاة ابيه عمره عشرون سنة . وكان الموفق يطمع في استرجاع بلاد الشام ومصر وضمها لسلطة العباسيين فارسل جيشه الى الشام لفتحها فخرج اليه خمارويه سنة ٢٧٠ والتقى الجمعان في معركة شديدة قرب ماعرفت بـ « الطواحين » انهزم فيها خمارويه بنفسه وترك جيشه الذي اكمل الفتح ، واعترف الموفق بسلطة خمارويه على مصر والشام والثغور مقابل مبلغ قدره (٣٠٠) الف دينار يدفعه في كل سنة .

توفي المعتمد فخلفه ابن أخيه المعتضد بن الموفق في منصب الخلافة وحسنت العلاقة بينه وبين خمارويه واراد ان يتقرب الى الخليفة بالمصاهرة ، فعرض عليه ان يزوج ابنته قطر الندى من ابن الخليفة ، فآثر الخليفة نفسه وتزوجها . واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال ، فبنى لها على كل مرحلة قصراً فيما بين مصر وبغداد . وسار موكبها سير الطفل في المهد ، فكانت اذا وافت النزل وجدت قصراً قد فرش فيه جميع ما يحتاج اليه ، وعلقت فيه الستور ، وأعد فيه كل مايصلح الى مثلها في حال الاقامة . فكانت في سيرها من مصر الى بغداد على بعد الشقة ، كأنها في قصر ابيها تنتقل من مجلس الى مجلس .

وكان قصر ابيها في مصر من أعظم الأبنية الاسلامية يتألف من « القاعة الذهبية » المطلية جدرانها الأربعة بالذهب ، والمنقوش عليها صورته وصورة زوجته ومغنياته ، وفي ساحة القصر بركة مملوءة بالزئبق ، وضع على وجهها فراش من جلد ينام عليه الخليفة . وكان القصر قائماً في وسط حديقة جميلة مزروعة بانواع الازهار التي صفت باشكال كتابات عربية . وفي الحديقة مكان للطيور وآخر للحيوانات .

إن هذا الترف الذي اظهره خمارويه أضعف مالية الدولة ، فما لبثت أن تفرق أمرها بعد ما قتله احد خدامه في سنة ٢٨٢ هـ ، لا سيما وانه من جاء بعده من الحكام الطولونيين كانوا ضعافاً ، فرجعت مصر والشام الى حكم العباسيين (١)

---

(١) هذه لائحة تبين اسماء الحكام الذين حكموا الدولة الطولونية :

(١) احمد بن طولون ٢٥٤ هـ

(٥) شيبان ٢٩٢ هـ — (٢) خمارويه ٢٧٠

(٣) جيش « ابو العساكر » ٢٨٢ هـ — (٤) هارون ٢٨٣ هـ

لم يطل حكم الدولة الطولونية كثيرا ، وذلك لانها كانت تعتمد كغيرها من الدويلات المستقلة على شخصية مؤسسها القوية ، وتبقى هذه الدويلات على الاكثر ما بقي على رأسها حكام اقوياء ، فاذا مازال هؤلاء زالت معهم ، لانها لا تستند الى حق شرعي في وجودها يعترف لها به عامة الشعب وانما تستند على جندها المأجورين على الاغلب الذين يدعمون سلطانها ، فاذا ما قلت الاموال عن هؤلاء الجند تفرقوا عنها وانضموا الى قوة اخرى تكون اكثر مالاً . ولذلك فاننا نجد ان اكثر الدويلات المستقلة تزدهر قليلاً ثم لا تلبث ان تنقرض .

٤ — الدولة الاخشيدية

٣٢٣ - ٣٥٨ هـ او ٩٣٥ — ٩٦٩ م

الدولة الاخشيدية من أصل تركي ، حكمت في مصر والشام والحجاز ، أسسها محمد بن طغج الملقب « بالاخشيد »(١) وهو لقب حكام فرغانة ، منحه هذا اللقب الخليفة الراضي سنة ٣٢٧ هـ

كان محمد بن طغج كبقية الأتراك يخدم في بلاط الخلفاء العباسيين ، الى أن توصل لأن يكون والياً على الشام ، واستولى على مصر ، وحكمها باسم العباسيين .

كانت الخلافة العباسية تمر في مأزق حرج بسبب تنازع المتنفذين على منصب أمير الأمراء ولما استولى ابن رائق على هذا المنصب حاول نزع بلاد الشام من يد الأخشيديين فلم ينجح وبقيت بيدهم . وكانت علاقة مصر بالشام مرتبطة اشد ارتباط ، فما من دولة قامت في احد القطرين الا وحاولت ضم القطر الآخر لسلطتها . وذلك لشدة العلاقات السياسية ، والحربية والاقتصادية فيما بينها ولم تهدأ الحرب بين العباسيين والاخشيديين حتى قامت من جديد بينهم وبين الحمدانيين وأخيراً اتفق الطرفان على تقسيم سورية فيما بينها كما ذكرنا سابقاً .

---

(١) هذه لائحة تظهر اسماء الحكام الذين حكموا الدولة الاخشيدية :

طغج

(١) محمد (الأخشيد) ٣٢٣ هـ

(٢) أنوجور « ابو القاسم » ٣٣٤ هـ — (٣) علي « ابو الحسن » ٣٤٦ هـ — مولاه

(٥) احمد « ابو الفوارس » ٣٥٧ هـ (ابن علي) — (٤) كافور « ابو المسك » ٣٥٧ هـ (مولاه)

توفي الاخشيد سنة ٣٣٤ هـ ودفن في بيت المقدس وترك الحكم من بعده لأولاده .

كافور الأخشيدي :

خلف الاخشيد ولداه أنوجور وعلي . ولم يكن لأحدهما أي سلطة ، لا سيما علي لصغر سنه ولتضييق كافور عليه ، ومنع الناس من الدخول عليه . وكان علي مكتفياً كما كان أخوه من قبله بمبلغ اربعمائة ألف دينار في السنة . تاركاً الامور كلها بيد كافور .

كان كافور الأخشيدي عبداً حبشياً خصياً ، لقب « بابي المسك » و « بالاستاذ » وكان قبيح الخلقة ، بديناً ثقيلاً ، ورجلاه مشوهتان ، وكان مملوكاً لاحد تجار مصر ، فاشتراه الأخشيد سنة ٣١٢ هـ وجعله من رؤساء جنده . ترقى كافور في مناصب الجيش وتسلم زمام الامور بعد وفاة الأخشيد فحارب الحمدانيين ، وقمع ثورة اهل مصر وانتهى اليه الحكم بعد وفاة علي بن الأخشيد سنة ٣٦٦ هـ ودُعي له على المنابر بعد الخليفة ، جاء اليه المتنبي ومدحه مدحاً جميلاً وكان يأمل أن يقطعه بعض الأراضي أو يؤمره على بعض الولايات ، فلما خاب امله هجاه هجاءً مراً وارتحل عنه (١)

بقي كافور يحكم البلاد حكماً مستقلاً نحو سنتين (٣٥٥ — ٣٥٧ هـ) انتشر في اثنائها القحط والوباء ، بسبب انخفاض ماء النيل ، وكثر الموت حتى عجز الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ، فاضطروا الى إلقاء جثث موتاهم في النيل . وأثار الأشرار على المزارع والحقول ، وعم السلب والنهب ، ومما زاد في هذا البلاء عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ وعدم قدرته على الدفاع عن مصر حين غزاها ملك النوبة . وعجز كافور عن دفع رواتب جنده ، فثاروا عليه .

توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ تاركاً البلاد الى أبي الفوارس احمد حفيد الأخشيد وكان طفلاً في الحادية عشرة من عمره . ساءت الحالة كثيراً في زمنه ، فجاء جوهر الصقلي قائد الخليفة المعز الفاطمي ، واستولى على مصر سنة ٣٥٨ هـ وأخذ الحكم من الأخشيديين ونقله الى الفاطميين

---

(١) دخل المتنبي على كافور ، فرأى شقوقاً برجليه وقبحاً فقال يهجوه :

تعجبني رجلاك في النعل أنني ... رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا
وانك لاتدري لونك اسود ... من الجهل أم قد صار ابيض صافيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... ليضحك ربات الحداد البواكيا

وقال ايضاً في هجوه :

وأسود مشفره نصفه ... يقال له أنت بدر الدجى

وقال :

لاتشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيد لأنجاس مناكيد

القسم الثالث

الخلافة الفاطمية

الخلفاء الفاطميون

١ — المهدي ٢٩٧ هـ

٢ — القائم ٣٢٢

٣ — المنصور ٣٣٤

٤ — المعز ٣٤١

٥ — العزيز ٣٦٥

٦ — الحاكم ٣٨٦

٧ — الظاهر ٤١١

٨ — المستنصر ٤٢٧

٩ — المستعلي ٤٨٧

١٠ — الآمر ٤٩٥ — محمد

١١ — الحافظ ٥٢٤

١٢ — الظافر ٥٤٤ — يوسف

١٣ — الفائز ٥٤٩ — ١٤ — العاضد (٥٥٥ = ٥٦٧ هـ)

الباب السادس

الخلافة الفاطمية

٢٩٧ — ٥٦٧ هـ او ٩٠٩ — ١١٧١ م

نشأتها : يرجع أصل الخلافة الفاطمية الى الحركة الاسماعيلية التي كان مركزها في مدينة سلمية مابين حمص وحماة ، وكان من جملة الدعاة الكثيرين الذين كانوا يخرجون فيها الى مختلف البلاد الاسلامية ، لا سيما العراق ، وفارس واليمن ، وشمالي افريقية ، والذين أصابوا نجاحاً عظيماً هو : ابو عبد الله الذي عرف فيما بعد « بالشيعي » .

توجه عبد الله سنة ٢٨٨ هـ الى المغرب ، فقوى نفوذه بين البربر من قبيلة كتامة ، واستطاع بالتدريج أن يقضي على دولة الأغالبة (١) واستمالة البربر ، وهيأهم لاستقبال الامام عبيد الله المهدي . وبث

---

(١) دولة الاغالبة (١٨٤-٢٩٧) هـ او (٨٠٠-٩٠٩) م دولة قامت في افريقية (تونس) أسسها ابراهيم بن الأغلب باذن من هارون الرشيد ، واستقل فيها متخذاً هو واولاده من بعده لقب أمير ، وجعل عاصمتها مدينة - القيروان - تولى بعد وفاته ابنه عبد الله فاستقامت له الامور ، وتمتع الناس في ظله بنعمة الطمأنينة والعدل . وفي سنة ٢٠١ هـ توفي ، فخلفه أخوه زيادة الله وفي زمنه تم لهذه الدولة الاستيلاء على جزيرة صقلية . وكان العرب منذ فتحهم لافريقية يتطلعون لغزو هذه الجزيرة والاستيلاء عليها ، لمقامها الممتاز مابين شرقي البحر المتوسط وغربه . وفي سنة ٢١١ هـ أرسل زيادة الله اسطولاً قوياً وانتزع هذه الجزيرة من يد البزنطيين . واتخذ الأغالبة هذه الجزيرة قاعدة لهم ، وغزوا منها شواطىء ايطاليا ، وفرنسا ، وكورسيكا ، وساردينيا . واستولوا على جزيرة مالطة ، ووقعت ساردينيا بقبضة يدهم . ونزلت جيوشهم في الأرض الكبرى (ايطاليا) وفتحوا فيها ما ينوف عن (١٥٠) مدينة . كما ان اسطولهم دخل نهر التيبر وحاصر مدينة روما سنة ٢٣٥ وقد انقذت مدينة البابا من استيلاء العرب عليها بواسطة زوبعة شديدة هبت على الاسطول العربي وحطمت سفنه ، وقد استولى بحارة العرب على اكثر جزر البحر المتوسط وبحر ايجه لاسيما جزيرة كريت التي كانوا يغزون منها سواحل اليونان ، وقد عثر في الوقت الحاضر على بعض نقوش كوفية في مدينة اتينا يرجع عهدها الى القرن العاشر ميلادي وفي عهد زيادة الله بدأ بعمارة « مسجد القيروان » الشهير الذي لا يزال قائماً بعمارته العجيبة حتى وقتنا الحاضر . وقد حكم احدى عشر أميرا من هذه الاسرة ، وكانت خاتمتهم على يد الفاطميين .

بالرسل اليه ليخبروه بما فتح الله عليه ، وبأن الناس ينتظرون قدومه ، فخرج عبيد الله مع ابنه أبي القاسم وبعض خاصته ومواليه من سلمية متنكرين بزي تجار الى مصر ، فوصلوها سنة ٢٨٩ وساروا منها نحو الغرب حتى وصلوا سنة ٢٩٦ الى سجلماسة الواقعة على سفح جبل الأطلس ، فقبض أمير سجلماسة : اليسع بن مدرار على عبيد الله وزجه في السجن ، الا ان أبا عبد الله الشيعي جاء بجيش من البربر وحارب أمير سجلماسة واستولى على المدينة واخرج عبيد الله من سجنه ، وبايعه بالخلافة سنة ٢٩٧ ونادى به العرب والبربر ـ امير المؤمنين ـ .

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين فمنهم من ينسبهم الى فاطمة بنت النبي محمد (ص) وزوج الامام علي رضي الله عنه ، وآخرون يرجعون نسبهم الى عبد الله بن ميمون القداح أحد دعاة الفرس ، الذي اعتنق المذهب الشيعي الاسماعيلي ، واتخذه وسيلة لتنفيذ اغراضه الفارسية ليجمع حوله جميع الساخطين على الخلافة العباسية . وقد دعى الخلفاء العباسيون الرأي الثاني ليطعنوا في حق الفاطميين بالخلافة ، وليصغروا من شأنهم .

وتسهيلاً للبحث نقسم المدة التي حكم فيها الخلفاء الفاطميون الى ثلاثة ادوار .

الدور الأول . دور التأسيس : ٢٩٧-٣٥٨ ﻫ او ٩٠٩-٩٦٩ م وهو يمتد نحواً من ستين سنة اي منذ اعلان خلافتهم في افريقية حتى فتح مصر .

الدور الثاني . دور القوة : ٣٥٨-٤١١ ﻫ او ٩٦٩-١٠٢٠ م وهو يمتد نحواً من خمسين سنة أي منذ فتح مصر حتى انتهاء حكم الخليفة الحاكم .

الدور الثالث . دور الانحطاط : ٤١١-٥٦٧ ﻫ او ١٠٢٠-١١٧١ م وهو يمتد نحواً من قرن ونصف اي من مقتل الحاكم الى انقراض الخلافة الفاطمية على يد الأيوبيين . وسنتكلم عن كل دور من هذه الأدوار باختصار .

١ — دور التأسيس

٢٩٧ - ٣٥٨ ﻫ او ٩٠٩ - ٩٦٩ م .

حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء وهم : المهدي ، والقائم ، والمنصور . وكانت جهودهم منصرفة لتوطيد مركزهم في شمالي افريقية ومحاولتهم الاستيلاء على مصر وسنتكلم فيما يلي عن كل خليفة على حدة :

عبيد الله المهدي

٢٩٧-٣٢٢ ﻫ او ٩٠٩ - ٩٣٤ م

أتصف المهدي بالحزم والثبات والدهاء ، وقسم اعمال افريقية على رؤساء قبيلة كتامة منذ توليه

الخلافة ، ودون الدواوين وجبى الأموال ، وخفض الضرائب ، وامن السبل ، وسار بالناس سيرة عدل وزهد ، فاطاعوه واحبوه وأخذت القبائل تفد عليه وتقدم له الطاعة ، وتنضم الى صفوفه وعندما أصبحت لديه القوة الكافية قضى على بني مدرار في سجلماسة ، وعلى بني رستم في تاهرت وعلى الاغالبة في تونس ، وعلى الادارسة في مراكش . وقضـــى على ثورة داعية ابو عبد الله الشيعي وأخيه أبي العباس اللذين تآمرا مع بعض رؤساء قبيلة كتامة على خلعه وحاولا اغتياله لسلب السلطة منه . الا ان المهدي تمكن بدهائه وحذره من القبض عليهما كما فعل قبله ابو جعفر المنصور بابي مسلم الخراساني ؛ ولاقى المهدي صعوبة شديدة في اخضاع البربر وكبح شكيمتهم الا انه تمكن اخيراً من تهدئة الحالة ، وانشأ عاصمة له في البحر دعاها باسمه « المهدية » وشيد حولها سوراً قوياً وجعل له ابواباً حديدية ، وبنى بداخلها القصور ذات السراديب الفسيحة التي اختزن فيها كميات عظيمة من المؤنة ، وبعد ان أتم بناءها خاطب نفسه قائلاً : « اني لاشعر الآن باطمئنان عظيم على الدولة الفاطمية الناشئة » وحاول المهدي فتح مصر ، فجهز جيشاً كبيراً بقيادة ابنه محمد وأمده باسطول صغير استولى به على الاسكندرية ، فارسل الخليفة العباسي الذي كان يخشى على نفسه من مزاحمة الخليفة الفاطمي جيشاً بقيادة مؤنس الحاجب فانتصر على الفاطميين وارجعهم من حيث اتوا وبذلك قضى على حلم المهدي الذي كان يأمل انفاذه وترك لمن سيأتي بعده من اولاده تحقيق هذه الفكرة وتوفي سنة ٣٢٢ بعد ان دام ٢٤ سنة .

القائم

٣٢٢ - ٣٣٤ ﻫ او ٩٣٤ - ٩٤٥ م

كان القائم شجاعاً حازماً ، وجندياً باسلاً تولى قيادة الجيوش بنفسه ، واهتم بتوسيع ملكه ، وانشأ اسطولاً قوياً استولى به على زعامة البحر المتوسط وغزا مصر ، وفتح الاسكندرية الا ان الاخشيد رده عنها . وحارب عامله في المغرب (ابن ابي العافية) الذي حاول الانضمام الى الأمويين في الاندلس فاعاده إلى الطاعة ، ثم حول بصره شطر اوربا فاحتل جنوبي ايطاليا ، واستولى باسطوله على جنوه وساردينيا ، وبسط حكمه في صقلية ولومبارديا . وفيما هو منصرف الى الفتوحات الخارجية فاجأته ثورة داخلية اوقفت حركته . قام بهذه الثورة « ابو يزيد الخارجي » سنة ٣٣٢ ﻫ الذي بدأ حياته معلماً للصبيان ، فجمع حوله عدداً كبيراً من البربر ، ولقنهم مبادئه التي تقضي بتكفير أهل الدين من غير مذهبه ، واستباحة الأموال ، والخروج عن طاعة السلطان . ولقبه اتباعه « بشيخ المسلمين » وخرج بهم من المغرب قاصداً المهدية ، وأوقع بالجيش الفاطمي هزائم منكرة ، واستولى

على بجاية والقيروان وغيرهما من المدن ، وحاصر المهدية عاصمة الخلافة الفاطمية ومنع عنها المدد وضايقها أشد ضيق . وفي أثناء الحصار توفي الخليفة القائم ، فقام ابنه اسماعيل من بعده وأخفى موت أبيه ، واستعان بقبائل البربر وانتصر على الخارجي سنة ٣٣٦ ﻫ وقضى عليه ، وأعلن وفاة أبيه فبايعه الناس بالخلافة ولقب « بالمنصور » وكان كأبيه شجاعاً شديد البطش ، قضى مدة خلافته باعادة تنظيم بلاده بعد ان خربتها فتنة أبي زيد ، وتمكن بعد جهوده العظيمة أن يعيد للخلافة الفاطمية رونقها وقوتها وترك لابنه المعز تحقيق فكرة الاستيلاء على مصر والوصول بالخلافة إلى أوج عزها .

٢ — دور القوة

٣٥٨ — ٤١١ ﻫ او ٩٦٩ — ١٠٢٠ م

حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء وهم : المعز ، والعزيز والحاكم . وفي زمنهم بلغت الدولة الفاطمية أوج عظمتها ، فتوسعت رقعتها وشملت بلاد مصر والشام والحجاز بالاضافة الى أملاكهم في شمالي أفريقية . وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ومركز حضارتهم . وسنتكلم فيما يلي عن كل خليفة على حدة :

المعز

٣٤١ - ٣٦٥ ﻫ او ٩٥٢ - ٩٧٥ م

كان المعز شهماً عاقلاً ، عظيم الهمة ، له ولع بالعلوم ، ودراية بالأدب مكرماً للعلماء ، ومحباً للادباء ، ويمكن أن نسميه « مأمون » المغرب . وفي عهده بلغت شمالي أفريقية درجة عالية في الحضارة والتقدم . فقد اهتم بشؤون الرعية ورد المظالم الى أهلها ، وقمع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الادارة ، وسن القوانين ، وقسم الولايات الى مناطق ، وعهد بادارتها الى الأكفاء ، وجهزهم بالجنود والشرطة لحفظ الأمن والنظام ، واعاد تنظيم الجيش والاسطول ، وشجع التجارة والصناعة ، وقرب زعماء البربر ، واكتسب صداقتهم ، وبعد أن وطد حكمه من جهة المغرب ، واسترجع ما أخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي من المغرب الاقصى وجه جهوده لفتح مصر .

فتح مصر :

كانت مصر أمل الفاطميين المنشود منذ أن وطئت قدمهم شمالي أفريقية ، وكانوا يطمعون في الاستيلاء عليها منذ زمن أول خلفائهم عبد الله المهدي ، وقد حاولوا ذلك مراراً كما تقدم معنا ، الا أن العباسيين والأخشيديين ردوهم عنها ؛ ولم يسعفهم الحظ ولم تساعدهم الظروف على فتح مصر الا في زمن المعز لدين الله الخليفة الرابع ، وكان ذلك بسبب استياء المصريين من تحكم كافور الاخشيدي بهم ، واضطراب الحالة في آخر عهد الاخشيديين بسبب تمرد الجند عليهم لانتقاص اعطياتهم وارزاقهم . فكتب بعض

قواد الجند الى المعز يدعوه لفتح مصر ؛ واشترك في هذه الدعوة بعض رجال الدولة مثل يعقوب بن كلس الذي ذهب بنفسه الى المعز ووصف له حالة مصر وماهي عليه من الضعف والاضطراب ، وحضه على فتحها .

وفي الواقع كانت مصر تعاني أشد الأزمات في حياتها الاقتصادية والاجتماعية بسبب غلاء المعيشة والأوبئة ماتجره معها من امراض جسمية وخلقية ، حتى خسرت مصر قواها الدفاعية وحيويتها في النضال والمقاومة في وجه الفاطميين .

وقد أرسل الفاطميون جيوشاً من الدعاة قبل ان يرسلوا جيش الغزو ، وجهزوهم بالمال والعلم ، ليبثوا الدعوة للمذهب الاسماعيلي والأفكار الشيعية وليهيؤا الجو للجيش الفاتح حتى يدخل مصر بسهولة . ويطيل المؤرخون في وصف استعداد المعز في تجهيز الجيش(١) الذي أرسله بقيادة أعظم قواده « جوهر الصقلي » .

فبدأ منذ سنة ٣٥٦ في إنشاء الطرق ، وحفر الآبار ، وإقامة المنازل مابين القيروان ومصر للاستراحة في فترات منظمة ، وأنفق الأموال على قبيلة كتامة وغيرها من قبائل البربر ليمدوه بجند منهم ، حتى تجمع لديه جيش يزيد عدد فرسانه على مائة الف فارس عدا المشاة استولوا في ١٥ شعبان سنة ٣٥٨ على مصر دون عناء . وبعد ان استتب الأمر لجوهر أمر بقطع الخطبة للعباسيين عن منابر مصر والشام ، واستبدلها بالدعاء للخلفاء الفاطميين ، وحرم لبس السواد واستبدله بلبس الخضار شعار الفاطميين ، وأمر ان يؤذن « بحي على خير العمل » وابتدأ ببناء مدينة القاهرة ، وجعلها بقرب الفسطاط التي بنيت منذ زمن عمرو بن العاص . وقد دعاها جوهر بالقاهرة المعزية رمزاً لقهر عدوه ونسبه الى المعز وبنى في وسطها القصر الفاطمي ، والجامع الأزهر الذي كان مركزاً للدعوة الشيعية يخرج منه الدعاة لنشر المذهب الاسماعيلي ، وبعد أن وطد حكمه في مصر التفت لفتح الشام لأنه بدونها لايستقر له قرار بسبب إشتداد أمر القرامطة ، ومحاولاتهم الاستيلاء على مصر ، فحاربهم سنة ٣٦١ بقرب القاهرة وجرت معركة شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمتهم وارتدادهم عن مصر .

---

(١) وصف بن هانىء الاندلسي (متنبي الغرب) جيش المعز بقوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع	وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثله	فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
الا إن هذا حشد من لم يذق له	غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حلّ في أرض بناها مدائناً	وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحل بيوت المال حيث محله	وجم العطايا والرواق المرفع

وفي سنة ٣٦٢ ارتحل المعز الى القاهرة ، ونقل دواوينه اليها على اثر دعوة قائده جوهر ، وعندما وصل الى قصره « خر» ساجداً في مجلسه شكراً لله ثم صلى ركعتين وصلى بصلاته كل من دخل ، واخذ الحكم من جوهر الذي ظل مايشوف عن اربع سنوات حاكماً لمصر ، والتفت لمحاربة القرامطة الذين اشتد أمرهم كثيراً بالشام حتى أنهم زحفوا المرة الثانية للاستيلاء على مصر . فخرج اليهم المعز سنة ٣٦٣ وأوقع بهم هزيمة فادحة . والتفت الى البيزنطيين الذين استفادوا من الاضطرابات القائمة في الشام ، واستولوا على انطاكية وهزموا جيش الفاطميين بقرب طرابلس سنة ٣٦٤ هـ وتمكن والي هذه المدينة ان يردهم عنها ، ووصلت انباء هذا النصر الى المعز وهو على فراش الموت فتوفي في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ هـ بعد ان حقق حلم الفاطميين وبسط سلطانه على المغرب ومصر والشام والحجاز .

العزيز

٣٦٥ — ٣٨٦هـ او ٩٧٥ — ٩٩٦ م

كان العزيز كريماً شجاعاً ، محباً للعلم والأدب ، ميالا للتسامح مع أهل الذمة ، استوزر في اول حكمه يعقوب بن كلس وكان يهودياً اسلم في عهد كافور الاخشيدي ، وبقي في الوزارة في زمن المعز وابنه العزيز زهاء اثني عشر عاماً ، ثم استوزر « عيسى بن نسطورس » النصراني ومن بعده « منشا » اليهودي . وكان طبيبه نصرانياً يدعى « ابا الفتح منصور بن مقشر المصري » وكانت له منزلة سامية في الدولة . وكانت زوجته نصرانية رفعت اخويها الى أعلى المناصب الكنسية فكان أحدهما (اريسطيس) بطريركاً لبيت المقدس وكان الآخر (ارسانيوس) مطراناً للقاهرة عينا في سنة (٣٧٥) وكانت بنته « ست الملك » (١) تساعد النصارى كثيراً ، حتى بلغ نفوذ النصارى واليهود الى الذروة في زمنه ، واستولوا على معظم اعمال الدولة ، واستأثروا بأكثر السلطات ، مما أدى الى سخط المسلمين فيقال « ان العزيز بالله رأى ذات يوم في طريق الموكب الخلافي امرأة تمد يدها

---

(١) ست الملك بنت العزيز ولدت بالمغرب سنة ٣٥٩ هـ وكانت حازمة عاقلة، قوية العزم بصيرة بالامور ، وكان والدها العزيز يحبها ، ويستمع الى نصحها في كثير من الامور ، وكان لها اثر ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى ، فكلما هبت بادرة من السخط عليهم او الميل الى اضطهادهم تدخلت لتلطيفها والعود الى سياسة التسامح وكانت في السادسة والعشرين من عمرها عند وفاة ابيها وكانت اكبر من اخيها الحاكم بنحو خمسة عشر عاماً لذلك استبدت بالحكم مكانه واخذت تسير الأمور في بادىء حكمه ويقال ان لها يد طولى في تدبير المؤامرة التي اودت بحياته .

برقعة كانها ظلامة ، فتناولها فاذا بالمرأة هيكل من الجريد قد البس ازاراً ، واذا في الرقعة مايأتي بالذي اعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس واذل المسلمين بك الا ما كشفت ظلامتي فادرك العزيز ماانتهت اليه نفسية الشعب من تحكم الاقلية الذمية في شؤونه وعدل قليلافي سياسته»

وكان جيش الفاطميين منذ نشأتهم حتى زمن المعز يتألف من المغاربة الذين قامت على سواعدهم الدولة الفاطمية ، ولما شعر المعز بازدياد سلطانهم قرب الموالي من الترك والصقالبة ، فوقع بالخطيئة التي ارتكبها من قبله الخلفاء العباسيون فما لبث هؤلاء ان استأثروا بالأمر وكانوا عامل فساد في الدولة بسبب منازعاتهم مع المغاربة .

توسع ملك الفاطميين كثيراً في بلاد الشام في زمن العزيز وحاولت جيوشه الاستيلاء على حلب الا ان أميرها ابا الفضل ، ووزيره لؤلؤ استنجدا بالبيزنطيين على اخوانهم المسلمين ، وكان ذلك سبباً لقيام معارك شديدة جرت بين الطرفين على ضفاف العاصي وكانت نتيجتها أن رد البيزنطيون على اعقابهم الى انطاكيه سنة ٣٨١ هـ ، ثم اعادوا الكرة بقيادة امبراطورهم باسيل الثاني في سنة ٣٨٥ واستولوا على شيزر وحمص ، وقسم كبير من ساحل الشام . وتوفي المعز وهو في طريقه الى الشام لقتال البيزنطيين ، ولم يترك الا صبياً واحداً انتقلت اليه الخلافة .

الحاكم

٣٨٦ — ٤١١ هـ او ٩٩٦ — ١٠٢٠ م

تولى الحاكم بامر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة من عمره ، وأوصى به العزيز الى ثلاثة من رجال دولته وهم : برجوان الصقلي خادمه وخازنه ، والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامةونصير الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها ، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . فقام النزاع بين برجوان وابن عمار على السلطة ، واشتدت المنافسة بينهما ، فاستبد ابن عمار في بادىء الأمر وظهر بمظهر الطاغية ، فكان يدخل القصر ويغادره راكباً ، والزم جميع الناس بالترجل له ، واغلق بابه إلا على الخاصة،واغدق الأموال على جماعته من كتامه ، واستولى احداث المغاربه في عهده على وظائف الدولة واقتسموا سلطتها ، وعاثوا في شؤونها ومرافقها ، وكثر اعتداؤهم على الناس وعلى اموالهم حتى اختلت امور مصر والشام . وكان برجوان والصقالبة جماعته يترقبون الفرصة للقضاء على ابن عمار ، ويدسون الدسائس عليه ، ويؤلبون زعماء الجند الناقمين على حكمه ، واخيراً نجح برجوان في اخذ السلطة لنفسه وتوارى ابن عمار عن الانظار ، وترك الميدان حراً لمنافسه الذي بقي نحو سنتين ونصف قابضاً على زمام الأمور قمع في اثنائها الثورات التي قامت في الشام والمغرب ، وحارب الروم في عدة معارك

وهزمهم وردهم الى الشمال ، ثم تهادن معهم . كما انه الزم الحاكم أن يقيم معه في القصر ، وحجبه عن الاتصال برجال الدولة ودفع به ما استطاع الى مجالي اللهو واللعب . ولما بلغ الطفل الخامسة عشر من عمره ، شعر بنفوذ وصيه عليه ، واستئثاره بالسلطة دونه ، واخذ يتطلع الى الخلاص منه ،ودبر مع بعض حاشيته اغتياله ، ونجحت المؤامرة في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ وتسلم الحاكم السلطة بنفسه ونظم مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ليتذاكروا بالشؤون العامة .

صفات الحاكم :

كان الحاكم وافر الذكاء والجرأة والعزم ، وكان منظره مثل الأسد وعيناه واسعتين شهل ، وإذا نظر الى الانسان يرتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهراً مخيفا ، وكان مضطرم النفس والأهواء متناقض الرأي والتصرفات ، كثير التنقل من حال الى حال ، يأمر بالشيء ويبالغ فيه ثم يرجع عنه ويبالغ في نقضه « وكانت خلائقه متضادة بين شجاعة واقدام ، وجبن واحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح ، وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يخل به احد قط ، « وكان جواداً سمحاً خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت اموراً واحكاماً يحمل الرعية عليها » . وقد قتل عدداً كبيراً من كبراء الدولة رغبة في التخلص من نفوذهم الا انه أسرف في القتل ، فكان يقتل وزراءه وغلمانه تباعاً من غير سبب ، ودون حكمة ظاهرة،حتى هابه الخواص والعوام ، وخشوا على أنفسهم منه .

وكان الحاكم الى جانب ماذكرنا جواداً وافر البذل عادلاً محب للعلم ، شيد عدة جوامع وكليات ومراصد ومستشفيات في مصر والشام ، وانشأ جامعة « دار الحكمة » سنة ٣٩٥ هـ ووقف عليها كثير من الضياع والأموال .وعرف عن الحاكم زهده وتقشفه وتواضعه واحتقاره الرسوم والالقاب الفخمة ، وكان في أول حكمه منع الناس من مخاطبة بعضهم او مكاتبتهم « بسيدنا » « ومولانا » الا أمير المؤمنين وحده . ثم أصدر أمره بان لايقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ، ولا يده عند السلام عليه . وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا تحية ، ولا يصحبه من الحشم والجند سوى بضعة من الركابية (١) وفي أواخر أيامه أطلق الحاكم شعره حتى تدلى على كتفيه وأطلق أظافره ، واستعاض عن الثياب البيضاء بثياب سوداء ،وكان يرتدي جبة من الصوف الاسود العادي ولا يغيرها مدى حين حتى يعلوها العرق والرثاثة . وقد يرتدي أحياناً جبة مرقعة من سائر الالوان ...

(١) الركابية : جماعة من الجند يصحبون من الخليفة ويعتنون بركوبه ، وبالدواب التي يركبها.

تصرفات الحاكم :

شغف الحاكم بالليل حوالي سنة ٣٩١ ﻫ فكان يعقد مجلسه ليلا ويواصل الركوب في كل ليلة يجوب الشوارع والأزقة ، وصدرت اوامره بتعليق المصابيح على جميع الحوانيت وأبواب الدور ، وفي جميع طرقات القاهرة ، فكانت المدينة تبدوا في هذه الفترة بالليل كانها شعلة مضيئة ولازم الحاكم الركوب في المدينة المنيرة ، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب ، ويقيم الحسبة بنفسه احياناً ، ويستطلع احوال الشعب وأخباره ، وأصبحت جميع الاعمال والمعاملات تجري بالليل ، وتزدهر مواطن السمر وتختلط حياة الجد بحياة اللهو ، فتسطع الميادين بالوقود والزينات ، وتغص بصنوف اللهو والمرح ، وتنفق الاموال الوفيرة في المآكل والمشارب والسماع . وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة في بساطة ورقة ، ولا يمنع احد من الدنو منه او مخاطبته . واستمر الحال على ذلك أشهراً ، وظهر النساء في المجتمعات بكثرة واشتد تيار المجون والغواية ، فلما خرج الناس في ذلك عن الحد ، وبالغو في اللهو ، والاسراف والزينة منع الحاكم النساء من الخروج ليلا منذ العشاء لكي تخف عوامل الفتنة والغواية ، وعوقب المخالفات بشدة ، ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهي ، وابطلت بعد ذلك جميع الاعمال والمعاملات ليلا وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل سنة ٣٩٤ ﻫ . والحوادث والاخبار عن شغفه بالظلام والنيران كثيرة .

أصدر الحاكم جملة من الاوامر والقوانين الغريبة ، وكان مما يزيد في غرابتها وغموض بواعثها أنها كانت تصدر ثم تمحى بعد قليل ،وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صدورها .

من هذه الاوامر منعه الناس في سنة ٣٩٥ ﻫ وما بعدها من أكل الملوخية والترمس ، وحرم ذبح الابقار السايمة الا في عيد الاضحى ،وحرم دخول الحمام بلا مئزر وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن في الطريق وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى ، وزيارة القبور ، وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره وكسرت اواني الخمور ، واريقت في كل مكان وشدد على الخمارين ، وبدد كل ما في بيوتهم ومحلاتهم . وهوجمت اماكن البغاء ، والقصف بشدة ، وازيلت دورهم وأوكارهم ،وطهرت منهم أحياءالمدينة ، وأمر بتتبع الكلاب وقتلها أينماوجدت، إلا كلاب الصيد ، وأمر بقتل جميع الخنازير في مصر فقتلت عن آخرها .

ومنع الحاكم الناس من التظاهر بالغناء ، ومن الركوب في النيل بسبب نقص مائهومن الخروج قبل الفجر ، وبعد العشاء ، وأمر بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها وأمر أن ينفى المنجمون من سائر المملكة ثم أبطل قرار نفيهم .

وفي سنة ٤٠٢ ﻫ تشدد الحاكم في معاملة النساء كثيراً ، فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من

مغادرة دورهن ، والخروج الى الطرقات بالليل او النهار ، ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع ، والخارجات الى الحج أو المسافرات اللاتي تضطرهن ظروف قاهرة الى السفر ، والاماء اللاتي برسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والارامل اللاتي يبعن الغزل وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها صاحب الشرطة ، ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الاساكفة من عمل أخفافهن ، فاختفى النساء من المجتمع المصري ، وساده الانقباض والوحشة ، واغلقت المتاجر التي تبيع السلع النسوية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن في روعة وخشوع . وحاول النساء التظلم من هذا القرار ، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات متظلمات فلم يفزن بطائل ، وعوقب كثير من المخالفات بالموت . واشتد الامر بنساء الكافة اللاتي ليس لهن من يقوم بأمرهن ، واستغثن بأولي الامر ، فأمر الباعة ان يحملوا السلع والاطعمة وكل مايباع في الاسواق الى الدروب ، ويبيعوه للنساء في منازلهن ، وان يحمل الباعة اداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً ان تبدو من وراء الباب وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم .

تشدد الحاكم مع أهل الذمة . في سنة ٣٩٥ ﻫ أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشد الزنار ، ولبس العمائم السود . وفي سنة ٣٩٩ﻫ امر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب مافيها ، وصدر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة) في بيت المقدس ، وصيغ هذا المرسوم بالعبارة الموجزة الآتية « خرج أمر الامامة بهدم قمامة . فاجعل سماءها ارضاً وطولها عرضاً . » ، واعيد بناؤها في عهد المستنصر بالله الفاطمي . وأمر الحاكم بالغاء الاعياد النصرانية ، كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ، وابطلت رسومها واحتفالاتها في جميع أنحاء المملكة . والغيت جميع الاوقاف المرصودة على الكنائس والاديار باعمال مصر ، وضمت الى الديوان . وحرم ضرب النواقيس في جميع أعمال مصر وأمر بنزع الصلبان الظاهرة في أبراج الكنائس ، وأن يمحي النصارى الصليب من أيديهم وسواعدهم .

وحرم على النصارى واليهود ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب ، وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وإلا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ، وأفردت لهم حمامات خاصة ، علقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامي الخشب على حمامات اليهود . وانشيء لليهود حي خاص حتى لايختلطوا بالمسلمين . ونزع سائر المتصرفين والكتاب الذميين من وظائفهم ، وكانوا جمهرة كبيرة ، وعانى أهل الذمة في عصر الحاكم أشد المحن مما لم يجر مثله في أي عصر من العصور الاسلامية .

واضطهد الحاكم أهل السنة من المسلمين وأمر بسب السلف من الصحابة (أبي بكر ، وعمر ،

وعثمان ، وعائشة ، ومعاوية وغيرهم) ثم تراجع عن أمره سنة ٣٠٧ هـ بسبب قيام الفتنة عليه، وصدر أمره جديد بالترحم على السلف واستمرت الحال على ذلك حتى اواخر الدولة الفاطمية .

وفي سنة ٤٠٠ هـ صدر سجل (مرسوم) بالغاء الزكاة والنجوى ، وتنسب اليه تصرفات متناقضة في أمر الصلاة والحج والصوم ، وقيل انه شرع في الغائها أو أنه الغاها بالفعل . والغى صلاة الجمعة الرسمية في رمضان ، وصلاة العيدين ، والغى الحج وابطل الكسوة النبوية غير مرة . والروايات تحمل هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الاسلام وجنوح الى الدعوة الالحادية التي أذاعها الدعاة السريون وبشروا فيها بألوهيته .

منشأ الدرزية

ظهر بمدينة القاهرة في ابتداء سنة ٤٠٨ هـ رجل يدعى « حمزة بن علي بن احمد الزوزني » من بلاد فارس من مقاطعة زوزن ويعرف ــ باللباد ــ لأنه كان يشتغل بصنع اللباد . وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ، ودعا الى ألوهية الحاكم وبوجوب عبادته ، وقال بالتناسخ في الاديان وبالحلول ، وزعم أن الحاكم ليس بشراً ، وانما هو رمز حل فيه الاله ، وكان يجلس في مسجد ريدان في القاهرة ، فاجتمع اليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية ، وتلقب بهادي المستجيبين ولقب الحاكم « بقائم الزمان » وكثر جمعه وذاع أمره ، وكان الحاكم يشجعه ويرعاه ، وبعث اليه والى اتباعه السلاح والمال ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة من أهل السنة ، وانتشر امر حمزة وقوي نفوذه ، واتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل ، ومن جملتهم « محمد بن اسماعيل الدرزي » الذي انتسب اليه الدروز ، وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة الى التناسخ والحلول، وزعم أن روح آدم قد انتقلت الى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح علي الى الحاكم صفوة سلالته، وشرح الدرزي دعوته واصول مذهبه في رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه وأغدق عليه عطفه ورعايته، وارتفعت لديه منزلته واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء وسفيرهم لديه في قضاء مطالبهم ورغباتهم. الا أن العامة والجند ثاروا عليه واحاطوا بداره ، فقاتلهم أصحاب الدرزي من داخلها ثم فر الدرزي ناجياً بنفسه والتجأ الى قصر الحاكم ، وهدم العامة والجند داره ، ونهبوا مافيها، وقتلوا عدداً كبيراً من أصحابه ، وطالبوا الحاكم بتسليمه ووعدهم الحاكم بالاجابة الى مطالبهم ، ولما عادوا في اليوم الثاني قيل لهم أن الدرزي قد قتل ، والمرجح أن الدرزي لم يقتل ولكنه اختفى في القصر أياماً حتى هدأت الفتنة ، وهرب الى الشام ونشر مذهبه فيها .

نهاية الحاكم

زاد طغيان الحاكم وبلاؤه على الناس فخافت أخته ست الملك ضياع الخلافة من البيت الفاطمي، فتآمرت عليه مع سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة، ودبرت مقتله، وكان ذلك ليلة الاثنين في ٢٧ شوال سنه ٤١١ هـ وعندما انتشر خبر اختفائه خرج الناس للبحث عنه، فوجدوا في أعلى الجبل حماره معرقباً (مقطوع القوائم) وعثروا على مسافة قصيرة منه على ثيابه وفيها أثر طعنات، فايقنوا بهلاكه؛ وبذلك ختمت حياة الحاكم وختم معها دور مجد الخلافة الفاطمية.

٣ – دور الانحطاط

٤١١–٥٦٧ هـ او ١٠٢٠–١١٧١ م

حكم في هذا الدور ثمانية خلفاء وهم: الظاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد. ومنذ أواخر عهد الحاكم بدأت شمس الخلافة الفاطمية تميل نحو الغروب وذلك بسبب تصرفاته الشاذة ونقمة الأهالي عليه، وقيام المنازعات بين جنده من المغاربة والأتراك من جهة والزنوج من جهة اخرى. وانتقلت السلطة الفعلية في هذا الدور من الخلفاء الى أعوانهم الوزراء والقواد أمثال بدر الجمالي وابنه الملك الأفضل وطلائع بن رزيك وكلهم من أصل أرمني وغير هؤلاء كثيرين الذين استبدوا بالامر، وصاروا يتلاعبون بمقدارات الدولة حسب أهوائهم. وتفاقم الخطب بمجيء الصليبيين لبلاد الشام، وتطلعهم للاستيلاء على مصر. وما صحب هذه الاضطرابات كلها من غلاء واوبئة بسبب انخفاض ماء النيل وسوء ادارة الخلفاء الأخيرين مما جعل الخلافة الفاطمية عاجزة عن أن تجابه هذه العوامل كلها فتقوضت اركانها وتهدم صرحها وقام على أنقاضها الدولة الأيوبية.

القسم الرابع

أوربا والحروب الصليبية

الباب السابع

حالة اوربا في زمن الخلافة العباسية

بعد ان صورنا الحياة العربية في العصر العباسي نأتي على ذكر حياة اوربا بايجاز في نفس هذا العصر ، ليكون لدى الطالب صورة واضحة عن حالة الشرق والغرب في زمن واحد ، فيستطيع ان يقارن بنفسه ما كان عليه أجداده في الغابر من حضارة ومدنية ، وما كانت عليه اوربا من اضطراب وجهل. ثم يتبين بنفسه الاسباب التي قضت على المدنية العربية والاسلامية وذلك بسبب انقسامهم الى دويلات وشيع وما وصلوا اليه من الانحطاط الأخلاق والتفسخ وما وقع به خلفاؤهم من اخطاء هنالة في الوقت الذي كانت فيه شعوب اوربا تستعد للخلاص من حياتها المظلمة وتتهيأ لحياة متحضرة جديدة .

وسيكون هذا البحث مقدمة للنزاع الذي حصل بين الشرق والغرب فأطفأ مصباح النور في آسيا ، والهب مشعل الحضارة في اوربا.هذا النزاع الذي ندعوه بالحروب الصليبيه ،الذي لا يمكن أن يفهم ويدرس بدون الاطلاع على شروط الحياة التي كانت تحياها اوربا ، والظروف التي خرجت منها الحملات الصليبية . لذلك بالاضافة لما قدمناه عن حالة اوربا في زمن الامويين نأتي على ذكر حالة اوربا في زمن العباسيين لنهيأ الجو المناسب لدراسة الصليبيين .

الفصل الأول

الدولة الكارولنجية وشارلمان

شارل مارتل وابنه بيبان القصير: مر على الدولة الفرنكية حاكمان عظيمان هما: شارل مارتل الملقب « بالمطرقة » وابنه بيبان القصير ، وهما اللذان مهدا الطريق لتأسيس امبراطورية شارلمان الواسعة.

ان الصعوبات التي واجهها شارل مارتل في حكمه هي نفسها بالنسبة الى جميع حكام اوربا الغربية لمدة عدة قرون . وهي قدرتهم على فرض سلطتهم على جميع اقسام بلادهم بالرغم من الامراء الطامعين الاغنياء ، ورجال الدين والكهان الذين يترقبون بشوق ضعف الحكام او انشغالهم ليعلنوا انفصالهم في مقاطعاتهم أو مناطق نفوذهم فقد قام شارل مارتل بعدة حملات موفقة حارب فيها أمير اكيتانيا وبافاريا ، والمانيا الذين حاولوا الانفصال عن ملكه ، فتمكن من اخضاعهم واضطرهم على الاعتراف بسيادته عليهم .

لم يكن الكهنة وكبار رجال الدين أقل ازعاجاً لحاجب القصر شارل مارتل من الأمراء والنبلاء الذين كانوا يحاولون الانفصال عنه ، بالرغم من انه احتفظ لنفسه بحق انتخاب الكهنة من الذين يميلون اليه ، ومنع الناس ورجال الدين من انتخاب من يريدون كما تنص عليه قوانين الكنيسة ومع ذلك مايكاد اولئك الكهنة الذين ينتخبهم شارل مارتل من ان يتبوأ مراكزهم حتى يحاولوا الانفصال عن الدولة الفرنكية ، لان ثياب الكهنوت لم تكن لتمنعهم لاسيما الذين هم من أصل شريف من ان يتابعوا اعمالهم الحربية والصيد واللهو كما كانوا عليه سابقاً .

وقد حارب شارل مارتل العرب في تور الواقعة على ضفاف نهر اللوار في فرنسا سنة ٧٣٢ م وتمكن من الانتصار عليهم .

وعين شارل مارتل قبل وفاته سنة ٧٤١ م ولديه بيبان Bippin وكارلمان Carloman في منصبه وهو حاجب القصر Mayor of the Palace فانتقلت السلطة اليهما وتركا الملك على عرشه دون ان يكون له اي تدخل في الحكم . ويقول مؤرخو ذلك العصر ، بان الملك اكتفى بلقب الملك وبشعره المسدل ، وبلحيته الطويلة ، وبان يجلس على العرش ويمثل دور الحاكم ، فيستمع الى السفراء الذين يأتون من جميع الجهات ، ويعطيهم الأجوبة التي كان تلقنها كأنها من عنده ، وبارادته ، وبالحقيقة لم يكن له شيء سوى الاسم الملكي والراتب الذي يستجديه من حاجب القصر ، وهذا

ما يشبه حالة الخلفاء العباسيين في زمن ضعف دولتهم . وتمكن اذا شارل من القضاء على كل معارضة وتمت لها السيادة . ومن غريب ما حصل تخلي كارلمان لأخيه عن حقه بالحكم، وارتدائه ثياب الرهبنة فجمعت المملكة الفرنكية كلها بيد بيبان الذي حكمها بحزم وقوة » وقضت المملكة الفرنكية سنتين هادئتين وهما سنة ٧٤٩ و ٧٥٠ م ».

البابا و بيبان

وجد بيبان نفسه قوياً فأراد التخلص من الملك الشكلي الذي لم يكن بيده شيء من السلطة ويأخذ لنفسه اللقب الملكي . لذلك عزم على الاستعانة بالكنيسة ، فارسل الى البابا يسأله : هل من المناسب ان يكون افراد السلالة الميروفنجية ملوكا ، وليس بيدهم من زمام السلطة شيء ؟ فاجابه البابا : « من الافضل أن يسمى ملكا من بيده السلطة » فاعلن بيبان نفسه سنة ٧٥١ اول ملك من ملوك الاسرة الكاروانجية ، تلك الاسرة التي كانت تحكم الدولة الفرنكية باسم الملوك الميروفنجيين من أمد بعيد .

ان اشتراك البابا في تسمية بيبان ملكا على الدولة الفرنكية يدل نظرية « الحق الملكي » لأن البابا صرح : ان غضب الله وانتقامه يقع على كل من يحاول ان يحل محل سلالة بيبان المقدسة. فاصبح نظرياً — على الأقل — واجب ديني اطاعة الملك ، لأن الكنيسة اصبحت تعتبره ممثل الآله على الارض ، يستمد سلطته منه ، فكل ثورة عليه هي خطيئة دينية . بينما كان الملك ولا يزال عند الجرمن معتبرا كقائد حربي منتخب من الشعب . او على الاقل منتخب من الطبقة الارستقراطية فيه

ان وجود بيبان على عرش المملكة الفرنكية بمصادقة البابا ، حسن العلاقة بين قوتين كبيرتين في الغرب وهما : الكنيسة والدولة الفرنكية ، ونتج عنه اتفاق بين الطرفين ، وكان هذا حادثاً عظيماً في تاريخ اوربا .

وذلك لأن البابوات كانوا سابقاً ينظرون الى اباطرة القسطنطينية في الشرق كحامين لهم ، لانهم كانوا يساعدونهم في رد هجمات اللمبارديين القاطنين في شمالي ايطاليا لكيلا يستولوا على روما. وفي سنة ٧٢٥ م نشر الامبراطور ليو الثالث Leo III مرسوماً حرم فيه وضع صور المسيح والقديسين في الكنائس وامر بطمس ما كان مصوراً منها على جدران الكنائس في جميع انحاء مملكته. لان المسلمين كانوا ينتقدون هذه الصور ويعتبرونها رجوعاً الى الوثنية . فثارت المعارضة في وجه الأمبراطور في كل مكان ، وبصورة خاصة في الغرب . ومنع البابا إطاعة هذا المرسوم ، لأنه ليس للأمبراطور التدخل في مقدسات الكنيسة ، وهذا ما دعا الى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية ، وظلت الصور المقدسة محترمة في الكنائس الغربية .

وبالرغم من هذا الانقسام ظل البابوات يتأملون مساعدة امبراطور القسطنطينية لينصرهم على اللمبارديين حتى هدد استولف Aistulf مدينة روما وحاول جعل ايطاليا مملكة واحدة عاصمتها روما، وان تنتقل السيادة من البزنطيين اليه. لكن البابا ابى أن يصبح تابعاً لملك اللمبارديين وان يخسر استقلاله وبذلك حرم ايطاليا من ان تصبح دولة موحدة، كما انهم حرموا ايطاليا من توحيدها بعد ذلك اكثر من الف سنة الى ان تم ذلك في زمن فيكتور عمانوئيل. وعلى اثر تهديد استولف لمدينة روما طلب البابا المعونة من البيزنطيين فخيبوا مسعاه، فاجتاز جبال الالب ملتجئاً الى بيبان، فاستقبله استقبالاً عظيماً، وعاد معه الى ايطاليا وانقذ روما من اللمبارديين سنة ٧٥٤ م. وما كاد بيبان يقطع جبال الألب عائداً الى بلاده، حتى عاد ملك اللمبارديين وحاصر روما من جديد، فكتب البابا اليه يطلب معونته، فعاد بحملة ثانية الى ايطاليا واخضع اللمبارديين، وضم املاكهم الى البابا فتوسعت مملكته في شبه الجزيرة، وظلت هذه المملكة قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر وتدعى «بمملكة الكنيسة».

ويمتاز عهد بيبان بعدة امور وهي: اولاً قوى نفوذ الملك في الدولة الفرنكية، مما ساعد على انتشار النظام الملكي في اوربا الغربية وهيأ ظهور دولة فرنسا والمانيا. ثانياً بدأ في زمنه تدخل امراء الشمال في شؤون ايطاليا، وأصبح هذا التدخل حجر عثرة في وجه ملوك فرنسا، والمانيا فيما بعد. ثالثاً تشكل للباباوات مملكة خاصة بهم، وهذه المملكة بالرغم من صغر حجمها تعتبر من الدول المهمة في اوربا.

مات بيبان سنة ٧٦٨ م بعد ان اعاد الى بلاد الفرنك وحدتها السياسية وترك لابنه شارلمان اكمال عمله.

شارلمان

٧٦٨ — ٨١٤ م

صفات شارلمان: يعتبر شارلمان اول شخصية تاريخية من بين الشعوب الجرمانية التي نعرف عنها معلومات كافية، فقد وصفه امين سره بانه كان: طويل القامة، قوي البنية، وجهه مدور وعيناه واسعتان وحادتان، انفه كبير وعباراته واضحة ومسرة، وسواء اكان جالساً او واقفاً فان شكله مهيباً، وخطواته ثابتة.

كان شارلمان نشيطاً، وماهراً بالتمارين الجسمية، يحسن ركوب الخيل والصيد ولاسيما السباحة وقد كانت صحته جيدة، وجسمه قوياً، وهذا ما يعبر عن سرعته العجيبة التي كان يتنقل بها في مملكته الواسعة. فكان يقود الحملات العديدة في مناطق واسعة وبصورة مستمرة.

كان شارلمان يهتم بالتعلم ويعرف كيف يقدر ويشجع رجال العلم. فكان عند تناول الغذاء

يسمع قراءة الكتب لا سيما التاريخية منها ، فهو بذلك يشبه معاوية الخليفة الأموي الاول . وكان يحسن قراءة اللغة اللاتينية ، ويفهم اليونانية بسهولة . وحاول ان يتعلم الكتابة الا انه بدأ متأخراً ، لذلك لم يحسن إلا كتابة اسمه .

استدعى شارلمان علماء عصره الى قصره ، واستفاد من معارفهم لتأسيس نظام تعليمي عام في مملكته ، واهتم ايضاً بالبناء ، والاعمال العمرانية العامة ، ليزين مملكته ويصلحها ، وقد وضع بنفسه مخطط كاتدرائية اكسلا شابيل ، واظهر عناية فائقة بفرشها . وابتدأ بعمارة قصرين احدهما بقرب مدينة ميز Mainz والآخر في هولندا ، وبنى جسراً كبيراً على نهر الرين عند مدينة ميز .

ان الاثر الذي تركه شارلمان في عقول الناس ازداد بعد موته ، فاصبح بطل عصره واسندت اليه اعمال ومخاطر ليست من الحقيقة التاريخية بشيء ، وظلت قروناً عديدة معتبرة كحقائق ثابتة فقد كانوا يعتقدون مثلاً انه حكم ١٢٥ سنة ، واسندت اليه والى فرسانه أعظم الاعمال الحربية ، حتى قيل انه قاد حملة صليبية ، وقيل في جميع ذلك قصائد وملاحم كلها خرافات لا تستند الى التاريخ بشيء .

ان دراسة حكم شارلمان تبرهن على انه كان ملكاً عظيماً ، ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ العالم ، فقد طبع القرون الوسطى بطابعه الخاص ، ويعتبر من الرجال القلائل الذين أثروا تأثيراً عميقاً في تأثير تقدم حضارة اوربا ، وفيما يلي سنذكر اولاً فتوحاته ، ثم تنظيماته الادارية واخيراً تشجيعه للعلم والثقافة .

حروب شارلمان الداخلية

اخضاع السكسون : نجح شارلمان في اخضاع الجرمن وجمعهم في دولة مسيحية واحدة ، وقد تمكن والده بيبان من اخضاع قسم صغير من بلاد الجرمن بالحرب ، كما ان الارساليات الدينية تمكنت بعد جهود عظيمة من تنصير قسم آخر وضمهم الى المملكة الفرنكية . وبقيت الشعوب السكسونية على وثنيتها واستقلالها كما كانت عليه في زمن الرومان قبل سبعة قرون .

كانت شعوب السكسون تحتل المناطق الواقعة شرقي مدينة كولون Cologne ، وتمتد اراضيها حتى نهر الالب Elbe ، وفي الشمال تصل حتى الموقع الحالي لمدينتي بريمن Bremen وهامبورغ ولا تكاد تقع مملكة ساكسونيا الحالية ضمن حدودها . ولم يكن عند الشعوب السكسونية طرق معبدة ولا مدن معمرة ، وكان من الصعب اخضاعهم لأنهم كانوا يتقهقرون الى اماكنهم في الغابات والمستنقعات عند تقدم الكفاءة بانفسهم في مقابلة عدوهم في ساحة القتال . لذلك ظلوا يهددون المملكة الفرنكية بصورة دائمة ، وكان اخضاعهم لسلطانها من الامور الرئيسية وقد اهتم شارلمان في هذا

السبيل كثيراً ، وصرف جهوداً جبارة خلال عدة سنوات من اجل ذلك فاخضع ثوراتهم تسع مرات متواليات ، وكان نجاحه اخيراً بسبب الكنيسة لا بسبب قوته الحربية. ولا نجد مثالاً ابرز من هذا على تأثير الكنيسة في القرون الوسطى . وكان شارلمان بعد اخضاع السكسون يفرض عليهم احترام الكنيسة ، ويجبرهم على الدخول في دينها قبل ان يفرض عليهم خضوعهم لنفسه وموالاتهم لسلطانه .

وكان يهتم بانشاء كنائس واديرة، كما يهتم ببناء القلاع والحصون ، وكان القانون الذي نشره مابين سنة ٧٧٥ و ٧٩٠ بعد فتحه بلاد السكسون هو ان حكم الاعدام ينفذ في كل « من لا يكون موالياً للملك ، وكل من يبقى على وثنيته ولا يتنصر » .

وكان شارلمان يعتقد بان تنصير السكسون وحماية الكنيسة من اهم واجباته لذلك نشر امراً قال فيه : ان من يدخل الكنيسة بالقوة او يأخذ منها شيئاً يحكم عليه ، بالموت . ومن يعبد شجرة او نبع ماء ، اولا يقدم ابنه للتعميد قبل ان يبلغ العام من عمره يعاقب بدفع مبلغ كبير على المال. وفرض على كل مقاطعة ان تقدم للكنيسة التي فيها ثلاثمائة فدان من الارض وداراً للكاهن . وعلى كل فرد في المقاطعة سواء كان حراً او عبداً ان يقدم عشر ما يحصل عليه من عمله الى الكنيسة ورجالها، وذلك ليرد الى الله جزءاً مما اعطاه اياه . وعلى اثر هذه الاوامر التي اصدرها شارلمان قويت العلاقات بين الكنيسة والدولة وظلتا تتعاونان في حكم وادارة الشعوب التي تخضعها طيلة القرون الوسطى . وبالرغم من ان اوامر الكنيسة كانت تتعارض احياناً مع مصلحة الحكومة او بالعكس لم يدخل في عقل اى رجل من رجال الحكومة او الكنيسة امكان استغناء بعضهم عن بعض . ولم يكن ليحكم الشعب بامكان وجود احدهما بدون الآخر .

وقبل غزو شارلمان لبلاد السكسون لم يكن فيها مدن . الا انه نشأ حول كل كنيسة بعض البيوت التي أصبحت فيما بعد مدناً او موانيء مهمة .

اخضاع اللومبارديين : قلنا سابقاً ان بيبان حمى البابا من خصومه اللمبارديين ، وعندما رأى ملك اللمبارديين انشغال شارلمان في اخضاع قبائل الجرمن اكتسب الفرصة للاستيلاء على روما. فاستنجد البابا بشارلمان الذي كان مستعداً لانقاذ وعود ابيه . فأمر ملك اللومبارديين بارجاع المدن التي اخذها من البابا . وعندما رفض ذلك اجتاح شارلمان لمبارديا سنة ٧٧٣ م بجيش كبير واستولى على عاصمتها بافيا Bavia بعد حصار طويل . واجبر ملك اللمبارديين ان يصبح كاهناً ، ووزع ثروته على جنده وفي سنة ٧٧٤ أجبر شارلمان جميع امراء لمبارديا ان يعتبروه ملكا عليهم .

اخضاع اميرى اكيتانيا وبافاريا : لقد تم ضم مقاطعة اكيتانيا الى المملكة الفرنكية سنة ٧٦٩ م

كما انه اخضع امير بافاريا وسجنه في دير . وقدم مملكته بين رجاله . وبذلك تم له تأمين حدود مملكته من جميع الجهات .

حروب شارلمان الخارجية

بعد ان وطد شارلمان حكمه في داخل امبراطوريته واخضع قبائل الجرمن بما فيهم اللومبارديين بقي عليه ان يوسع مملكته ويخضع الصقالبة Slaus في الشرق الذين كانوا يسكنون ممالك بولونيا ، وبوهيميا ، وروسيا وان يحارب العرب في اسبانيا ليحفظ مملكته من طرفهم ويوسع نفوذه من جهة السلافين .

محاربة الصقالبة : Llavs جهز شارلمان سنة ٧٨٩ م حملة على الصقالبة والبوهميين واجبرهم على الاعتراف بسلطته ، وان يدفعوا ضريبة سنوية له ، كما انه بنى قلاعاً على الحدود الشرقية وضع فيها حاميات عسكرية لتحمي حدود مملكته من هجمات القبائل الغير جرمانية ، ولتمنع هذه القبائل من التسرب لداخل مملكته . الا ان بعض قواد هذه الحاميات استقل فيما بعد في منطقته ، وانفصل عن الدولة الفرنكية .

محاربة العرب في اسبانيا : كان يحكم بلاد الاندلس الامير الاموي عبد الرحمن الداخل ، فثار عليه بعض امراء العرب ، وقواد البربر ، منهم : سليمان بن يقظان العرابي أمير برشلونة ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأبو الاسود بن يوسف الذي كان عبد الرحمن قد حكم عليه بالسجن المؤبد ، وتمكن من الهرب . والتجأ هؤلاء الثلاثة الى شارلمان سنة ٧٧٧ م وكان مجتمعاً مع كبار رجاله بمجلسه الاعلى الذي كان يعقده في ربيع كل سنة للتداول في شؤون الدولة واتفقوا معه بان يساعدهم بقوة كبيرة للقضاء على عبد الرحمن الداخل .وما لبث ان ثار عبد الرحمن بن حبيب الفهري بقوة من البربر ، واحتل مدينة « تدمير » مظهراً الدعوة للعباسيين . وطلب من سليمان بن يقظان اعلان عصيانه في برشلونة ، الا ان سليمان وجد ان الوقت لم يحن بعد ، لان شارلمان لم يعبر جبال البيرنة بعد ، فاعتقد الفهري ان ابن يقظان قد عمد الى الخيانة ، وسار اليه بجيوشه وحاربه ، وكان نصيبه الفشل . وفيما هو عائد الى تدمير اغتاله احد البرابرة الذين طمعهم عبد الرحمن الاموي بالمال ، وبذلك خمدت روح المقاومة .

عبر شارلمان مجاز البيرنه الى بلاد الاندلس واستولى على بلاد البشكنس وكثير من المدن في طريقه الى سرقسطه ، وما ان انتشر خبر قدومه فيها حتى ثارت نفوس اهل تلك المدينة ، ومنعوه من الدخول اليها ،وفي اثناء حصارها وصله خبر انتقاض ويتكند Wittkind زعيم الساكسون عليه

وعودته الى الثورة، فاضطر شارلمان للعودة الى بلاده . وفي اثناء اجتيازه ممالك البيرنه الصعبة مرّ في مجاز « رونسوفو » الضيق فقطع عليه رجال البشكنس الطريق وكانو قد كمنوا له في المغاور والكهوف ، وبين الصخور والغابات . ولما بلغ مكاناً منخفضاً تحيط به الجبال انقضوا على مؤخرته ، وقضوا عليها . وكان من جملة من قتلوا في هذه الموقعة « رولان » أمير مقاطعة بروتانيا وغيره من كبار قواد شارلمان . وقد اثارت هذه الحادثة نفوس كثير من الشعراء ، وكانت موضعاً « لأغنية رولان » الشهيرة .

تتويج شارلمان امبراطوراً

بعد ان توسعت مملكة شارلمان في اوربا الغربية والوسطى ، وبلغت أقصى حدودها سنة ٨٠٠ كان لقب شارلمان وهو ملك الدولة الفرنكية وبلاد اللمبارد لا يدل على حقيقة سلطانه ، وفي سنة ٨٠٠ ذهب شارلمان ليحل الخلاف القائم بين البابا ليو الثالث Leo III وخصومه ، وحكم للبابا . ولاشهار هذا الحكم عقد البابا في يوم عيد الميلاد احتفالاً دينياً في كنيسة القديس بطرس حضره شارلمان . وعندما ركع شارلمان امام المذبح اثناء القداس اقترب البابا منه ووضع على رأسه تاجاً وسلم عليه امام الحاضرين « بامبراطور الرومان » ، وكان سبب هذا العمل الغريب الذي ادهش شارلمان يعود الى الامور التالية :

اولاً : الى انقطاع لقب امبراطور في الدولة الرومانية الغربية .

ثانياً : الى ان الامبراطورية الشرقية كان يحكمها امرأة ضعيفة تدعى إريني Irene خلعت ابنها الصغير قسطنطين السادس ، وفقأت عينيه واخذت منه الحكم .

ثالثاً : الى ان الكنيسة الغربية كانت تعتبر الاباطرة الشرقيين هراطقة ، لأنهم حرّموا وضع صور القديسين في الكنيسة .

رابعاً : لم يكن تتويج شارلمان امبراطوراً الا تثبيتاً لوضع سياسي حصل في بلاد الغرب بعد فتوحات شارلمان الواسعة .

وقد اعتبر العالم المسيحي آنذاك أن مملكة شارلمان ما هي الا تتمة مكملة للامبراطورية الرومانية التي اسسها أغسطوس . وان شارلمان ما هو الا خلف الامبراطور قسطنطين السادس الذي خلعته ايريني . ومع ذلك فانا نجد بين امبراطورية شارلمان وبقية الاباطرة الرومان الفروق التالية :

اولاً : ظل الاباطرة الشرقيون يحكمون في القسطنطينية عدة قرون غير معتبرين حكم شارلمان ومن خلفه .

ثانياً : كان خلفاء شارلمان الذين لبسوا التاج الامبراطوري ضعاف لدرجة أنهم لم يتمكنوا من

حكم المانيا وشمالي ايطاليا حكماً فعلياً ، عدى عن بقية المناطق في اوربة الغربية .

ومع ذلك فقد ظلت المملكة القوية التي سميت في القرن الثاني عشر « الامبراطورية الرومانية المقدسة » نحو الف سنة إلى ان تنازل آخر امبراطور سنة ١٨٠٦ عن لقبه الى نابليون بونابرت الذي سمى نفسه خليفة شارلمان !

وقد اتعب لقب « امبراطور » حكام الجرمن وجلب لهم مشاق كبيرة ويعود ذلك الى الاسباب الآتية :

اولاً : اضطرهم ان يحتفظوا بسلطتهم على ايطاليا التي كانت خارجة عن نطاق حدودهم الطبيعية .

ثانياً : ان الظروف التي توج فيها شارلمان جعلت البابوات يدّعون فيما بعد بأنهم هم الذين نقلوا اللقب الامبرطوري الى العائلة الكارولنجية ، واخذوه من سلالة الاباطرة الشرقيين ، ولهذا فلهم الحق ان يتصرفوا بالتاج كما يشاؤون ، مما اضطر كثير من الاباطرة ان يتحملوا مشاق السفر الى روما . وسبب ذلك كثيراً من الخلافات بين رؤساء السلطة الروحية والزمنية .

ادارة شارلمان وتنظيماته

ان ادارة امبراطورية واسعة كامبراطورية شارلمان يعتبر من الاعمال الشاقة التي اتعبت شارلمان والعجزت خلفاءه من بعده . فالصعوبات التي واجهها هي نفسها التي كانت تعترض من تقدمه ، وهي قلة واردات الدولة ، وانفصال بعض الأمراء الاقوياء واستقلالهم عنه . الا أن كفاءة شارلمان في الحكم تظهر في إخضاع جميع الامراء في مملكته الى سلطته ، واجبارهم على موالاته .

وكان دخله - كبقية حكام القرون الوسطى - يأتي خاصة من اراضيه . فلم يكن لديه نظام فرض ضرائب عامة كما كانت عليه الدولة الرومانية . فكان همه ان يزرع جميع اراضيه وأن يستغلها على ان لا يضيع عليه من حاصلاتها شيئاً .

وكان شارلمان يعتمد بصورة خاصة على الامراء الذين كانوا « يد وصوت الملك » عندما لا يمكنه أن يكون موجوداً بنفسه . فكان عليهم حفظ النظام وتحقيق العدل في مقاطعاتهم ، وتهيئة الجند لمساعدة الملك عند اللزوم .

وليتحقق شارلمان من أمانة الامراء التابعين له كان يرسل « مفتشين » لجميع الجهات ليراقبوا اولئك الامراء ، ويرسلوا تقارير الى عاصمة الدولة « اكس لاشابل » عن حالة المقاطعات وكيف تجري الامور فيها . وكان يرسل مفتشين معاً ، احدهما من رجال الدين ، والآخر من الموظفين المدنيين ليراقب احدهما الاخر ، وكان المفتشون يبدلون جهاتهم في كل سنة لكيلا يتفقوا مع الامراء الذين يفتشونهم .

ان احياء الامبرطوريه الرومانية في الغرب على يد شارلمان لم يغير في نظام الحكم شيئاً سوى أنه طلب من كل فرد بلغ الثانية عشرة من عمره أن يقسم يمين الولاء للامبرطور ، وكان يعقد اجتماعات سنوية في كل ربيع او صيف يحضرها الاشراف ورجال الدين ليتذاكروا في قضايا الدولة الرئيسية وقد نشر بمساعدة مستشارية مجموعة قوانين مهمة حفظ بعضها حتى الآن . وكان يتذاكر مع رجال الدين عن حاجات الكنيسة ، وبصورة خاصة عن طريقة تحسين التعليم في المدارس ، ونشر المعارف بين رجال الدين والشعب على السواء . وكان له فضل كبير في نشر العلم في اوربا .

كانت الجندية إجبارية فكل فرد كان مجبر على الخدمة في الجيش ، وبالحقيقة لم يكن يشترك بصورة فعليه إلا النبلاء والاشراف أصحاب الاملاك الواسعة لأن الجندي كان مجبراً على تقديم جميع نفقاته التي تلزمه في الحرب .

اهتمام شارلمان بالتعليم

إن العصر الذي سبق مجيء شارلمان يعتبر من أظلم العصور التي مرت على اوربا ، بسبب انتشار الجهل وفقدان الورق الذي كان يأتي من مصر . والقليل من الوثائق التي وصلتنا تظهر مقدار الجهل والاهمال في تلك الايام . وكانت الكنيسة هي الامل الوحيد في إبقاء بعض المعارف القديمة . وذلك لان لغتها الرسمية التي تتراسل بها كانت اللغة اللاتينية . وكان الكهنة مضطرين لحفظ بعض المقاطع اللاتينية من الكتاب المقدس لتلاوتها اثناء الصلوات . ولذلك كان من الواجب عليهم تعلم اللغة اللاتينية مهما كانت الجنسية التي ينتسبون اليها ؛ ليقوموا بالخدمة المفروضة عليهم .

وعندما جاء شارلمان لاحظ إهمال التعليم حتى عند رجال الدين أنفسهم وقال : « ان التعليم قد نسي تماماً وذلك بسبب إهمال اجدادنا . » وكان يرى أن من واجبات الكنيسة ان لا تثقف موظفيها فحسب ، بل أن تنشر التعليم الابتدائي على الاقل بين جميع طبقات الشعب ، ولذلك نشر سنة ٧٨٩ بياناً إلى رجال الدين يطلب منهم فيه ان يجمعوا أولاد الاحرار والعبيد في مناطقهم وان يؤسسوا مدارس « يعلموهم فيها القراءة » ومن الصعب معرفة عدد المدارس التي اسسها رجال الدين على اثر هذا البيان ، الا أنه من المؤكد أن كثيراً من مراكز التعليم نشأت في تور ، واورليان وغيرها من المدن . وقد شجع شارلمان التعليم بتأسيسه «مدرسة القصر» الشهيرة لتعليم اولاده وأولاد النبلاء ، جلب اليها معلمين قديرين من ايطاليا وغيرها . كما انه حرص على نقل الكتب ، وحذر من الاخطاء التي يرتكبها النساخ ، وطلب أن لا يسلم العمل الا لنساخ قديرين . ولم يهتم شارلمان باحياء المعارف ، اليونانية والرومانية ولكنه اكتفى بحض الناس على تعلم اللغة اللاتينية ليتمكنوا من قراءة الكتاب المقدس بدون خطأ .

ان جهود شارلمان لنشر التعليم كانت فاشلة ، والنتائج التي حققها كانت ضئيلة ، لأن انقسام الامبرطورية بعد موته ، والنزاع بين اولاده ، وهجوم قبائل بربرية على مملكته ، والفوضى التي

سببها الامراء الاقطاعيون جعل عمل شارلمان في نشر التعليم يتأخر على الاقل مئتين سنة ، ليظهر من جديد بصورة ضئيلة في اواخر القرن العاشر وابتداء القرن الحادي عشر . ومع ذلك فإن الفوضى والجهل لم يظهرا مرة ثانية بعد شارلمان مثلما كانا قبل مجيئه .

ازدهار الامبرطورية الفرنكية في عهد شارلمان

كان من نتائج حسن ادارة شارلمان أن بدأ الرقي يظهر في الامبرطورية الفرنكية ، فازدهرت الصناعة ، والتجارة . وانشئت مدن جديدة ، واصلحت المدن القديمة ، واتصل بعضها ببعض بطرق معبدة ، وحفرت أقنية مائية لتحسين الزراعة وبنيت أسوار عالية حول المدن لتحميها من الغارات عليها ، وأحيطت بخنادق عميقة ، الا أن هذه الأسوار منعت المدن من التوسع ، لأنه كان غير مسموح بالبناء خارج المدن . ولما ازداد عدد السكان اخذت المنازل ترتفع وتتعدد طبقاتها ، وحذفت الساحات العامة وبني ابنية مكانها . وضاقت الطرق ، وتكاثف البناء في المدن حتى تشوه شكلها .

نظم شارلمان المعامل لتشجيع الصناعة ، وألغى الرسوم الغير مشروعة التي كان يجبيها الامراء عند مرور البضائع فى مناطق نفوذهم إما عند الجسور أو في الطرقات . كما وضع مراكب مسلحة عند مصاب الانهار لتحمي الملاحة النهرية .

وقد ذكرنا سابقاً صلته بهارون الرشيد وما قيل عن الهدايا التي تبودلت بين الطرفين . وقد حاول شارلمان التزوج بإيريني ملكة البيزنطيين ليضم لنفسه تاج الامبرطورية الرومانية الشرقية ، ويجمع التاجين في شخصه ، إلا أن حلمه لم يتحقق بسبب خلع نقفور لايريني وسلبه التاج منها وخضوعه لشارلمان .

مات شارلمان في عاصمة ملكه اكس لا شابل سنة ٨١٤ وعمره ٧٢ سنة بعد حكم دام ٤٦ سنة . وقد قسم ملكه في حياته بين اولاده الذين ماتوا قبله وبقي أصغرهم « لويس » الذي ورث مملكة أبيه الواسعة ، ولقب بالتقي لما كان عليه من الصلاح والتقى بسبب تربيته الدينية ، ومعاشرته القسس وقضاء أكثر اوقاته بالصلاة ، وهذا ما جعله غير صالح لادارة المملكة حتى ولا تدبير أمور نفسه .

قسم لويس التقي ملكه بين اولاده في حياته ، وأختلف معهم . وبعد موته اختلفوا فيما بينهم ، واخيراً اتفقوا في عقد معاهدة فيردان Verdun سنة ٨٤٣ التي اكتسبت اسماً في التاريخ أكثر مما تستحقه ، لأنها كانت في الحقيقة عبارة عن « قصاصة ورق » بينت الانجاه العام الذي آلت اليه امبرطورية شارلمان . وكان هذا التقسيم الذي نصت عليه المعاهدة كما يلي :

اولاً : مملكة لويس الجرماني : وتضم القسم الشرقي من الامبرطورية والذي أصبح فيما بعد — المانيا .

ثانياً : مملكة شارل الاصلع : وتضم القسم الغربي من الامبرطورية والذي يمثل — فرنسا — الحالية .

ثالثاً : مملكة لوثر : وهو القسم الاوسط بين المملكتين ، ويمتد من بحر الشمال الى مدينة روما

وكان مع لوثر ايضاً اللقب الامبرطوري .

توفي لوثر سنة ٨٥٥ فقسمت مملكته بين اولاده الثلاثة . وفي سنة ٨٧٠ توفي اثنان من اولاده فتقاسم أعمامها شارل الاصلع ولويس الجرماني املاكهما بحسب معاهدة مرسن Mersen ، وتركت ايطاليا إلى الولد الثالث الذي بقي حياً .

كانت النتيجة من هذا التقسيم انه لم تأت سنة ٨٧٠ الا وانقسم غربي اوربا إلى ثلاثة مناطق أصبحت فيما بعد ثلاثة دول مهمة وهي المانيا وفرنسا وايطاليا .

وقد وحدت هذه الأقسام مرة ثانية في زمن شارل الضخم Charles theFat حفيد شارلمان ولكنه خلع سنة ٨٨٧ بسبب غارة النورمان على بلاده وعادت التجزئة من جديد . واستقلت كل تحت حكم اميرها .

عصر الاضطراب

لم يتمكن أي ملك بعد شارلمان أن يؤلف دولة قوية واسعة تشبه الدول الكبيرة في الوقت الحاضر ويعود ذلك إلى الاسباب الآتية .

اولاً : كان من المستحيل أن يتصل الملك بجميع أقسام مملكته ، فالطرق الرومانية القديمة التي عمرها الرومان قد تخربت ، لعدم وجود مهندسين يشرفون على تعبيدها ، وتعمير الجسور الخربة فيها . كما أن الاقسام التي فتحها شارلمان لم تكن الجيوش ولا المدنية الرومانية قد دخلتها فكانت الحالة فيها أصعب لانه لا يوجد حتى آثار الطرق الرومانية الخربة .

ثانياً : كانت العملة قليلة في القرون الوسطى ، وهذا ما منع الملوك من استخدام موظفين دائميين يدفعون رواتب لهم ، ويستعينون بهم على ادارة الدولة . كما كان من المستحيل عليهم تأليف جيش نظامي يستعينون به في إخضاع الامراء الذين كانوا ينفصلون عن الدولة ويحاربونها .

ثالثاً : كانت الامبرطورية تجزأ بسبب استمرار سيل البرابرة الذين يغزونها من كل جانب فمن الشمال كانت تأتيها الشعوب السكاندينافية الذين يدعون بأهل الشمال Northmen ، ويسميهم العرب المجوس — وكانوا بحارة ماهرين يركبون سفناً صغيرة يهاجمون بها شواطئ بحر الشمال ، ويدخلون مصاب الانهار الى المدن الداخلية فينهبونها ويحرقونها . ومن الشرق كان الجرمن في نزاع مستمر مع السلافيين ، ثم اتى الهونغاريون (وهم شعوب متوحشة قذفت بهم بلاد آسيا) لينهبوا ويخربوا أواسط المانيا وشمالي ايطاليا . ومن الجنوب استولى العرب المسلمون على جزيرة صقلية سنة ٨٢٧ وأخذوا يهددون جنوب فرنسا وايطاليا ، حتى انهم حاصروا اوربا . ولم يكن هناك ملك قوي ولا جيش منظم يرد غارات هذه الشعوب عن الامبرطورية الفرنكية ، بل كان على كل منطقة أن تحمي نفسها بنفسها . فكان يتجمع حول كل أمير جماعة يضمنون له ويطلبون حمايته وهذا ما يفسر لنا وجود النظام الاقطاعي .

الفصل الثاني

النظام الاقطاعي والفروسية

منشأ الاقطاعية : لكي نفهم حالة الامراء الاقطاعيين في القرون الوسطى ، ونعرف منشأ الاقطاعية يجب أن نتكلم عن حالة الملاكين الكبار في ذلك الوقت . فكان القسم الاكبر من اوربا الغربية في زمن شارلمان مقسم إلى اقطاعات ، يزرعها العبيد المرتبطون بالارض ، والمحبوبون من قبل مالك الاقطاع . فكان العبيد يحرثون الارض ، ويستخرجون ثمارها لصالح المالك ، ولصالحهم دون حاجة الى مشتراة شيء من الخارج .

وعندما نتكلم عن مالك إقطاع في القرون الوسطى نعني به الشخص الذي يملك اقطاعا او اكثر يعيش من غلاله دون حاجة لان يعمل فيه بنفسه ، وإنما يتفرغ لمحاربة اصحاب الاقطاعات الذين يعيشون على طريقته .

وجرت العادة حتى قبل زمن شارلمان أن تعطى الكنائس ، والاديرة وبعض الاشخاص امتيازات خاصة ، تعفى بها أراضيهم من زيارة موظفي الدولة ، فليس لهؤلاء الموظفين حق سماع الشكاوي او أخذ الضرائب ، او النزول في اراضي هؤلاء الاشخاص إذا مروا بقربها وليس لهم ان يسألوهم أي حاجة ، وقد حصل هؤلاء الاشخاص على هذه الميزات لا ليغتصبوا حق الدولة ، وإنما ليتخلصوا من سوء استعمال موظفيها ، فهم يقومون بشؤونهم الخاصة كنواب عن الملك ، وليسوا كمستقلين عنه ومن السهل أن ندرك أن هذه الطبقة كانت تستقل عن الدولة المركزية عند ما تشعر بضعفها ، كما كان كثير من الامراء والملاكين غيرهم ينفصلون عن الملك او الاسياد التابعين لهم إذا أتيح لهم ذلك .

كان شارلمان قد انتخب الامراء والاسياد الذين حكموا المقاطعات في دولته من الاشراف والاغنياء الذين انحدروا من اسر كبيرة . وكان يكافئهم على خدماتهم بمقاطعات جديدة فانها تعود عنده ، بسبب اشتداد قربهم ومحاولتهم الاستقلال عنه ، وكانوا ينظرون الى مقاطعاتهم كأنها ملك خاص لهم ، ويورثونها ابناءهم من بعدهم ، وبما ان شارلمان كان قوياً فقد تمكن من مراقبة هؤلاء الامراء بواسطة مفتشين . ولكن اصبحت هذه الطريقة غير مجدية بعد وفاته لان اولئك الامراء والاسياد استقلوا عن الدولة .

كان النظام الاقطاعي أمراً طبيعياً في اوربا الغربية في القرنين التاسع والعاشر . وكان نتيجة محتمة للاوضاع التي مر ذكرها . ولم يخترع هذا النظام او تكتشف عناصره الرئيسية من أحد ، وانما تجمعت تلك العناصر لتتلاءم مع ذلك الزمن . وقد حدث مثل هذه الحالة قبيل اجتياح البرابرة للدولة الرومانية ، فكان الفلاحون الصغار يرون مصلحتهم ضم اراضيهم الى ملاك قوي بجوارهم ليحميهم . فكان هذا الملاك الكبير يُبقي الفلاح الضعيف في أرضه يعمل بها من غير أجر ، ويعيش فيها دون أن يكون مالكها . ومثل ذلك كان يجري للفلاح الذي يلتجيء الى احدى الاديرة المجاورة لتحميه على أن يبقى في أرضه ، وهذه الطريقة كانت الخطوة الاولى في تكوين الاقطاعية .

وحدث نوع آخر من الاقطاعيـة في اواخر العهد الروماني وهو ان الرجل الحر الذي لم يكن يملك ارضاً ، ولا يجد عملاً ، يلتجيء إلى رجل غني وقوي ، فيقدم له طاعته على ان يطعمه ويحميه ويصبح مولاه ، فيحب كما يحب سيده ، ويعرض عن كل مالا يريده ، وهذا يشبه ما يحدث بين السيد والتابع في النظام الاقطاعي .

إذن كانت جذور النظام الاقطـاعي قد وجدت قبل مجيء شارلمان ، ونمت بالتدريج ، وبصورة غير منتظمة ، وبدون أي خطة سابقة ، وكلما وجد هذا النظام الجو مساعداً يظهر فيـه لأنه نتيجة طبيعية للفوضى والاضطراب ، ووجود قوي وضعيف .

وقد وجد أصحاب الاملاك الكبيرة في زمن شارلمان من مصلحتهم تقسيم اراضيهم بما فيها من فلاحين وعبيد بين أتباع ضمن شروط معينة : كأن يحاربوا معهم اياماً معدودة ، ويخدموا في قصورهم ويحرسوا قلاعهم ، ويسعفوهم في حالة الضيق . وكان من حق التابع أن يمنح قسما من حصته الى تابع آخر بشروط تشبه الشروط التي عقدها مع سيده . كان الاتباع الصغار الذين لا يستطيعون حماية انفسهم يعطون اراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين ، ثم يأخذونها منهم من جديد على انهم اتباع لهم . وبذلك يكونون (اتباع لسيدين) .

ومما تقدم تبين أن الاقطاعية في القرون الوسطى كانت تنمى أما من الاعلى الى الاسفل ، اومن الاسفل الى الاعلى او من الوسط ، وذلك بالاشكال الآتية .

اولاً أن يقطع الاسياد أراضيهم لمن دونهم .

ثانياً أن يقدم الاتباع الصغار واصحاب الاراضي الصغيرة أراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين أو إلى احدى الرهبنات المجاورة ثم يسترجعونها منهم على انهم اتباع لهم .

ثالثاً ان يعطي قسما من اقطاعهم الى تابع آخر ضمن شروط معينة .

وأصبحت القاعدة في فرنسا في القرن الثالث عشر ، أنه لا يوجد أرض بدون سيد عليها ، وهذه

هي الحالة نفسها تقريباً في أوربا الغربية في ذلك العصر .

والاقطاع يبقى وراثياً في اسرة التابع ويرثه ابنه الاكبر منه بعد موته . ولا يمكن للسيد او لورثته من بعده ان يسترجعوا الاقطاع بصورة شرعية طالما يبقى التابع أو ورثته مخلصين لهم ومنجزين الوعود التي قطعوها على انفسهم . ولا يمكننا ان نعين الزمن الذي أصبح فيه الاقطاع وراثياً ، ولكن يمكننا ان نقول انه كان كذلك في القرن العاشر ميلادي .

وقد عرف الملوك والاسياد الخطر الذي ينتجه توريث الاقطاع . الا ان كل محاولة من قبلهم ذهبت دون جدوى ، لان أولاد الاتباع عرفوا أنهم سيقعون في الفقر المدقع اذا لم يرثوا حصة أبيهم من الاقطاع ، وكانت النتيجة انه لم يبق لدى الاسياد سوى الخدمات والواجبات التي قبلها اتباعهم عندما أخذوا الاقطاع . او بمعنى آخر أصبح الاقطاع يخص التابع ولم يبق للسيد من ملكية الارض سوى ظلها .

ففي الوقت الحاضر يمكن للفلاح أن يستغل أرضه بنفسه أو يؤجرها لمدة معينة من الزمن بأجر معين ولكن في القرون الوسطى كانت اكثر الأراضي بقبضة من ليسوا اصحابها ، كما ان اصحابها الأسياد لا يستطيعون استخلاصها من اتباعهم .

وقد استقل الاتباع الكبار الذين أخذوا اقطاعاتهم مباشرة من الملك لوحدهم ، وقسموا اراضيهم بين اتباع آخرين ، وهؤلاء الاتباع لا يخضعون ابداً لسلطة الملك ، لانه ليس له علاقة اقطاعية بهم . لذلك كان ملك فرنسا والمانيا ما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر لا يحكمان بلاداً واسعة كما انه ليس لهما سلطة على عدد كبير من الاتباع مما جعل سلطتهما محدودة جداً .

العلاقة بين الاسياد والاتباع

ان معنى الاقطاع Fief هو ارض يقطعها مالكها الى شخص آخر على شرط ان يبقى تابعاً له والشخص الذي يوافق على ان يكون تابعاً Vassal يركع امام السيد Lord ويقدم له الطاعة Homage وذلك بأن يضع يديه بين يدي السيد ويعلن بأنه تابعه على الاقطاعات المعينة ، وعندئذ يقبله السيد ويرفعه عن الارض ، ويقسم له التابع يمين الولاء على الكتاب المقدس بأنه سينجز ما وعد به من الواجبات نحو سيده . وهذه المراسيم المتقدم ذكرها تدعى « الرابطة المقدسة Feudal bond » واذا خالف التابع الشروط التي قدم الطاعة بموجبها يعتبر عمله نقضاً للعهد ، وثورة على السيد ، ويمكن للسيد عندها ان يسترجع منه الاقطاع .

وتختلف واجبات التابع كثيراً ، فتقتصر أحياناً على ان يجتنب التابع إهانة سيده او مما كسة مصالحه ، وان يشترك معه في الحملات العسكرية ، وكانت القاعدة أن لا يحارب التابع أكثر من

اربعين يوماً على نفقته الخاصة مع سيده ، وكان يشترط منذ البداية على مقدار الايام التي يجب على التابع ان يحرس بها قلعة السيد ، وهذه الايام تختلف كثيراً بحسب الشرط . ولما كانت الخدمة العسكرية التي يقدمها التابع قليلة ، لذلك عمد الملك والاشراف الكبار في القرن الثالث عشر ان يعطوا بعض الفرسان مالاً ليحاربوا في أي وقت أرادوا .

وكان التابع يخدم في بلاط السيد عندما يستدعيه ليجتمع مع بقية الاتباع ليتذاكروا في القضايا المعروضة عليهم ، وعليه ان يقدم النصائح الى السيد في الامور التي يستشيره بها ، وأن يخدمه في مناسبات الاعياد ، وعليه ان يقدم المساعدات المالية لسيده وان يخدمه بنفسه في المناسبات الآتية مثلاً : عندما ينتقل الاقطاع الى ابن التابع بعد موت ابيه او على العكس ، وعند ما يموت الشريف ويرثه من بعده ابنه في السيادة او في الحفلة التي يصبح فيها ابن السيد فارساً ، او عند زواج ابنته الكبرى ، او عند افتدائه من الاسر اذا وقع به . وعلى التابع أن يقدم للسيد هدية كلما حل عليه ، وهناك تفاصيل مضحكة عن عدد الزيارات التي يشرف بها السيد تابعه ، وعدد الرجال الذين يصحبهم معه ، ونوع الطعام الذي يجب ان يقدم له ...

وكان على السيد مقابل ذلك واجبات منها مثلاً : حماية التابع ، والدفاع عنه ، ورفع الحيف إذا ألم به . . ولا يجوز للسيد أن يسترد الاقطاع الا اذا أخل التابع بالشروط المتفق عليها ، وعند ما يقوم التابع بجميع واجباته تجاه السيد يصبح عندئذ الحاكم المطلق في إقطاعه وليس لأحد التدخل في شؤونه . ويوجد أنواع كثيرة للاقطاع تتدرج أهميتها من الدوق Duke أو الكونت Count اللذان يأخذان إقطاعها مباشرة من الملك ، ويتصرفان بها كأمراء مستقلين ، حتى درجة الفارس البسيط الذي يأخذ قطعة صغيرة من الارض من أحد الاسياد يزرعها له الفلاحون أو العبيد تكفيه وحصانه مقابل خدماته العسكرية نحو هذا السيد .

ولكي يعتبر الرجل شريفاً في مجتمع القرون الوسطى يجب عليه أن يكون : حراً مالكاً للارض وعنده دخل على الاقل يكفيه وحصانه دون أن يقوم بأي عمل إلا الحرب . وللنبلاء بعض الامتيازات التي تفصلهم عن الطبقات الغيرنبيلة . وقد ظل قسم من هذه الامتيازات موجوداً في فرنسا حتى زمن الثورة الافرنسية ، وبقيت هذه الامتيازات في ألمانيا وإيطاليا وكثير من الدول الاوربية مستمرة حتى القرن التاسع عشر ، وأهم هذه الامتيازات إعفاء النبلاء من قسم من الضرائب !

ولا يوجد تقسيم ثابت في طبقات الشرف قبل القرن الثالث عشر ، ولا نعلم مثلاً الفرق بين الكونت والدوق والمركيز ، ولكن على العموم يمكن أن نقول بأن الدوق والكونت والكاهن والراهب الذي أخذ إقطاعه مباشرة من الملك هو أعلى درجة في سلم الشرف من الذي يأخذ إقطاعه

من هؤلاء. ويأتي في آخر درجات الشرف الفارس البسيط الذي ليس لديه سوى ما يكفيه وحصانه كما تقدم ، ويجب ان نؤكد أنه لا يوجد تسلسل طبقي مرتب يبتدئ من الملك وينتهي بالفارس البسيط، وانما العلاقة بين الأسياد والاتباع على اختلاف أنواعهم هي على غاية من التعقيد ، فيمكن للسيد أن يكون تابعاً ومتبوعاً ، وأن يكون هو وتابعه تابعين لسيد واحد.

وكان لأصحاب الاقطاعات الكبيرة الحق في محاكمة رعاياهم في محاكمهم الخاصة ، وأن يحكموا عليهم بالموت اذا اقتضى الأمر، ولهم حق اعلان الحرب، وضرب النقود، ولهم مجلس خاص وهو «المجلس الاقطاعي » ولهم علم خاص وقصر خاص بهم

وقد أظهر بعض الاقطاعيين كفاءة فائقة ودهاء عظيماً وشكلوا إقطاعات كبيرة ضموا بعضها الى بعض أما عن طريق القوة أو بطريق الارث وأصبحت هذه الاقطاعات فيما بعد دولاً مهمة كما فعل ذلك ملك فرنسا .

الحرب بين الأسياد والاتباع

كانت الفوضى هي القانون السائد في ظل النظام الاقطاعي ، لأن التابع لا ينفذ واجباته الاقطاعية الا اذا كان سيده قوياً ، ولذلك فالروابط الاقطاعية والوفاء بالعهد التي هي اساس النظام الاقطاعي قد حطمت من قبل الأسياد والأتباع على السواء ، وكثيراً ما يختلف التابع مع سيده فينتقل ولاءه الى سيد آخر ويحدث ذلك مثلاً فيما إذا لم ينصف السيد تابعه ، ولكن على الأكثر كان الاتباع يحاولون التخلص من واجباتهم الاقطاعية فيلتجئون الى سيد آخر ليحصلوا على شروط أنسب ، وعندما يجد التابع في نفسه الكفاءة كان يستقل عن سيده ، وكثيراً ما يحدث ذلك عندما يرث السيد ولد ضعيف لذلك يمكننا أن نقول أن الحرب هو النظام السائد في عالم القرون الوسطى ، وكان الحرب عمل الأسياد الرئيسي ، وكانت المعارك وزف الدماء هي الشغل الشاغل للأسياد ، لأنهم كانوا يتلهون بقتال بعضهم البعض ، وكان الاتباع الأقوياء يمكنهم أن يحاربوا : أولاً أسيادهم ، ثانياً اتباعهم ، ثالثاً أتباع الأسياد الآخرين ، رابعاً الكهنة والرهبان المتصلين بهم والناقمين على إدارتهم .

وعوضاً عن أن تكون الروابط الاقطاعية سبباً للسلم كانت على العكس مثيرة للنزاع والحرب . فكان كل إقطاعي يكتسب ضعف جاره ليتغلب عليه حتى أن الحرب كثيراً ما تحدث في العائلة الواحدة بين الأب وابنه ، والأب وأخيه ، والعم مع إبن أخيه من أجل اغتصاب حقوق بعضهم البعض .

وكان السيد نظرياً يمكنه ان يحل الخلافات بين اتباعه في محكمة قصره ، الا انه عملياً لم يكن يستطيع ذلك ، لأن الاتباع كانوا يحاربون بعضهم البعض ، ويجدون لذة في هذه الحروب .فكان

الحرب هو القانون الحقيقي . وكانوا يتلهون في اوقات السلم بالمبارزة ، والعاب الفروسية ، وكانت هذه الالعاب اشبه بمعارك حقيقية يتقاتل فيها عدد كبير من الاشراف بعضهم مع بعض ، وقد حاول البابوات والملوك منع هذه الالعاب ، الا أن الملوك انفسهم كثيراً ماينحلون بهذا المنع .

وقد قلت الحروب في القرن الحادي عشر بسبب تقدم التجارة والمعارف في المدن ، وتدخل رجال الكنيسة في محاولتهم نشر السلام ، فحرموا الحروب في ايام معينة من الاسبوع وسموها الهدنة الربانية ، وهي تمتد من مساء الخميس حتى صباح الاثنين ، كما انهم حرموا القتال في أيام الآحاد ، وفي بعض ايام الصيام .

وهذا ما يشبه الاشهر الحرم عند العرب الجاهليين . وقد اخذ رجال الكنيسة الايمان والعهود من الاسياد بان يعملوا بموجب هذه الاوامر ، وكان من يخالف ذلك يعرض نفسه لجزاء الحرمان من الكنيسة . وعندما بدأت الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ وجه رجال الكنيسة أهل الغرب المتأصل في نفوسهم حب الحرب لقتال المسلمين ، فطغوا على بلاد الشام وعملوا فيها الخراب والدمار .

الفروسية

لم تؤسس الفروسية في زمن معين ، فهي كالاقطاعية — إذ كانت متصلة بها تمام الاتصال — لم يؤسسها أحداً ، بل ظهرت من تلقاء نفسها في أوربا الغربية لتلائم حاجات ورغبات ذلك العصر ، وقد كان الجرمن قديماً يعتبرون أن الوقت الذي يحمل فيه الشاب سلاح الجندي هو من الاوقات المقدسة ، لان ذلك معناه أن الشاب بلغ سن الرجولة ، وهذا ابتداء الشرف بالنسبة اليه ، ومن المحتمل أن تكون فكرة الفروسية هي إحياء لذلك الشعور لان الشاب من الاسر النبيلة عندما يتعلم جيداً عند نبيل آخر ركوب الخيل واستعمال السلاح ، واستخدام الصقر في الصيد يعتبر — فارساً — وينال هذا اللقب باحتفال مهيب تشترك فيه الكنيسة ، مع أن هذا اللقب يمنح للشاب من الفارس الذي تمرن عنده .

وكان الفارس يعتبر جندياً مسيحياً ، ويشكل مع أقرانه منظمة خاصة ذات مثل عليا . ولم تكن الفروسية جمعية لها أعضاء وموظفون وقانون مكتوب ، وإنما كانت مجتمعاً خاصاً يفتخر من ينتسب إليه حتى ولو كان ملكاً أو أميراً .

والفروسية لاتورث فالطفل الشريف لايلد فارساً ، وإنما يحصل على هذا اللقب بعد أن يقوم بالتمرينات المتوجبة عليه ، فقد يكون شريفاً ولا يعتبر فارساً ، كما أن الشخص من غير طبقة النبلاء يمكن أن يصبح فارساً بعد أن يقدم بأعمال جليلة .

وعلى الفارس أن يتصف ببعض الصفات وهي : أن يكون مسيحياً مطيعاً ، وخادماً ومساعداً للكنيسة في كل الأحوال ، وأن يحمي الضعيف ويحترم الضعفاء ، وأن يحارب الكفار بدون رحمة أين ماوجدهم ، وأن لايستسلم إلى عدوه . وأن يخز واجباته الاقطاعية ، وأن يكون صادقاً لسيده ، وأن لا يكذب او يخل بوعده ، وأن يكون كريماً فيعطي المحتاجين ويساعد المظلومين بدون أجر ، وأن يكون مخلصاً لزوجته ويحميها ويصون شرفها مهما كلفه الأمر . وعليه أن يكون نصير الحق دائماً ...

فالفروسية إذن نظام إنساني وجد في القرون الوسطى ، وهي تتلاءم مع حالة العصر وأهله ، وقد حولت بواسطتها عادة القتال والحرب بين النبلاء إلى حماية الضعفاء ونصر المظلومين .

الفصل الثالث

حالة الفلاحين والعبيد في ظل النظام الاقطاعي

كانت حياة المدن قليلة في اوربا الغربية قبل القرن الثاني عشر . فقد قل عدد سكان المدن الرومانية قبيل هجمات البرابرة . وعندما زاد الاضطراب عقب اجتياح البرابرة للامبرطورية الرومانية تخربت هذه المدن ، وانمحى عدد كبير منها من عالم الوجود . وما بقي منها أو ظهر من جديد كان قليل الاهمية في مطلع القرون الوسطى لذلك كان القسم الاكبر من سكان اوربا يعيشون في القرى ويتبعون الاسياد الاقطاعيين سواء كانوا من الاشراف او من رجال الدين . فقد كان الاسياد يحتفظون بقسم من أراضيهم لاستعمالهم الخاص ، ويوزعون بقية الاراضي على الفلاحين . فكان لكل فلاح قطعة أو أكثر من الارض . وكان الفلاحون على الاكثر اقناناً لا يملكون حقولهم ، كما أنهم لا يُطردون منها طالما هم يشتغلون بنشاط لاسيادهم ويدفعون ماعليهم من الضرائب . وكان الاقنان متصلين بالارض يباعون معها ، وكانوا يزرعونها ويقدمون حاصلاتها الى السيد ، ولا يمكنهم الزواج بدون اذن السيد . وكانت نساؤهم وأولادهم يساعدونهم في العمل ، فكانت المرأة تغزل وتخيط وتخبز ، وكان الفلاح يقدم الى السيد ثيابه وطعامه وجميع مايحتاج اليه .

وهناك جماعة من العبيد لايشتغلون بالزراعة ، بل ينتسبون لاحد الحرف ، كأن يكون طحاناً يدفع ضريبة الى السيد ،أو حداداً أو غير ذلك . وعلى العموم كانت حالتهم أحسن من الاقنان المتقدمي الذكر .

ومن أبرز صفات الاقطاع استقلاله عن العالم الخارجي ، فهو ينتج تقريباً كل شيء يحتاج اليه أفراده ، ويمكن ان يكون منعزلاً عن مجاوريه . وكان قليل من النقد ضرورياً ، لان الفلاحين يدفعون ماعليهم الى السيد من انتاج الحقول ، ويساعد بعضهم البعض ، ويجدون قليل من المناسبات للبيع والشراء .

ولا يوجد تقريباً فرص ليحسن الفرد شروط حياته وحالته ، فالحياة على نمط واحد وتظل مستمرة في سلالة الى اخرى . وهي دائماً بائسة . فكان الطعام مغلظاً وقليل التنوع ، لانه ما كان الفلاح يكلف نفسه عناء زراعة الخضروات .

وغالباً يسكن الفلاح مع اسرته في غرفة واحدة مظلمة لايأتيها النور الا من كوة صغيرة ليس فيها زجاج ، كما أن الغرفة ليس فيها مدخنة مما يجعل جو الغرفة مملوء بالدخان .

وكان الفلاحون في الاقطاع الواحد يعيشون حياة مشتركة ، ويساعد بعضهم البعض ويتصلون ببعضهم لان أراضيهم متصلة ، ولانهم يتعبدون في كنيسة واحدة وهم مسؤولون امام مالك واحد . وكان الاتباع يحضرون لقصر السيد ويتداولون في شؤون الاقطاع ، وكان السيد يفصل في خلافاتهم ويفرض العقوبة على المذنب منهم ، وأحياناً كان يعيد توزيع الاقطاع عليهم .

انحطاط الرق

كان الاقنان عادة مزارعين وعمالا في المعيشة ، فكانوا يزرعون الارض بطريقة ابتدائية ، وكانت حاصلاتهم قليلة ورديئة . والرق يوجد عادة عندما يكون عدد السكان قليل والاراضي كثيرة. الا أنه في القرن الثاني عشر والثالث عشر ازداد عدد السكان في اوربا الغربية ، فكان من الطبيعي أن يتناقص عدد الرقيق لان الاراضي المهمل زراعتها ، والحقول المزروعة بصورة غير متقنة لم تعد تفي لغذاء السكان .

كما أن استعمال النقد ازداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر بسبب انتعاش التجارة والصناعة مما ساعد على افول نجم الاقطاعية ، وقد اختفت عادة المقايضة في التجارة بسبب وجود النقد ، وكان كلما تقدم الزمن زادت الحاجات ولم يعد الاسياد ولا الارقاء يقتنعون بالتنظيمات الابتدائية التي كانت تسد حاجتهم في عصر شارلمان ، فقد أخذ الاقنان يملكون نقداً ببيع حاصلاتهم في أسواق المدن المجاورة ، ووجدوا من مصلحتهم دفع واجباتهم الاقطاعية مبالغ من النقد عوضاً عن أن يشتغلوا مقابلها عند السيد ، وبذلك تفرغوا للاهتمام بمزارعهم الخاصة ، كما أن الملاكين من جهة اخرى وجدوا من مصلحتهم أن يأخذوا نقداً من اتباعهم عوضاً عن خدماتهم ، لانهم يستأجرون بهذه النقود عمالا يزرعون لهم حقولهم ، ويشترون بما يتبقى منها السلع الفاخرة التي كان التجار الايطاليون يأتون بها من الشرق. وأخذ الاقنان يستردون حريتهم بأن يهربوا الى المدن التي انتعشت أكثر من ذي قبل . وإذا بقي العبد مدة سنة ويوم واحد بعيداً عن متناول يد سيده يعتبر حراً . وصارت محاولة الهرب أكثر من ذي قبل .

كل هذه الاعتبارات المتقدمة جعلت الرق يتدرج نحو الانحلال ، وأخذ يحل محله المزارع والمستأجر الحالي . وما أتى القرن التاسع عشر إلا وزال الرق من اوربا .

أهمية حياة المدن

إن كثيراً من مدن القرون الوسطى ظهرت حوالي سنة (١٠٠٠) م بجانب قصر السيد

الاقطاعي أو حول كنيسة أو دير أو قلعة ، ولعل سبب ظهور المدن هو ليحتمي بها السكان المجاورون عند هجوم عدو عليهم ولذلك بني حولها الأسوار والأبراج وحفرت الخنادق . وكانت تلك المدن صغيرة ومكتظة بالسكان ، ولا يوجد فيها ساحات عامة سوى ساحة السوق . والطرقات فيها ضيقة ، والبيوت متلاصقة ومؤلفة من عدة طوابق . وتكاد تغطي ببروزها الطرقات التي تفصلها . وكانت الأسوار المحيطة بالمدن تمنع من توسعها .

كانت التجارة في هذه المدن في القرن الحادي عشر والثاني عشر قليلة ماعدى المدن الايطالية وذلك لقلة اتصالها بالعالم الخارجي . وكانت تصنع جميع مايحتاج اليه سكانها ، أما الحاصلات الزراعية فكانت تأتيها من المزارع المجاورة . ولم يكن سكان المدن أحسن حالاً بكثير من الاقنان ، بالرغم من أنهم يعيشون بين جدران المدينة ويشتغلون بالصناعة بدلاً من الزراعة ، لانهم كانوا مجبرين على دفع ضريبة الاسياد ولم تحسن حياة المدن الا بعد أن تحررت من سلطة الأسياد وشكلت حكومات لنفسها ، ولم يحصل ذلك الا بعد أن ازدادت التجارة مع الشرق ، فأخذ سكان المدن ينتجون بضائع ليبادلوها مع حاصلات البلاد الشرقية ، إلا أن العائق الكبير الذي كان يمنعهم من متابعة عملهم واتصالهم بالعالم الخارجي هو عبوديتهم للأسياد ، ولذلك ناضلوا في سبيل التحرر خلال القرن الثاني عشر من سلطة الأسياد وحصلوا على اتفاقات Charters حددت فيها حقوق كلا الطرفين .

وهذه الاتفاقات هي عبارة عن عقود مكتوبة مابين الأسياد ونقابة تجار المدينة ويحتوي على وعد من قبل السيد أو الملك بأن يحترم النقابة ويحدد حقوق الاسياد في محاكمة التجار وتغريمهم بالمال . ويحدد أنواع الضرائب التي يمكنه أن يأخذها من أهل المدينة . أما الخدمات والواجبات القديمة فقد انمحت أو تحولت الى عدد من النقود .

وكان في كثير من المدن يوجد برج مرتفع يدل على تحرر المدينة يقف عليه حارس في الليل والنهار يقرع الناقوس في حالة حدوث خطر ، وفي المدينة أيضاً قاعة يعقد فيها مجلس عموم المدينة إجتماعاتهم وفيها سجن ايضاً . ولا تزال هذه القاعات من ابرز مايشاهده المسافر من الأبنية عندما يمر بالمدن التجارية القديمة في أوربا .

الفصل الرابع

١ – أسرة آل كابت

قامت الاسرة الكابسية على انقاض الدولة الكارولنجية سنة ٩٨٧ م . ومن هذه الاسرة جاء ملوك فرنسا . وأهم الحوادث التي جرت في عهد هؤلاء الملوك : الحروب الصليبيـة التي اشترك فيها بعضهم . وأشهرهم :

فيليب الاول (١٠٦٠ -١١٠٨ م) وفي زمنه دعا البابا في مجموع كليرمنت بفرنسا للحملة الصليبية الاولى .

ولويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠ م) الذي اشترك في قيادة الحملة الصليبية الثانية .

وفيليب أغسطس (١١٨٠ – ١٢٢٣ م) الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة .

ولويس التاسع (١٢٢٦ — ١٢٧٠ م) ويدعى أيضاً لتدينه بالقديس لويس . قاد حملة صليبية الى مصر ، وأخرى الى تونس مات في أثنائها .

وفي عهد هذه الاسرة قامت حروب المئة سنة (١٣٣٧ – ١٤٥٣ م) مابين فرنسا وانكلترا ، سببها أن الانكليز ورثوا نصف فرنسا الغربي تقريباً بسبب التزاوج مع أميرات من فرنسا . فقام الفرنسيون يحاولون استرداد بلادهم وتوحيدها . فجرت الحرب بين الدولتين مدة (١١٦) سنة تخللها فترات طويلة من السلم والمهادنات ، وأخيراً تم لملوك فرنسا توحيد بلادهم ، إما عن طريق التزاوج أو الحرب. وكان لهذه الحروب نتائج باهرة للامة الفرنسية منها : (١) قضي على النظام الاقطاعي (٢) توطدت سلطة الملكية (٣) قويت الروح القومية والعاطفة الوطنية عند الفرنسيين. ومن أشهر أبطال هذه الحروب:

جاندارك : وهي فتاة قروية ، رأت ماوصلت اليه حالة بلادها من الضعف والانشقاق ، وتراءى لها أنها سمعت هاتفاً سماوياً يناديها بأن تقوم لنصرة وطنها ، ولمحاربة الانكليز الذين كانوا محاصرين لمدينة اورلئان ، ولطردهم خارج بلادها ، وأن تأخذ بيد ولي العهد الفرنسي وتتوجه ملكاً على فرنسا. ذهبت الى باريس ، وقابلت ولي العهد ، وعرضت عليه رسالتها ، فأمدها بجيش الهبت الحماس في قلوب أفراده ، وتقدمت على رأسه ممتطية صهوة جوادها وحاربت الانكليز وأنقذت مدينة اورلئان التي كانوا يحاصرونها وهزمتهم شر هزيمة في سنة ١٤٢٩ م . فدب الحسد والغيرة في نفوس قواد الجيش الفرنسي ، فخذلوها في احدى المعارك مع البورغنديين ،الذين أسروها وباعوها إلى حلفائهم الانكليز فحاكمها هؤلاء وأتهموها بالسحر والالحاد ، فحكمت عليها المحكمة الدينية بالحرق ونفذ الحكم بها

في مدينة « روان » . إلا ان العاطفة الوطنية ، والحماس الشديد الذي تركته جاندارك في نفوس الجيش الفرنسي جعله ينتصر على الجيش الانكليزي ويخرجهم من البلاد الفرنسية . واعتبرت جاندارك في عداد الابطال الخالدين .

لويس الحادي عشر (١٤٦١—١٤٨٣ م) وهو آخر ملوك العصور الوسطى في فرنسا . كان ذا دهاء عظيم ، ومعرفة بأمور السياسة . تمكن من التغلب على معظم امراء فرنسا ووجد البلاد تحت سلطته ماعدى شبه جزيرة بريتانية وقد اصطدم بخصم جديد وهو شارل الجسور أمير منطقة بورغونيا . ولكن تمكن بدهائه ان يثير عليه أهالي سويسرة والولايات المجاورة لها ، وأن يقضي عليه .

اهتم لويس بتحسين اقتصاديات البلاد فأدخل صناعة الحرير الى ليون ، وتور ، بواسطة بعض الطليان . ونشط الصناعات الاخرى ، والتجارة البحرية . ونظم المالية والجيش فكان بذلك من أعظم ملوك عصره .

٢ — تطور تاريخ انكلترا حتى نهاية الفتح النورمندي

انكلترا قبل الفتح النورمندي :

كانت تسكن انكلترا بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد شعوب من العنصر (الايبري) الذي يظن ان أصلهم من اسبانيا ، ثم جاء من بعدهم شعوب من العنصر السلتي الذين كانوا يسكنون وادي الدانوب وغاليا قبل وصولهم الى انكلترا . وأشهر الاقوام السلتية : الاسكتلانديون الذين توطنوا في الشمال ، والبريطانيون الذين سكنوا في الجنوب وسميت البلاد بأسمهم ، وفي منتصف القرن الاول قبل الميلاد احتل (الرومان) انكلترا في عهد يوليوس قيصر ، وادخلوا الديانة المسيحية والحضارة الرومانية ، فعمروا المدن وعبدوا الطرق ، الا انهم لم يتوغلوا في الداخل . وعندما سقطت الدولة الرومانية في القرن الخامس ميلادي تحرر البريطانيون . الا ان القبائل الجرمانية مالبثت ان هاجمت البلاد واستقرت فيها . واشهر هذه القبائل (الانكل) و (السكسون) و (الجوت) . وقد أتى معظمها من المناطق الشمالية في المانية . قاوم السكان الاصليون هذه القبائل البربرية ، الا انهم انهزموا أمامهم ، فهرب قسم منهم الى الجبال الغربية ونزح بعضهم الى فرنسا ونزلوا في شبه جزيرة بريتانية ، التي سميت باسمهم . الا ان العنصر الانكلوسكسوني سيطر على البلاد ، وشكلوا سبع دويلات رئيسية اعتنقت الديانة المسيحية في القرن السابع على يد مبشرين ارسلهم البابا غريغوريوس .

غارات النورمنديون على انكلترا :

كان الدانيمار كيون من أهل الشمال يغيرون على سواحل اوربا الغربية ، فقد أغاروا على فرنسا

في عهد المملكة الكارولنجية ، وكذلك نزلوا سواحل انكلترا في سنة ٨٧٠ م وتوطنوا في شمالي نهر التيمس Thames الا ان الملك الفريد الكبير (٨٧١—٩٠١ م) هزمهم هزيمة منكرة ، وأجبرهم على اعتناق النصرانية . ورسم الحدود بينهم وبين مملكته .

وكان (الفريد) كشارلمان يهتم بنشر الثقافة والتعليم في بلاده ، فجلب رجالاً متعلمين من القارة ليعلموا في بلاده ، وطلب من كل رجل حر في انكلترا ان يتقن اللغة الانكليزية . وأجبر الكهان ان يتعلموا اللغة اللاتينية زيادة عن اللغة الانكليزية .

وفي القرن العاشر أغار أهل الشمال على انكلترا من جديد ، وتمكن ملك الدانيمارك كنوت Cnut سنة ١٠١٧ م ان يعلن نفسه ملكاً على انكلترا وحكمها نحو عشرين سنة ، فالتجأ ملك انكلترا الى فرنسا واحتمى بأمير النورمنديين الذي كان يحكم في شبه جزيرة نورماندیا في فرنسا ، وتزوج بابنته. وبعد موت « كنوت » استرجع ملك انكلترا عرشه ، وحكم آخر ملك ساكسوني ادوارد المعترف Edward the Confessor ، وكان ضعيفاً تربى في نورماندیا في فرنسا واستدعى كثيراً من النورمانديين الى بلاطه ومنحهم اكبر وظائف الدولة . وبعد موته أعلن غليوم William أمير نورماندیا نفسه ملكاً على انكلترا ، ولقب « بغليوم الفاتح » وبذلك انتهى حكم السكسون الذي تشكلت في اثنائه الامة الانكليزية .

غليوم الفاتح :

بعد ان أعلن غليوم نفسه ملكاً على عرش انكلترا ، اعتبر كل من يخالف حكمه خائناً . وادعى انه عندما زار انكلترا في عهد أدوارد المعترف ، قبل ان يكون تابعه بشرط ان يخلفه على عرش انكلترا إذا مات بدون ولد . الا ان هارولد أحد كبار الاقطاعيين في انكلترا أعلن نفسه ملكاً بعد وفاة « ادوار المعترف » . ولم يعترف بحق غليوم ، كما انه طرد رؤساء الاساقفة التابعين لسلطة البابا . لذلك استعان غليوم بالبابا ، ووعده ان يجعل رجال الدين في انكلترا تابعين لسلطة فيما إذا ساعده في الاستيلاء على انكلترا ، فحرض البابا الكسندر الثاني شعوب اوربا لمساعدة غليوم ، واعتبر أن كل حملة تساعد في القضاء على هارولد مقدسة . فكانت هذه الحروب أشبه بحروب صليبية . وتمكن غليوم بقوة خيالته ورماته ان يقهر عدوه في معركة هاستنكز Hastings الفاصلة ، وأن يقتل منافسه هارولد ولقب بعد هذه الموقعة بغليوم الفاتح ، وقد اعترف بسلطته بعد بضعة أسابيع كثير من النبلاء ورجال الدين ، وفتحت له أبواب لندن . وتوج في يوم عيد الميلاد في وستمنستر Westminster سنة ١٠٦٦ م .

أدخل غليوم النظام الاقطاعي الى انكلترا ،فقسم أراضي الامراء الذين ثاروا على سلطته بين أتباعه من النورمان والانكليز . وأعلن أنه لا يريد تغيير العادات القديمة، وأنه يحكم كخلف للملكهم السابق ادوارد المعترف ، وحاول ان يتعلم اللغة الانكليزية ، وحكم البلاد بقوة وحزم . وكان يراقب رؤساء الاقطاع بواسطة موظفين من قبله دعي الواحد منهم شريف Sheriff . ولم يعط احداً اقطاعات واسعة في منطقة واحدة حتى لا ينفصل احد عنه . كما أنه طلب من جميع اصحاب الاقطاعات الصغيرة ان يتبعوا له مباشرة ، ويقسموا له يمين الولاء حتى يساعدوه من جهة ويمنع تكتلهم او اتحادهم مع اصحاب الاقطاعات الكبيرة من جهة اخرى .

وكان للفتح النورمندي تأثير كبير على حياة انكلترا لأن عنصراً جديداً امتزج مع السكان الاصليين وكان هو العنصر الحاكم المتغلب على البلاد . ولما كان غليوم اميراً على مقاطعة نورمندي التابعة لملوك فرنسا لذلك كان يعتبر تابعاً لهم ، الا انه بعد استيلائه على انكلترا صار اقوى منهم، وهذا مما سبب وقوع التنافس بين الطرفين ، واتفق انه حصل تزاوج بين امراء انكلترا وبين بعض أصحاب الاقطاعات الكبرى في فرنسا فكانت النتيجة ان نصف فرنسا الغربي أصبح تابعاً لملوك انكلترا مابين القرن الحادي عشر والثالث عشر ، مما سبب النزاع بين الدولتين كما تقدم معنا . واشتهر من ملوك انكلترا بعد زمن غليوم ، ريكاردوس قلب الأسد الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة سنة ١١٨٧ م .

٣ — نشأة الامبراطورية الرومانية المقدسة

على أثر تتويج شارلمان امبراطوراً رومانياً في يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م تشابك وتداخل تاريخ المانيا مع تاريخ ايطاليا لمدة عدة قرون ، بالرغم من وجود جبال الألب ، هذا الحاجز الطبيعي الفاصل بينهما . وقد كانت الخصومة مستحكمة بين المانيا والبابوات وذلك (١) لما بذله ملوك المانيا من القوى في سبيل حكم البلاد الايطالية بما فيها مملكة البابا (٢) ولما كان يحاوله البابوات من فرض سلطتهم الدينية على جميع ملوك اوربا . وقد كان البابوات زمن العصور الوسطى يحاولون التدخل في جميع شؤون اوربا ، وتمثل ذلك بصورة خاصة في تاريخ المانيا في تلك العصور . ولا يمكن لاحد أن يفهم حوادث القرن التاسع عشر دون أن يفهم بعض الافكار عن القرن التاسع وبالرغم من أن الحوادث طويلة ومعقدة فسنعرضها بصورة موجزة .

ان تاريخ القسم الشرقي من امبراطورية شارلمان والذي نسميه المانيا يختلف تماما عن تاريخ القسم الغربي اي — فرنسا — فبعد ان مر تاريخ المانيا بحروب ومنازعات مدة (٤٠٠)

سنة صار من الواضح في القرن الثالث عشر بان خلفاء لويس الجرماني (حفيد شارلمان) لم يتمكنوا أن يبنوا من المانيا دولة كما بنى القديس لويس لأولاده مملكة فرنسا ، فمنذ القرن الثالث عشر حتى عصر نابليون بونابرت لم يكن يوجد المانيا بالمعنى السياسي وانما كان يوجد عدد من الولايات المستقلة بعضها كبيرة والاخرى صغيرة .

وقد اتحدت هذه الولايات سنة ١٨٧١م تحت زعامة بروسيا — وهي دولة لم تشتهر الا بعد زمن شارلمان بعدة عصور — وشكلت اتحاداً سمي « المملكة الالمانية » .

وقد كان مصور القسم الشرقي من مملكة شارلمان بعد قرن من وفاته يظهر بان هذا القسم قد تجزأ الى ولايات يحكمها أمراء ، ما عدى مقاطعة ساكسونيا ، وبافاريا اللتين كان يحكمها ملوك ليس لهم من السلطة الا الاسم . ولا نعلم كيف تشكلت هذه الولايات ، وانما الذي نعرفه بان خلفاء لويس الجرماني كانوا ضعفاء لم يتمكنوا من فرض سلطانهم على أصحاب تلك الولايات كما فعل شارلمان من قبل كما أن هذه الولايات اضطرت أن تدافع عن نفسها في وجه الهجمات الخارجية التي كانت تأتيها من أهل الشمال ومن الهونغاريين الذين كانوا يدخلون البلاد ويعيثون فيها فساداً . وبما أنه لا يوجد قوة مركزية تدافع عن اهالي الولايات لذلك تجمعوا تحت زعامة رؤسائهم المحليين ، واستقلوا لأنفسهم . وقد كان زعماء هذه الولايات يخشون ملوك المانيا من ضم مقاطعاتهم لسلطتهم ، ولذلك كان احسن طريقة يتبعها ملوك المانيا هي أن يجمعوا هذه الولايات بشكل « اتحادي » كما فعل هنري الأول (٩١٩ — ٩٣٦) ملك ساكسونيا ، الذي لم يحاول أن يطرد حكام الولايات من ولاياتهم ، وانما استعان بهم في ايقاف الغارات الخارجية التي كانت تضغط على البلاد من جميع الجهات . وترك لابنه أتون الاول Otto I أن يقضي على هذه الشعوب المغيرة ، وأن يؤسس مملكة قوية .

اتون الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣ م) .

ان زمن حكم اتون الاول الذي سمي « بالكبير » يعتبر من اعظم صفحات تاريخ المانيا ، فلم يحاول « اتون » ان يوحد الولايات المانية ، وانما جعلها تحت حكم اولاده واخوته وأقاربه ، وقلل من سلطة جميع الامراء الالمان . وبعد ان وطد حكمه في داخل بلاده التفت لمحاربة الاقوام المجاورة له التي كانت لا تفتأ تهاجمه من ناحية الشرق والشمال .

وقد كانت الشعوب السلافية لا تزال على وثنيتها تهاجم حدود ساكسونيا وقد عمل اتون الكبير زيادة على محاربتها ان اسس كنائس ما بين نهر الاودر Oder والالب Elbe وجعلها مراكز دينية لنشر المسيحية بين الوثنيين ، واصبحت هذه المراكز مثل براندبورغ مثلاً موطن الحركة السياسية في المانيا الحالية ، كما انه حارب الهونغاريين وهزمهم في معركة عظيمة قرب اكسبورغ Augsburg سنة

٩٥٥ م وخرجوا على أثرها من حدود المانيا ، وتوطنوا نهائياً في بلادهم ، وعملوا على تشكيل قوميتهم في شرقي اوربا .

الا أن اعظم اعمال اتون الكبير هو تدخله في شؤون ايطاليا التي نال على اثرها تاج الامبرطورية الذي لبسه شارلمان من قبله .

فقد كانت ايطاليا في فوضى كبيرة ، وذلك بسبب منازعات امراء البلاد على السلطة ، ولا ستيلاء المسلمين على جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية .

فاجتاز اتون الكبير جبال الألب لأول مرة سنة ٩٥١ م وتزوج أرملة احدى ملوك ايطاليا ، فاعتُرف به ملكا لايطاليا بالرغم من انه لم يتوج بصورة رسمية . وعندما سمع بثورة احد ابنائه عاد الى المانيا . ولم يلبث طويلا حتى استدعاه البابا لمساعدته ، فاسرع حالا لاجابته ، وانقذه من اعدائه فكافأه البابا على ذلك بان توجه امبرطوراً في روما سنة ٩٦٢ م .

وكان لقبول اتون الكبير لهذا اللقب اثر كبير على خلفائه من بعده الذين اثقل كاهلهم لقب الامبراطورية وجعلهم يرزحون من عبئه . فكان عليهم في خلال ثلاثة قرون أن يحكموا المانيا ، ويديروا شؤون ايطاليا والبابوية . وبعد حروب مرتبة ، وضحايا عديدة خسروا كل شيء فقد خرجت ايطاليا عن سلطتهم واستقل البابوات عنهم ، وتجزأت المانيا الى دويلات صغيرة .

وكانت علاقة اتون الكبير مع البابا سيئة . فلم يكد يرجع الى بلاده حتى ثار عليه البابا ، فعاد الى روما وجمع مجلسا وعزله ونصب غيره ، إلا ان اهل روما رفضوا الاعتراف ببابا انتخب باشراف أتون مما جعله مضطراً إلى العودة الى ايطاليا ومحاصرة روما واجبرهم على ان يعترفوا بالبابا الذي من منصبه . وبعد عدة سنوات اضطر أن يقوم بحملة ثالثة لايطاليا ليعيد البابا الذي طرده اهل روما لمنصبه .

ولم تكن حالة الأباطرة الذين خلفوا اتون بأحسن مما تقدم فكانوا يضطرون للقيام بعدة رحلات يجتازون بها جبال الألب إما لحضور حفلة التتويج او ليخضعوا احد البابوات الثائر عليهم اوليحموا احد البابوات من ثورة قامت عليه . وكانت هذه الرحلات شاقة لا سيما وان الامراء الالمان كانوا يكتسبون فرصة غيابهم ليثوروا عليهم ؛ وقد ظلت امبراطورية اتون التي سميت فيما بعد بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، نحو ثمانية قرون ، قضى فيها اباطرة الالمان وقتهم في المنازعات مع البابوات عوضا عن ان يوطدوا سلطتهم في بلادهم . واخيراً انتصر البابوات عليهم .

وسأتكلم عن الكنيسة والبابوية واثرها فيما يلي :

الفصل الخامس

نشأة الكنيسة المسيحية

نشأت الكنيسة المسيحية في آخر عهد الامبراطورية الرومانية ، وقد اتيح لها ان تدير وتوجه حياة وافكار أوربا خلال العصور الوسطى . ولا يزال تأثيرها كبيراً حتى يومنا هذا . ولم تكن منظمة دينية فحسب — كما هي حالة الكنائس فى الوقت الحاضر — ولكنها كانت دولة عالمية كبيرة تشمل جميع غربي اوربا . . فكانت الوريث الحقيق للامبراطورية الرومانية .

كان اليونان والرومان متدينين . انشأوا المعابد لآلهتهم المتعددة وكانوا يصلون لهذه الآلهة، ويقدمون لها الذبائح . الا أنه لم يكن لديهم كنيسة — عالمية — . وكان من ينكر وجود الآلهة ينظر اليه باشمئزاز فقط ، لان كل فرد متروك حراً لان يكوّن لنفسه فكرة عن طبيعة الآلهة وكان لديهم تسامح ديني عام . وبالحقيقة كان لكل مدينة اوفئة آلهة خاصة يقدمون لها أجل الاحترام دون ان يحتقروا آلهة الآخرين . او بكلمة اخرى كان كل فرد يعبد الاله الذي يراه مساعداً له

إن فكرة « تعدد الآلهة » ينظر اليها عادة «شركا» ، وهي تتعارض مع فكرة «التوحيد» اي الايمان باله واحد ، التي اخذها المسيحيون عن اليهود، والتي كانت موجودة عند بعض المفكرين الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بوجود اله واحد عظيم .

ومن تعاليم المسيحية ايضا اعتقادهم بوجود عدد كبير من المخلوقات الجيدة والشريرة — وهي الملائكة والقديسين من جهة — والشيطان من جهة أخرى . وكان الكتاب المسيحيون سابقا يعتقدون بوجود فوارق كبيرة بين المسيحية وبقية الاديان ،وكانوا يكرهون أن يفكروا أن الاديان كلها تتشابه بعضها مع بعض في بعض النواحي ، تشابه بعض الافكار الوثنية ، الا ان علم مقارنة الاديان الذي ظهر حديثا ، أظهر أن الديانات كلها اخذ بعضها عن بعض . ولذلك فقد كانت المسيحية في العصور الاولى في نزاع شديد مع كثير من الديانات التي تقبل فكرة النجاة في اليوم الآخر ، والتخلص من الذنوب ، والوعد بالجنة للمتقين وبالعذاب للكافرين .

وقد بشرت المسيحية بالجنة والخير لمن يتبع تعاليمها ، ويعتقد بما ورد بالانجيل . وبينت ان الحياة

الآخرة هي أفضل من الحياة الدنيا . وقد تغيرت المسيحية كثيرا بعد ان اعتنقها الوثنيون عما كانت عليه عند ابتداء ظهورها في فلسطين ، لان هؤلاء الوثنيون ادخلوا كثيراً من معتقداتهم في الديانة الجديدة . فكثيراً من صيغ واشكال العبادة دخلت الى المسيحية . فبعد أن كانت العبادة بسيطة تعقدت بايجاد طبقة من الكهان ، واشكال للصلوات لم تكن موجودة في بادىء الامر .

رجال الكنيسة

لقد وجدت الكنيسة منذ نشأتها ضرورة التنظيم في جهازها . لذلك انتخبت بعض الموظفين الذين لا يعرف على التمام واجباتهم . وكان المسيحيون الاول في بدء حماسهم الديني ، لذلك كانوا يتبعون تعاليم الانجيل ، باخلاص وينظرون الى اليوم الآخر بشوق ، دون حاجة الى نظام كنسي معقد، وعدد كبير من الكهنة والاساقفة . ولكن كلما تقدم الزمن كان الحماس الديني يخف من جهة ، ويزداد عدد المسيحيين الذين ليس لديهم حماس الرجال الاولين . فكان من الضروري إيجاد نظام ثابت تدار به الكنيسة . ومنذ سنة ٢٥٨ م كان المسيحيون يتفقون « الكاثوليكية Catholic » اي وجود كنيسة عالمية جامعة لجميع المسيحيين المؤمنين في اي مكان وجدوا . وكل مسيحي يريد النجاة كان عليه ان يتبع هذه الكنيسة العامة، وكل من ينفصل عنها ينفصل عن وعود الكنيسة له بالنجاة « فهو مخالف وغير مقدس ، ونجس ، وعدو . ولا يمكن ان يكون الله اباه من ليست الكنيسة امه » .

وقد وجد فاصل واضح فيما بعد بين رجال الكنيسة وبين بقية الناس ، فرجال الكنيسة يعملون على ادارة الكنيسة وتعليم افرادها . فكان في كل مدينة رومانية يوجد اسقف Bishop وعلى رأس كل قرية يوجد كاهن Briest ثم يأتي بعد ذلك جماعة أقل ممن تقدموا وهم بالترتيب : الشماس Deacon، والقندلفت Acolyte والمعزم Eseorcist والقارىء Reader والبواب Doorkeeper . وكان الاسقف يدير الكهنة الذين هم في منطقته. وكان من الطبيعي ان يكون للاساقفة في المدن الرومانية الكبيرة بعض النفوذ في ادارة شؤون الكنيسة ، لذلك كانوا يسمونهم رؤساء الاساقفة Archbishops وكانوا يجتمعون مع الاساقفة احياناً للمداولة في الامور المهمة .

منشأ سلطة البابا

بعد ان ارتفع البابوات على رأس الكنيسة الغربية ، صار لهم من السلطة والنفوذ ما لا يضاهيها سلطة اي ملك او امير في عصرهم .

ولم يكن لأسقف روما في بادي الامر سلطان زائد عن غيره من الاساقفة، الا انه كان دون شك ذا مركز ممتاز بنظر المسيحيين . وذلك لأن الكنيسة الرومانية كانت هي الوحيدة التي تستطيع أن تميز نفسها في بلاد الغرب ، بأنها كانت تدار منذ البدء من قبل بعض حواري المسيح « وهما القديس بطرس وبول »

فالعهد الجديد يذكر دائماً عن حضور القديس بول Baul الى روما ، كما ان القديس بطرس Beter أشار الى ذلك . ومن المتواتر ايضاً في الكنيسة المسيحية أن القديس بطرس كان أول أسقف في روما . وبالرغم من انه لاتوجد وثائق تثبت انه يوجد مايناقض هذا الرأي أو يخالفه . ويكفي الاعتقاد بذلك — سواء كان صحيحاً او خطأ — لان يجعل هذا الامر حقيقة ناصعة . وكان القديس بطرس مفضلا بين الحواريين ، وكثيراً ما كان يرافق المسيح بمفرده في احيان كثيرة . ولقد وردت فقرة في العهد الجديد عن لسان السيد المسيح كان لها تأثير كبير في تاريخ اوربا السياسي وهي : « وأنا أقول ايضاً انك بطرس، وأنك ستبنى على هذه الصخرة كنيستي وأن ابواب جهنم سوف لا تقهرها ، وسأعطيك مفاتيح الجنة ، وكل من ستلزمه في الدنيا سيدخل الجنة ، ومن ستتركه في الدنيا سيهلك في الآخرة . » وبذلك أصبحت كنيسة روما محترمة منذ البداية في بلاد الغرب ، واعتبرت تعاليمها أصح التعاليم لانها صادرة عن حواري النبي عيسى . وعندما يوجد بعض الاختلافات في النظر عن احدى التعاليم المسيحية فانه يؤخذ بعين الاعتبار رأي اسقف روما . كما أن أسقف روما يمتاز عن بقية الأساقفة بوجوده في عاصمة الامبراطورية الرومانية فكان من الطبيعي ان يعترف بقية الاساقفة بسيادته عليهم ، لأن روما كانت سيدة بلاد العالم في زمن الرومان . ولم يتمتع البابا بالنفوذ السياسي الا بعد انحطاط الامبراطورية الرومانية .

ومنذ اصبح ليو الكبير Leo the Great (٤٤٠ — ٤٦١) أسقف روما إبتدأ تاريخ البابوية لأن الامبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian III الذي كان يحكم القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية الغربية أصدر بياناً في سنة ٤٤٥ م اعلن فيه امتداد سلطة أسقف روما على جميع بلاد الغرب ، وذلك احتراماً للقديس بطرس من جهة ، ولكون روما عاصمة الامبراطورية . وأمر بأن ما يقوله أسقف روما يعتبر قانوناً ،وكل من يخالف اوامره يجبر على احترامها بواسطة السلطة الزمنية وبعد ستة سنوات عقد مجمع ديني في خلقدونيا Chalcedon قرر جعل القسطنطينية على البسفور مركزاً دينياً يعادل روما على نهر التيبر . وأصبح أساقفة هاتين المدينتين متميزين عن بقية الكهنة الا أن هذا القرار رفض من الكنيسة الغربية (اللاتينية) التي انفصلت بالتدريج عن الكنيسة الشرقية (اليونانية) . وكان اسم — بابا — Pope المشتق من اللاتينية papa اى (الأب) يطلق

على جميع أساقفة روما . وكان غريغوري السابع سنة ١٠٨٥ م اول من خص إسقف روما بهذا اللقب .

الكنيسة والحكومة :

إن أهمية الكنيسة في القرون الوسطى لا تحصر في عملها الديني ، بل بعملها الحكومي ايضاً وقد كانت الكنيسة في بادئ الأمر على صلة ودية مع الحكومة ، وكان كلاهما يساعد الآخر ويدعمه. وعندما كانت الامبرطورية الرومانية قوية كانت تدار من قبل الامبراطور . وكان كلما يجده مناسباً يصبح قانوناً ، ولا يستطيع احد من رجال الدين الممانعة او التشكي ، وذلك لأن الحكومة كانت أمراً ضرورياً بالنسبة اليهم لانها كانت تكافح الوثنية ، وتهدم هياكلها ، وتكسر أصنامها ، وتمنع أضاحيها وتعاقب بشدة من لا يأخذ بتعاليم الكنيسة .

بعد هجمات البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية أخذ رجال الدين في الغرب يتمامون من تدخل الحكام في شؤون الكنيسة ، ولم يكونوا يحترمونهم . وبدأ الكهنة يتخلصون بالتدريج من سلطة الحكومة . وصاروا يحلون محلها في كثير من أعمالها ، وفي سنة ٥٠٢ م عقد مجمعاً في روما واعاد مفعول الامر الذي اصدره اوداكر Odoacr الذي أهمل ثم أبطل من بعد ذلك ، والذي ينص على أنه ليس لأي رجل علماني الحق بالتدخل في شؤون الكنيسة . ولقد صرح احد أساقفة روما سنة ٤٩٦ بأن المبدأ الذي تتبعه الكنيسة هو انه « يوجد سلطتين تحكمان العالم : السلطة الدينية والمدنية ، والأولى تفضل الثانية لأنها مسؤولة امام الله عن سلوك جميع الناس حتى الأباطرة أنفسهم. »

ولم يكن احد في القرون الوسطى ينكر بان منافع الكنيسة للبشرية تزيد أهمية عن منافع الدولة التي تشرف على الأمور الدنيوية . لذلك كان من الطبيعي فيما اذا حصل خلاف بين الطرفين أن تكون الكلمة الأخيرة لرجال الدين . وقد صرح رجال الكنيسة بأن لهم الحق لان يديروا شؤونهم بانفسهم ، ومن ثم أخذت الكنيسة تحل محل الدولة الرومانية في الاعمال التي كانت تقوم بها ، والتي تقوم بها حكوماتنا في الوقت الحاضر ، مثل استتباب النظام وادارة التعليم العام ، وسن القوانين ،

ولم تغتصب الكنيسة هذه الحقوق عنوة من الحكومة بل انها كانت تحل محلها عندما تعجز عن ممارستها ، لانه لم يبق في اوربا الغربية لمدة عدة قرون حكومات بالمعنى الصحيح بعد سقوط الامبرطورية الرومانية . . وأصبحت سلطة الملوك لا تفي بفرض النظام في داخل مناطقهم بسبب حروب وثورات الامراء المنتشرين في انحاء الدولة ، والذين كان الحرب شغلهم الشاغل وسلوتهم العظمى ، فلم يكن الملوك قادرين على نشر السلام ولو كانوا راغبين فيه . في مثل هذه الظروف

كان من الطبيعي أن تحفظ الكنيسة التي كانت منظمة أحسن تنظيم الأمن والنظام وان تهدد او تقنع المسببين للفوضى بالهدوء والسكينة ، وأن تشرف على تنفيذ التعهدات بين المتعاقدين ، وأن تتدخل في شؤون الزواج ، ودفن الأموات وتنظيمها وان تحمي اليتامى والأرامل ، وتصرف عليهم عند العوز ، وان تنشر التعليم في زمن فقد فيه المتعلمين من طبقة الفقراء والأغنياء على السواء . وان تحفظ المدنية والمعارف القديمة وان تحافظ على اللغة اللاتينية وتبقيها حية بين رجالها . ولئن تمكن البرابرة من تقويض الامبراطورية الرومانية فان الكنيسة التي ورثت هذه الامبراطورية تمكنت من امتصاصهم وتمثلهم وإخضاعهم لدينها .

سيادة رجال الدين في القرون الوسطى

إن امتيازات الكنيسة الرفيعة مع منظماتها العالمية وثروتها الواسعة جعلت رجال الدين اقوى طبقة حاكمة في القرون الوسطى . ففي يدهم مفاتيح الجنة، وبدون مساعدتهم لا يستطيع احد الدخول اليها. ومن تحرمه الكنيسة يطرد من رحمتها ، ويمنع الناس من التعامل معه، ويلعن ويصبح من حزب الشيطان. ويمكن لرجال الدين ان يحرموا مدينة او قرية بكاملها بأن يغلقوا ابواب الكنائس ويوقفوا الصلوات وبقية المراسيم الدينية فيها . وقد ازداد تأثير رجال الدين كثيراً لأنهم هم الطبقة المتعلمة فقط . فبعد مضي ستة او سبعة قرون على سقوط الامبراطورية الرومانية في بلاد الغرب ، لم يكن أحد يحلم حتى الكتابة او القراءة . فقد كان المحكوم عليه في القرن الثالث عشر ، والذي يريد أن يثبت انه من طبقة رجال الدين ليحاكم في محاكمها الخاصة التي كانت لها ، يكفي ان يقرأ او لو سطراً واحداً . لان المعروف عند الحكام بأن القراءة لا يعرفها الا رجال الدين .

وكانت جميع الكتب تؤلف من قبل الكهنة والرهبان ، واصبح رجال الدين هم المسيطرون على الحياة الفكرية والفنية والادبية كانهم كانوا المشجعون والحارسون للحضارة القديمة . فكانت الكتب والمخطوطات تخزن في مكاتب الاديرة والكنائس ويعمل النساخ على زيادة عددها ونسخ القيم منها ومبادلته مع غيره من المخطوطات في الأماكن الأخرى

وكانت الحكومة مجبرة على الاعتماد عليهم في كتابة ونشر واعلان اوامرها العامة . فقد كان الكهنة والرهبان يكتبون للملوك ، وكان للكنيسة ممثلون عنها يجلسون في بلاط الملك ويعملون كامناء سراراً ووزراء او مستشارين . وبالحقيقة فقد كانت ادارة الحكومة منوطة بهم الى حد كبير في خلال القرون الوسطى .

كانت وظائف الكنيسة مفتوحة امام جميع الناس ، وكثير من البابوات ارتفعوا من أحقر الطبقات الى كرسي البابوية ، وبذلك كانت الكنيسة دائماً تجدد أعضاءها من اجناس وعناصر جديدة

ولم تكن وظائف الكنيسة وراثية ، لانه لا يوجد زواج شرعي عند رجال الدين ، لذلك لم يكن يرث الولد اباه في منصبه بعد وفاته كما هي الحالة في اكثر وظائف الحكومة في ذلك الزمن .

كانت واردات الكنيسة لا تعتمد فقط على اعانات اعضائها ومساعداتهم الخيرية كما هي الحالة في الوقت الحاضر . وانما تعتمد على الاموال التي تستخلصها من املاكها الواسعة ، وعلى الضرائب المتنوعة التي تفرضها على اتباعها لا سيما والعشر ، المشتق من العهد القديم الذي كان ضريبة رسمية تشبه ضرائب الحكومة في الوقت الحاضر .

الخلاصة : ان الكنيسة لم تكن مؤسسة دينية فحسب تشرف على العبادة وتنظم مراسيم الصلاة وتقود الحياة الروحية ، وانما كانت اكثر من ذلك فقد كانت دولة لها نظامها وقانونها الكنسي ومحاكمها المستقلة وسجنها الخاص . وكانت أهم مؤسسة في القرون الوسطى وبيد رجالها معظم الامور الدينية والمدنية . وقد دفعت العالم الغربي في سنة ١٠٩٥ م لغزو الشرق وحملت المسيحيين على اختلاف طبقاتهم للقيام بالحروب الصليبية .


دولة سلاجقة الروم
منطقة الرها
الرها
مملكة ارمينيا
إمارة انطاكية
حلب
الرقة
نهر الفرات
اللاذقية
دولة الأتابكة
قبرص
المرقب
انطرطوس
حمص
تدمر
طرابلس
جبيل
بيروت
صيدا
دمشق
صور
عكا
قيصرية
بصرى
يافا
عسقلان
غزة
العريش
الشوبك
الخلافة الفاطمية
دول الصليبين في سورية

الباب التاسع

الحروب الصليبية

٤٨٩ – ٦٩٠ ﻫ او ١٠٩٥ – ١٢٩١ م

الحروب الصليبية حملات دينية قامت بها الشعوب الأوربية المسيحية إلى بلاد الشرق حاولت فيها تخليص الأراضي المقدسة لاسيما – بيت المقدس – من ايدي المسلمين ، وضم الكنيسة اليونانية إلى كنيسة روما اللاتينية التي انفصلت عنها نهائياً سنة ١٠٥٤ م . وقد سميت بالحروب الصليبية إشارة إلى الصليب الذى حمله اعضاؤها علامة على صدورهم وكان ابتداؤها في زمن المستظهر بالله الخليفة العباسي (١٠٩٤ – ١١١٨ م) .

اسباب الحروب الصليبية

إن من الصعب جداً معرفة اسباب الحوادث التاريخية لاسيما إذا كانت متعاقدة متشابكة وطويلة المدى كالحروب الصليبية ، وإنما نحاول أن نستنتج اسباب هذه الحروب بعد وقوعها مستفيدين من الحالة التي كانت تعيش فيها شعوب أوربا والبلاد الاسلامية ، ومن الحوادث التي سبقت وعاصرت الحملات الصليبية . لذلك نقسم أسباب هذه الحروب إلى : أسباب بعيدة ، وأسباب مباشرة

الأسباب البعيدة

اولاً – النزاع بين الشرق والغرب:

إن الصراع بين الشرق والغرب بعيد المدى يرجع عهده إلى حروب طروادة وحروب فارس واليونان ، وحروب المسلمين مع هرقل وفتح بلاد الشام ويمتد إلى ما بعد الحروب الصليبية عندما فتح الأتراك العثمانيين قسماً كبيراً من أوربا ووصلوا إلى ابواب فينا ولا يزال هذا النزاع مستمراً الى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الاوربي لبلاد الشرق . وقد كانت الحروب الصليبية بمثابة ردّ فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام أوربا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ م ليس على سورية وآسيا الصغرى فحسب بل على اسبانيا وصقلية .

ثانياً – العامل الديني :

إن الشرق مهد الديانات القديمة ، وكانت سوريا مسرحاً للحياة المسيحية الأولى ففيها ولد المسيح

وعاش وتربى ، وفي سوريه تكونت الديانة المسيحية ، ومنها انتشرت إلى البلاد الأخرى ، وكان سلطان الدين قوياً في القرون الوسطى ومسيطراً على عقلية رجال الغرب فأثار البابوات هذه النعرة الدينية ووجهوا أهل البلاد الأوربية لفتح القدس .

ولم يكن الشرق مهد الديانة المسيحية فحسب بل كان منبع الثقافة المسيحية ايضاً ، فمنذ سقوط روما بيد البرابرة الجرمن انتقلت الحركة الثقافية إلى القسطنطينية وانطاكية والاسكندرية والقيصرية . وكانت هذه المدن مراكز تشع منها التعاليم الدينية والنشاط الفكري . وكان الشرق موطناً للحضارة اليونانية ، وفيه نشأت الكنيسة اليونانية .

ثالثاً — نظام التكفير عن الخطايا :

وهو النظام الذي فرضته الكنيسة على أتباعها ليكفروا عن خطاياهم بالصلاة والصوم أو بتعذيب الجسد أو بالحج . « ولما كانت اورشليم (القدس) أقدس الأماكن وانأى المزارات الدينية بعداً عن أوربا ، وكان الحج اليها غفراناً مضاعفاً ، فقد كانت منذ القدم مقصد أمثال هؤلاء الحجاج الذين يرومون التكفير عن سيئاتهم . وإذ رأى الأوربيون هذا المقصد محفوفاً بالخطر ، فقد عقدوا العزم على انقاذه وحمايته . ومن ثم كانت الحروب الصليبية بمثابة حج كبير يحميه السلاح ، وكان الغرض منه افساح الطريق وتحرير المكان المقدس ليتمكن الناس من الحج اليه في المستقبل » .

وكان المسلمون في العهود الأولى يتسامحون مع الحجاج ويسهلون مهمتهم للقيام بالحج الا ان الخليفة الفاطمي الحاكم تشدد في معاملة النصارى كما رأينا وامر بهدم كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩ م وهدم غيرها من الكنائس والاديرة . ثم جاء السلاجقة بعد ذلك ووضعوا صعوبات كبيرة في وجه الحجاج الاوربيين وفرضوا عليهم ضرائب فادحة أثناء مرورهم في آسيا الصغرى وفي سورية . زد على ذلك ما كانت تعانيه سورية من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، بسبب الحروب بين الامارات المستقلة مما جعل وصول الحجاج إلى الأراضي المقدسة صعب المنال حتى أنهم حوالي سنة ١٠٦٥ م جاؤا بشكل جماعات كبيرة من جنوبي المانيا تحميهم قوى مسلحة . وكان ذلك فاتحة للحروب الصليبية

رابعاً — طموح البابوات إلى السيادة العليا في الغرب والشرق :

كان النزاع قائماً في أوربا بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية على السيادة الفعلية ، فكان البابوات يريدون فرض سلطتهم على حكام أوربا حتى انهم حصروا حق تتويج أباطرة الامبراطورية الجرمانية المقدسة بأنفسهم ، فكان الاباطرة يتكلفون مشقة السفر الى روما ليتناولوا تاجهم من يد البابا . وعبثاً حاولوا التملص من ذلك . وكان من نتيجة سيطرة رجال الدين أن وجه البابوات ملوك وأمراء وشعوب أوربا إلى الشرق للقيام بالحملات الصليبية .

كما ان البابوات كانوا يطمحون من القيام بالحروب الصليبية إلى ضم الكنيسة الشرقية تحت سلطانهم وتوحيدها مع الكنيسة الغربية .

خامساً — فساد النظام الاقطاعي :

كانت الحرب لاتنقطع بين الامراء الاقطاعيين كما مر معنا وقد حاولت الكنيسة عبثاً القضاء على هذه الحروب الداخلية فأوجدت « الهدنة الربانية » و « نظام الفروسية » واتبعت مختلف الوسائل لتخفيف ويلات الحروب ، ولما كان من المتعذر ايجاد السلم الداخلي لما انطبع عليه أهل الغرب من حب القتال والحرب ، وجه البابوات المحاربين الغربيين لقتال المسلمين . وكانت هذه الحرب المقدسة حلاً لكثير من مشاكل أوربا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

اما السياسية : فقد وجد الامراء الاقطاعيون الصغار في الحروب الصليبية فرجاً لهم ، لتأسيس امارات واسعة في بلاد الشام . وكانت هذه الامارات عبارة عن مستعمرات اقطاعية آوى اليها المهاجرون الغربيون .

أما الاقتصادية : فالحروب الصليبية أوجدت سوقاً تجارية واسعة لأهل الغرب في بلاد الشرق أخذوا منه ما يحتاجون من غذاء ولباس وترف .

اما الاجتماعية : فكانت الحروب الصليبية وسيلة لتحرر طبقات المجتمع الاوربي من نير الاقطاعية فتخلص الفلاح من ظلم السيد ، وتحرر الارقاء من عبوديتهم ، ونشطت حالة الصناع كثيراً . وقد أوجدت الحروب الصليبية حاجة ماسة في قلوب أهل الغرب ، لأن افراد المجتمع الأوربي كانوا يريدون الخلاص من حالتهم السيئة فتقبلوا نداء البابا بشوق وحماس .

سادساً — حب الكسب :

كانت الحملات الصليبية بنظر كثير ممن اشتركوا فيها واسطة للنهب والسلب ، فكثير من المتشردين كانو يسعون للغنيمة والكسب اكثر من سعيهم لانقاذ الأراضي المقدسة والتكفير عن خطاياهم . وكانت الحاجة والجوع والفاقة شديدة عند أهل الغرب بسبب سوء المواسم الزراعية وقلة الحاصلات ، وزيادة عدد السكان بالنسبة لمقدرة الأرض على الانتاج بالطرق العقيمة التي كانوا يتبعونها ، ولكثرة الامراض والأوبئة التي تجتاح بلادهم ، فكانت الحروب الصليبية واسطة لتحسين حالتهم المادية .

سابعاً — أطماع التجار الايطاليين :

كانت المدن الايطالية آخذة في النمو ، وكان تجار البندقية وجنوة وبيزا وأمالفي وغيرهم قد عرفوا ثروة الشرق وغناه ، وبهرتهم حضارته وعمرانه فشجعوا الحملات الصليبية كثيراً ، وساعدوها

بنقل جيوش الصليبيين بسفنهم إلى بلاد الشرق وإمدادهم بأدوات الحصار والذخيرة عند حصار المدن . وكانت سفنهم تنقل أفواج الحجاج في كل سنة ، وقد أسس التجار الايطاليون مستودعات على الساحل السوري تتمون من بضائع آسيا وحاصلاتها وتنقلها بطريق البحر إلى أوربا وتأتي بجيوش الصليبيين بدلاً عنها .

ثامناً – حب المغامرة :

كان حب المخاطرة شديداً في نفوس رجال ذلك العصر يدفعهم للابتعاد عن بلادهم الفقيرة والتفتيش عن بلاد أغنى وأوسع ، وهذا العامل هو الذي دفع النورمان (أهل الشمال) من أسوج ونروج وجلبهم إلى فرنسا وصقلية . كما أن قصص الحجاج والتجار والرحالين الذين زاروا الشرق مثل « ماركوبولو » الذي وصل الى الصين وكتب كتاباً عن رحلته كان يُقرأ وغيره من الكتب والأخبار في قلاع وحصون الاقطاعيين ويدفعهم للمغامرة في البر والبحر للوصول إلى بلاد الذهب والعاج والبهارات والحرير والقصور والتمدن ....

تاسعاً : انقسام المسلمين

إن انقسام المسلمين إلى دويلات صغيرة ينافس بعضها البعض ، وتفرق وحدة الخلافة ووجود خليفة سني في بغداد وآخر شيعي في القاهرة ، وقيام دولة السلاجقة وأتابكتهم ينازع بعضهم بعضاً جرأ الغربيين لدخول هذه البلاد وغزو المسلمين في عقر دارهم .

السبب المباشر

إن السبب المباشر الذي خرجت منه الحروب الصليبية هو انتصار سلاجقة الروم على البيزنطيين وتوغلهم في بلادهم ، لاسيما بعد موقعة منسكرت Manzikert في آسيا الصغرى سنة ١٠٧١ م فاستنجد الامبرطور البيزنطي ميخائيل بالبابا غريغوريوس السابع سنة ١٠٨٠م فوجدت هذه الدعوة في نفس البابا مجالاً رحباً ووعد الامبرطور البيزنطي أن يقود الحملة بنفسه لمساعدته ، ولكنه ما لبث أن اشتبك بنزاع مع الامبرطور الجرمان هنري الرابع ، فنسي وعده . ولما اعتلى الامبرطور الكسيوس Alexius عرش بيزنطة وجد نفسه محاطاً بالسلاجقة من جميع الجهات فارسل الدعوة الى البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ – ١٠٩٩ م) وهو افرنسي الأصل ، وكان حريصاً على رفع مقام البابوية ، ودعم قوتها الزمنية ، فارسل دعوة لملوك أوربا وأمرائها وأساقفتها سنة (١٠٩٥ م) (٤٨٨ هـ) يدعوهم فيها لعقد مؤتمر في مدينة كلير منت Clermont الواقعة في جنوبي فرنسا ،

وخطب في الاجتماع خطابه الشهير (١) .

الذي دعي فيه إلى الحملة الصليبية . وحرك البابا جميع العواطف التي كانت تثور في نفوس الغربيين من سياسية ودينية واقتصادية ، فهبوا يلبون دعوته ، وصاحوا بصوت واحد « هكذا أراد الله God Will it » واتخذوا الصليب رمزاً لتلك الحرب واعلن البابا غفران ذنوب الخاطئين الذين يلتحقون بهذا الجهاد الديني ، ووعد الذين يموتون في سبيل هذه الحرب جنات الخلد ، وعفى المحاربين من الديون والضرائب ، ووضع أموالهم وأهليهم وذويهم في حماية الكنيسة . وكان أكثر المشتركين في الحملة الأولى من الفرنسيين لأن الدعوة كانت في أرض فرنسية ومن بابا أصله أفرنسي .

الحملة الصليبية الاولى

كان من نتيجة الخطاب الذي القاه البابا أوربان الثاني أن قامت الحملة الصليبية الأولى ويمكن تقسيمها الى قسمين : الحملة الشعبية ، وحملة الأمراء .

الحملة الشعبية :

قام بهذه الحملة داعي اسمه « بطرس الناسك Peter the Hermit » وهو فلاح من أصل افرنسي ولد بقرب مدينة أميان . أخذ يتنقل من بلد الى اخرى راكباً على حماره يثير عواطف الأوربيين الغزو بلاد المسلمين وتخليص القبر المقدس وتمكن بخطاباته الحماسية أن يجمع خمس فرق من الفلاحين والمشردين من الرجال والنساء والاولاد وأن يسير بهم الى القسطنطينية ، غير منتظر حملة النبلاء الاقطاعيين التي تقرر في مجمع كليرمنت أن تسير في ربيع سنة ١٠٩٦ م .

سارت هذه الفرق الخمس تنهب ما تجده في طريقها من الطعام والعلف ، وتعيث في المدن والقرى التي تمر بها فساداً وتخريباً ، « فاصبحت المجر وبلغاريا أرضاً يباباً أمام جموع بطرس الناسك » ، فحاربهم

---

(١) هذه بعض فقرات من خطاب البابا : « أيها الجند المسيحيون ، لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أفيقوا فقد وجدتم اليوم داعياً حقيقياً اليها ، لقد كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقتاً ما ، فاذهبوا الآن وازعجوا (البرابرة) أذهبوا وخلصوا البلاد المقدسة من أيدي (الكفار) . إنكم إن انتصرتم على عدوكم كانت لكم ممالك الشرق ميراثاً وإن أنتم خذلتم فستموتون حيث مات اليسوع ، فلا ينساكم الرب من رحمته ، فيحلكم محل أوليائه ، إن هذه الحروب ليست لامتلاك مدينة واحدة ، بل لامتلاك اقاليم آسيا بجملتها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى فاتخذوا محجة البيت المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي المختلسين لها ، وامتلكوها أنتم خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الارض كما قالت التوارة : تفيض لبنا وعسلاً .

الجريون والبلغاريون وقضوا على عدد كبير منهم ، كما أنهك التعب والمرض والجوع القسم الآخر ، ولم يصل الى القسطنطينية الا فرقتين إحداهما بقيادة بطرس الناسك والاخرى بقيادة « ولتر المفلس Walter the Penniless » والذين وصلوا القسطنطينية كانوا بحالة سيئة من الفوضى والاضطراب وكانوا يظنون أن كل صعوبة ستنكشف عنهم عند تطأ أقدامهم الاراضي المقدسة . فاراد الامبرطور الكسيوس أن يتخلص منهم فساعدهم على عبر البوسفور ، دون أن يسمح لاحد منهم بالاقامة في عاصمته ولو الى حين .

وشرعوا في اسيا الصغرى يرتكبون أشنع الفظائع التي تفوق حد الوصف ، ويقول المسيو ميشو Michaud : « إن الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جعلت الطبيعة تهتز خوفاً وفزعاً من هولها . فكانوا يقتلون الاطفال في أحضان أمهاتهم ، وينثرون أشلاءهم في الهواء . . » غير أن سلطان السلاجقة زحف عليهم بخمسة عشر الف مقاتل وأبادهم عن بكرة أبيهم .

انتهت هذه الحملة دون أن تترك أثراً حربياً يذكر ، وإنما الهبت عاطفة أهل الغرب مدة من الزمن بما حاكوه حول شخصية بطرس الناسك من خرافات وأقاصيص أقرب للخيال منها إلى الحقيقة التاريخية بجعلوه بطل الحروب الصليبية ، والمسبب الحقيقي لها .

حملة الأمراء

في صيف وخريف سنة ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) سارت جيوش الصليبيين الى البلاد المقدسة ، وكان أشهر قوادها :

اولاً : كود فري Godfrey أمير مقاطعة اللورين ومعه أخوه « بلدوين Baldwin » . سار جيشها من شرقي فرنسا وقطع البلقان إلى القسطنطينية .

ثانياً : ريمون دو طولوز Raymond of Toulouse أمير مقاطعة البروفانس في جنوبي فرنسا وكان أغنى الامراء وأكبرهم سناً . وهو أول من أجاب دعوة البابا في مجمع كليرمنت . سار هذا الامير صحبة « أدعار » ممثل البابا من جنوب فرنسا إلى سواحل ايطاليا الشمالية ، ومنها إلى البلقان فالقسطنطينية .

ثالثاً : بوهمند Bohemond النرماندي — والنرمانديون أسسوا دولتهم في جزيرة صقلية وجنوبي ايطاليا . ولحق به ابن اخيه تنكرد Tancred الذي اجتاز بحر الادرياتيك ، وسار معه إلى القسطنطينية .

تجمعت جيوش الصليبيين مع قوادها في القسطنطينية ، ولم تكن هناك وحدة تربطهم سوى الوحدة الدينية . فهم خليط من مختلف شعوب أوربا الغربية ، ليس لهم قيادة موحدة ، ولا أهداف

متفقة ، بل كل منهم يسعى لمصلحته الخاصة . وقد شعر الامبرطور البزنطي الكسيوس بنواياهم ، وخاف منهم على مملكته ، ولم يكن متفقاً معهم في الرأي ، لأنه كان قليل الاهتمام بتخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، وكان هدفه من دعوة أهل الغرب هو أن يمدوه بجيش يستطيع أن يخلص بواسطته أراضيه في آسيا الصغرى من السلاجقة . كما أنه أختلف معهم عن مصير البلاد التي يفتحوها ، هل تكون تابعة له ، أو تصبح ملكا للكنيسة أو يأخذها الأمراء الذين يفتحونها ؟ وأخيراً أتفقوا على أن يكونوا أمراء اقطاعيين تابعين للامبرطور البزنطي في الأراضي التي يفتحوها ، وأقسموا له يمين الولاء ، الا أنهم لم يبروا بقسمهم .

قطع الصليبيون البوسفور سنة ١٠٩٧ م (٤٩١هـ) واستولوا على « نيقية »[١] بعد حصار دام مدة شهر ، ساعدهم فيه الامبرطور البزنطي الكسيوس ، وضم إليه هذه المدينة مقابل ما وزعه عليهم من الاكراميات والأموال . وفي طريقهم نحو أنطاكية التقوا مع السلاجقة بقرب مدينة أذرولية وجرت بين الطرفين معركة شديدة انهزم فيها السلاجقة ، وفتح طريق سورية أمام الصليبيين وأنفصل بعد ذلك بلدوين عن عامة الجيش الصليبي وسار نحو الشرق ، واستولى بمساعدة الأرمن على مدينة « الرها Edessa » سنة ١٠٩٨ م وأسس فيها أول أمارة لاتينية . وتزوج بامرأة أرمنية لتزيد صلاته مع أهالي البلاد ، وليتقرب ويتحبب منهم .

فتح انطاكية ومعرة النعمان .

زحف الجيش الصليبي إلى انطاكية ، وهي من أم المدن السورية من الناحية الجغرافية والثقافية والسياسية ، لأنها مفتاح سورية الشمالية ، ومركز الثقافة الدينية المسيحية ، وقريبة من الدولة البزنطية . فحاصرها الصليبيون تسعة أشهر من تشرين الأول سنة ١٠٩٧م حتى حزيران سنة ١٠٩٨م ساعدتهم في أثناء الحصار المراكب الجنوية وأمدتهم بالميرة والذخيرة وأدوات الحصار . ودافع السلاجقة عنها دفاع الأبطال[١] ، ولو لا خيانة القائد « فيروز الأرمني » احد محافظي الابراج لما تمكن الصليبيون من فتحها ، يقال أنه أدلى الحبال بالليل من على الأسوار فتسلق عليها الصليبيون ، واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن ذبحوا حراسها . ثم فتحوا أبوابها وتدفقوا لداخل المدينة وأعملوا السيف في رقاب أهلها وقتلوا منهم عدداً كبيراً . « وشرع هؤلاء اللاتينيون يذبحون السكان دون أن يراعوا حرمة الشيخوخة وضعف النساء ، وعجز الاطفال ، فانتهكوا حرمة المنازل ، وكان منظر الجوامع

(١) نيقية : مدينة بجوار استنبول .

(١) ذاق الصليبيون أثناء حصار انطاكية ويلات الجوع حتى اكلوا اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلز « أن جنود الصليب كانوا ينبشون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً » .

يزيدهم وحشية على وحشيتهم ، فقوضوا القصور المنيعة ، والأكواخ الحقيرة ، وتركوها ركاماً يباباً كما سالت الدماء البشرية في الميادين والطرق على السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا في تلك المذبحة زهاء عشرة آلاف ، وظلت القلعة محاصرة في داخل المدينة ، وبعد عدة أيام وصلت أخبار الحصار الى الموصل فجاء حاكمها لانقـــاذ أنطاكية ، فوجد الصليبيين قد استولوا عليها ، فحاصرهم وشدد الخناق عليهم ومنع الميرة عنهم حتى ضاقت سبل الحياة عليهم ، فصاروا يأكلون الحيوانات والأعشاب وجثث الأموات ، ودب اليأس في قلوبهم حتى أن كثيراً منهم تسلقوا الأسوار في الليل وهربوا الى الشاطئ . وجرى حادث أثار الصليبيين وهو أن الراهب « بيتر » اكتشف الحربة المقدسة التي طعن فيهـا المسيح ، فكان ذلك فألاً حسناً بنظرهم فحشدوا قواهم وخرجوا للملاقـة وحاربوهم وصدوهم عن المدينة واختلف الصليبيون لمن تكون أمارة انطاكية وبعد جدل كبير انتخبوا « بوهمند » أميراً عليها وزحفوا نحو معرة النعمان . فاستولوا عليهـا عنوة وذبحوا مئة الف من سكانها ، فسالت الدماء في الشوارع كالأنهر ، ثم استعرض بوهمند أسراه ويقول ميلز : إنه استبقى الجميلات والشباب والاقوياء لكيا يبيعهم في أسواق الرقيق ، وأمر بذبح الشيوخ والاطفال على مذبح القسوة والنذالة ، وفي معرة النعمان أقدم الصليبيون على اكل اللحوم البشرية ، حتى أنها كانت تباع علناً في معسكراتهم .

فتح بيت المقدس :

كانت القدس بيد الفاطميين عندما حاصرها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢هـ) وساعد الجنويون والبنادقة الصليبيين من ميناء يافا ، فجلبوا اليهم بواسطة سفنهم الاعمدة والاخشاب والسلاح والرجال والازواد ، واشتد حماس الصليبيين كثيراً لمشاهدة بيت المقدس وبعد حصار دام أكثر من شهر سقطت في أيديهم فقاموا بمذبحة هائلة دامت اسبوعاً « كان المسلمون يذبحون ذبح الاغنام في الشوارع والمنازل ، ولم يجد أهل المدينة محلاً أميناً يعتصمون به ، فألقى بعضهم نفسه من فوق الأسوار ، وازدحم البعض الآخر في القصور والحصون والمساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك أخفاء أنفسهم من متصيديهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر — الذي اعتصم فيه المسلمون — وجددوا تلك المناظر الوحشية التي تعد وصمة في جبين فرسان التيتون إذ هجم الجنود على الهـــاربين وأعملوا السيف في رقابهم من غير شفقة ولا رحمة . » وقد أحرق الصليبيون بعض المسلمين وهم أحياء ، وأخذوا يمثلون بهم أشنع تمثيل ، ولم تكن تجدي في ذلك الموقف الدامي دموع النساء ولا صراخ الاطفال ولا منظر البلد الذي صفح فيه السيد المسيح عن جلاديه . وكتب الصليبيون الى البابا يهنئونه بفتح القدس بقولهم : « إذا أردت أن تعلم بما جرى لاعدائنا ثق أنه في أيوان سليمان ومعبده كانت خيولنا تخوض في بحر من دماء المسلمين الى ركبتيها » . ويقال أنه هلك من أهالي القدس وحدها زهاء سبعين الفاً في هذه المجزرة . وانتخب الاشراف كود فري حاكماً للقدس ولقب نفسه بكل خشوع « حامي القبر

المقدس ، وأخذ يناوش أهل البلاد ، وصد هجوماً من قبل الفاطميين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩ م وما لبث ان قتل سنة ١١٠٠ م أثناء حصار عكا ، فخلفه اخوه بلدوين حاكم ولاية الرها ، وتوج ملكا على القدس . وبذلك تم تأسيس الدولة اللاتينية . وخلفه في الرها ابن أخيه ، وكان تابع اقطاعي له يعمل بأمرته . وعمل بلدوين على توسيع نفوذه في البلاد المجاورة لبيت المقدس وكانت جهوده موجهة الى ناحيتين رئيسيتين .

اولاً : استخلاص الساحل السوري من يد الفاطميين ، لأنه هو المنفذ الحقيقي الذي يصل الصليبيين بالغرب . وبدون امدادات الغرب بالرجال والمال لا يمكن لدولة القدس أن تبقى . لذلك استولى بلدوين على أرصوف وقيصرية سنة ١١٠١م واستولى على عكا سنة ١١٠٤م واستولى على صيدا سنة ١١١٠ م ولم يبق بيد الفاطميين على الساحل الا صور وعسقلان شوكة وكانت عسقلان في جنب الصليبيين ومحطاً لقوى الفاطميين . وسقطت سنة ١١٥٣ م .

ثانياً : كانت جهود بلدوين موجهة الى الداخل فحارب حاكم دمشق مراراً ، ووسع نفوذه من ناحية الجنوب في ناحية البحر الميت والاردن ، حتى وصل في غزواته الى خليج العقبة ؛ وكان همه قطع القوافل التجارية بين مصر والشام ، وفصل القطرين عن بعضها البعض من الناحية السياسية والاقتصادية . وقد نجح الى حد كبير في عمله وتوفي سنة ١١١٨ (١) .

---

(١) خلف بلدوين الاول بعد موته بلدوين الثاني . الذي كان حاكماً على الرها . وعمل أثناء حكمه في بيت المقدس على جمع جهود جميع الصليبين في سورية في جبهة واحدة ، وتوفي سنة ١١٣١ م بعد أن بلغت قوى الصليبيين أوجها . خلفه على ولاية بيت المقدس صهره فولك Fulk أمير ولاية أنجو Anjou في فرنسا ، وبقي حاكما في القدس حتى وفاته سنة ١١٤٣ م حافظ خلال سنين حكمه على مملكة القدس دون أن يحاول التوسع . وخلفه ابنه بلدوين الثالث وهو أول ملك صليبي ولد في سورية ، وتربى فيها . استولى على عسقلان سنة ١١٥٣ م وفي زمنه استولى عماد الدين زنكي على أمارة الرها . وبعد وفاته خلفه أخوه أموري الاول الذي نافس اسد الدين شركوه في الاستيلاء على مصر . وخلفه بلدوين الرابع وكان مصاباً بمرض البرص .

ولم تكن له يد فعالة في ادارة الدولة . وخلفه ابن اخته بلدوين الخامس وكان صغير السن فكان وصيه ريموند أمير طرابلس ، وبعد وفاته سنة ١١٨٦ أخذ الملك في بيت المقدس أحد مغامري الفرنج ويدعى غي Guy de Lusignan وفي زمنه سقطت بيت المقدس بيد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ م .

فتح طرابلس الشام

وجه ريمون همه لتأسيس امارة صليبية في طرابلس فهيأ ادوات الحصار سنة ١١٠٢ م وبنى قلعة على التلة المقابلة لطرابلس أقام فيها الصليبيون ، الا أن القدر لم يمهله فمات قبل فتح المدينة سنة ١١٠٥م فأكمل الصليبيون العمل من بعده وسقطت المدينة سنة ١١٠٩ م بعد حصار دام خمس سنوات ساعدهم فيه أسطول مدينة بيزا الايطالي . وحكم المدينة Bertrand of Eerdagne برترم بن ريمون وقد دافع المسلمون دفاع الأبطال عن مدينتهم واستعان حاكمها فخر الملك بن عمار بالعباسيين لم يعينوه وأخيراً تمكن الصليبيون من الدخول اليها وأعملوا السيف في رقاب أهلها وأحرقوا مكتبتها العامة، وكليتها ومصانعها وقضوا على مزارعها الجميلة وبيوتها الفخمة .

نتائج الحملة الصليبية الاولى

لقد اسفرت هذه الحملة الصليبية على نتائج كثيرة منها :

١ — امتزاج الصليبيين بالسوريين في ايام الحرب والسلم واختلاطهم مع بعضهم البعض بسبب التجارة ، والزراعة ، والأسر . واندمجوا بالأهالي وتصاهروا معهم وتأثروا بعادات الشرقيين واخلاقهم (١) .

---

(١) ذكر الاستاذ فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب ما يلي « جاء الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم أرفع منزلة من أهلها ويعتبرونهم وثنيين يعبدون محمداً إلهاً . ولكنهم ما كادوا يحتكون الصلات بالمسلمين حتى سقطت الغشاوة عن عيونهم . أما الأثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي أسامة بن منقذ بقوله في كتاب الاعتبار : إنهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بد بين الجانبين في ايام السلم — وهي أطول من ايام الحرب كثيراً — أدى الى تطور الشعور بين الطرفين ، فأحكمت على اثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستأجرون صناعاً وفلاحين بأعينهم . وما ابث النظام الاقطاعي الذي اوجدوه أن تحول وأصبح على مرور الأيام ملائماً لأحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لأنفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد ، وعقدوا اتفاقات مع العرب لحماية الصيادين من الاعتداء . كذلك تحالف الفريقان على صيانة رجال السفر والتجارة فوضعوا لذلك قوانين جرى الفريقان على مراعاتها . واقلع الفرنجة عن لباسهم الأوربي واختاروا الازياء الوطنية التي كانت ادعى الى الراحة واكثر ملاءمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا أذواقاً جديدة في الطعام فاحبوا بخاصة الالوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تتوسطها صحون —

٢ – تأسست أربــع أمارات صليبية إحداها في الرها والثانية في انطاكية والثالثة في بيت المقدس والرابعة في طرابلس ، ولم تكن جهود هذه الامارات موحدة دائما بل كان يعمل كل منهـا لوحده ، وأعظم هذه الامارات من الناحية الدينية والحربية ، كانت الدولة اللاتينية في بيت المقدس .

٣ – ازدادت علاقات جمهوريات ايطاليا التجارية مع الشرق لا سيما جمهورية جنوة ، وبيزا والبندقية وأمالفي . وصار الايطاليون يبنون مستودعات على الساحل السوري لتبادل التجاري سمح بها الصليبيون في مقابل مساعدتهم لهم اثناء حصار المدن السورية .

٤ – ازداد عدد الحجاج الغربيين الذين ما سمعوا بسقوط القدس بيد الصليبيين حتى توافدوا من جميع انحاء اوربا لزيارة البلاد المقدسة ، وكانوا عوناً لأخوانهم الصليبيين في هذه البلاد ، في اعمـالهم الحربية .

٥ – ظهرت مؤسسات دينية حربية في الشرق جمعت بين مبادئ الرهبنة والفروسية مهمتها حماية النصارى والضعفاء ، والعناية بالمرضى والجرحى اثناء الحرب . وكان أعضاؤها يأخذون على انفسهم العهود بملازمة الفقر والطهارة والطاعة .وأهم هذه المؤسسات : الأسبتارية Hospitallers والداوية Templars وفرسان التيتون Teutonic Knigt وغيرهم وما لبث أن انضم الاشراف والفرسان بكثرة لهذه المؤسسات ، وانهالت عليهم المنح والأراضي والأموال .

وضع المسلمين السياسي في الشام عند مجيء الصليبيين

عماد الدين زنكي :

عند ما جاء الصليبيون لسورية وجدوها مقسمة ضعيفة يحكم في كل بلدة منها حاكم مستقل يخضع اسمياً للسلاجقة . وكان النزاع محتدماً بين السلاجقة والفاطميين للسيطرة على سورية . فاستفاد الصليبيون من انقسام المسلمين واستولوا على بعض المناطق السورية . وكان توحيد الجبهة العربية مقروناً بجهود الاتابك عماد الدين زنكي (١١٢٧ – ١١٤٦ م)إبن آق سنقر أحد مماليك السلطان

مكشوفة واسعة فيها نوافير المياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير الى افراده بلفظ (بولان Poulains) وبلغ أخذهم بالعقائد المحلية درجة احترموا معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يرجعون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلاً كفاراً . وكذلك فعل المسلمون فكثيراً ما حالفوا الاقوام اللاتينية ضد اخوانهم المسلمين .

ملكشاه السلجوقي .

تولى عماد الدين ولاية الموصل سنة ٥٢١ هـ فأسس دولة في الموصل امتدت إلى حلب ، وحماه وحمص ، وبعلبك . وأنشأ في سورية الداخلية دولة موحدة فنظم ادارتها وجباياتها ، وأمن سبلها وجهز جيشاً منظماً حارب فيه الصليبيين والبيزنطيين الذين اتحدوا على قتاله ، وأعظم عمل حربي قام به استيلاؤه على مدينة الرها سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) وطرده الصليبيين منها ، وقد سمي هذا النصر « بنصر الأنصار » إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدنهم ، وهي مفتاح الجزيرة ، وبالاستيلاء عليها تمكن زنكي من القبض على ناصية الأمور في المناطق والحصون الأخرى المجاورة لها . ثم أخذ بتحصين المدن الداخلية المجاورة للصليبيين ، وما زال يجاهد الافرنج تارة والخارجين عليه من أهل البلاد أخرى حتى قتل على أبواب قلعة « جعبر » سنة ١١٤٦ م (٥٤١هـ) اغتاله احد مماليكه وهو نائم بتحريض من أعدائه .

كان عماد الدين زنكي عادلاً كريماً عاقلاً شجع الزراعة والتجارة وشيد المدن المخربة وشدد الوطأة على القتلة واللصوص ، ونظف البلاد من السفاكين والنهابين ، ومن المأثور عنه قوله : إنه كان يؤثر ظهور الخيل على الفراش الوثير ، وصلصلة السيوف على أشجى الأنغام ، وقرقعة السلاح على مغازلة الغانيات ، وقد أعقب من الأولاد سيف الدين الغازي وهو أكبرهم سناً وأسندت اليه أمارة الموصل . ونور الدين الذي ورث عن ابيه لقب أمارة حلب ، ولقب حامي المسلمين .

نور الدين زنكي :

تدرب نور الدين زنكي (١١٤٦ — ١١٧٤ م) على الفنون العسكرية منذ صغره ، وكان شجاعاً عادلاً متديناً محباً للعلم ، أسس الكليات والمستشفيات في جميع انحاء المملكة ، وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمون بلاطه بكرم وسخاء ، وأسس داراً للعدل ، وكان جل أمانيه في حياته أن يوفر أسباب السعادة والرفاهية لشعبه ، واصل مكافحة الصليبيين وتوحيد القوى الاسلامية التي بدأ بها أبوه ، وفي زمنه قامت الحملة الصليبية الثانية .

الحملة الصليبية الثانية

كان سبب قيام الحملة الصليبية الثانية المباشر سقوط مدينة الرها بيد المسلمين مما حرك حماس الغربيين الديني . وقد كلف يوجين الثالث بابا روما « سان برنارد » أن يدعو لهذه الحملة ، فاستطاع برنارد بفصاحته وذلاقة لسانه أن يجمع عدداً كبيراً من المحاربين ، وأقنع امبراطور المانيا كونراد الثالث Conrad III وملك فرنسا لويس السابع Louis VII أن يتزعما هذه الحملة فقبلا ذلك وصحب

ملك فرنسا زوجته « اليتور » معه وعدد كبير من النساء ، مما أدى الى انتشار ضروب الفساد في صفوف الجيش . ولم تكن قيادة الصليبيين موحـــدة في هذه الحملة ، فقد اتبع امبراطور المانيا طريقه في البر حتى وصل القسطنطينية ، ثم لحق به ملك فرنسا . ولم ينتظر كونراد الثالث مجيء الفرنسيين بل دخل آسيا الصغرى ، والتحم مع السلاجقة في موقعة أفروليا سنة ١١٤٧ م فهزموه شر هزيمة . وثأروا لأنفسهم من هزيمتهم أمام الصليبيين في الحملة الأولى . وانضمت فلول الألمان المهزمة الى الجيش الفرنسي الذي سار محاذياً لساحل آسيا الصغرى متجنباً الاصطدام مع السلاجقة ووصل الصليبيون الى بيت المقدس واجتمعوا مع بولدين الثالث ملك القدس وقرروا مهاجمة دمشق ، فحاصـــروها أربعة أيام سنة ١١٤٨ م الا ان الخلاف دب في صفوفهم بسبب اختلاف صليبيي الغرب مع الصليبيين الذين عاشوا في هذه البلاد ، فاضطروا لرفع الحصار وتبع هذا الحصار حصار آخر فاشل لمدينة عسقلان ، ولم يلبث كونراد الثالث أن غادر البلاد مع بقايا جيشه الالمان الى أوربا ولحقه في السنة التالية لويس السابع ، وانتهت بذلك الحملة الثانية .

نتائج الحملة الصليبية الثانية

كانت نتائج هذه الحملة وبالاً على الصليبيين وذلك للاسباب التالية :

١ ــ اوجدت الجفاء والخلاف بين صليبيي الغرب والشـــرق وذلك لأن الصليبيين الذين توطنوا في سورية تلطفت أخلاقهم ورقت طباعهم وكانوا اميل للتفاهم مع المسلمين والتفاهم معهم فاتهمهم صليبيوا الغرب الذين لم يزالوا على وحشيتهم أنهم أصبحوا نصف مسلمين .

٢ ــ أضرت هذه الحملة بسمعة الصليبيين كثيراً لأن ملكين من أعظم ملوك أوربا انهزموا أمام السلاجقة ، وعادوا فاشلين بحملتهم دون ان يقوموا بعمل حربي يذكر . مما سبب تهيب الغرب للشرق ، وجعل اهل اوربا يفكرون ملياً قبل القيام بحملة جديدة .

٣ ــ قويت جبهة العرب باستيلاء نور الدين زنكي على معظم ولاية انطاكية ، فسقطت بيده أفامية ، وحارم سنة ١١٤٩ م (٥٤٤هـ) وتل باشر وعنتاب سنة ١١٥٠ م كما سقطت دمشق ايضاً سنة ١١٥٤ م فجعلها عاصمته ، وأصبحت معظم سورية بيد نور الدين زنكي .

استيلاء جيوش نور الدين زنكي على مصر

كانت مصر بيد الفاطميين ، وكان الخلفاء الفاطميون في آخر عهدهم بمنتهى الضعف ، وقـــد تركوا الأمر لوزرائهم الذين كانوا يتنافسون على الحكم . وفي زمن العاضد (١١٦٠ - ١١٧١م) آخر خليفة فاطمي كان يتنازع على الوزارة « شاور » و « ضرغام » . كان شاور والياً على الصعيد

ثم توصل الى الوزارة ،ولقبه الخليفة العاضد « بامير الجيوش » ولم يكد يطمئن بكرسي الوزارة ، حتى قام في وجهه حاجب الباب الأمير ضرغام وسلب الحكم منه . هرب شاور الى الشام واستجار بنور الدين ووعده ان يدفع له ثلث خراج مصر جزية سنوية مع تكاليف الجند الذي يبعث بهم الى مصر . فتردد نور الدين في بادىء الأمر ولكنه قبل عندما علم بأن ضرغام استنجد باموري ملك القدس الصليبي .فجهز جيشاً الى مصر سنة ١١٦٤ م بقيادة « أسد الدين شركوه » الذي صحب معه ابن أخيه صلاح الدين الايوبي . واصطدم جيش نور الدين مع الجيوش المصرية والصليبية عند « بلبيس » وانتصر عليها فثار اهل مصر على ضرغام وقتلوه ، وعاد شاور للوزارة . الا انه لم يبر بوعده الذي قطعه على نفسه ، وامتنع عن تقديم الأموال الى نور الدين ، فحاربه أسد الدين شركوه ،فاستنجد بالصليبيين ! كما فعل سلفه من قبله . فجاء أموري بجيش آخر لمحاربة شركوه أملاً بأن يمنع جيش نور الدين من الاستيلاء على مصر ، لأن في توحيد مصر والشام القضاء على دولته في بيت المقدس وصلت نجدة الأفرنج الى مصر ، وتحصنت الجنود النورية في بلبيس ، وظل الحرب بين الفريقين نحواً من ثلاثة أشهر ، قام في اثنائها نور الدين بمحاربة الأفرنج في فلسطين والشام ليشغلهم عن محاربة جيشه في مصر ، فاستولى على حارم وحاصر قلعة بانياس ،فكان من واجب آموري العودة لتخليص ملكه ، كما ان شركوه أراد الخلاص من حصاره بسبب قلة الذخيرة عنده ،فاتفق الفريقان على الصلح بان يتخلى كل منهما عن مصر .

عاد شركوه الى الشام بعد أن اختبر بلاد مصر وقوتها . وقد قال عنها لنور الدين : إنها من غير رجال ، وان حكومتها قلقة غير ثابتة ، وانها ضعيفة واهنة . وأن ثروتها وخصب تربتها مما يطمع فيها.

وقبل أن يغادر الصليبيون مصر فاوضهم « شاور » سراً للبقاء فيها . فعلم نور الدين بهذه المؤامرة، وأشار عليه أسد الدين شركوه أن يفتح مصر عنوة ، ويضمها الى ملكه ، فأجابه الى ذلك وأرسله على رأس جيش كبير لمصر ، وجاء الصليبيون لمساعدة شاور ، وجرت معركة بين الطرفين عند « البابين » انتصر فيها اسد الدين شركوه ، ودخل الاسكندرية ، واقام ابن اخيه صلاح الدين حاكما فيها . جاءت نجدات الى الصليبيين من ناحية البحر فحاصروا الاسكندرية سبعين يوما ، وأخيراً تم الاتفاق بين الفريقين على الصلح والانسحاب من مصر وتركها لأهلها . الا أن اموري نكث بوعده وعاد الى مصر أملا بأن يستولي عليها و كتب الى امبرطور الروم يطلب منه المساعدة ، واستولى على بلبيس ، واتجه نحو القاهرة فأحرق شاور الفسطاط ليؤخر تقدم الصليبيين وظلت تحترق نحو (٥٤) يوما وأرسل الخليفة العاضد يستنجد نور الدين وأرسل مع الكتب شيئاً من شعور نساء القصر دليلا على شدة الحاجة . وقال له في كتابه « هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لتنقذهن

من الافرنج ، واخذ شاور يفاوض الصليبيين بأن يعطيهم مبلغاً من المال بشرط أن يوقفوا زحفهم على القاهرة . وكان يماطلهم أملا بوصول النجدات من الشام .

هب نور الدين لانقاذ مصر فسير جيشاً بقيادة شركوه مع خيرة رجاله ، وحاول أموري أن يقطع عليه طريق اتصاله بالمصريين ، ولكنه فشل . وتمكن شركوه من اجلاء الصليبيين عن مصر وفي ٨ كانون الثاني سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ ھ) دخل شركوه القاهرة فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمي استقبالا منقطع النظير وقبض رجاله على شاور وارسلوه الى الخليفة الذي أمر بقطع رأسه ونهب داره وهكذا كان جزاء الخائن الذي استعان بالاجنبي على وطنه وأمته . وأخرج الخليفة مرسوما بتقليد الوزارة الى أسد الدين شركوه ولقبه « بالملك المنصور » فأخذ شركوه يرتب أمور الدولة ويضع من يثق بهم في الاعمال ، الا أن القدر عاجله فتوفي يوم السبت في ٢٢ جمادي الآخرة سنة ٥٦٤ ھ (١١٦٩) م فخلفه في الوزارة ابن اخيه صلاح الدين ولقب « بالملك الناصر » ويقول استيفنسن « ان الخدمات التي اداها عمل شركوه للاسلام والمسلمين لجديرة بان يكتبها التاريخ على صفحاته باحرف من الذهب ، لانه بعد عشرين سنة من توليته أمر مصر عادت مدينة القدس الى أيدي المسلمين ، كما عاد كثير غيرها من البلاد التي كانت بيد الافرنج . ولانه كذلك لم يسترح يوما واحدا من الحروب ، ولقد كان ذا نظر بعيد في الامور ، يضع الخطط لنفسه فلا يغيرها ، بل ينفذها بكل جسارة واقدام . ولو مات قبل موته بستة أشهر لكان مصابه اليما ورزؤه جسيما على نور الدين وأهله وبلاده ، ولكنه مات بعد أن انتهى ما علق في عنقه وانقضت مهمته التي تطاول اليها فأدركها تاركا ثمرة جهاده وانتصاراته الى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذي استحق بكل جدارة شرف الوراثة لهذا البطل الكبير » .

الدولة الايوبية

٥٧٤ — ٦٤٨ ھ أو ١١٦٩ — ١٢٥٠ م

أسس هذه الدولة صلاح الدين الايوبي بن نجم الدين أيوب وهو من أصل كردي (١) ولد

---

(١) الاكراد جيل من الآريين ، أقاموا زمناً طويلا في الجهات الجبلية التي بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى ، وهم قوم أشداء عاشوا حياة بدوية في الايام ، واتصفوا بالشجاعة والكرم والفروسية والغزو ، وكان نساؤهم يشاركنهم في الحروب ، ونظراً لتمسكهم بالبداوة والخشونة لم تستخدمهم الدولة العباسية الا في العصور المتأخرة ، وظلوا بعيدين عن الحضارة ومظاهرها ، متمسكين بعاداتهم ولغتهم واستقلالهم ولم يظهر شأنهم الا في عهد الدولة الايوبية .

صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ م (٥٣٢ هـ) وكانت ولادته يوم رحيل أبيه وعمه شركوه وأهله من تكريت الى عماد الدين زنكي ، فأحسن وفادتهم نظراً لما أسدوا اليه من معونة عندما كانت جيوشه منهزمة من وجه السلاجقة . فمدوا له الجسور على دجلة وساعدوه على عبور النهر ، وقدموا له العلوف والازواد . فحفظ لهم هذا الجميل وولى نجم الدين أيوب محافظاً على بعلبك سنة ١١٣٩ م (٥٣٤ هـ) وعندما توفي عماد الدين زنكي سلم نجم الدين أيوب بعلبك لأهالي دمشق على شريطة أن يقطعوه عشرة ضيعات بجوار دمشق وان يهبوا له قصراً في دمشق . وما زال يتقرب من حكام دمشق حتى وصل الى رتبة قائد قواد عند الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق . أما أخوه أسد الدين شركوه فانضم الى جيش نور الدين الذي كان يطمح في الاستيلاء على دمشق . وفي سنة ١١٥٤ م (٥٤٧ هـ) جهز نور الدين جيشاً بقيادة شركوه أرسله لفتح دمشق . فلم يشأ نجم الدين أيوب أن يقوم في وجه أخيه ففاوضه مدة ستة أيام وأخيراً سلمه البلد . وبذلك نال الاخوان أحسن الجزاء من نور على ما قاما به من الخدمة الصداقة والاخلاص العظيم . فأسند الى أسد الدين شركوه قيادة الجيوش التي ذهبت لفتح مصر أرسل معه صلاح الدين بن نجم الدين كما مر معنا .

صلاح الدين الأيوبي :

لا نعلم الا القليل عن طفولة صلاح الدين ودراسته الأولى في سورية . والظاهر ان ميوله وهو فتى اتجهت نحو الابحاث الدينية . وعاش مع أبيه في بلاط نور الدين وعرف مايجري من امور السياسة في زمنه ، وكان يتألم من انقسام المسلمين وضعفهم أمام الصليبيين لذلك وقف حياته لتحقيق أمنيتين:

الأولى انزال السنة منزلة الشيعة في مصر .

الثانية متواصلة الجهاد ضد الفرنجة .

وفي سنة ١١٦٩ م (٥٤٦ هـ) اسندت اليه الوزارة في مصر على أثر وفاة شركوه . وبعد عامين من ذلك قضي على خلافة الفاطميين وأمر الخطباء بأن يقطعوا خطبة العاضد آخرهم . ويخطبوا للخليفة العباسي المستضيء فامتثلوا لأمره .

استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه في مصر وفتح جزء من بلاده النوبة والحجاز واليمن . وخاف نور الدين من قائده صلاح الدين أن يستقل في مصر وينفصل عنه . وكادت الخصومة تقع بين الرجلين ، وتنقسم الجبهة العربية مرة أخرى . الا أن القدر عاجل نور الدين فتوفي في ٢١ شوال سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وخلفه ابنه الصغير اسماعيل الملقب « بالملك الصالح » ، وكان عمره الحادي عشرة سنة فأخذ الامراء النورية في الشام يتنافسون لاخذ الحكم من هذا الطفل الصغير ، ويقاتل بعضهم بعضاً ، حتى ويستعين بعضهم بالافرنج على الآخر ، يدلنا على ذلك ما قاله صلاح الدين في كتاب

أرسله الى الخليفة العباسي المستضيىء بالله في بغداد قال فيه : « وتوافت الينا الاخبار ، بما عليه المملكة النورية من تشعب الآراء وتوزعها وتشتت الامور وتقطعها وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمح اليه طالب ، والافرنج قد بنوا قلاعاً يخوفون بها الاطراف الاسلاميه ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وامراء الدولة النورية قد سجن كبارهم ، وعوقبوا وصودروا والمماليك الاعماد الذين خلقوا للاطراف لا للصدور ، وجعلوا للقيام لا للقعود قدموا الأيدي والاعين والسيوف ، وسارت سيرتهم في الامر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وكل واحد يتخذ عند الافرنج يداً . ويجعلهم لظهره سنداً . »

وكان صلاح الدين يكتب على الدوام الى الملك الصالح ، فيظهر له خضوعه وولاءه ، فضرب السكه باسمه ، وخطب له على المنابر ، واظهر للسوريين شدة خوفه على مصالح الامير الصغير ، فطلبوا اليه الحضور الى الشام لينقذهم من الفوضى التي هم فيها ، فجاء بجيش الى دمشق في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ودخل دار أبيه وجلس فيها حتى سلمت القلعة ، فذهب اليها واستولى على ما فيها من الاموال والكنوز وفرقها على الاهالي الذين فرحوا بقدومه فرحاً كبيراً . ثم استولى على أكثر المدن السورية ما عدا حلب التي بقيت بيد الملك الصالح. وقد لاقى السلطان صلاح الدين صعوبة عظيمة في فتح البلاد نظراً لمقاومة الامراء النوريين له أشد المقاومة . وقد حاول الحشاشون من الباطنية اغتياله عدة مرات الا أنهم لم ينجحوا في مؤامراتهم التي كانوا مدفوعين اليها من الأمراء النوريين والصليبيين . وقد خلع الخليفة العباسي عليه الخلع وولاه أمر الشام ومصر . وبذلك تم توحيد الجبهة العربية أمام الصليبيين .

معركة حطين واسترداد بيت المقدس

قام صلاح الدين بحملات متعددة على الفرنجة ، وفي أول تموز من سنة ١١٨٧ م (٥٨٣ هـ) احتل طبرية بعد حصار دام ستة أيام . وعلى مقربة منها جرت معركة حطين الحاسمة في نفس السنة المذكورة . بدأ القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يختاره للجهاد ، فيكون يوم بؤس وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين الفاً أنهكهم العطش والحر ، فوقع جلهم في قبضة صلاح الدين . وكان في مقدمة الاسرى الممتازين غي دو لوسينيان Guy de Lusignan ملك أورشليم . فأحسن السلطان صلاح الدين ، الكريم النفس ، استقباله في خيمته ، اما رفيقه الملك راجينالد دو شاتيون Reginald of Chatillon موقد نار الحرب ، فناله معاملة أخرى . ولعل راجينالد هذا كان أشد زعماء اللاتين مغامرة ، واكثرهم تعديا ونقضاً للعهود ،

واوقرهم الماماً بالامة العربية ، وحين كانت الكرك في عهدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها أمتعتها ، بينما كان أصحابها يجتازون الطريق خلف أسوارها الحصينة . كل هذه الامور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وفي سنة ١١٨٦ م هاجم قافلة كانت فيها أخت صلاح الدين ،فاغاظ ذلك صلاح الدين ، ولذلك أقسم أن يقتله بيده اذا قبض عليه . وبلغ منه الكيد للمسلمين أن جهز أسطولا أخذ يعيث في شواطيء الحجاز فساداً ، وينزل الأذى بمواكب الحجاج . فلما قبض صلاح الدين عليه وجد الفرصة قد حانت للوفاء بيمينه ، فاحتال راجينالد للنجاة بان شرب الماء في خيمة صلاح الدين ، وهو عارف بان العادات العربية تحول دون ايقاع الأذى بمن شرب ماء القوم .الا أن صلاح الدين لم يأذن له بالشرب . فلم يحظ بامانه ، بل جوزي على غدره بان ضرب صلاح الدين عنقه بيده ، وبر بيمينه ، وقتل نحو مئتين من جماعته . فرعب الملك غي دو لوسينيان ، فطيب السلطان صلاح الدين خاطره وعفا عنه وارسله الى دمشق وبقية قومه بكل حفاوة واكرام .

جاء الانتصار بحطين قضاء مبرما على الفرنجة ، وبعد حصار أسبوع سلمت بيت المقدس في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ م فصدح صوت المؤذن من على المسجد الاقصى عوضاً عن ناقوس النصارى، وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قبة الصخرة ، وكانت شروط الصلح أن يخرج منها الفرنجة في مدة أربعين يوما . وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير ، وقد تسامح السلطان كثيراً في الشرط الأخير ، فسمح لكثيرين بالرحيل من غير فدية . وأذن للراحلين أن يحملوا ماشاءوا من المتاع والاموال ، ولم يعترض أحد سبيلهم ، ومالم يقدروا على حمله ابتاعه المسلمون منهم ، وظهر بذلك الفارق العظيم بين رحمة صلاح الدين والمسلمين وبين قسوة الصليبيين عند فتح القدس ، فقد مر معنا ما ارتكبه الصليبيون وقوادهم من الفظائع والوحشية . (١)

---

(١) يقول السيد أمير علي في كتابه « مختصر تاريخ العرب » ص ٣٠٧ عن مروءة صلاح الدين وانسانيته عند خروج الفرنجة من بيت المقدس ما يلي : « وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير ان ذلك الشرط أهمل إهمالا تاما ، إذ يقال إن السلطان افتدى وحده عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين (الملقب بالملك العادل) سراح سبعة آلاف أخرى وقد كان رجال الدين عندما غادروا المدينة يحملون معهم الاموال والامتعة، كذلك شوهد كثير من النصارى يحملون والديهم وأصدقائهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حداً لم يستطيعوا معه السير على الاقدام ، فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حالا ان توزع عليهم الصدقات ، وان يزودوا بالدواب... ويقول ميلز : ان كثيراً من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا الى انطاكية، غير أن بوهمند

وقد احترم صلاح الدين شعور المغلوبين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الا بعد ان غادرها جميع الصليبيين . ففي يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ دخل بيت المقدس يحف به الأمراء وأشراف الدولة وجاء كثير من المسلمين من جميع الأقطار لتهنئته على هذا النصر المبين . ثم التفت لاصلاح المدينة فامر بترميم ما هدمته الحروب ، وشيد الجوامع والكليات التي هدمها الفرنج ، ووضع اساساً لادارة المدينة وخرج منها ليكمل الفتح .

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت القلاع وكانت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد ولم يبق في حوزتهم إلا انطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .

الحملة الصليبية الثالثة

لقد استثار سقوط القدس حماسة اوربا ، فنسي حكامها خصوماتهم القديمة وقام رجال الدين وعلى رأسهم البابا غريغوريوس الثامن يدعون لحملة جديدة . وتوالت صيحات صليبيي الشرق تستنجد المعونة من أهل الغرب . فلبى النداء اباطرة اوربا وملوكها ، ونشط فردريك بارباروسا Barbaros-sa إمبراطور ألمانيا ، وريكاردوس قلب الأسد Richard the Lion Heart ملك انكلترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا الى القيام بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ — ١١٩٢ م) وهي اكبر الحملات عدداً ، ويقودها أعظم ملوك اوربا في ذلك العصر ، وكان يرجى لها نصراً عظيماً إلا انها لم تثمر عن نتائج حربية مهمة ، إذ أن أعظم ما فعله الصليبيون هو حصار عكا والاستيلاء عليها بعد حصار دام سنتين من (٢٧ آب ١١٧٩ حتى ١٢ تموز سنة ١١٩١ م) وكانت نتائج المفاوضات السلمية ، والصلات الودية بين صلاح الدين وقلب الأسد أعظم بكثير من الأعمال الحربية .

وكان أول من شرع بالمسير إلى الحرب فريدريك بارباروسا الذي سلك طريق البر ووصل الى القسطنطينية وقام النزاع بينه وبين الامبراطور البزنطي اسحق الكومنيني الذي أخذت تنتابه الشكوك من هذه الحملات لأن امبراطوراً ينافسه اللقب الامبراطوري يقوم على قيادتها ، وكانت هذه المنازعات بذوراً للحملة الصليبية الرابعة التي اتجهت الى القسطنطينية .

= أميرها لم يحرمهم الضيافة فحسب بل سلبهم أموالهم ، في حين كان هؤلاء البائسون ايما ساروا في بلاد المسلمين يلاقون ضروب العطف والكرم . »

توغل بارباروسا وجيشه في آسيا الصغرى إلا انه غرق وهو يعبر نهراً في كيليكية فعاد معظم افراد جيشه الى بلادهم وسار الباقي بقيادة ابنه سوابيان الى عكا واشتركوا في حصارها.

اما ريكاردوس وفيليب أغسطس فقد تواعدا على المسير بحراً الى البلاد المقدسة واتجها نحو صقلية وقضايا فيها ردحاً من الزمن، ولم تلبث المنازعات ان قامت بينهما، ففارق فيليب أغسطس الجزيرة في ربيع سنة ١١٩١ م واتجه الى عكا. ولحقه بعد ذلك ريكاردوس الذي عرج في طريقه على قبرص واحتلها وأصبحت هذه الجزيرة فيما بعد ملجأ للصليبيين بعد ان أخرجوا من سورية.

تجمعت القوى كلها في عكا وتزعم الهجوم الملك « غي » الذي كان صلاح الدين قد اطلق سراحه بعد معركة حطين بعد ان أخذ عليه العهد بان لا يعود لقتال المسلمين، فلم يف بوعده — كما هي عادتهم — وضرب الفرنجة الحصار حول عكا التي كانت بيد المسلمين، ولما بلغ الخبر صلاح الدين اسرع بجيشه لانقاذ المدينة. وضرب معسكره قبالة العدو. وكانت النجدات والمساعدات تأتي الصليبيين من طريق البحر، كما ان السفن المصرية والشامية كانت تمد أهل عكا بالميرة والذخيرة نظراً لانقطاعهم من ناحية البر عن جيوش صلاح الدين

نشب القتال بين الطرفين براً وبحراً وكان اهل عكا يراسلون السلطان صلاح الدين بواسطة كتب يحملها الحمام الزاجل او بواسطة الغواصين الذين يقطعون الخندق في الليل ويحملون الاخبار للسلطان.

وقد شيّد الفرنجة ابراجاً خشبية مرتفعة ستروها بالجلود المسقاة بالخل، او طلوها بالطين، وشحنوها بالرجال المقاتلة وقربوها من اسوار عكا وأخذوا يمطرون المسلمين بوابل من قذائف النفط والسهام والحجارة، الا ان المسلمين تمكنوا من احراق هذه الابراج[1]

---

(١) يصف ابن الاثير كيفية حرق المسلمين لابراج الصليبيين بقوله « وكان سبب ذلك أن انساناً من أهل دمشق كان مولعاً بجمع آلات النفاطين وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار، فكان من يعرفه يلومه على ذلك، وينكره عليه وهو يقول هذه حالة لم اباشرها بنفسي وانما أشتهي معرفتها وكان بعكا لامر يريده الله، فلما رأى الابراج قد نصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الادوية المقوية للنار بحيث لا يمنعها شيء من الطين والخل وغيرها. فلما فرغ منها حضر عند الامير قراقوش وهو متولي الامور بعكا، والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيقي ان يرمي في المنجنيق المحاذي لبرج من من هذه الابراج ما أعطيه حتى أحرقه ... فاجابه الى ذلك وأمر المنجنيقي بامتثال امره فرمى عدة قدور نفطاً وادوية ليس فيها نار فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصيحون ويرقصون —

وتكاثرت جموع الصليبيين على عكا التي قاومت مقاومة شديدة ، وانقطعت عنها الميرة كما أن السلطان صلاح الدين انسحب عنها بسبب انتشار الامراض والاوبئة من تفسخ جثث القتلى ، ففاوض قائد حامية عكا الصليبيين على التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة سلم أهل المدينة بشرط الابقاء على حياتهم وعلى أن يرد المسلمون الصليب المقدس ، وعلى ان يدفع المسلمون مائتي الف دينار في مدة شهر . ولما حصل بعض التأخير من المسلمين في دفع المال أمر ريكاردوس أعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة نفس !! وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسري اللاتين.

تنازع الصليبيون على حكم عكا واخيراً اتفقوا أن يكون (غي) ملكا عليها ، وعاد فيليب ملك فرنسا الى بلاده نظراً لكثرة مشاغله فيها . وبقي ريكاردوس يفاوض صلاح الدين ، وقد اقترح زواج أخته بالملك العادل أخي صلاح الدين على أن تعطى اورشليم هديه للزوجين فينتهي بذلك العداء المستحكم بين النصاري والمسلمين ، الا أن الامر لم يتم بسبب تدخل الكهنة . وقد تبادلت الهدايا بين صلاح الدين وريكاردوس دلالة على اعجاب الواحد منها بالآخر حتى أن ريكاردوس أنعم برتبة الفروسية على الملك الكامل بن الملك العادل في حفلة شائقة . وكان ريكاردوس شديد الرغبة في مغادرة سورية والعودة لبلاده لاخماد الثورة التي قام بها أخوه عليه . وبعث وفداً الى السلطان صلاح الدين يعرض عليه شروط الصلح وأخيراً تم الاتفاق بين الطرفين في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ م على أن يكون الساحل السوري بيد الصليبيين والداخل بيد المسلمين وأن لا يتعرض أحد بأذى للحجاج الوافدين على بيت المقدس . وصدر بيان بذلك فسادت الطمانينة وانتشر الأمن في ربوع البلاد وفرح الناس فرحاً شديداً وعادت الجنود الى اوطانها بعد أن كانت قد حشدت من جميع الاصقاع في فلسطين ، وعاد ريكاردوس الى بلاده ، وفي طريقه قبض عليه أمير النمسا وسجنه سنتين ، ولم يطلق سراحه الا بعد أن دفعت انكلترا غرامة كبيرة لا فتدائه .

نتائج الحملة الصليبية الثالثة

من نتائج هذه الحملة :

١ — أنه هلك فيها عدد لايحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العامرة ، وخسرت المانيا أحد أباطرتها العظام كما فقدت فرنسا وانكلترا زهرة فرسانها . ولم يكسب الصليبيون منها غير فتح عكا .

—ويلعبون على سطح البرج . حتى علم ان الذي القاه قد تمكن من البرج القى قدراً مملوأة وجعل فيها النار فاشتمل البرج والقى قدراً ثانية وثالثة فاضطرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس على الهرب ...» الكامل ج ١٢ ص ١٩ — ٢٠

٢ ـ إنها فتحت باب المفاوضات بين أهل الشرق والغرب ، وزادت في تعارف كلا الطرفين بعضها على بعض ، وجعلتها أكثر حرصاً على السلم من الحرب .

٣ ـ انها أظهرت تحول قيادة الحملات الصليبية نهائياً الى السلطة الزمنية من ملوك وأباطره ، فاصبحت الحملات تحت قيادة الملوك بعد أن كان يقودها الامراء والفرسان والكهان .

٤ ـ وطدت حكم الصليبيين في قبرص ، فاصبحت هذه الجزيرة ملجأ لهم بعد خروجهم من سورية .

شخصية صلاح الدين ومآثره

كان صلاح الدين مثال البساطة في ملبسه ومأكله ومسكنه ومعاملته للناس . فكان كل فرد من رعيته يستطيع أن يخاطبه ويدخل عليه دون أن يعترضه حاجب . وكان ديناً ورعاً تقياً رقيق القلب سريع التأثر تدمع عيناه عند سماعه أصوات الضعفاء والمساكين . وكان متواضعاً لا يحب الابهة فقد بني له مرة منزل فخم في دمشق فقال : « ما كنا لنجلس في هذا المكان الى الأبد، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطلب الموت ، وما نحن هنا الا لنقوم بخدمة الله سبحانه » وكان جواداً كريماً يقول « ان المال والتراب سيان عندي » كان يكره أن يفد عليه سائل فلا يعطيه ، وما طلب منه أحد عطاء الا واعطي اكثر مما سأل . ويكفي دليلا على كرمه أنه لم يخلف في خزائنه غير دينار واحد و ٣٦ درهما ارسلت الى بغداد مع الرسول الذي نعاه الى الخليفة .

كان السلطان صلاح الدين جريئاً قوي الفؤاد شديد الصبر فقد حارب الفرنجة حتى أثناء مرضه ، ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له في ذلك فيقول : « إني إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادي » وكان حليماً حسن الاخلاق كثير التغافل عن ذنوب أصحابه صديقاً للعلماء والاتقياء حريصاً على ان يكونوا في معيته .

مآثره :

أهتم صلاح الدين بامر دولته وشؤون رعيته . أنشا المدارس والمساجد والخوانق والرُّبط والبيمارستانات في جميع انحاء مملكته ووقف عليها الدور والبساتين والاموال الكثيرة . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي بدأ في تشيدها مع اسوار المدينة والخندق سنة ١١٨٣ م واستخدم فيها حجار الاهرامات الصغرى .

أبطل صلاح الدين المكوس التي وضعها الفاطميون على التجار في البر والبحر فانتعشت التجارة . وابتنى السدود وأمر بحفر الاقنية وتعمير الجسور حتى نشطت الزراعة . وكان يسرح المزارعين من جنده في الشتاء ليقوموا بشؤون مزارعهم .

أبطل مغارم أهل الحجاز وعوّض امير مكة عنها في كل سنة بألفي دينار وألف أردب من القمح وبعض الاقطاعات بالصعيد واليمن وبذلك سهل الحج على الراغبين به .

أهتم صلاح الدين كثيراً بأمر الاسطول لما له من عظيم الاثر في رد غارات الصليبين وتزويد المدن الساحلية والجيوش الصلاحية بالميرة والذخيرة . وأسس ديواناً للاسطول سمي « بديوان العمائر » جعل ويتسه أخوه الملك العادل نظراً لأهميته . فزاد الملك العادل أجور البحرية وعمال دور الصناعات عما كانت قبلاً . وبنى كثير من المراكب . واتخذ مركز هذا الديوان في داخل الصناعة بمصر ليكون قريباً من العمال يشرف عليهم بنفسه . وكانت السفن تصنع في الاسكندرية ودمياط ومصر ، وضعف أمر هذه الصناعات بعد موت السلطان صلاح الدين . وشهد لصلاح الدين بالبطولة اعداؤه وهو لا يزال يعتبر حتى اليوم مثال الفروسية الكاملة . وقد جاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته « والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته وسخاؤه وكرمه ورحمته وحلمه وصفحه وعفوه لاسيما محافظته على العهود والمواثيق » .

توفي رحمه الله بالحمى في دمشق يوم الاربعاء في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ ﻫ (١١٩٣ م) وهو في السابعة والخمسين من عمره ، ولا يزال قبره في العاصمة السورية قرب الجامع الاموي .

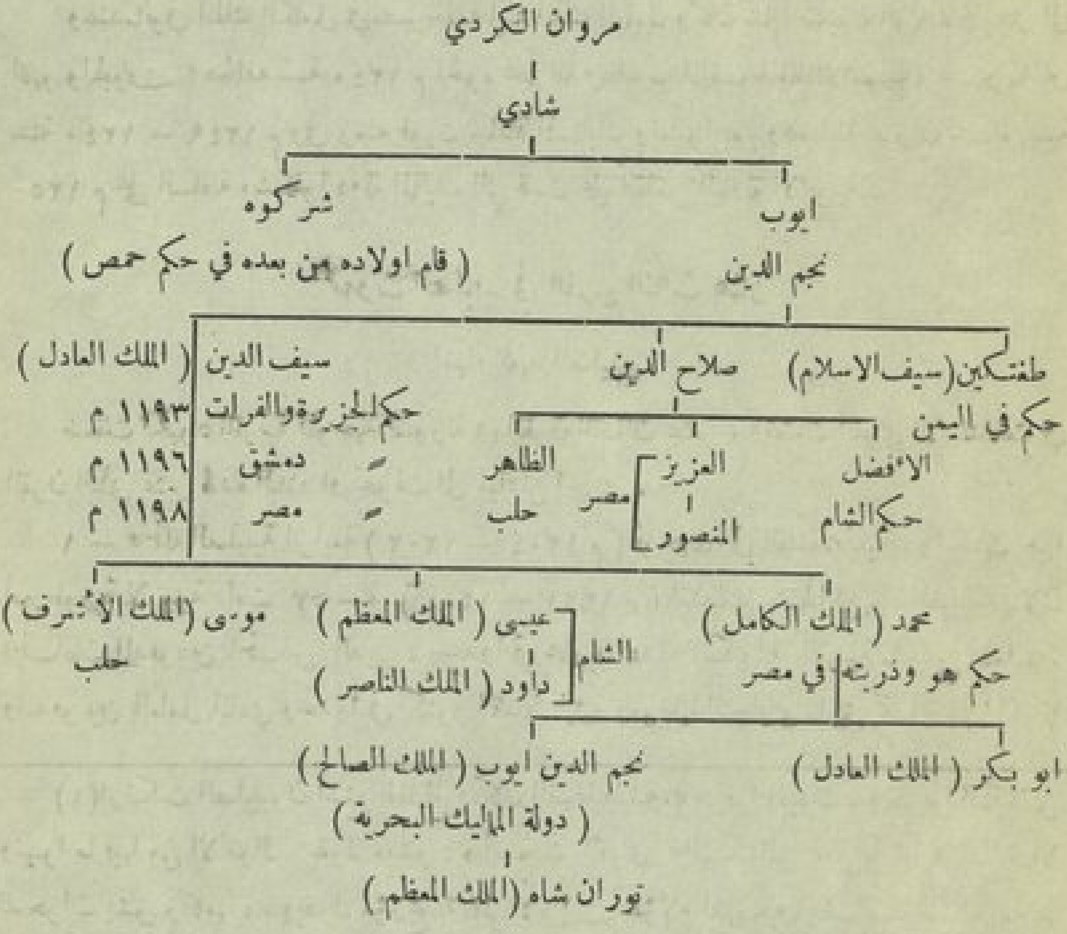
انقسام الدولة الأيوبية (١)

الملك العادل

أنقسمت الدولة الايوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين بين اولاده الثلاثة : الافضل ، والعزيز ، والظاهر ، وبين أخيه الملك العادل وبقية الامراء الايوبيين . وقام كل أمير من الايوبيين ينازع الآخر على السلطة . وكان الافضل حاكما على الشام وفلسطين وكانت دمشق عاصمة أبيه مركز حكمه . وبقي العزيز يحكم مصر التي كان والياً عليها منذ زمن ابيه ، وولي الظاهر أمارة حلب وبقي مستقلاً فيها حتى سنة ١٢٦٠ م. وحكم اولاد شركوه في حمص وكان الملك العادل والياً على الجزيرة

---

(١) تظهر هذه التقاسيم السلالة الايوبية لاسيما اولاد السلطان صلاح الدين واولاد اخيه الملك العادل الذين ورثوا الحكم بعد وفاة ابويهما :



الفرات ، وكان أقوى الأمراء الأيوبيين ، فما لبث بعد أن اشترك في النزاع الذي قام بين الأفضل والعزيز أن ضم دمشق لسلطته سنة ١١٩٦ م ولما توفي العزيز وترك ابنه الصغير المنصور استولى الملك العادل على مصر سنة ١١٩٨ م ولم يلبث أن ضم اليه بلاد اليمن ووحد جميع البلاد — ما عدا حلب — تحت سلطته وأعاد ذكرى صلاح الدين .

كان الملك العادل بعيد النظر وافر العقل عظيم الفطنة حسن السيرة شديد الحزم وكان كأخيه محباً للعلم ، مكرماً للعلماء ، امتدت دولته من اعالي الجزيرة حتى بلاد اليمن وكان سيد الشام ومصر .

توفي الملك العادل في طريقه الى مصر عندما كان ذاهباً لرد غارة الصليبيين عنها سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) بعد حكم دام عشرين سنة هزم خلالها الفرنجة في عدة مواقع ، واحبط غزواتهم في البر والبحر . وانقسمت الدولة بعد وفاته بين اولاده. فولي الملك الكامل مصر ما بين سنة ١٢١٨ — ١٢٣٨ م والملك المعظم بلاد الشام ما بين سنة ١٢١٨ — ١٢٢٧م والملك الأشرف الجزيرة وحلب ثم استولى على دمشق سنة ١٢٢٧ م وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٢٣٧ م .

وعندما توفي الملك الكامل في مصر خلفه ابنه الملك العادل وكان شاباً ضعيف الاخلاق يميل الى اللهو والمجون ، فخلفه سنة ١٢٤٠ م اخوه نجم الدين ايوب الملقب « بالملك الصالح » حكم ما بين سنة ١٢٤٠ — ١٢٤٩ م وفي زمنه قويت سلطة المماليك وتغلبوا بعد وفاة ابنه توران شاه سنة ١٢٥٠ م على السلطة وشكلوا دولة المماليك التي قامت على انقاض الدولة الأيوبية .

الحملات الصليبية في القرن الثالث عشر

انتهاء العهد الصليبي

ضعفت الجهود الغربية الموجهة لسورية في القرن الثالث عشر ، ونضبت القوى التي تدفقت في القرن الثاني عشر لهذه البلاد او تحولت الى ميادين اخرى .

١ — فالحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ — ١٢٠٤ م) توجهت الى القسطنطينية ، واسست فيها أمبرطورية لاتينية دامت ٥٧ سنة (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) امتصت خلالها الجهود الصليبية . لان الجماعات المدفوعين بالحماس الديني ، وجدوا في محاربة اعداء الكنيسة الغربية ما يشفي غليلهم . والمدفوعين بالعامل المادي وجدوا في كنوز القسطنطينية وموقعها التجاري ما يفي بحاجتهم (١) كما

(١) ارتكبت الصليبيون أشنع الفظائع بسكان القسطنطينية، فاحرقوا البيوت ، وخربوا الكنائس ونهبوا ما فيها من الأموال . يقول ميشو : « أصبحت القرى والكنائس خراباً يباباً لا تصلح الا للمحراث يشق ركامها » . ويقول مؤرخ بيزنطي : « إن هؤلاء المتهوسين عقب دخولهم المدينة —

أن القوى الصليبية توجهت الى اوربا نفسها سواء للمشاركة بالنزاع مع العرب في اسبانيا او لفتح المناطق الشرقية في المانيا التي لاتزال على الوثنية ، او لغيرها من البلاد .

٢ — نجد في هذا الدور ظاهرة جديدة في الحملات الصليبية وهي حماس الاولاد في اوربا ومحاولتهم القيام بحملة صليبية لانقاذ بيت المقدس . فقد سارت حملة من الاولاد من فرنسا تحت قيادة طفل يدعى « ستيفن » الى مرسيليا ، فسطى عليهم تجار الرقيق ، وباعوهم في اسواق مصر وجزر البحر المتوسط . كما ان الاولاد الذين ساروا من المانيا بقيادة الطفل « نيقولا » تشتت حملتهم في الطريق وعاد قسم منهم الى بلاده ولاقى القسم الآخر اسوأ العواقب .

٣ — نجد في هذا القرن تحول وجهة الصليبين من الشام الى مصر . فالحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ — ١٢٢١ م) التي دعا اليها البابا اينوسنت الثالث ، والحملة الصليبية السابعة (١٢٤٩ — ١٢٥٠ م) التي قادها القديس لويس ملك فرنسا على أثر سقوط بيت المقدس بيد المسلمين اتجهتا الى مصر ، وكانت الاعمال الحربيه فيها تدور حول الاستيلاء على دمياط ، وكانتا فاشلتين في النتيجة . فقد اسر القديس لويس ومعظم رجاله في الحملة السابعة ، ولم يطلق سراحهم الا بعد ان قبل لويس بتسليم دمياط ، ودفع فدية قدرها ٨٠٠ الف دينار .

٤ — تابع الصليبيون سياسة المفاوضة في هذا القرن ، فقد قضى فريدريك الثاني طيلة وقته في الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨—١٢٢٩ م) يتفاوض مع الملك الكامل وأخيراً عقد معه معاهدة لمدة عشر سنين أخذ بموجبها فريدريك بيت المقدس والناصرة وبيت لحم وقسم من الساحل يصل عكا ببيت المقدس ، مقابل تعهد فريدريك الثاني بعدم ارسال نجدات صليبية من اوربا للامارات اللاتينية في الشام وترك المسلمين يزورون أماكنهم المقدسة دون ان يعترضهم احد .

٥ — زالت سلطة النورمان في هذا القرن عن صقلية وجنوبي ايطاليا ، وخلفهم في حكم تلك البلاد أباطرة من المانيا منهم « شارل اف انجو » أخي ملك فرنسا القديس لويس . واتفقا على مساعدة الصليبيين فقاما في سنة ١٢٦٨ م بحملة مشتركة الى تونس وهي الحملة الثامنة والاخيرة . مات في اثنائها القديس لويس فاستلم اخوه شارل القيادة ، وفاوض سلطان تونس وأخيراً تم الاتفاق بينهما على ان

— انتزعوا الجواهر من كؤوس الهياكل المقدسة ، وطفقوا يشربون بها الخمور ، وفرشوا المناضد التي كانوا يقامرون ، ويأكلون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت اقدامهم التماثيل المقدسة ، ومزقوا في كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور وانتزعوا حواشيه الذهبية . وحطموا المذبح المزين بالصور الفنية واقتسموا قطعه الصغيرة فيما بينهم » .

يدفع السلطان مبلغاً من المال ، اخذ الافرنسيون قسماً منه واخذ الباقي لنفسه . وبذلك انتهت الحملات الثمانية التي يعددها المؤرخون . والحقيقة ان الجيوش الصليبية والحجاج الاوربيين لم ينقطعوا عن الوفود الى بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الذين قامت في اثنائها الحروب الصليبية .

٦ — جاءت في هذا القرن موجات التتر الى البلاد الاسلامية ، وقد حاول الصليبيون نشر المسيحية بين التتر ، فأرسل البابا اينوسنت الرابع وملك فرنسا القديس لويس مبشرين الى بلادهم ليخلقوا قوة نصرانية جديدة تأتي من الشرق وتساعد اهل الغرب في القضاء على المسلمين . إلا ان حلمهم لم يتحقق بسبب اعتناق كثير من التتر الدين الاسلامي ، وكان هذا انتصاراً للاسلام على المسيحية .

٧ — انتقل الدفاع في هذا القرن عن مصر والشام في وجه الصليبيين من الايوبيين الذين انقرضت دولتهم الى المماليك . فقد أنزل الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) الضربة القاضية عليهم ، في سنة ١٢٦٣ م احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة ، ولم تقو قيسارية ويافا وانطاكية على الوقوف في وجه هجماته العنيفة فاستسلمت ، وفي سنة ١٢٦٨ م أعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً ، وسبى من رجالها ونسائها وأطفالها نحو مائة الف فباعهم في الاسواق فكان ثمن الطفل يومئذ اثنى عشر درهماً ، وثمن الطفلة خمسة دراهم ، ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الاموال تكال كيلاً . وفي سنة ١٢٧١ م انتزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرسان ، أما المرقب الذي بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ م خليفته قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك بأربعة أعوام ، ولم يبق في سورية من مراكز الفرنجة الهامة الا عكا ، وجرى حصارها في عهد الملك الاشرف خليفة قلاوون . وبعد قتال دام شهر استخدم المسلمون فيه (٩٢) منجنقاً سقطت عكا في أيار سنة ١٢٩١ م وعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداوية وأبادوهم . وبهذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق . وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرابلس . وهكذا اسدل الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية في العصور المتوسطة وكثير من المؤرخين من يعتقد ان الحروب الصليبية لم تنته في ١٢٩١ م بل ان الغرب لايزال في حرب صليبية مع الشرق سواء من ناحية السياسة أو الدين .

---

٨ — انتقل بقايا الصليبيون من سورية الى جزر البحر المتوسط . فقد أصبحت قبرص التي استولى عليها ريكاردوس من اليونانيين في الحرب الصليبية الثالثة ملجأ لاصحاب الاقطاعات الفلسطينية تحت حكم ملوكها من اسرة لوزينيان . وكذلك احتل رودوس فرسان الاسبتارية بعد أن خسروا عكا نهائياً ، واستقروا في الجزيرة حتى عام ١٥٢٣ م وبعد هذا التاريخ نزحوا الى مالطة . وسقطت

كريت بيد البنادقة على أثر الحرب الصليبية الرابعة . وأخذ الجنويون بعض جزر بحر ايجه من الدولة البيزنطية . وكان الصليبيون يشنون الحرب على المسلمين من هذه الجزر من وقت الى آخر الى ان ساد الاتراك العثمانيون على البحر المتوسط وجزره .

٩ — قام بعض الباحثين في اوربا يبحثون في اسباب اخفاق الحملات الصليبية ، ويقترحون طرق اشمالها من جديد !! واصلاح الشوائب الماضية التي وقع بها الصليبيون ، فبعضهم جعل السبب الرئيسي في فشل الحملات الصليبية اطماع البابوات ، ومنهم من وجه انتقاده الى ملوك الغرب وامرائها وارجع الفشل الى منازعاتهم الدائمة ، ومنهم من لام وأتهم المدن الايطالية بنزعتها المادية التجارية . ومنهم من وجد السبب في فشل الصليبيين شدة المنافسة بين الداوية والاسبتارية . واتباع كلا الطرفين مصالحه الخاصة . ويقترح بعضهم توحيد جهود الغرب في القضاء على الشرق ، ويرتيء البعض الآخر بيع املاك الكنيسة وانفاقها في هذا السبيل ، ويجد آخرون غير هذه المقترحات فليتنبه الشرق النائم وليأخذ لنفسه الحذر .

نتائج الحملات الصليبية

كانت نتائج الحملات الصليبية مزدوجة فبعضها كان تأثيره على الغرب، كما أن البعض الآخر كان تأثيره على الشرق . وسندرس هذه النتائج في كلا الجهتين .

أثر الحروب الصليبية في الغرب :

خرجت اوربا بعد الحروب الصليبية من ظلمات العصور الوسطى الى عصر النهضة والاكتشافات البحرية والاصلاح الديني . ويقول باركر : إن الحروب الصليبية كانت عاملاً من جملة عوامل كثيرة أحدثت هذه التغيرات ، وانها ليست هي السبب الوحيد .

الا ان الحروب الصليبية كانت من جملة العوامل على محو نفوذ البابوية ومناهضة الرهبنة من الناحية الدينية ، كما انها عملت على المساواة بين الطبقات من الناحية الاجتماعية ، وساعدت على نمو طبقة الفلاحين الاحرار وجمعيات الصناع التعاونية وعلى ازدهار التجارة والصناعة والزراعة من الناحية الاقتصادية ، وأما في ميدان السياسة فكان للحروب الصليبية الاثر الكبير في التعاون الحربي بين مختلف شعوب اوربا والى قيام الدول المستقلة والحكومات المركزية والتعاون الدولي بين هذه الحكومات . كما ان الغرب استفاد من الثقافة العربية باتصاله المباشر بحضارة المسلمين مما ادى الى تفتح عقول الغرب ، وظهور كبار المفكرين في الفلسفة والعلوم والآداب لاسيما الآداب المحلية منها . كما انه ازدادت المعلومات الجغرافية على أثر الحروب الصليبية التي ساعدت اوربا وجرأتها على القيام

بالرحلات البحرية . واكتشاف امريكا . وقد انقضى عصر العمارة الرومانية وخلفه فن العمارة القوطية.

ويجب ان نعترف بأن أخذ اوربا من الحضارة العربية لم يكن في ميدان الحروب الصليبية فحسب بل ان الغرب اتصل بالشرق في ميادين أخرى لاسيما في الاندلس وصقلية ، ويتعذر معرفة ما أخذه الاوربيون من الثقافة الاسلامية في ميدان الحروب الصليبية او في غيرها من الميادين . فنجد مثلا في اللغات الاوربية كثيراً من الالفاظ العربية مثل : جبة ، ودينار ، واميرال — امير البحر — وارسنال — دار الصناعة — وسكر ، وغيرها من الالفاظ الكثيرة فهل اخذها الغرب باحتكاكه مع الشرق في زمن الحروب الصليبية او في وقت آخر ؟ ان علم اشتقاق اللغات هو الذي يعرفنا على ذلك ، ولكن الوصول الى الحقيقة في كل هذه النواحي أمر صعب جداً .

<u>ومما اخذه الغربيون عن الشرق في زمن الحروب الصليبية هو :</u>

١ — تقدم فن الحرب والقتال في اوربا على أثر الحروب الصليبية ووجد فن جديد لبناء القلاع في اوربا ، كما ان الغرب تعلم من المسلمين بعض وسائل الدفاع استلزمها فن حركات الحصار الذي ارتقى في الشرق . فاستعملوا مدفعية من المجانيق والكباش الهادمة ، وتعلموا صناعة النيران المحرقة كالنار اليونانية وقوارير النفط والقدور المملوءة بمواد مشتعلة وقنابل المجرالتي تتخذ من حجر مدور فيه أربعة ثقوب تملأ بالنفط وتقذف بالمجانيق . والمظنون ان استخدام الدرع للفارس وفرسه في الغرب مأخوذ عن الشرق ابان الحروب الصليبية . وتعلموا استخدام الوسائد القطنية تحت الدروع واستخدام الحمام الزاجل لنقل الأخبار . وتقدم فن المبارزة والفروسية اثناء الحروب الصليبية وانتشر استعمال الشارات ، كالنسر المزدوج ، وزهرة الزنبقة ، والمفتاحين في اوربا على اثر اتصال الصليبيين بالمسلمين في سورية . وتعلموا استعمال الطبل والطنبور في جوقاتهم الموسيقية ، ونقلوا عادة الاحتفال بالظفر باشعال النيران .

٢ — توسعت التجارة مع الشرق على اثر الحروب الصليبية وتعرف الصليبيون على منتجات مصر والشام والهند والصين وافريقية وبضائعها ، وتعود الغربيون على هذه المنتجات والمصنوعات ونقلوها الى بلادهم . فنقلوا السمسم والخروب والذرة والارز والليمون والبطيخ والمشمش والثوم وبعض الأقمشة كالموصلين والدمقس والعتابي والأطلس والسجاد والبسط وبعض الالوان كالقرمزي والأصباغ كالنيلة ، والعقاقير كحجر الشب ، والتوابل كالفلفل والصندل ، والعطور كالعود والقرنفل واللبان وبعض القطع الفنية المصنوعة كالفخار والزجاج والمصوغة كبعض الحلي من الذهب والفضة والمينا حتى انهم أخذوا المسبحة ...

٣ — أخذ الغرب عن الشرق بناء المستشفيات لمعالجة الامراض وفتحوا الحمامات العمومية

للنظافة وترق ذوقهم فاستعملوا الروائح العطرية من ماء الورد الدمشقي والعطور المشتهرة بها فارس، وادخلوا التوابل في اطعمتهم وتعلموا صنع الحلويات. ومنذ الحرب الصليبية عرف الغرب السكر، وما كانوا يعرفونه من قبل، وكانوا يستعملون العسل لتحلية أطعمتهم، فقد وجدوا في ساحل سورية الاولاد يمصون قصب السكر فلما ذاقوا طعمه ادخلوا زراعته إلى بلادهم.

٤ — أخذ الأوربيون في زمن الحملات الصليبية من العرب علم الجبر وادخلوا الأعداد العربية، وتركوا الأرقام الرومانية وادخلوا الصفر في حساباتهم. وانتشر علم الحساب في الغرب بسبب التجارة التي كانت قائمة بين سورية وايطاليا. وانتشرت دراسة اللغة العربية والشرقية في الغرب بغاية التبشير للمسيحية في البلاد العربية والشرقية وادخل تعلم هذه اللغات في الجامعات. هذا شيء مما انتجته الحروب الصليبية في الغرب فلننظر ما كان تأثيرها على الشرق.

<u>أثر الحروب الصليبية في الشرق:</u>

١ — ورث الشرق من الحروب الصليبية ذكريات التعصب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى

٢ — تركت الحروب الصليبية بعض الأبنية الحربية والمدنية من قلاع واسوار وكنائس وأديرة شاد بعضها أهالي البلاد ليدافعوا عن أنفسهم من الغارات الصليبية، وعمر البعض الآخر الصليبيون بالاستعانة بعماريين وصناع سوريين. وأهم القلاع التي بنيت في العهد الصليبي في سورية ولا تزال آثارها باقية حتى الآن هي: قلعه النمرود قرب بانياس، وقلعة الشقيف بطريق صيدا وقلعة سنجيل وبعض الأبراج الصليبية في طرابلس، وقلعة الحصن مابين حمص وطرابلس، وقلعة المرقب وصهيون بقرب اللاذقية، وقلعة الكرك والشوبك بشرق الأردن. وتعتبر سورية في الوقت الحاضر من افضل الميادين لدراسة الفن القوطي في زمن الحروب الصليبية.

٣ — امتزج الصليبيون مع قسم من اهالي البلاد ونشأ عن التمازج جيل جديد يعيش قسم منه فيسورية بعد خروج الصليبيين منها ولا يزال احفاده موجودين حتى الان.

٤ — انتقل الي الشرق بعض الالفاظ الاجنبية التي لا تزال مستعملة حتى يومنا هذا منها: البوسطة — بنك — بالة — كروسة — كمبيالة — لوكاندة وغيرها.

٥ — بدأت بذور الاستعمار السياسي والاقتصـــادي والديني تنمو في البلاد الشرقية فعمل الاوربيون على فرض امتيازاتهم في البلاد الشرقية إما لحماية الاقلية المسيحية او بالقوة والظلم اوبطرق الجمعيات الخيرية من فتح المدارس الأجنبية او تأسيس المستشفيات او الملاجيء اوالارساليات اوغيرها

ولا تزال تعاني البلاد الشرقية ويلات الحروب الصليبية مما سببته من خراب البلاد وتأخر الحياة الاقتصادية والفكرية والاجتماعية.

القسم الخامس

المماليك

لائحة باسماء سلاطين المماليك البحرية

اسم السلطان	سنة توليه الحكم: هجري	سنة توليه الحكم: ميلادي	اسم السلطان	سنة توليه الحكم: هجري	سنة توليه الحكم: ميلادي
١ — شجرة الدر	٦٤٨	١٢٥٠	١٤— ابو بكر بن الناصر	٧٤١	١٣٤٠
٢ — ايبك	٦٤٨	١٢٥٠	١٥— كجك 〃 〃	٧٤٢	١٣٤١
٣ — علي بن ايبك	٦٥٥	١٢٥٧	١٦ — احمد 〃 〃	٧٤٢	١٣٤٢
٤ — قطز	٦٥٧	١٢٥٩	١٧ — اسماعيل 〃 〃	٧٤٣	١٣٤٢
٥ — بيبرس البندقداري	٦٥٨	١٢٦٠	١٨— شعبان 〃 〃	٧٤٦	١٣٤٥
٦ — بركة خان	٦٧٦	١٢٧٧	١٩—المظفر حاجي 〃 〃	٧٤٧	١٣٤٦
٧ — سلامش	٦٧٨	١٢٧٩	٢٠— الحسن(١) 〃 〃	٧٤٨	١٣٤٧
٨ — قلاوون	٦٧٨	١٢٧٩	٢١— الصالح 〃 〃	٧٥٢	١٣٥١
٩ — الاشرف خليل	٦٨٩	١٢٩٠	الحسن(٢) 〃 〃	٧٥٥	١٣٥٤
١٠— الناصر محمد (١)	٦٩٣	١٢٩٣	٢٢— محمد بن حاجي 〃	٧٦٢	١٣٦١
١١— كتبغا	٦٩٤	١٢٩٤	٢٣— شعبان بن حسين	٧٦٤	١٣٦٣
١٢— لاجين	٦٩٦	١٢٩٦	٢٤ — علي بن شعبان	٧٧٨	١٣٧٦
الناصر محمد (٢)	٦٩٨	١٢٩٨	٢٥— حاج بن شعبان(١)	٧٨٣	١٣٨١
١٣— بيبرس الجاشنكير	٧٠٨	١٣٠٨	برقوق (مماليك برجية)	٧٨٤	١٣٨٢
الناصر محمد (٣)	٧٠٩	١٣٠٩	حاج بن شعبان (٢).	٧٩١-٩٢	١٣٨٩-٩٠

ملاحظة : تشير الاعداد التي بين قوسين الى عدد المرات التي تولى فيها السلطان الحكم .

الباب التاسع

المماليك

٦٤٨–٩٢٣ هـ او ١٢٥٠–١٥١٧ م

أصلهم :

المماليك جماعة من الرقيق الابيض استخدمهم الخلفاء العباسيون في خدمتهم لاسيما الخليفة المعتصم الذي استعان بهم على العرب والفرس ليحمي سلطته ويقوي نفوذه في الدولة . واصبح اقتناء المماليك سنة متبعة عند بقية الدول الاسلامية لاسيما في مصر . فاقتنى الطولونيون والاخشيديون والفاطميون والايوبيون عدد كبير منهم .

كان المماليك خليطاً من عناصر مختلفة فيهم التركي والشركسي والرومي والروسي والكردي والارمني وبعض الاوربيين جاء بهم النخاسون (تجار الرقيق) من بلاد ماوراء النهر وشبه جزيرة القرم وقفقاسيا والقفجاق والخزر وأواسط اوربا ، وكانوا يحملونهم الى مصر والبلاد الاسلامية الاخرى ويبيعونهم احداثاً في اسواق النخاسة ، ثم يربونهم تربية حسنة ، فيدربونهم على الحرب والفروسية ويعلمونهم القراءة والكتابة والفقه والحساب ... وظل المماليك أيام حكمهم في مصر منفصلين عن أهالي البلاد لايحتكون بهم كثيراً . لذلك ظلوا محافظين على جنسيتهم وعاداتهم القديمة . وكانوا ينتسبون الى أسيادهم الذين اشتروهم فأيبك كان ينتسب الى سيده الملك الصالح نجم الدين ايوب ؛ لذلك تسمى « بالصالحي النجمي » وقد استكثر الملك الصالح نجم الدين ايوب من اقتناء المماليك حتى تغلبوا على دولته الايوبية . وبعد وفاته لم يستطع ابنه توران شاه من كبح جماحهم فقتلوه وولوا امه شجرة الدر مكانه فتلقبت « بعصمة الدين ام خليل » وحكمت البلاد ، وخطب لها من منابر مصر وضربت النقود باسمها . الا ان الاحوال قد اضطربت في زمنها بسبب امتناع امراء دمشق وحلب من الاعتراف بسلطتها . وقد أرسل أمراء المماليك الى الخليفة المعتصم العباسي يطلبون الموافقة منه على سلطتها فكتب اليهم : «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجلاً » فعارض الشعب في توليتها عرش مصر ، فتزوجت بعز الدين ايبك ، وجعلته اتابكاً على الدولة ، وبذلك تم انتقال الحكم من الايوبيين الى المماليك ، الذين حكموا مصر والشام نحو ثلاثة قرون حكم في خلالها نحو خمسين سلطاناً أظهر بعضهم كفاءة منقطعة المثيل ، لذلك سنتكلم عن بعض هؤلاء وأشهر أعمالهم .

انقسم حكم المماليك الى قسمين :

القسم الاول : حكم فيه المماليك البحرية أو التركية من سنة (١٢٥٠–١٣٨٢) م او (٦٤٨ - ٧٨٤ هـ) .

القسم الثاني : حكم فيه المماليك البرجية او الشراكسة من سنة (١٣٨٢–١٥١٧ م) او (٧٨٤–٩٢٣ هـ) .

وعرفت الدولة الاولى بالبحرية لان المماليك كانوا يسكنون في سكنات بناها لهم الملك الصالح نجم الدين ايوب في جزيرة الروضة في بحر النيل وسموا بالمماليك التركية لان أكثرهم كان من الاتراك.

وعرفت الدولة الثانية بالبرجية لانهم كانوا يسكنون في أبراج قلعة القاهرة التي بناها السلطان صلاح الدين الايوبي على جبل المقطم في مصر . وسموا بالمماليك الشراكسة لان اكثرهم كان من الشراكسة.

الفصل الاول

دولة المماليك البحرية

٦٤٨ — ٧٨٤ هـ او ١٢٥٠ — ١٣٨٢ م

كانت الفتن الداخلية قائمة في البلاد في زمن المماليك البحرية بسبب نزاع أمراء المماليك على السلطنة، وذلك لأنه لا يوجد طريقة ثابتة لتولي الحكم. فالسلطة كانت عندهم نهباً للاقوى. فمن كان عنده حاشية قوية واتباع كثيرون أصبح سلطاناً. فاذا ضعف خلعه غيره وحل مكانه. وكانت البلاد بأسرها غنيمة للسلطان وجنده، يأخذون مغانمها ويتمتعون بخيراتها في سبيل إشباع رغائبهم وتنفيذ استبدادهم. فاذا ضعفوا غلبهم غيرهم وحلوا مكانهم. واشتهر من سلاطين المماليك البحرية: عزالدين ايبك، وقطز، وبيبرس، وقلاوون، والملك الناصر وسنتكلم عنهم باختصار وقد توالت السلطنة في بيت قلاوون من أبنائه واحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحرية. الا ان الامراء أبقوا أولاد قلاوون بالسلطنة وحكموا باسمهم لذلك كانوا العوبة بيدهم.

عزالدين ايبك

٦٤٨ — ٦٥٥ هـ او ١٢٥٠ — ١٢٥٧م

هو أحد مماليك الملك الصالح نجم الدين ايوب تزوج شجرة الدر سنة ٦٤٨ هـ فتنازلت له عن العرش بعد ان حكمت مصر ثمانين يوماً، برهنت فيها على كفاءة وبراعة وحكمة في تصريف الامور وقد اعترض ايبك في عهد سلطنته عدة عقبات منها: (١) أن المماليك البحرية كانوا لا يزالون يذكرون حق الايوبيين الشرعي في عرش البلاد، فاستدعوا أحد الايوبيين وهو الناصر صلاح الدين يوسف صاحب بلاد اليمن. وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الاشرف. الا أنه لم يحكم مع ايبك، ولم يكن له سوى الاسم. فلما قويت شوكة ايبك بانضمام عدد كبير من المماليك اليه، انتهز فرصة ازدياد خطر التتر في بلاد الشام وتهديدهم مصر سنة ٦٥٠ هـ فقطع اسم الاشرف من الخطبة، وكان الاشرف آخر ملوك بني ايوب بمصر. ولم تقم للايوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات الكثيرة التي حاولها بعضهم في سبيل الوصول إلى عرش مصر واحياء الدولة الايوبية فيها. (٢) وكذلك لم يعترف بسلطنة ايبك الامير فارس الدين اقطاى مقدم المماليك البحرية وكان يأنف ان

يناقي اوامره ، فبعث السلطان ايبك في طلبه ، وتظاهر بانه يريد استشارته في مهام الامور ، ولما وصل الى قلعة الجبل سنة ٦٥٢ هـ أغلق بابها ومنع مماليكه من الدخول معه ، ثم امر به فقتل ، ورمى برأسه إلى مماليكه فخاف انصاره وهربوا الى الشام .

وليجعل ايبك ملكه شرعياً أرسل الى الخليفة العباسي ببغداد المستعصم بالله يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والالوية أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر ، وأنه نائبه فيها . فأرسل له ذلك ، فصفا الجو له الى سنة ٦٥٥ هـ . الا أن العلاقة ساءت بينه وبين زوجته شجرة الدر إذ علمت انه ارسل يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فدبت الغيرة في نفسها ، فتآمرت عليه مع بعض خصيانها وقتلوه في الحمام في ١٤ ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ وبايع الامراء لابنه علي وعمره يومئذ احدى عشر سنة على ان يلقب بالمنصور وبين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له .

وقد بدأ هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لابيه أيبك من شجرة الدر فأوعز الى بعض الجواري فقتلنها بالقباقيب . وفي عهده طغت موجة المغول على البلاد الاسلامية واستولى هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦ هـ فاتخذ قطز هذا الحادث ذريعة لاخذ السلطنة لنفسه فاعتقل الملك المنصور بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٥٧ هـ .

قطز

٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م

تولى قطز السلطنة لقتال التتر ، كما أعلن ذلك بنفسه لأمراء المماليك عندما انكروا عليه خلع الملك المنصور . فخرج للقائهم في اواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ ولحق بهم في عين جالوت بين بيسان ونابلس في فلسطين . وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها المماليك انتصاراً باهراً ثم تجمع التتر في بيسان وقاتلهم قطز وهزمهم هزيمة منكرة . الا ان بعض المماليك بزعامة الامير ركن الدين بيبرس اتفقوا على قتله ، وذلك لانه كان وعد بيبرس بنيابة حلب ثم اعطاها لصاحب الموصل . فقتلوه وهو عائد في طريقه الى مصر سنة ٦٥٨ هـ ونادوا ببيبرس سلطاناً عليهم .

بيبرس البندقداري

٦٥٨ - ٦٧٩ هـ او ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

كان بيبرس أعظم سلاطين دولة المماليك البحرية ومؤسسها الحقيقي . وهو في الاصل رقيق تركي عمل في اول ملكه على تنظيم شؤون البلاد الداخلية . فاعتنى بترتيب الجيش وتعمير الاسطول ،

وتحصين قلاع سورية ، واهتم بحفر الترع وتحصين الموانيء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة أيام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل محطة للبريد ، حتى لقد كان في مكنة السلطان أن يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على اسبوع واحد . وكذلك اهتم باستخدام حمام الزاجل في نقل البريد فكان يربي ويحفظ انسابه في سجلات خاصة . واهتم بيبرس بالاشغال العامة ، فأسس المعاهد وبنى المساجد واصلح المسجد النبوي وقبة الصخرة وأقام المؤسسات الخيرية . ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيدها : الجامع الكبير والمدرسة التي تحمل اسمه . وهو اول سلطان بمصر عين اربعة قضاة للمذاهب الاربعة ووضع نظاماً دائماً للمحمل المصري . وكان يجلس للمظالم بنفسه ويعطف على الفقراء والمعوزين واصدر عدة قوانين لتهذيب أخلاق المصريين ، فأمر سنة ٦٦٤ هـ بمنع بيع الخمور وأقفال الحانات التي بالقاهرة وجميع اعمال مصر ، ونفى كثير من المفسدين . وخفض الضرائب وكان يراقب جبايتها وصرفها حتى لا تتسرب الى جيوب الموظفين وكان يعاقب المرتشي والخائن اشد عقوبة . وكان له مقام عظيم بين امراء مصر ، فقد هابوه وخشوا بأسه حتى لم يكن احد منهم يجسر على الدخول عليه الا باذنه وهدأت الاحوال في زمنه .

كان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الامثال ببطولته وشهامته حتى أن سيرته « الملك الظاهر » لا تزال تقرأ حتى يومنا هذا . وقد تجلت بطولته في حروبه ضد الصليبيين فحاربهم مدة عشر سنوات انهك قواهم وهدم حصونهم وشتت شملهم . وكذلك حارب فرقة الحشاشين من الاسماعيلية في جبال العلويين وأخضعهم ونشر حكمه ايضاً على بلاد النوبة والبربر ، وتعاقد مع ملوك المغول وملوك اوربا فعقد محالفة مع زعيم خانات المغول في قبشاق من وادي الفولغا وكذلك أمضى اتفاقية تجارية مع شارل دو أنجو Charles of Aojou ملك صقلية ، ومع جيمس ملك اراغون والفونسو ملك اشبيلية .

ومن اروع الحوادث في ملك بيبرس اقدامه على تجديد الخلافة العباسية واحيائها في مصر . بعد ان قضى عليها هولاكو التتري في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وكان جل قصده من ذلك حمل سلطته شرعية واكساب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١ م أحمد العباسي عم المستعصم آخر الخلفاء العباسيين . وكان قد نجا من مذبحة بغداد ، فبايع له بيبرس والناس على طبقاتهم بالخلافة ولقب بالمستنصر بالله وكتب بيبرس الى النواحي بأخذ البيعة للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنقش اسمه على السكة . وقد البس الخليفة شارات السلطنة الى بيبرس وفوض الامور اليه في البلاد الاسلامية وقلده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز

واليمن والعراق . وبعد ثلاثة اشهر توجه بيبرس من القاهرة ومعه الخليفة طامعاً في اعادة بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يصل المستنصر الى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد في الصحراء فكان ذلك آخر العهد به ، وتعاقب ابناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم من الخلافة الا الاسم . ولما انتزع السلطان سليم العثماني مصر في سنة ١٥١٧ م من أيدي المماليك نقل معه الى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر خلفاء هذه الأسرة .

توفي بيبرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ على أثر عودته من واقعة قيسارية ودفن في دمشق وكان قد عهد بالسلطنة لابنه محمد المسمى بركة خان وكان قد بلغ التاسعة عشر من عمره ، وقام الخلاف بينه وبين الامراء المماليك من بدء حكمه مما ادى في النهاية الى خلعه ونفيه الى الكرك منفى سلاطين المماليك .

سيف الدين قلاوون

٦٧٨ - ٦٨٩ هـ او ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م

كان قلاوون قفجاقي الاصل ثمنه الف دينار لذلك عرف بالالفي . واصبح اتابكاً لبدر الدين سلامش بعد خلع اخيه بركة خان ، واستأثر بالحكم لصغر سن السلطان ، وظهر نفوذ قلاوون بأجلى معانيه حين ضربت السكة باسم الملك العادل سلامش على احد الوجهين وباسم قلاوون على الوجه الآخر ، وزاد نفوذه وارتفع ذكره حين خطب له والعادل معاً . واخذ يمهد الطريق لوصوله الى السلطنة ، فعزل نواب السلطان بركة خان عن البلاد الشامية وولى من يثق بهم من اتباعه وتخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمحون الى السلطنة ، وبعد ان صفا الجو لقلاوون بمراضاته الامراء واتباعهم اتفق معهم على خلع السلطان سلامش « لانه لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير » وتولى مكانه .

سار قلاوون على نهج بيبرس في ادارة شؤون البلاد وتقريب الشعب اليه : وكانت سياسته قائمة على الاكثار من المماليك ليكونوا عوناً له ولاولاده من بعده في تثبيت عروشهم . وانشأ لذلك فرقة جديدة من المماليك اطلق عليهم اسم « البرجية » نسبة الى ابراج القلعة التي اقاموا بها . الا انه قدر لهؤلاء أن يسلبوا العرش من اولاده ويشكلوا دولة المماليك البرجية .

واتبع قلاوون سياسة بيبرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقي في ايديهم سنة ٦٨٦ هـ عدا مدينة عكا التي استولى عليها ابنه الاشرف خليل سنة ٦٩١ هـ بعد وفاة ابيه .

وبذلك قضي على آخر حصن كان بيدهم ، ولم يبق بعدها للصليبيين في بلاد الشام اي حصن يلتجئون اليه وهاجر بقاياهم الى جزر البحر المتوسط كما مر معنا .

وقلد قلاوون سياسة بيبرس في ازالة التتر من بلاد الشام ودمر جيوشهم بقرب حمص وكانوا في ثمانين الف فارس فكسرهم وابعد اذاهم عن البلاد .

كان قلاوون سلطاناً عظيماً مقتصداً في سفك الدماء ، يحب جمع المال ، وقد انفقه على المشاريع العمرانية كبناء المدارس والمساجد والمستشفيات والملاجئ . وتولى اولاده من بعده على عرش السلطنة ونكتفي بذكر الناصر منهم .

الناصر محمد

٦٩٣ هـ او ١٢٩٣ م

تولى الناصر عرش السلطنة في التاسعة من عمره ، وقد تولى على منصة الحكم ثلاث مرات ، كان يلتجئ خلالها الى الكرك ويستأثر غيره بالسلطنة ثم لا يلبث أن يستدعيه المماليك للحكم على أثر قيام الاضطرابات والفتن .

وكانت الحوادث السياسية تدور في زمن الناصر حول التنازع على السلطنة من قبل كبار المماليك الطامعين بها . واتخذوا في بادئ الامر حداثة سن الناصر ، فرصة سانحة لتحقيق اغراضهم . وكان الاتباع من المماليك الصغار يشتركون في هذا النزاع متخذين جانب الامراء الكبار ، ويزيدون في تشويش الحالة وسوئها . وكذلك كان العامة من اهالي مصر يدخلون في المنازعات بين السلطان والمماليك فتضطرب الاحوال وتشتد الفتن .

وفي سلطنة الناصر الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) انفرد الناصر في حكم البلاد ، وتمكن من القضاء على الذين اغتصبوا عرشه ، واقاموا الفتن والدسائس حوله . واستمرت هذه الفترة اثنتين وثلاثين سنة ، وهي المدة التي يعدها المؤرخون عهد سلطنة الناصر الحقيقية ، اذ انه قبل ذلك لم يكن الا العوبة بيد الامراء الاقوياء الذين يجلسونه على العرش او يصرفونه عنه حسب اهوائهم ، وقد حكم في الفترات التي نحي الناصر فيها عن السلطنة كتبغا ، ولاجين وبيبرس الجاشنكير الا ان حق الناصر في وراثة عرش ابيه مكنه أن يحكم مصر نحو نصف قرن .

وتعتبر سلطنة الناصر الثالثة ازهى عصور مصر في عهد المماليك ، فقد كانت القاهرة عاصمة لمملكة واسعة تمتد من بلاد برقة غرباً الى ساحل البحر الاحمر شرقاً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً الى بلاد النوبة جنوباً . كما خضعت بلاد اليمن والحجاز لسلطنة الناصر . وكاتبه بعض ملوك اوربا

وآسيا وعقدوا معه المعاهدات وارسلوا اليه الهدايا . وحارب المغول الذين استولوا على دمشق وعاثوا في بلاد الشام وفلسطين فساداً . فالتقى بهم في مرج الصفر بقرب دمشق سنة ٧٠٢ هـ وهزمهم هزيمة منكرة .

اصلاحات الناصر

بعد ان استتب الامن في البلاد انصرف الناس الى عمارة اراضيهم الزراعية وترويج التجارة وتحسين الصناعة ، ونظراً لان الناصر كان متديناً اهتم بتشييد العمائر الدينية والمؤسسات الخيرية التي لا يزال بعضها قائماً يشهد لما كان لعصر المماليك من البراعة في الفنون والعمارة . ويعتبر الناصر من اعظم السلاطين شغفاً بالتشييد والبناء ، وكان له خبرة فيها . وقلده اتباعه من الامراء بالعناية بالمباني والتأنق فيها حتى اصبح أهم خواص عصر المماليك البناء والعمران .

وقام الناصر باصلاحات داخلية منها انه وحد الموازين والمقاييس والمكاييل في الدولة وراقب ضبطها ، وخفض الضرائب على الرعية وعن الفقراء بصورة خاصة وعني بالاخلاق العامة والمحافظة على آداب الشعب ، واهتم بالعلم والمعارف . ووصفه ابو المحاسن في كتابه النجوم الزاهرة بقوله انه : « أطول الملوك في الحكم زماناً واعظمهم مهابة ، واحسنهم سياسة ، واكثرهم دهاء ، واجودهم تدبيراً واقوامهم بطشاً وشجاعة . مرت به التجارب وقاسى الخطوب وباشر الحروب ، وتقلب مع الدهر الواناً ونشأ في الملك والرياسة ، وله في ذلك الفخر والسعادة ، خليقاً بالملك والسلطنة ، فهو سلطان وابن سلطان ووالد ثمانية سلاطين من صلبه ، والملك في ذريته واحفاده وعقبه ومماليكه ومماليك مماليكه الى أن تنقرض الدولة التركية . فهو أجل ملوك الترك واعظمهم بلا مدافع . »

توفي الناصر سنة ٧٤١ هـ ١٣٤٠ م ولم يقدر اولاده أن يقوموا بالسلطنة فوقعت البلاد في فوضى نحو ٤٣ سنة الى ان انتهى الامر بانقراض دولة المماليك البحرية التي كان لها الفخر باستئصال الصليبيين من سورية وحالت بين المغول وتدويخ العالم وحلت دولة المماليك البرجية محلها .

لائحة بأسماء سلاطين المماليك البرجية

اسم السلطان	سنة توليه الحكم		اسم السلطان	سنة توليه الحكم	
	هجري	ميلادي		هجري	ميلادي
١ - برقوق (١)	٧٨٤	١٣٨٢	١١- جقمق	٨٤٢	١٤٣٨
حاج بن شعبان (٢)	٧٩١	١٣٨٩	١٢ - المنصور - عثمان	٨٥٧	١٤٥٣
برقوق (٣)	٧٩٢	١٣٩٠	١٣- إينال	٨٥٧	١٤٥٣
٢ - فرج بن برقوق (١)	٨٠١	١٣٩٨	١٤- المؤيد - أحمد	٨٦٥	١٤٦٠
٣ - عبدالعزيز بن برقوق	٨٠٨	١٤٠٥	١٥- خشقدم	٨٦٥	١٤٦١
فرج (٢)	٨٠٩	١٤٠٦	١٦- بلباي	٨٧٢	١٤٦٧
٤ - الخليفة المستعين	٨١٥	١٤١٢	١٧ - تيموربوغا	٨٧٢	١٤٦٨
العباسي			١٨ - قايتباي	٧٧٣	١٤٦٨
٥ - المؤيد - شيخ	٨١٥	١٤١٢	١٩- الناصر - محمد	٩٠١	١٤٩٥
٦ - المظفر - أحمد	٨٢٤	١٤٢١	٢٠- الظاهر - قنصوه	٩٠٤	١٤٩٨
٧ - الظاهر سيف	٨٢٤	١١٢١	٢١- جنبلاط	٩٠٥	١٤٩٩
الدين ططر			٢٢- قنصوه الغوري	٩٠٦	١٥٠٠
٨ - الصالح - محمد	٨٢٤	١٤٢١	٢٣- طومان باي	٩٢٢	١٥١٦-١٧
٩ - برسباي	٨٢٥	١٤٢٢			
١٠ - العزيز - يوسف	٨٤٢	١٤٣٨			

الفصل الثاني

دولة المماليك البرجية

٧٨٤ - ٩٢٣ ﻫ او ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

صفات المماليك البرجية

كان المماليك البرجية من أصل شركسي ما عدا اثنين منهم وهما خشقدم وتيمور بوغا اللذين كانا من اصل يوناني . ولم يكن الملك عندهم وراثياً كما كانت الحال في بيت قلاوون وانما كانت السلطنة عندهم نهباً للاقوى . وبلغ عدد سلاطين هذه الدولة ثلاث وعشرين سلطاناً حكموا ١٣٤ سنة امتد سلطانهم في خلالها على مصر والشام والحجاز . كانت هذه البلاد أيام حكمهم في أظلم عهودها ، لان عدداً من سلاطينهم كانوا بغاة سفاحين بل إن منهم من كان ما جناً خليعاً وكان بعضهم لا يملك شيئاً من الكفاءة او الثقافة . فالمؤيد شيخ الذي اشتراه السلطان برقوق من تاجر شركسي كان سكيراً يقترف جسام القبائح . وبرسباي من مماليك برقوق أيضاً لم يكن يحسن اللغة العربية ، ومن مساوئه انه امر بقطع رأسي طبيبيه عندما تعذر عليها شفاؤه من داء عضال . اما إينال وهو أيضاً من مماليك برقوق فكان امياً يجهل القراءة والكتابة وعلى الرغم من تطاول عهد سلطنته فانه لم يكن يعرف توقيع اسمه على المراسيم الا بعد ان يرسم له الموقع رسماً خفيفاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم أما بلباي فلم يكن امياً فحسب بل معتوهاً . واما قايتباي الذي اشتراه برسباي بخمسين ديناراً فقد أمر بالكيماوي علي بن المرشوشي أن تقلع عيناه ويقطع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن الخسيسة الى ذهب .

فساد الحالة الاقتصادية

كانت البلاد في زمن المماليك البرجية في حالة سيئة من الناحية الاقتصادية ومما زاد في سوءها الحالة الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية القائمة على مصالحهم الشخصية من ذلك أن برسباي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل ان ترتفع اسعارها احتكر جميع الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها بعد ذلك من الناس باسعار فاحشة ضمنت له ربحاً كبيراً كذلك احتكر صناعة السكر ، وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمن

لنفسه ارباحاً عظيمة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة نكبت بها البلاد مراراً ، فكثر الطلب على السكر إذ كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود Black Death » في اوربا فانه مات من جرائه نحو ثلاثمائة الف نسمة في العاصمة المصرية وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخلف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس وعد خروج النساء في الاسواق سبب ذلك البلاء فمنعهن من الخروج وسعى الى التكفير عن سوء إعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ابتزاز الاموال لم يقتصر على اهل الذمة بل كان المسلمون ايضاً مثقلون بالضرائب وذلك لعدم وجود نظام معين لجباية الضرائب . فكان السلاطين يفرضون ضرائب فاحشة في سبيل جمع الاموال اللازمة لحملاتهم الحربية . ولتشييد البلاط الفاحشة وانشاء العمارات الكبيرة . وكانوا يصادرون اموال كبار الموظفين في الدولة الذين اثروا على حساب الجمهور

ومما زيد الحالة سوء اغارة قبائل البدو من الصحراء على الفلاحين في وادي النيل وعبثهم في مزارعهم واتلافهم مزروعاتهم ونهبهم ما تصل اليه ايديهم . ثم ان الجراد كالاوبئة كان يزور البلاد بين الفينة والفينة حتى اصبح الجوع ينتاب البلاد خاصة في سنين الطاعون ، والجفاف الناشئ عن انخفاض ماء النيل ويهلك عدد كبير من السكان . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب الجوع والامراض في عصر المماليك نحو ثلثي مجموع السكان .

ضياع تجارة الهند

في آخر عهد المماليك البرجية أخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاسة ففي سنة ١٤٩٧ م اكتشف الملاح البرتغالي فاسكودوكاما طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حادث خطير كان له اثره السيء في تاريخ مصر وبلاد الشام وذلك لان اساطيل البرتغاليين الاوربيين اخذت تحارب سفن المسلمين وتطارد تجار المسلمين من البحر الاحمر والمياه الهندية وخليج فارس وتحتكر تجارة التوابل وسواها من المحصولات الاستوائية التي امتازت بها الجزر الشرقية وبلاد الهند وبذلك انتقلت الارباح التي كانت تدر على مصر والشام الى اوربا ، وقد ارسل السلطان قانصوه الغوري اساطيله لمحاربة البرتغاليين الا انه كسر امامهم . وبذلك ضاعت هذه التجارة من يد المماليك نهائياً .

تيمورلنك

ولد تيمورلنك في بلاد ما وراء النهر سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) من اسرة تركية من سلالة

أحد وزراء جنكيز خان . وفي سنة ١٣٨٠ م سار على رأس قومه التتر في سلسلة حملات متواصلة افتتح بها افغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد ودوخ ارض الرافدين . في تكريت مثلاً انشأ هرماً من رؤوس القتلى . وفي سنة ١٣٩٤ انطلق الى روسيا واحتل موسكو واقام بها ما يزيد عن السنة . ثم تحول عنها بعد ثلاث سنوات الى الهند الشمالية واحتل دلهي سنة ١٣٩٨ م وقتل ثمانين الفاً من اهلها .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشمالية سنه ١٤٠١ م أشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقى ولا تذر ففي حلب أقام عساكره نحو ثلاثة ايام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء ، حتى عمل تيمور من رؤوس القتلى البالغ عددهم عشرين الفاً اكمات محيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها عشرة اذرع جاعلاً الوجوه بارزة الى الخارج يراها من يمر بها . وهدم اجمل ما فيها من مساجد ومدارس وتوجه الى دمشق فاحتل في طريقه حماة وحمص وبعلبك ولم يقو جيش المماليك الذي كان بقيادة السلطان (فرج) على الصمود في وجه التتر فانهزم وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتها شهراً واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى لم يبق من الجامع الاموي الا بعض جدرانه . ومن دمشق عاد تيمور الى بغداد ليثأر من اهلها لقتلهم بعض رجاله فاعمل في المدينة السيف وقتل عدد كبير من أهلها واقام فيها مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه . وفي سنة ١٤٠٢ زحف تيمور على اسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند انقرة وأخذ السلطان بايزيد الأول اسيراً ووضعه في قفص كان يحمله معه في غزواته واستولى على عاصمته بروسة وعلى ازمير . ولحسن حظ المماليك مات تيمور سنة ١٤٠٥ م (٨٠٧ ﻫ) وهو زاحف لافتتاح الصين فدب النزاع بين ورثته وافنوا قواهم في المشاحنات والفتن الداخلية والنزاع على العرش .

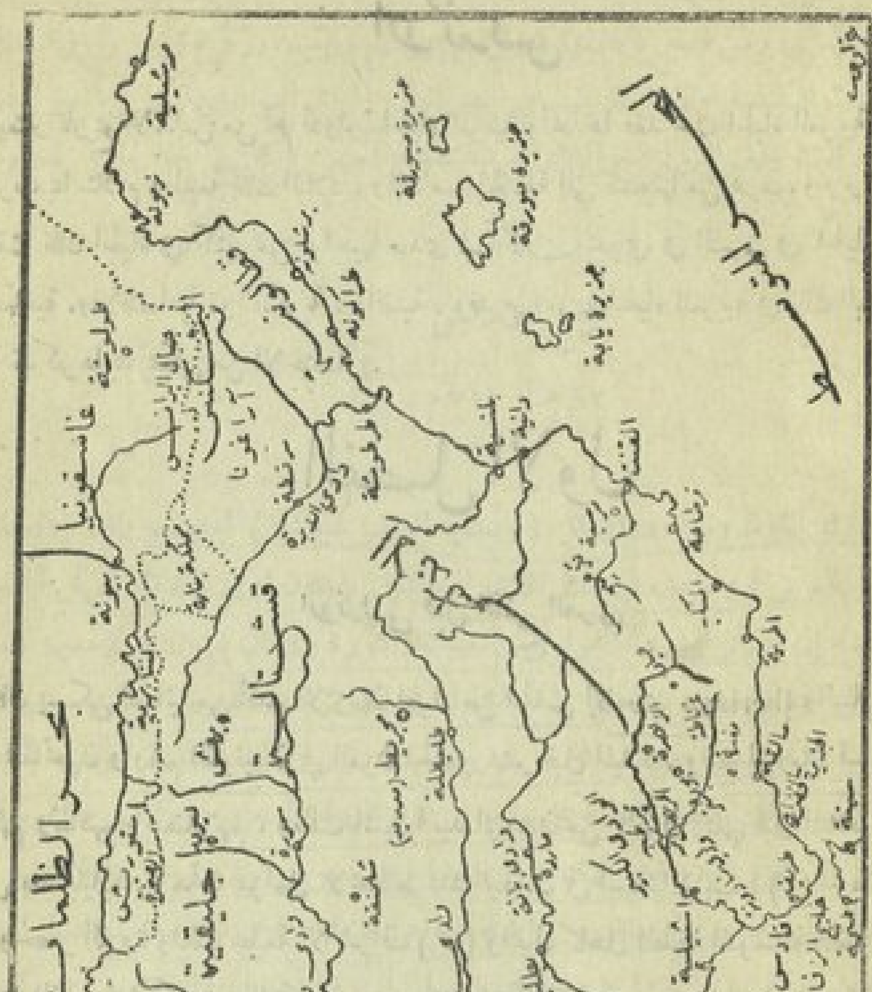
العثمانيون والقضاء على دولة المماليك

جاءت الضربة القاضية على المماليك من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر ميلادي وبدأت المنافسة بين الجانبين بسبب أطماع السلطان سليم العثماني والتوسع في البلاد العربية واتخذ مساعدة قانصوه الغوري للشاه اسماعيل الصفوي ملك الفرس وايوائه العصاة والفارين من وجه السلطان سليم ذريعة للحرب وجرت المعركة الحاسمة في مرج دابق بالقرب من حلب سنة ٩٢٢ ﻫ (١٥١٦م) انتصر فيها العثمانيون على المماليك وقتل فيها قانصوه الغوري ودخل السلطان سليم العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به اهلها وما لبثت سورية بأسرها أن انتقلت اليه . ثم زحف هذا الفاتح جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ وقضى على آخر سلاطين المماليك البرجية طومان باي وخضعت مصر والشام والحجاز للدولة العثمانية .

القسم الأخير

الاندلس

الفردوس المفقود



معمور بلاد الاندلس زمن الحكم الاول

الباب العاشر

الأندلس

يعتبر تاريخ الاندلس من أهم أدوار الحياة العربية وأبجدها فقد نحت الحياة العربية نحواً خاصاً في الغرب بما يتلاءم وطبيعة تلك البلاد، والعناصر المختلفة التي نسجتها من عرب، وبربر، ومولدين.. كما كانت تلك الحياة في كثير من نواحيها صدى لما كان يجري في الشرق في الحياة السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية، والفنية. وقد مر تاريخ الحياة العربية في تلك البلاد بمراحل مختلفة نذكرها بما يمكن من الاختصار.

الفصل الاول

الاندلس قبل الفتح العربي

كان يسكن اسبانيا من أقدم الأزمان اقوام من الجنس الايبري Iberians والسلتي Eelts. ثم جاء الفاتحون واولهم الفنيقيون في القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وفتح الرومان اسبانيا ونشروا فيها لغتهم وثقافتهم وحضارتهم. وظلت اسبانيا بيد الرومان من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد. وبدأت عوامل الانحطاط عند الرومان في اسبانيا بسبب: (١) انحطاط اخلاقهم (٢) وحصر الثروة والملك بطبقة الأشراف (٣) واثقال كاهل الطبقة المتوسطة بالضرائب (٤) ولعبوديه القسم الأكبر من السكان من الفلاحين الاقنان. وعندما اجتاح البرابرة الجرمن الأمبراطورية الرومانية الغربية أصاب اسبانيا نصيب من هؤلاء فهاجمتها قبائل الفاندال والسويف التي عاثت في البلاد فساداً وخربتها ولم تترك فيها من الأثر غير اسمها ـ فاندالس ـ الذي اشتقت منه كلمة الاندلس التي اطلقت على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبريا ثم شمل البلاد بكاملها. وحل محلهم قبائل قوط الغرب الذين حكمو البلاد منذ منتصف القرن الخامس ميلادي حتى اوائل القرن الثامن ميلادي وتأثروا بالحضارة الرومانية، واصبحوا الطبقة الحاكمة في البلاد فكانوا هم ورجال الدين مقتسمين المملكة فيما بينهم. تاركين امر الزراعة والصناعة لطائفة الفلاحين او العبيد الذين لم يكن

لهم ثمة أمل في استنشاق نسيم الحرية ، ويعيشون في ذل وضعة لا يملكون عقاراً ولا منقولاً ولا يستطيعون الزواج الا باذن اسيادهم .

وكان يهود اسبانيا يعانون ابلغ صنوف العذاب من جور الاشراف ورجال الدين. وقد حاولوا الثورة قبل الفتح العربي بزمن قصير فأخفقوا ، وفرقت جموعهم ونهبت دورهم ، واجبروا على اعتناق النصرانية ، واخذت الكنيسة اولادهم لتربيتهم على النصرانية ، واجبر اليهود على الزواج بالنصرانيات ليضيعوا قوميتهم، لذلك سهل اليهود فتح البلاد للعرب عند قدومهم ، وكان الجو ملائما لدخول العرب الى اسبانيا .

فتح الاندلس

٩٢ هـ او ٧١١ م

سبب الفتح :

بعد وفاة ملك القوط وتيزا Wittsa (ويسميه العرب غيطشه) اغتصب الملك رودريك (ويسميه العرب لذريق) وساعده في ذلك الاشراف الذين يريدون ان يكون العرش انتخابيا فالتجأ ابناء غيطشه إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة . وكان يوليان حاكم مدينة سبتة في افريقية ناقماً على لذريق بسبب شخصي (١) فاشترك في المؤامرة ضد لذريق وكاتب موسى بن نصير والي افريقية لغزو اسبانيا ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها فاستأذن موسى الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك بالفتح واطلعه على ما جرى من مخابرات بينه وبين يوليان ، فاشار عليه ان لا يتسرع ، وان يختبر البلاد قبل الاقدام على فتحها ، فجهز موسى ٤٠٠ رجل ومئة فارس في اربع سفن ، وولى عليهم طريف بن مالك فنزلوا سنة ٩٠ هـ (٧١٠ م) في مكان جنوب اسبانيا دعي طريف باسم هذا القائد . واغاروا على بقعة سموها الجزيرة الخضراء واصابوا غنائم كثيرة وعادوا سالمين .

---

(١) اتفقت اكثر المصادر العربية واللاتينية على أن جوليان كان ناقما على لذريق بسبب القصة التالية : يقال انه كان للكونت يوليان ابنة رائعة الجمال ارسلها الى بلاط الملك في طليطلة ، كما هي عادة الامراء ، لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كريمات العقائل واشراف الفرسان فاستولى جمالها الفتان قلب رودريك وقاومته الفتاة في بلاط يموج بالفساد ، فاخبرت الفتاة اباها فاستقدمها اليه ، واقسم بان ينتقم لشرفه واشترك لادخال العرب لاسبانيا .

حوادث فتح الاندلس :

تشجع موسى بن نصير بعد أن رأى نجاح الحملة الأولى وجهز سبعة الاف مقاتل من العرب والبربر وولى عليهم طارق بن زياد الليثي والي ميناء طنجة ، واحد قواد البربر الذين اظهروا شجاعة فائقة في حروب افريقية . وكان طارق جنديا جريئاً وقائداً مجرباً ، عبر البحر من المضيق الذي عرف باسمه (جبل طارق) في شعبان سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) واستولى على ولاية الجزيرة وهزم شراذم القوط التي تصدت لايقافه . وكان لذريق إذ ذاك مشتغلاً بالحروب في المقاطعات الشمالية التي اثارها عليه اولاد غيطشة . فلما سمع بخبر طارق أسرع الى الجنوب ، وجمع جيشاً كبيراً بلغ عدده نحو مائة الف مقاتل . فلما سمع طارق بهذا الجيش كتب الى موسى يطلب منه النجدة ، فامده بخمسة آلاف من جند المسلمين فصار مع طارق اثنا عشر الفاً ، حارب بهم جيش لذريق . وظلت الموقعة ثماني أيام انتهت بانتصار المسلمين . وكان من اسباب انتصارهم خروج ابناء غيطشه وحزبهم من جيش لذريق ، والتحاقهم بجيش المسلمين ، وشجاعة طارق بن زياد ذلك القائد الباسل الذي الهب حماسة جنده بخطابه الشهير « أيها الناس : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ... » وبعد أن مناهم بالغنائم والعيش الهنيء ووعد من يموت منهم بالجنة حمل على عدوه وحملوا معه حملة رجل واحد ومزقوا جيش القوط شر ممزق . واستسلمت المدن الواحدة تلو الأخرى حتى وصل طارق الى طليطلة حاضرة القوط . وكان في كل مدينة يفتحها يضم اليهود الذين فيها الى سرية من المسلمين لحفظها . ولم يك ثمة ما يدعوا الاسبان الى النفور من الفتح الاسلامي ، فقد ابدى المسلمون كما فعلوا في جميع البلاد التي افتتحوها اعتدالاً في معاملتهم واحتراماً لعقائدهم فسمحوا لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وحكامهم وقضاتهم ، وفرضوا الضرائب عليهم بالمساواة والعدل .. وأكمل طارق الفتح الى الشمال حتى أشرف على خليج غاسقونيا ، ووصلته أوامر موسى ابن نصير بالعودة الى طليطلة .

حسد موسى قائده على هذا الانتصار الباهر واراد ان يقرن فتح الاندلس باسمه . فكتب الى طارق ينذره أن لا يتقدم حتى يلحق به ، وان لا يغرر بالمسلمين في تلك الاصقاع النائية ، وعبر البحر في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر نزل بهم ولاية الجزيرة ، واتبع طريقاً غير الذي سلكها طارق ، وتم الفتح الحقيقي على يده . واستقبله طارق بالقرب من طليطلة فأنبه موسى وضربه بسوطه ، وزجه في اعماق السجن بتهمة الخروج والعصيان ، وكانت هذه المعاملة السيئة من عوامل الخلاف الذي قام بين العرب والبربر فيما بعد في الاندلس . لان البربر كانو يعتبرون فتح البلاد تم على

يدهم ومساعدتهم وأنهم أحق بتلك البلاد وبغنائمها من العرب .

وبعد ان نظم موسى البلاد ، وضرب نقوداً عربية ، اكمل مع طارق ـ بعد ان عفا عنه ـ فتح المناطق الشمالية . وكان يفكر في غزو اوربا والوصول الى الشام من طريق القسطنطينية . الا ان استدعاء الوليد بن عبد الملك له ولطارق افسد عليه خطته ، فنظم البلاد وجعل حاضرتها اشبيلية ، وعهد ادارتها الى ابنه عبد العزيز وذهب الى المشرق سنة ٩٥ هـ يصحبه طارق وضباط الجيش واربعمئة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى اوساطهم مناطق ذهبية ، يتبعهم عدد غفير من الغلمان والسبي حاملين مقادير عظيمة من الكنوز والغنائم ، وساروا عبر افريقية الشمالية حتى وصلوا الى العاصمة الشامية . وقد ذكرنا سابقا ما حل بموسى وطارق .

الفصل الثاني

الولايات المضطربة (١)

٩٥ – ١٣٨ هـ او ٧١٤ – ٧٥٦ م

حكم الاندلس اثنان وعشرون والياً بعد موسى بن نصير أولهم : عبد العزيز بن موسى بن نصير

(١) لائحة باسماء وسني حكم الولاة في الاندلس

اسم الوالي	سنة حكمه هجرية	اسم الوالي	سنة حكمه هجرية
١ ـ عبد العزيز بن موسى بن نصير	٩٥	١٢ ـ محمد بن عبد الملك الاشجعي	١١٢
٢ ـ أيوب بن حبيب اللخمي	٩٧	١٣ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (٢)	١١٢
٣ ـ الحرُّ بن عبد الرحمن الثقفي	٩٨	١٤ ـ عبد الملك بن قطن (١)	١١٤
٤ ـ السمح بن مالك الخولاني	١٠٠	١٥ ـ عقبة بن الحجاج السلولي	١١٦
٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (١)	١٠٢	١٦ ـ عبد الملك بن قطن (٢)	١٢٢
٦ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي	١٠٥	١٧ ـ بلج بن بشر القشيري	١٢٣
٧ ـ عذرة بن عبد الله الفهري	١٠٧	١٨ ـ ثعلبة بن سلامة العاملي	١٢٤
٨ ـ يحيى بن سلمة الكلبي	١٠٧	١٩ ـ حسام بن ضرار الكلبي (ابو الخطار)	١٢٥
٩ ـ حذيفة بن الاحوص القيسي	١١٠	٢٠ ـ ثوابة بن سلامة الجذامي	١٢٨
١٠ ـ عثمان بن ابي نسعة الخثعمي	١١٠	٢١ ـ يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب	١٣٠
١١ ـ الهيثم بن عبيد الكناني	١١١	٢٢ ـ عبد الرحمن بن معاوية	١٣٨

الذي أبدى همة ونشاطاً في ادارة الحكومة ، واصلاح امورها ، وتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس . الا انه قتل في شوارع اشبيلية باغراء من الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٥ ﻫ خوفاً من أن يثور عليه بعد ما انزله بأبيه من النكبات . وقامت الفوضى عقب وفاته في انحاء البلاد نحو اربعين سنة وكان سبب الفوضى يرجع الى مايلي :

١ — الاختلاف في تعيين الامراء : كانت الاندلس تابعة للخلافة الاموية في الشام ، ونظراً لبعد المسافه بين القطرين ، لم يكن هناك انتظام في تعيين الولاة ، فتارة كان الولاة يعينون من قبل الخليفة في دمشق ، واخرى يعينون من قبل عامله على القيروان ، وحينا يعينه أهل الاندلس ، وحيناً آخر تبقى البلاد مدة بدون أمير مما سبب الاضطراب في الادارة .

٢ — انقسام العرب في الاندلس الى قيسيين ويمانيين : حمل العرب معهم الى الاندلس عصبيتهم القبلية ، وقام النزاع بين قيس ويمن على السيادة والحكم ، وساعد على ذلك ماكان قائما في الشام في زمن سليمان بن عبد الملك من تقريب اليمنيين والتنكيل بالقيسيين ، فكانت هذه الخصومات في الاندلس صدى لما كان يحدث في الشام .

٣ — التنافس بين العرب والبربر : ان هذا التنافس بدأ منذ زمن موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وزاد في سوء الحالة ان العرب عندما قسموا الأندلس بعد الفتح خصّوا انفسهم بالسهول الخصبة ، والرياض الغناء ، وأقطعوا البربر المناطق الجرداء والجبال حيث كانوا دئماً عرضة لهجمات الاسبان ، فأثار هذا حفيظة البربر .

٤ — النزاع بين العرب والقوط : ظلت فئة من القوط غير راضية عن حكم العرب ، كانت تسكن في المناطق الشمالية في جبال استوريش الحصينة ، وكانت تعمل على توسيع نفوذها لاخراج العرب من الاندلس ، وكثر عددهم فيما بعد مما توافد اليهم من الافرنج وشكلوا مملكة قشتالة ، وجرت بينهم وبين ولاة الاندلس وقائع كثيرة ، كما جرت بين العرب والفرنج حروب كثيرة ، فيما وراء جبال البرانس (البيرنه) وصل العرب فيها الى تومر على نهر الوار في سنة ١١٤ ﻫ (٧٣٢م) حيث جرت معركة بواتيه التي هزم فيها العرب وقتل فيها قائد الجيش العربي عبد الرحمن الغافقي .

الفصل الثالث

دولة بني امية في الاندلس (١)

١٣٨–٣١٦ ﻫ او ٧٥٦–٩٢٩ م

عندما سقطت دولة بني امية في الشرق على ايدي العباسيين أسس عبد الرحمن الداخل دولة اموية في الاندلس ، كانت في بادىء الامر امارة مستقلة عن العباسيين واصبحت في سنة ٣١٧ ﻫ في زمن عبد الرحمن الثالث خلافة اموية تنافس الخلافة العباسية لقب الخلافة والحضارة وسأتكلم اولاً عن الامارة الاموية ثم عن الخلافة الاموية في الاندلس .

---

(١) لائحة باسماء وسني حكم الامراء الامويين في قرطبة

١ – عبد الرحمن الاول ١٣٨ ﻫ
|
٢ – هشام ١٧٢ ﻫ
|
٣ – الحكم ١٨٠ ﻫ
|
٤ – عبد الرحمن الثاني ٢٠٦ ﻫ
|
٥ – محمد ٢٣٨ ﻫ
|
٦ – المنذر ٢٧٣ ﻫ
٧ – عبد الله ٢٧٥ ﻫ
|
محمد
|
٨ – عبد الرحمن الثالث
٣٠٠ – ٣١٦ ﻫ

عبد الرحمن الداخل

١٣٨-١٧٢ ه او ٧٥٦-٧٨٨ م

نشأته الاولى

ولد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١١٣ ه وتوفي ابوه سنة ١١٨ ه فكفله وأخوته جده هشام ، وعاش معه في الرصافة في قصر فخم على الفرات ، وكانت امه « راح » من قبيلة زناته احدى قبائل البربر المشهوره في شمالي افريقية ، وكان عبد الرحمن يفكر في هذا القطر ، وفي زيارة اخواله . ولما حلت النكبة في اسرته على اثر قيام العباسيين وملاحقتهم لبني امية وتقتيلهم ، نجا من القتل كما يروي هو عن نفسه قال : « إني لجالس يوماً في ظلمة بيت تواريت فيه ، وأنا شديد الرمد ، ومعي خرقة سوداء أمسح بها قذى عيني ، وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي وهو يومئذ ابن اربع سنين اونحوها ، اذ دخل الصبي من باب البيت فزعاً باكياً ، فأهوى الى حجري فجعلت ادفعه لما كان بي ، ويأبى الا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لانظر فاذا بالروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا بالرايات السود عليها منحطة ، وأخ لي حديث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي النجيء يا أخي فهذه رايات المسودة فضربت بيدي على دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي اخي معي . وأعلمت اخواتي بمتوجهي ومقصدي ، وأمرتهن ان يلحقني ومولاي بدر معهن ان سلمت ، وخرجت فكنت في موضع ناء عن القرية ، فما كان الاساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ولم تجد اثراً ، ومضيت ولحقني بدر ، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات فأمرته ان يبتاع لي دواب ، وما يصلح لسفري فدل على عبد سوء له العامل . فما راعنا الا جلبة الخيل تحفزنا فخرجنا وقد احاطت بالاجمة ، فتبادرنا وسبقناها الى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط ارجعا لا بأس عليكما !! فسبحت حائماً لنفسي ، وكنت احسن السبح . وسبح الغلام أخي ، فلما سرنا ساعة سبقته بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات ، وقصر أخي ودهش ، فالتفت اليه لاقوي من قلبه وأصيح عليه ليلحقني فاذا هو لما سمع تأمينهم اياه اصغى اليهم وهم يخدعونه عن نفسه ، وخاف الغرق ، فهرب من الغرق الى الموت فناديته تقتل يا أخي الي الي . فلم يسمعني واغتر بامانهم وخشي الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم ، وقطعت أنا الفرات وبعضهم قد هم بالسباحة في أثري فاستكفه أصحابه عن ذلك فتركوني ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالامان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر اليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه ثكلاً ملأني مخافة ومضيت الى وجهي احسب أني طائر وأنا ساع على قدمي فلجأت الى غيضة اشبة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب ، ثم خرجت هارباً أؤم المغرب حتى وصلت الى افريقية .

هرب عبد الرحمن الى افريقية :

هام عبد الرحمن وعلى وجهه متنكراً وسار مترجلاً جنوباً الى ان وصل فلسطين بعد صعوبات جمة ، وهناك لحق به بدر مولاه الوفي ، فتوجه كلاهما غرباً حتى وصلا شمالي افريقية ، والح عاملها عبد الرحمن بن حبيب في طلبه ، فهرب منه غرباً معدماً يتنقل مع بدر من قبيلة الى اخرى، والعباسيون يجدون في طلبه الى ان وصل الى سبته بعد خمسة أعوام الى عند أخواله الذين يقيمون في تلك النواحي، فلجأ اليهم فأحسنوا وفادته .

كان عبد الرحمن قد جعل افريقية مطمح آماله ، ولكن بعد ان تجول فيها بضع سنين رأى ان الاستيلاء عليها امر مستحيل ، فحول أنظاره الى الاندلس، وأرسل اليها بدراً مولاه ليسبر غور القبائل، وليجمع كلمة أنصار بني امية فيها ووافق قدومه ما كان بين اليمنية والمضرية من النزاع على الحكم فانحازت اليه اليمنية وقبائل الشام . وعاد بدر بسفينة فيها احدى عشر رجلاً من اليمنيين دعو لامارة الاندلس فركب السفينة ووصل الى الاندلس في ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) فانضم اليه أهالي اشبيلية وعامل رية وصاحب شدونه وذهب الى قرطبة ليؤسس ملكه فيها .

توطيد عبد الرحمن الداخل ملكه في الاندلس

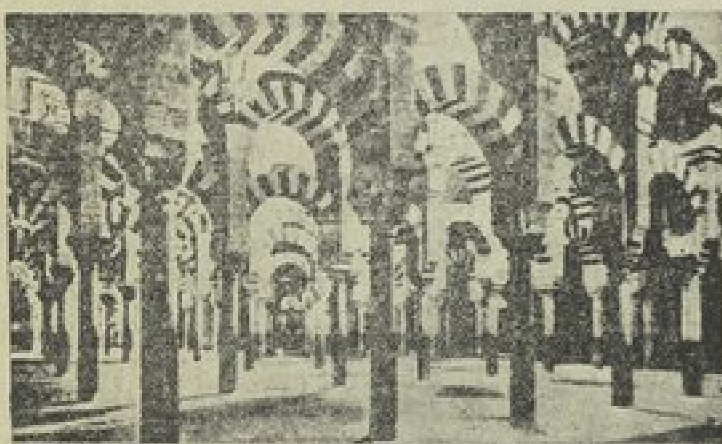
كان والي الاندلس عند دخول عبد الرحمن تلك البلاد يوسف بن الرحمن الفهري وكان الصميل بن حاتم مساعده ووزيره مستبداً في الامور ، وأساء معاملة اليمنيين انتقاماً لقومه القيسيين ، فانضم اليمانيون لعبد الرحمن . وكان يوسف الفهري في حرب مع ثوار أهل الشمال عند قدوم عبد الرحمن . فلما سمع بالخبر عاد الى الجنوب ، وجرت المفاوضات بين الطرفين كانت نتيجتها الحرب في مكان يعرف بالمصرة على ضفاف الوادى الكبير في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) فانتصر عبد الرحمن على خصمه ودخل قرطبة ظافراً وقضى زمن حكمه وهو يحارب اعداؤه في الداخل والخارج وقضى على الثورات التي قامت عليه وهي ثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري في طليطلة (٢) ثورة هشام بن عبد ربه الفهري في ضواحي طليطلة (٣) حركة العلاء بن مغيث والي القيروان الذي أرسله المنصور العباسي لاسترجاع الاندلس (٤) ثورات اليمانيين والبربر قضى عليها جميعها . والتفت الى الحروب الخارجية .

وفي زمن عبد الرحمن جاء شارلمان كما مر معنا الى الاندلس وانسحب قبل ان يلتقي بجيوش امير قرطبة .

اصلاحات عبد الرحمن الداخل

شيد عبد الرحمن الداخل ملك بني امية في المغرب بعد ان تغلب على اعدائه ومنافسيه على الحكم وقضى اكثر ايامه في اخضاع الثورات والفتن ، فلم يتح له الوقت الكافي للقيام باعمال اصلاحية واسعة فقد نظم الجيش وجعله دائماً ، وحاول قتل العصبية القبلية المنتشرة بين افراده وبني سور قرطبة ، وحمل اليها الماء العذب بواسطة قناة . وأنشأ بلدة الرصافة بظاهر قرطبة ، وأحاطها بالجنان ، وزرع فيها المشمش والرمان والنخيل ليتذكر رصافة جده هشام في بلاد الشام . وقد ثارت الذكريات يوماً في نفسه عندما رأى نخلة منفردة فأنشد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عند بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بني وعن أهلي



مسجد قرطبة في الاندلس

وأسس عبد الرحمن في سنة ٧٨٦م جامع قرطبة العظيم الذي « ليس في بلاد الاسلام اعظم منه» فهو جوهرة في الفردوس المفقود لايزال قائماً بأعمدته الرخامية المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة. ولم يتمكن عبد الرحمن من اتمامه فاكمله ابنه هشام من بعده، وتوالى امراء بني امية وخلفاؤها على الزيادة فيه حتى صار مضرب المثل بالجمال والفخامة ، وقطع عبد الرحمن الداخل الخطبة للخليفة العباسي المنصور . الا أنه لم يتخذ لقب الخلافة .

هشام

١٧٢ - ١٨٠ هـ أو ٧٨٨ - ٧٩٦ م

صفاته :

خلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه ، وكان حازماً ذا رأي وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصلاح شديداً على الاعداء راغباً في الجهاد ، بلغ من تواضعه انه كان يطوف في شوارع قرطبة مختلطاً بالرعية ، يسمع المظالم بنفسه ، ويعود المرضى ويشهد الجنائز . وكان يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز . فكان يبعث بقوم من ثقاته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله وحقائقها فاذا أنهي اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه .

اعمال هشام الداخلية والخارجية

ثار على هشـــام اخواه سليمان وعبد الله في طليطلة ، فقمع ثورتهما وطلبا العبور الى افريقية فاجازهما واعطاهما مالاً صلحاً على تركة أبيهما . وقامت عليه ثورات أخرى قمعها بشدة .

ووقد حاول الفرنج في الشمال العصيان على هشام ، واضرام نار الثورة ، فجهز جيشين سار أحدهما الى فرنسا واستولى على نربونة ، وجيرونده وعدة معاقل اخرى . وهزم جيشاً أرسله شارلمان بقيادة الكونت دي تولوز سنة ٧٩٢ م . وسار الجيش الآخر الى جليقية لمحاربة ثوارها الذين تجمعوا تحت لواء زعيمهم برمودة . وساعدهم حلفاؤهم أهل البشكنس . فهزمهم جيش هشام وشتت جموعهم . وساد الامن في المقاطعات الشمالية حيناً من الزمن .

اعمال هشام الاصلاحية

أتم هشام بناء مسجد قرطبة وبنى عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بالمباني الغراء وجدد قنطرتها التي بناها السمح ، ونشر المذهب المالكي ، وحمل الناس على اعتناقه ، وأصبح بعد ذلك مذهب أهل الاندلس . وكان للفقهاء نفوذ في عهده وكلمة مسموعة فكثر تدخلهم في مصالح الناس وظلوا كذلك حتى وفاته .

الحكم

١٨٠ - ٢٠٦ هـ او ٧٩٦ - ٨٢٢ م

تولى الحكم بعد وفاة ابيه هشام بعهد منه ولقب بالمنتصر وقد استكثر من المماليك والجنود

المرتزقة والخدم والحواشي ، وجمع كثير من الاسلحة والعدة والخيول ، وكان ميالا الى اللهو مولعاً بالصيد يؤثر مجالس الشعراء والمغنين على مجالس الفقهاء الذين اشتد نفوذهم في عهد ابيه . وكانت سياسة الحكم ترمي الى ابعادهم عن التدخل في سياسة الدولة ،وقصر نفوذهم على اقامة الدين فقاوموه وأخذوا يندددون به على المنابر ، وحرضوا عليه المولدين (مسلموا الاسبان) المتعصبين لدينهم الجديد ، والناقمين على العرب لكبريائهم وانفتهم ، وناقمين على الحكام لاقصائهم عن مناصب الدولة ،

اعمال الحكم الداخلية والخارجية

قامت ثورات في قرطبة على الحكم بدافع من الفقهاء حاول الثائرون بها مرة اغتيال الحكم ، فاكتشف المؤامرة وقضى عليها وقبض على ٧٢ من زعماء الحركة وصلبهم في قرطبة . وثار عليه أهل ماردة فقمع ثورتهم ، وخرج عليه اهل طليطلة ، وكانت هذه المدينة عاصمة الاسبان ، وكان أهلها يذكرون بمجدهم الماضي فيثورون من وقت الى آخر ، فولى عليها عمروس بن يوسف من المولدين ، وكتب الى أهلها يقول « إني اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه ، وعافيتكم ممن تكرهون من عمالنا وموالينا ، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم ، فمضى عمروس اليهم فأنس به أهلها وتظاهر أمامهم بالبغض لبني أمية والموافقة على طاعتهم ثم بنى بظاهر المدينة قلعة حصينة دعا اليها وجهاء المدينة بمناسبة عودة عبد الرحمن بن الحكم من حرب الفرنج ، فكان كلما دخل واحد منهم الى القلعة وتوسطها يضرب عنقه ويلقى في حفرة حتى قضى على جميع زعماء المعارضة وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة الحفرة نحو خمسة آلاف من أشراف طليطلة : وبعد هذه الواقعة قضي على روح المقاومة في تلك المدينة مدة من الزمن .

وثار المولدون في قرطبة بتحريض من زعيم الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي وخلعوا الحكم وبايعوا أحد أقاربه من الامويين الا أن الحكم قضى على ثورتهم بواسطة مماليكه الملقبين « بالخرس » لأنهم لا يتكلمون العربية وشتت شملهم .

وأعظم ثورات المولدين هي قيامهم سنة ١٩٨ هـ في الربض وهي (ضاحية في جنوب قرطبة يسكنها المولدون) وهاجموا قصر الحكم وحاصروه ، الا أنه تمكن بواسطة جنوده الخرس أن يقضي على ثورتهم ويحرق منازلهم ويجليهم عن البلاد فرحل قسم منهم الى فاس والقسم الآخر الى الاسكندرية واستولوا عليها الا ان عبد الله بن طاهر قائد المأمون أخرجهم منها فنزحوا الى أقريطش (جزيرة كريد) وظلوا يحكمونها حتى استعادها اليونان منهم .

بينما كانت رحى الحرب الاهلية تعصف بالولايات الاسلامية ثار عبد الله وسليمان عما الحكم وسعى عبد الله في مقابلة شارلمان في ايكسلا شابيل ليساعده في القضاء على الحكم ، فلبى شارلمان الدعوة وارسل ابنيه شارل ولويس على الولايات الشمالية واوقعا الخراب فيها ، الا ان الحكم تمكن من اجلاء الفرنج عن بلاده وقتل عمه سليمان وعفا عن عبد الله . وفي سنة ٨١٦ م عقد الحكم الصلح مع لويس ابن شارلمان الذي خلف اباه على عرش فرنسا فلم يدم الصلح طويلا .

وقد وطد الحكم الملك لعقبه بالاندلس ، وكان يشبه المنصور في شدة الملك وتوطيد الدولة وقمع الاعداء .

عبد الرحمن الثاني

٢٠٦ - ٢٣٨ هـ او ٨٢٢ - ٨٥٢ م

بعد وفاة الحكم تولى الامارة عبد الرحمن الاوسط ، وكان المتنفذ في زمنه أربعة أشخاص : فقيه ، ومغني وجارية ، وخصي .

أما الفقيه فهو يحيى بن يحيى الليثي المصمودي : زعيم الفقهاء الذي نال عفو الحكم من قبل واستعاد نفوذه في زمن عبد الرحمن الثاني . فسلمه مقاليد الحكم واصبح صاحب الكلمة العليا في البلاد ، احترمه الملك واطاعه الفقهاء ، وخافه الاغنياء ، وعظمه العوام ، وهابه الشعراء ومدحوه فسيطر هو وشيعته .

أما المغني فهو زرياب : تلميذ اسحاق الموصلي تعلم منه ثم نافس استاذه في بلاط هارون الرشيد فهدده اسحاق واضطره ان يغادر بغداد ويذهب الى المغرب وارتفع مقامه في بلاط عبد الرحمن حتى صار راتبه الشهري مئتي دينار عدا ما وهبه من الاراضي والقصور ، وقدمه على جميع المغنيين ، وكان زرياب عالماً بالنجوم ، وتقويم البلدان ، وقيل انه كان حافظاً لعشرة آلاف مقطوعة من الاغاني بالحانها . جمع الى ذلك لطف المعاشرة وطيب المحادثة ، فكان الامير عبد الرحمن يذاكره في احوال الملوك وسيرة الخلفاء ونوادر العلماء .

أدخل زرياب الى الاندلس ازياء جديدة لثياب النساء والرجال تتلاءم مع فصول السنة واخترع بعض الوان من الأطعمة والطهي فأوجد بقلة الهليون والتقلية ، وفضّل آنية البلور على آنية الذهب والفضة على المائدة . واستخدم ريش النسور للضرب على العود عوضاً عن قطع الخشب المستعملة قبل ذلك . واصبح زرياب مطرب الملوك ومهذب شعور اهل الاندلس ، وموحد روحيتهم بأغانيه التي كانوا يترنمون بها رجالاً ونساءً وصبياناً .

اما الجارية فهي سلطانة طروب التي كان لها على عبد الرحمن تأثير كبير واشتركت مع الخادم نصر في تدبير المؤامرات والدسائس في داخل القصر وخارجه وبلغ بلاط عبد الرحمن الأوسط من الأبهة والفخامة ما نافس به خلفاء بغداد ، فجعله زاخراً بحاشية كبيرة وترف عظيم ، وقرب الشعراء واجزل لهم العطاء . وزين عاصمته قرطبة فبنى فيها الجسور والقصور وشيد المساجد وجلب المياه من الجبال .

وفي زمن عبد الرحمن الأوسط جرت ثورات داخلية كثيرة . وغزا المجوس (النورمان) شواطئ الأندلس فردم الاسطول الأندلسي . وجاء وفد من القسطنطينية ومعه من هدايا ، وبلغ عبدالرحمن محالفة امبراطور البيزنطي له ضد الخليفة المأمون العباسي . وفي نهاية حكم عبد الرحمن اشتد تعصب نصارى قرطبة وأصبحوا في قلل الجبال لصوصاً سفاكين وفي العاصمة شهداء قديسين . وجاهروا بالاجتراء على مقام النبي (ص) ودينه ودخلوا الجوامع في أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بالشتائم المنكرة فحوكموا واعدموا . وعقد مجمع كنسي من القسس قرروا منع المجاهرة بسب النبي ، وقرروا اتخاذ اجراءآت شديدة ضد المتعصبين .

وتوفي عبد الرحمن سنة ٢٣٨ ﻫ وتولى ثلاثة امراء من بعده وهم محمد والمنذر وعبد الله جرت في ايامهم ثورة عمر بن حفصون .

ثورة عمر بن حفصون

٢٦٧ - ٣٠٦ ﻫ

هو عمر بن حفص كان ابوه من كبار المزارعين النصارى في منطقة رندة في جنوبي الأندلس وكان ابنه عمر شريراً من صغره هرب الى افريقية وقضى بضع سنوات في مدينة تاهرت ، ثم عاد الى الاندلس واعلن عصيانه على الأمير محمد الأموي واتخذ حصن بوبشتر معقلاً له . وامتد نفوذه على المقاطعات الجبلية في الجنوب ، فأرسل له الأمير محمد حملة بقيادة وزيره فصالحه وقدم ابن حفصون لقرطبة ، واشترك مع الأمير محمد في بضع غزوات ، وما لبث ان هرب الى بوبشتر وعاد الى العصيان ونشر نداء عاماً الى الاسبان قال فيه : « مضى عليكم زمن طويل وملك قرطبة يسحقكم بالضرائب فهل تبقون طول الدهر مستعبدين للعرب ، الذين ينظرون اليكم نظرهم للعبيد ؟ لا تظنوا أني مخاطبكم من أجل مطامعي الشخصية بل اعلموا أن امنيتي الوحيدة هي الانتقام ممن اساء اليكم وتخليصكم من العبودية » فجاء اليه جميع المستائين من الحكم الأموي والتفوا حوله ، وعظمت قوته ، فأرسل الأمير محمد ابنه المنذر لقتاله ، فحاصر بعض قلاعه ، الا أن موت ابيه اضطره الى الانسحاب ليأخذ

الامارة لنفسه . فاغتنم ابن حفصون الفرصة وقوى مراكز دفاعه في المناطق الجبلية الجنوبية ، وعاد المنذر لحربه ، وشدد الحصار عليه وفتح اكثر قلاعه وحصونه فطالب ابن حفصون الصلح فأجابه المنذر اليه ، ولكنه عاد للثورة فرجع المنذر لحربه ، وما زال يحاربه ويصالحه حتى دس عبد الله السم لاخيه المنذر وأخذ الامارة منه وأفرج عن ابن حفصون .

وفي زمن عبد الله توسع نفوذ ابن حفصون حتى استولى على كثير من البلاد واصبح على مسيرة يوم واحد من قرطبة عاصمة الامارة الاموية . وكاتب الاغالبة في افريقية يطلب مساعدتهم وأظهر الدعوة العباسية ، الا أن الاغالبة كانوا مشغولين عنه في اخضاع الثورات في افريقية .

فجاء اليه الامير عبد الله وحاربه واستولى على بعض حصونه فتنصر ابن حفصون واتخذ اسم ساموبل ليقوى جانبه بانضمام نصارى الشمال الاسبان اليه . الا أنه خسر مساعدة ، المسلمين الاسبان والبربر ، ولم يتمكن نصارى الاسبان من مساعدته فكاتب الفاطميين واظهر الدعوة الفاطمية في الاندلس . وتوفي عبد الله قبل ان يتمكن من القضاء على ابن حفصون بالرغم من الجهود العظيمة التي بذلها للقضاء عليه .

وتولى عبد الرحمن الثالث الامارة الاموية وكانت خاتمة ابن حفصون على يده سنة ٣٠٦ هـ

وفي زمن الامير عبد الله قام جماعة من شجعان العرب بحملة موفقة تغلغلت في اوربا ، ومرت بجنوب فرنسا واحتل رجالها مرسليا ونيس ، وعبروا الى ايطاليا . وذهب فريق منهم الى سويسرة وحلوا بجوار بحيرة كونستانس وانشأوا مستعمرة فيها .

الفصل الرابع

الخلافة الأموية في الأندلس

٣١٦ — ٤٢٢ ﻫ او ٩٢٩ — ١٠٣١ م

قامت الخلافة الاموية في الاندلس تنافس الخلافة العباسية في بغداد لقب الخلافة والسياسة والحضارة وحكم تسعة خلفاء اشتهر منهم عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم . وانتقلت السلطة بعد ذلك من الخلفاء الى الحجاب الذين اشتهر منهم أبو عامر، ولم تلبث الخلافة الاموية أن سقطت وقام على انقاضها ملوك الطوائف الذين اخرجهم الاسبان من البلاد بسبب تنازعهم وتفرقهم وسنتكلم عن ذلك بإيجاز.

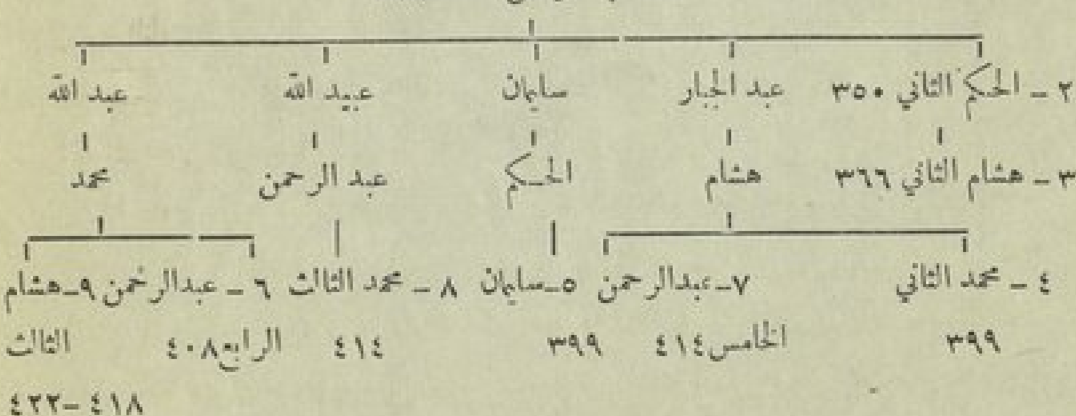
عبد الرحمن الناصر (١)

٣١٦ – ٣٥٠ ﻫ او ٩٢٩ – ٩٦١ م

تولى عبد الرحمن الثالث الامارة الأموية سنة ٣٠٠ ﻫ وظل يحكم البلاد متخذاً لقب الامارة حتى سنة ٣١٦ ﻫ . ولما بلغه أن الخليفة العباسي المقتدر بالله قتله مولاه مؤنس المظفر اتخذ سمة الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله ، فكان اول أمير من بني أمية بالاندلس اتخذ ذلك اللقب . وابتدأت الدعوة لبني أمية بألقاب الخلافة في الاندلس والمغرب الاقصى من بعد ذلك .

---

(١) لائحة باسماء وسني حكم الخلفاء الامويين في قرطبة



تولى الناصر عرش مملكة مزقها التفرق واستنفذت مواردها الثورة فتأهب لقمع الفتن وتوالت حملاته على الثوار فقضى على ثورة عمر بن حفصون ، وحارب نصارى الشمال ، وقضى على ملوك ليون ونافار ، وضم اكثر حصونهم الى مملكته ، وجاءت رسل امبراطور بيزنطة وسفراء ملوك ألمانيا وفرنسا وايطاليا والبابا تعترف بسلطانه ، ووفدت عليه طوطة أميرة نافار ، وعقدت معه الصلح وكافأها بأن أقر ولدها على مملكة نافار ، وبلغت دولة الأندلس ذروة المجد والعظمة في زمنه . فقد عني بأمر سلاح الجيش وتقويته ، الا أنه أخطأ باستخدام الصقالبة الذين زاد نفوذهم في عهده وكان هؤلاء الصقالبة في أول الأمر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الألمان وسواهم فباعوهم من العرب ، ثم اطلق هذا الاسم على جميع الأجانب الذين يخدمون في القصر ، وفي الجيش مهما كانت جنسيتهم . وكان بين الصقالبة الذين يخدمون في بلاط الخليفة الناصر : ألمان ، وفرنسيون ، وجليقيون ، ولمبارديون ، وروس . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالاً بواسطة اليهود الذين يبيعونهم من العرب فيربونهم تربية راقية ، ويعلمونهم القرآن واللغة العربية . وازداد عددهم كثيراً في زمن الناصر فأراد ان يرغم بهم أشراف العرب ورؤساء القبائل على الخضوع ، وولى أحدهم المسمى « نجدة الصقلبي » على جيش من العرب لمحاربة نصارى الشمال فترك العرب القتال في واقعة الخندق وانهزموا فكسر الجيش وقتل قائده .

واهتم عبد الرحمن بالاسطول كثيراً فاستعان به على محاربة الفاطميين الذين طمعوا بفتح الأندلس عند ما كانت دولتهم قائمة في افريقية قبل توجههم الى مصر ، وبعث المعز الفاطمي عماله على دقاية لغزو الساحل الأندلسي فغزا منطقة المرية ، وعاث فيها فساداً ونهب اموالها فرد الناصر عليه بأن أرسل أسطول الأندلس المؤلف من سبعين سفينة تحت قيادة مولاه غالب فغزا سواحل افريقية وعاد سالماً .

وفي عهد الناصر ازدهرت قرطبة عاصمة البلاد ، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة . وكان فيها سبعمائة مسجد وثلثمائة حمام عام . وكان قصر الخليفة « دار الروضة » من أعظم القصور جلب الناصر اليه الماء من اعلى الجبل وبنى حوله الحدائق والمنتزهات .

وفي سنة ٣٢٥ هـ بنى الناصر قصر الزهراء بجوار قرطبة بمال خلفته احدى جواريه التي اوصت أن ينفق لافتداء اسرى المسلمين من أيدي النصارى . ولما لم يجد عبد الرحمن منهم احداً بنى هذا القصر واعتنى بزخرفته وتزيينه ، وجعله مركز عمله واشتغل في بنائه عشرة آلاف صانع والف وخمسمائة دابة مدة عشرين سنة . ووسع خلفاء الناصر الزهراء وحسنوها حتى اضحت ضاحية كبيرة

وكان عهد الناصر عهد رخاء ويسر زهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والفنون وساد الأمن في اقاصي المملكة ورخصت كلفة العيش وامتلأت خزينة الدولة بالاموال مما كان يغنمه الجيش من الغنائم العظيمة ومن الواردات الاخرى حتى بلغ دخل الدولة السنوي نحو (٦،٢٤٥،٠٠٠) ديناراً .

توفي الناصر في شهر رمضان سنة ٣٥٠ ﻫ في السبعين من عمره بعد أن حكم نصف قرن ، وخلفه ابنه الحكم الملقب بالمستنصر بالله .

الحكم الثاني

٣٥٠ – ٣٦٦ ﻫ او ٩٦١ – ٩٧٦ م

كان الحكم الثاني مولعاً بالعلوم وجمع الكتب فتح معاهد العلم وأنشأ المكاتب العامة بقرطبة وغيرها من مدن الاندلس .

وكانت مكتبته في قرطبة تحتوي ٤٠٠ الف كتاب وعدد فهارسها ٤٤ فهرساً ، وفي كل فهرس عشرون ورقة ، جمع الحكم كتبها من جميع الاقطار لاسيما من بغداد ، والقاهرة ، ودمشق ، وبذل اموالاً طائلة في هذا السبيل حتى انه اشترى نسخة من كتاب الاغاني بألف دينار ، وانتشر هذا الكتاب في بلاد الاندلس قبل ان ينتشر في بلاد المشرق .

قرب الحكم الثاني العلماء والفلاسفة والباحثين ، فقصده رجال الفكر من المشرق ، ومنهم ابو علي القالي صاحب كتاب الاغاني وجعل الحكم للاندلس ثقافتها الخاصة بها بعد ان كانت تعتمد على ثقافة اهل المشرق ، ويقول دوزي أن الاندلسيين عموماً كانوا يعرفون القراءة والكتابة سوى القليل منهم ، بينما كانت اوربا أمية إذا استثنينا رجال الدين . وفتح الحكم في قرطبة ٢٧ مدرسة مجانية لتعليم اولاد الفقراء ، ودفع رواتب اساتذتها من جيبه الخاص فتوافد الطلاب من جميع الجهات لتلك المدارس . وقد ساعد الحكم في ادارة البلاد رجال قديرون ومنهم حاجبه (رئيس الوزارة) جعفر المصحفي ، ومحمد ابو عامر .

دولة بني عامر

٣٦٦ – ٣٩٩ ﻫ او ٩٧٦ – ١٠٠٩ م

الحاجب المنصور

هو محمد وكنيته ابو عامر ينتمي الى اسرة عربية من أهل يماني ، قدم أجداده مع طارق بن

زياد الى الاندلس ، وسكنوا في ضواحي الجزيرة الخضراء وتولى بعضهم القضاء في اشبيلية وقرطبة.

تعلم محمد بن أبي عامر في قرطبة ودرس اللغة على ابن القوطية والادب على ابي علي القالي ، ثم اتخذ دكاناً لكتابة العرائض بجوار قصر الخليفة الحكم الثاني فتعرف على خدم القصر وحاشيه، وكان للخليفة الحكم الثاني زوجة تدعى (صبح) وهي من بلاد البشكنس غنمها الحكم في حروبه الشمالية وتزوجها ، فطلبت صبح رجلاً يقوم بادارة أملاكها وأملاك ابنها، فوقع اختيارها على ابي عامر فأنست اليه واستحسنته وأحبته ، وما زالت تبذل له رعايتها وتقدمه لدى زوجها الحكم ولدى ابنها هشام بعد توليه الخلافة من بعد وفاة أبيه حتى أصبح ابو عامر والحاجب المصحفي والملكة صبح اوصياء على هشام لصغر سنه .

دكتاتورية الحاجب المنصور

تولى ابو عامر الوزارة وأخذ يعمل على التخلص من كبار رجال الدولة والاستئثار وحده بالحكم . وكان ينافسه السلطة رؤساء الجند من الصقالبة وأعظمهم جوهر ، وفائق وكان للصقالبة نفوذ واسع واملاك واموال واتباع من الشعب والجند التفوا حول المغيرة أخي الحكم ، وحاولوا توليته الخلافة وخلع هشام الذي كان يؤيده حزب ابي عامر والمصحفي . ونجح الحزب الاخير في قتل المغيرة والقضاء على نفوذ الصقالبة . فنفي فائق الى حزر الباليار وقبلت استقالة جوهر .

اراد ابو عامر التخلص من المصحفي فأشاع بين العامة ان المصحفي هو الذي أمر بقتل المغيرة فكرهه الشعب ، واستعان عليه بالقائد غالب المرابط في مدينة سالم في الشمال الشرقي من الاندلس ، وتزوج بابنته اسماء وكان عرسه اعظم عرس في الاندلس . ولما تحقق ابو عامر من قوته سار الى قصر المصحفي واتهمه بالخيانة وسوء الادارة وعزله وأمر بمصادرة أمواله وحبسه ، وتمكن بعدئذ من القضاء على القائد غالب عندما شعر بخطره وقوته وهكذا اصبح ابو عامر ديكتاتور البلاد وتم له الامر .

سياسة الحاجب المنصور واعماله

كثر حساد ابي عامر المكانة العليا التي بلغها في الاندلس فأثاروا عليه العامة ، وصاروا ينشرون اخباراً عن علاقته مع صبح ام الخليفة ، ودبروا مؤامرة على خلعه ، اكتشفها ابو عامر وقضى على رؤسائها .

واتهمه الفقهاء بالالحاد لميله الى الفلاسفة وكتبهم ، فاستدعى كبار الفقهاء إلى مكتبة الحكم ، وأمرهم بأن يخرجوا الكتب المتعلقة بالعلوم والفلسفة ، وأمر بحرقها امام العامة فأضاع بذلك ثروة عظيمة في سبيل ارضاء عامة الشعب ، وصار يتظاهر بالتقوى والصلاح .

كان الخليفة هشام يتقدم بالسن فخاف ابو عامر ان يسلب منه السلطة ، فبنى مدينة جديدة دعاها الزاهرة في شرقي قرطبة ، ونقل اليها دواوين الدولة ، وابقى الخليفة في الزهراء ، وأشغله بالنساء ، وأبعده عن الناس ، وحجر عليه ، وأحاطه بالعيون والحراس ، ولم يسمح له بالخروج فأدى ذلك الى فقدان نشاطه وضعف عقله واكتفائه بحالته .

خلا الجو لأبي عامر وعظم في اعين الناس وخطب له على المنابر ، وكانت له السلطة جميعها ما عدا لقب الخلافة الذي أبقاه لهشام . وقام بحروب موفقة في الشمال لقب على أثرها « بالمنصور » وكذلك ارسل حملة الى مراكش أخضعت ثورة الادارسة . وقد غزا المنصور (٥٢) غزوة لم يغلب في احداها ، وكان كلما انصرف من قتال العدو يأمر خادمه ان ينفض غبار ثيابه التي لبسها أثناء المعركة، وأن يجمعها ويحفظها ، وقبل ان تحضره المنية أوصى بما اجتمع من الغبار ان ينثر على كفنه حين وضعه في قبره .

كانت أيام ابي عامر أيام فخار وظفر ، ورخاء ، ورغد ، فازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وزهت العلوم والآداب ، وفاضت خزائن قرطبة بالأموال وعني ابو عامر بالبناء فشيد مدينة الزاهرة ووسع جامع قرطبة وانشأ قنطرة كبيرة على نهر الوادي الكبير انفق عليها (١٤٠٠) دينار وبنى قنطرة أخرى على نهر استجة . وتوفي ابو عامر سنة ١٠٠٢ واوصى بمنصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بالمظفر ، وظل يحكم البلاد حتى سنة ١٠٠٨ م كانت كلها اعياداً على أهل الاندلس . وتوفي بسم دسه له اخوه عبد الرحمن الذي حاول أخذ الخلافة بعد هشام ، فأجابه الخليفة بعد تردد وكتب له العهد من بعده ، الا انه نتيجة ذلك كانت سيئة عليه وعلى غيره من العامريين . فقد ثار عليه أهل قرطبة وسكان بقية الاقاليم ، وقاد المعارضة الامراء الامويون الذين اغتنموا فرصة غيابه في غزوته لبلاد ليون فاستولوا على قصره واضطروه على الاعتزال ، وقبض عليه أهل قرطبة وأعدموه سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) واضمحلت بموته الدولة العامرية .

نهاية الخلافة الاموية في الاندلس

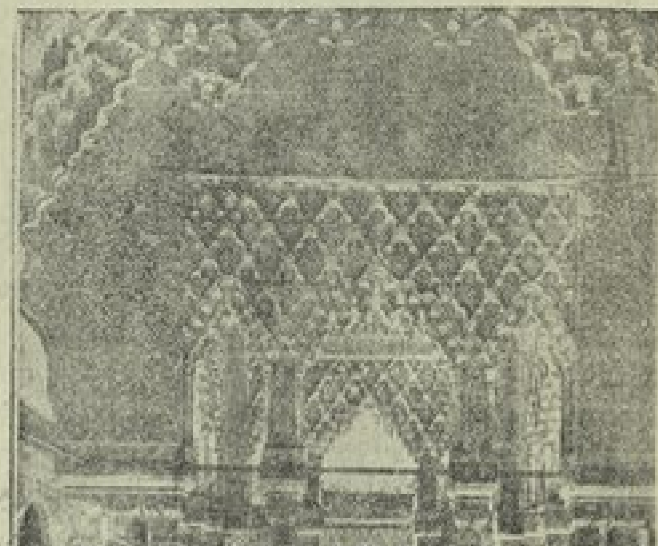
خلف هشام خلفاء ضعاف لم يحسنوا ادارة البلاد فاضطربت الاحوال وكثرت المنازعات بين العرب والبربر والصقالبة ، وهاجم الاسبان البلاد وزادوا في اضطرابها ، وفي زمن هشام الثالث سقطت الخلافة الاموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) وانقسمت البلاد بين امراء الطوائف لذلك دعا المؤرخون الدور الاخير من الحكم العربي في الاندلس بدور « ملوك الطوائف » .

الفصل الخامس

دور ملوك الطوائف

٤٢٢—٨٩٧ ﻫ او ١٠٣١—١٤٩٢ م

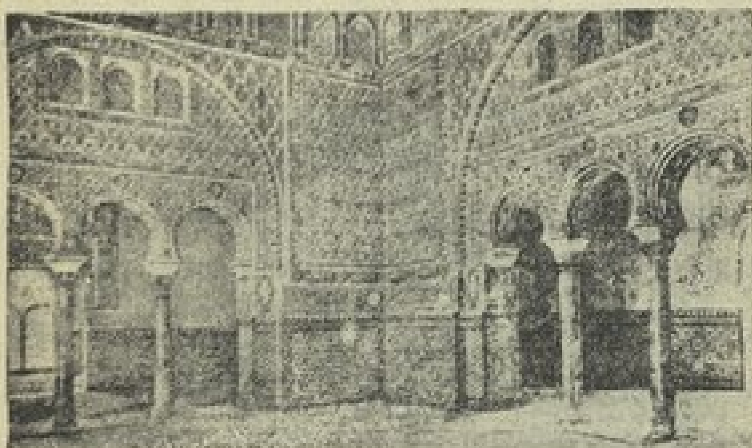
ذهبت الخلافة الاموية في الاندلس ضحية لغطرسة الحرس الخليفي وبغيه، ضحية الصقالبة الغرباء الذين ادخلهم الخلفاء الامويون ليستعينوا بهم ويتنصروا بهم فكانوا وبالاً عليهم وخراباً على دولتهم، ذهبت الاندلس صريعة منازعات البيت الاموي، وعصبية العرب القبلية، واطماع الولاة، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للاسرة الحاكمة، فمن كان ذا بأس ووجاهة كان يجنح الى استخدام قواه لا في



ساحة الاسود في غرناطة وهي احدى ساحات قصر الحمراء بالاندلس

سبيل الدولة ، وانما لتحقيق مجده الشخصي وانانيته .

هذه الاحزاب التي تقاسمت اشلاء الدولة وقادتها الى الدمار لم تمت بذهاب الدولة الأموية، وانما كان ذهابها في الواقع بدء النضال فيما بينها ، وانقسمت الدولة الاسلامية في الاندلس باديء ذي بدء الى دويلات عديدة ، حتى كان لكل مدينة تقريباً اميرها المستقل ، متخذاً لقب امير المؤمنين او الأمير او الوالي او القاضي تبعاً لحجم المدينة او المنطقة التي يحكمها . فقام بنو حمود في مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو ذي النون في طليطلة ، وبنو هود في سرقسطة ،وبنو جهور في قرطبة ، وبنو عامر في بلنسية ، وبنو الاحمر في غرناطة ...



بهو السفراء في قصر اشبيلية

غير ان ماتبين ان هذه الدول لايمكن ان يطول امرها :

اولاً : لما كان يحيش به الجميع من الاطماع .

ثانيا : لتباين القوى والرئاسات .

ذلك ان الاقوى كان يحاول أن يبطش بالاضعف ، فيحاول الاضعف ان يدرء الخطر بالتحالف مع جار أقوى ، يغدو تابعاً له ويعاونه على احراز النصر على عدوهما المشترك او يهزم معه . وكانوا احياناً يلتجؤن الى نصارى الاسبان لمساعدتهم ضد منافسيهم من المسلمين. الا ان هذه المساعدة كلفتهم غالياً اذ انهم اضاعوا الفردوس المفقود ،بسبب استعانتهم بأعدائهم الاجانب وبسبب اختلافاتهم الداخلية وأنانيتهم الشخصية، وأخرجوا من تلك البلاد على أسوء حال ، بعد ان خلفوا وراءهم حضارة زاهرة لاتزال بقاياها تشهد بما كان لهم من ايدي بيضاء على بلاد اسبانيا خاصة وعلى نهضة اوربا بصورة عامة .

محتويات الكتاب

القسم الاول

القسم الثاني

القسم الثالث

القسم الرابع

القسم الخامس

القسم الاخير